الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

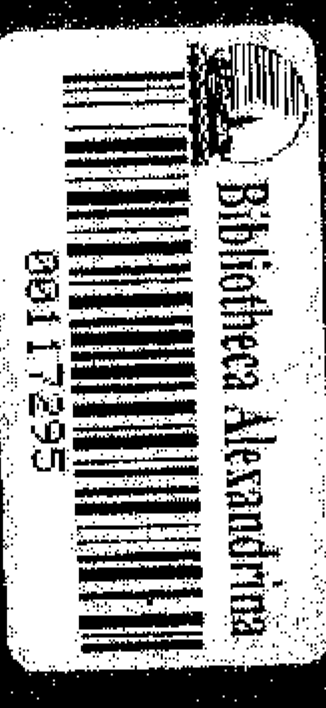
جولات تاريخية

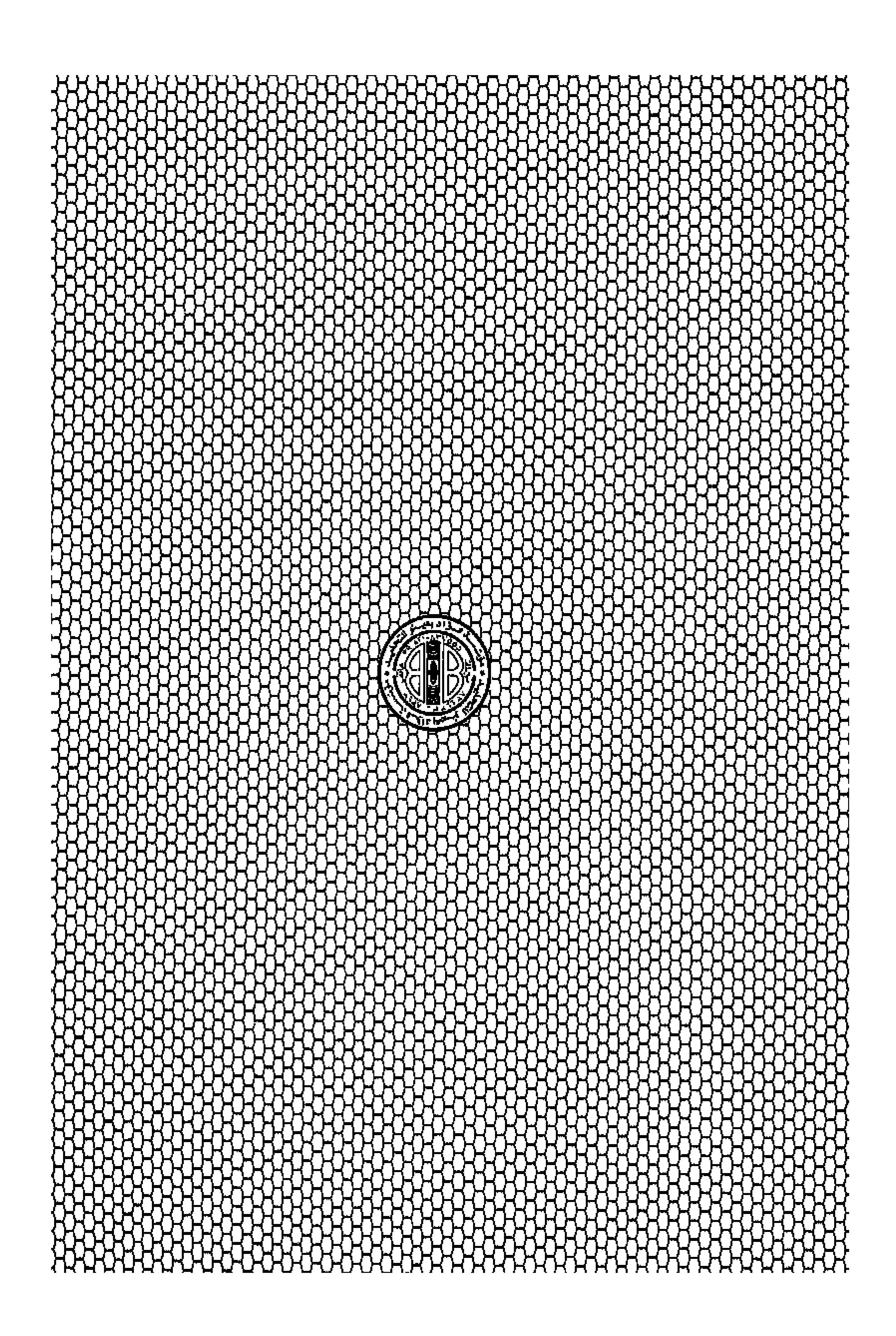


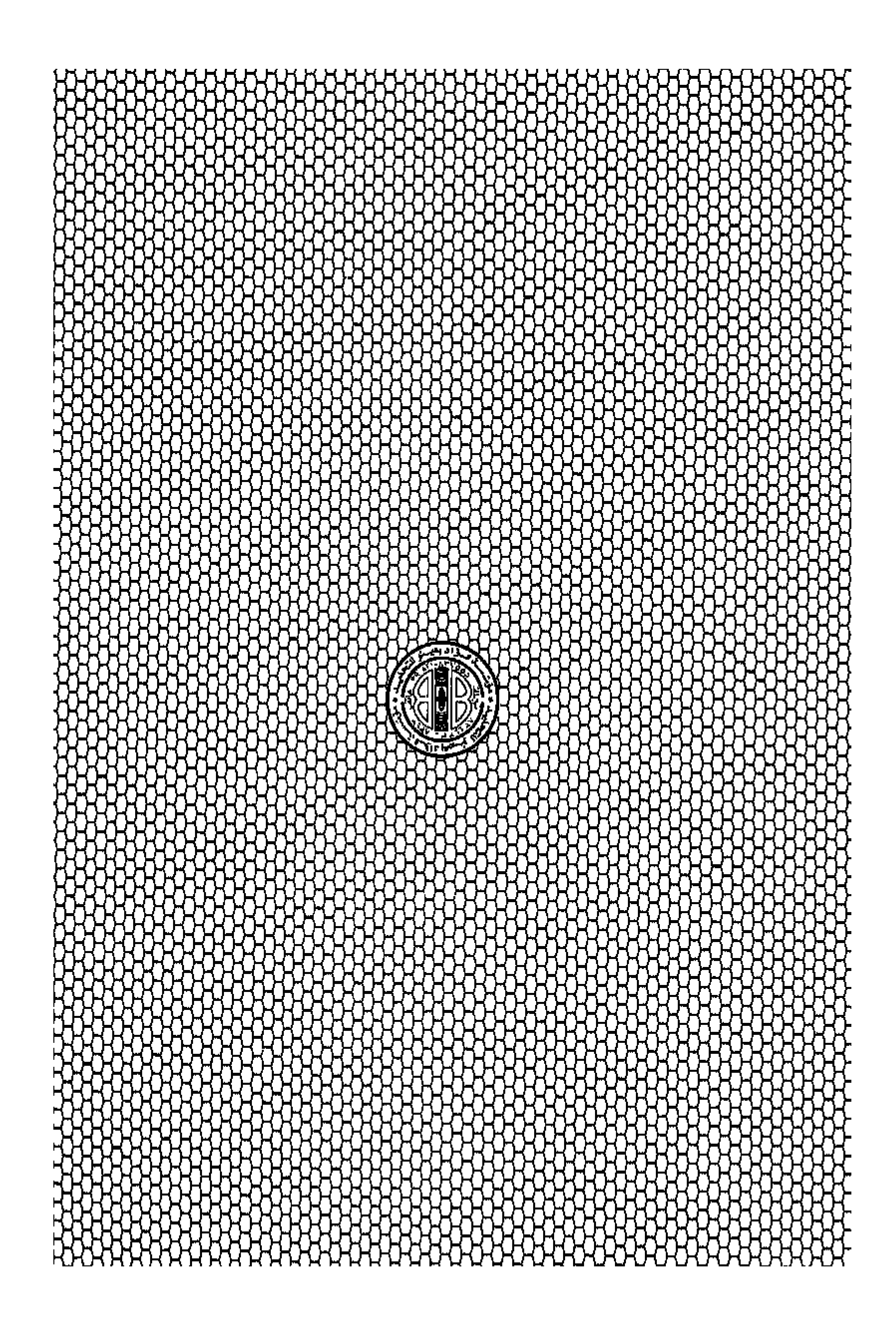
محمد حجي

أستاذ التاريخ بجامعة محمد الخامس سابقا









جَولاتٌ تاريخيّة

①

الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

جولات تاريخية

1

محمد حجي

أستاذ التاريخ بجامعة محمد الخامس سابقا

دار الغرب الإسلامي

بيروت

© 1995 دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي
ص . ب . 5787-113 بيروت

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يشارك المرء بحكم عمله الجامعي في عدد من الندوات واللقاءات العلمية بعروض في موضوعات شتى، ويُدعَى لتحرير بحوث أو مقالات لأغراض مختلفة وكنت لا أحتفظ بنسخ مما أكتب بله أن أرتبها أو أسطرها في مسرد إلا ما بقي بكيفية عفوية من مكررات مرقونة أو مسودات سلمت من عاديات التلف أو الإتلاف.

استيقظت بعد طول غفلة من «نومة الشباب» فإذا السنون مرت مر السحاب، ومعالم الطريق وراء تتضاءل أو تمَّحي، والأعمال ـ على بساطتها ـ تراكمت وتداخلت بحيث لم يعد من السهل استذكار مواطنها أو التعرف على مراجعها. صح العزم حينئذ على القيام بعمل طالما ندبني إليه صديقي الحميم الأستاذ حبيب اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي في بيروت ـ شكر الله له نصحه وعمله ـ ألا وهو التنقيب في الملفات والدوريات عما يمكن العثور عليه من كتاباتي القديمة.

انتقيت من الحصيلة الأولى مادة جولات تاريخية، وهي متنوعة تتناول جوانب سياسية واجتماعية وثقافية وعمرانية وبشرية من تاريخ المغرب عبر العصور وما يتصل به من بلاد الأندلس وغيرها، متباعدة يمتد تاريخ تحريرها من بداية الستينات إلى أيامنا هذه. وقد أعدت قراءة هذه النصوص وحذفت منها أو أضفت إليها ما رأيته ضرورياً ملائماً ورتبتها في ثمانية فصول ليحصل بينها شيء من التجانس، وذكرت في الهامش ـ متى أمكن ـ مراجع ما نشر منها.

إذا كان نشر مادة هذا الكتاب يحقق رغبة فطرية في الحفاظ على المكاسب بما فيها من غث وسمين، فإن الأمل وطيد أن ينتفع به الطلبة الباحثون وعموم القراء المولعون بالاطلاع على تاريخ بلادهم.

سلا ـ في 18 رمضان عام 1414/ فاتح مارس 1994

محمد حجي

* * *

(1)

مصادر تاريخية

- مصادر عربية لتاريخ المغرب والأندلس في القرنين التاسع والعاشر (15ـ 16م)
- المجتمع الأندلسي من خلال كتب النوازل
- مناهل الصفا/ عبد العزيز الفشتالي
- المنتقى المقصور/ أحمد بن القاضي
- كتب التراجم والفهارس والكناشات كمصادر لتاريخ إفريقيا فيما وراء الصحراء.
- نص صحراوي جديد يتحدث عن العلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17 ـ 18 م)
- دراسات المستشرق الفريد بيل المتعلقة بالمغرب
- صفحات مغربية / نقولا زيادة
- وثيقة جديدة حول زيارة امبراطور ألمانيا لطنجة.
- ذكريات ومذكرات / الحاج أحمد معنينو.
- مذكراتي في الحركة الوطنية / أبو بكر القادري.

مصادر عربية لتاريخ المغرب والأندلس في القرنين التاسع والعاشر (15 ـ 16 م)(*)

عاش المغرب الأقصى ـ كالأندلس ـ طوال القرن التاسع (15 م) حالة ضعف واضطراب، إذ لم يكن من بين الملوك الأربعة عشر الذين تعاقبوا على العرش بعد مقتل أبي عنان من يستطيع رأب الصدع أو الإمساك بزمام الأمور، إلى أن تولى الملك عبد الحق بن أبي سعيد، وهو لا يزال طفلاً صغيراً، فانتقلت السلطة الفعلية إلى الوزراء من بني وطاس. وعندما بلغ عبد الحق أشده وقضى على وزرائه الوطاسيين كان ذلك بداية النهاية لدولة بني مرين إذ قتل عبد الحق بدوره بعد بضع سنوات، ثم لم يكن حظ محمد الشيخ وخلفائه الوطاسيين من بعده في فاس بأحسن من حظ المتأخرين من بني مرين، وعانت البلاد في العهد الوطاسي من التفكك والوهن ما عانته في العهد السابق أو أشد. وهكذا لم ينته القرن الخامس عشر حتى انتهت دولة الإسلام بالأندلس، وتفاقمت الانقسامات والاضطرابات بالمغرب، وتوالى سقوط ثغوره بيد المسيحيين.

ومع مطلع القرن العاشر (16 م) ظهر عنصران جديدان:

ـ وصول الأتراك إلى شمال إفريقيا وتقدمهم إلى تخوم الحدود الشرقية للمغرب الأقصى.

ـ وظهور حركة صوفية ـ سياسية بالجنوب، تطورت إلى قوة عسكرية جهادية بقيادة محمد بن عبد الرحمن الزيداني جد الشرفاء السعديين.

(*) ألقي هذا البحث «في ندوة العلاقات بين شبه الجزيرة الإيبرية والمغرب خلال القرنين 13 و14 م» التي أقامها المجلس الأعلى للبحث العلمي بمدريد يومي 17 و18 دجنبر 1987، ونشر ضمن أعمال الندوة من قبل المجلس الثقافي الإسباني العربي بمدريد سنة 1988.

ومن المفارقات العجيبة أنه بقدر ما كان الوطاسيون في الشمال يتخاذلون أمام الأتراك بقبول الخضوع المعنوي للخليفة العثماني وينهزمون أمام المسيحيين في أصيلا وغيرها، كان المجاهدون في الجنوب يحرزون على انتصارات متوالية، فيطردون البرتغاليين من سواحل سوس وخاصة من فونتي بالقرب من أكادير الحالية، ثم يضيقون الخناق عليهم وعلى حلفائهم من رؤساء القبائل العملاء إلى أن تم تحرير أسفي وما يليها من بلاد حاحة وعبدة. وقضوا على الهنتاتيين المستدين بمراكش وعلى غيرهم من الرؤساء المحليين، وبذلك تمت لهم السيطرة على جنوب المغرب كله قبل أن تكون لهم مواجهات عسكرية ضارية مع الوطاسيين وحلفائهم الأتراك، على ضفاف نهر أم الربيع وفي فاس، وتلمسان إلى وادي التافقة. وقد أسفرت هذه السلسلة الطويلة من المعارك على قيام دولة فتية بالمغرب هي دولة السعديين الذين استعادوا للبلاد الوحدة المفتقدة منذ أزيد من قرن ـ ولو أنه بقيت بعض الجيوب محتلة من طرف المسيحيين في الشمال والشمال الغربي ـ وأعطوا المغرب الأقصى الهيكل الذي سيظل عليه تقريباً حتى اليوم.

وإذا كان السعديون فتحوا أبواب المغرب على مصاريعها لمسلمي الأندلس المغلوبين على أمرهم، وأغدقوا على المهاجرين منهم ضروب الإكرام والإنعام، من إقطاع الأراضي الزراعية، وإمداد بالأموال واستخدامهم في الإدارة المدنية وفي الجيش النظامي. فقد كانت للسعديين تجاه الدولتين المسيحيتين بشبه الجزيرة الإيبيريّة سياستان مختلفتان: شبه مهادنة ومعايشة لا تخلو من حذر وكراهية مع مملكة إسبانيا، وعداء سافر ومواجهة مسلحة مع مملكة البرتغال لن تنتهي إلا بمعركة الملوك الثلاثة.

إن المصادر العربية المتعلقة بتاريخ المغرب والأندلس في القرنين التاسع والعاشر (15 ـ 16 م) كثيرة وتتناول عرضاً أحداثاً سابقة، وبخاصة في القرنين السابع والثامن (13 ـ14 م) وستقتصر هذه المداخلة على ذكر بعض ما كتبه مغاربة أو أندلسيون خلال هذين القرنين، واشتمل على جوانب من تاريخ المغرب الأقصى أو سجل باقتضاب أو بتفصيل العلاقات بين العدوتين وأخبار المهاجرين الأندلسيين وظروف عيشهم في المغرب.

ومن المعلوم أن هذه المادة البيبليوغرافية المتطورة بما يجد فيها من اكتشاف وثائق أو مخطوطات من حين لآخر أو بما ينشر من بحوث، كان من أول روادها المعاصرين الأستاذ المرحوم عبد السلام بن سودة مؤلف كتاب دليل مؤرخ المغرب الأقصى الذي نشر لأول مرة في تطوان سنة 1369/ 1950 ثم جددت مادته وطبع بالدار البيضاء سنة 1960. وبعد ذلك وسع الأستاذ محمد المنوني هذه المصادر وأضاف إليها أخرى شرقية وطبع القسم الأول منها سنة 1983. ويقدم هذا العرض اليوم نبذة من البيبليوغرافيا المغربية ـ الأندلسية مع ما جد فيها حتى الآن مرتبة في ستة أصناف.

وقبل التعرض بشيء من التفصيل إلى هذه الأصناف الستة، أود أن أخص بالذكر ثلاثة من المؤلفين المكثرين، تناولت كتبهم جوانب مختلفة من تاريخ المغرب والأندلس وهم:

* ـ إسماعيل بن الأحمر الغرناطي الفاسي، المتوفى عام 808/1405. وهو وإن غلب على كتابته الطابع الأدبي بحكم كونه أديباً شاعراً، فإن لمؤلفاته قيمة تاريخية خاصة، منها:

ـ نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان.

ـ نثير فوائد الجمان في نظم فحول الزمان.

وهما كتابان يكاد يتفق مضمونهما في تناول تراجم وآثار شعراء مغاربة وأندلسيين عاصروا ابن الأحمر، إلا أن الكتاب الأول موسع يتحدث عن نيف وسبعين من الأدباء، بينما لا يتعدى المترجمون في الثاني ثلاثين من بينهم بعض المشارقة. وقد طبع الكتابان في بيروت سنة 1967.

ـ مستودع العلامة، ومستبدع العلامة: ترجم فيه بإيجاز لنحو سبعين من كتاب الدواوين المكلفين بالتوقيعات السلطانية، معظمهم من الأندلس والمغرب، طبع في تطوان سنة 1964.

ـ النفحة النسرينية، واللمحة المرينية، أرجوزة.

ـ حديقة النسرين في أخبار بني مرين، في تراجم أعلام العصر المريني.

ـ روضة النسرين في دولة بني مرين.

وهذه الكتب الثلاثة المتقاربة العناوين، متحدة الموضوع تقريباً، وقد تكررت طبعات روضة النسرين، آخرها بالرباط سنة 1952، وكان قد ترجم قسم منه إلى الفرنسية ونشر سنة 1917.

ـ تأليف في أعيان مدينة فاس وأهلها: ينسب لابن الأحمر، ويظن أنه أصل اختصار بيوتات فاس لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي المطبوع على الحجر. ونشر التأليف المنسوب لابن الأحمر في مجلة البحث العلمي سنة 1965 ثم أعيد طبعه بدار المنصور بالرباط سنة 1972.

* ـ وأحمد بن القاضي الفاسي، المتوفى عام 1616/1025. الفقيه الرياضي الأديب الذي ألف في التاريخ والتراجم عدة كتب، منها:

ـ درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك، أرجوزة.

ـ الدر الحلوك المشرق بدرة السلوك، شرح للأرجوزة السابقة وهما في تاريخ الملوك، وما يزالان مخطوطين.

ـ درة الحجال في أسماء الرجال، وهو ذيل لوفيات الأعيان لابن خلكان، عام 999 / 1591 ألفه وقد طبع مرتين، في الرباط ثم في القاهرة. والطبعتان معاً مشوهتان.

ـ جذوة الاقتباس، فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، يحتوي على عدد من تراجم المغاربة والأندلسيين الذي عاشوا في فاس أو دخلوها خلال القرنين التاسع والعاشر (15 و16 م) والقرون السابقة وقد طبعت الجذوة بفاس، ثم طبعت بالرباط.

ـ لقط الفرائد من حقق الفوائد، وهو ذيل لوفيات ابن قنفذ، وطبع معها بالرباط سنة 1976 ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، وفي هذا الكتاب أيضاً تراجم كثيرة لأعلام المغرب والأندلس في القرنين المذكورين.

ـ المنتقى المقصور على محاسن الخليفة المنصور، وقد حقق من طرف الأستاذ محمد رزوق وطبع بالرباط في جزءين سنة 1986.

- **رائد الفلاح بعوالي الأسانيد الصحاح**. وهو فهرس كتبه ابن القاضي عام 1601/1010 مجيزاً به الأمر زيدان بن أحمد المنصور، ويشتمل على إشارات تاريخية فريدة، ولا تعرف منه اليوم إلا مخطوطة واحدة بخزانة الأكاديمية التاريخية بمدريد بخط المؤلف.

* - أحمد المقري التلمساني الذي عاش بفاس سبع عشرة سنة، ثم انتقل إلى المشرق ومات بمصر سنة 1632/1041. إن كتبه المشهورة ولو أنها اهتمت بتاريخ الأندلس عموماً، وابن الخطيب والقاضي عياض خصوصاً، احتوت على أحداث تاريخية تهم المغرب الأقصى والأندلس في القرنين موضوع هذا العرض والقرون السابقة كذلك مثل:

- **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس**. سجل فيها مشاهداته بالمغرب عام 1601/1010، وقد طبعت بالرباط سنة 1964.

- **أزهار الرياض في أخبار عياض**، استطرد فيه كثيراً من أخبار الأندلس والمغرب في القرنين المذكورين، وأثبت فيه نص الرسالة التي بعث بها آخر ملوك غرناطة إلى محمد الشيخ الوطاسي. وقد طبعت 3 أجزاء من هذا الكتاب بمصر سنة 1939، ثم أعيد طبعه تاماً بالمغرب في خمسة أجزاء بتحقيق الأساتذة أعراب وابن تاويت والهراس.

- **نفح الطيب**.... وفي هذه الموسوعة التي طبعت مراراً، معلومات فريدة عن العلاقات بين العدوتين في القرنين المذكورين. وانفرد - من بين سائر المصادر العربية المعاصرة - بخبر الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى المغرب، على إثر قرار الطرد من طرف فيليب الثالث.

أما الأصناف الستة المشار إليها سالفاً فهي:

1 - وثائق:

فيها رسائل وظهائر وتقاييد وكنانيش، وهي قليلة بالنسبة لما هو محفوظ بخزائن أوربا. منها:

- رسائل سعدية حررها كتاب البلاط السعدي أمثال محمد بن عيسى

التملي، ومحمد الفشتالي، وعبد العزيز الفشتالي، وعبد الواحد الحسني السجلماسي. في موضوعات مختلفة سياسية وفكرية وتنظيمية. وهي موجهة إلى الخلفاء العثمانيين بالقسطنطينية والملوك المسيحيين بإسبانيا وانجلترا. وإلى دايات الجزائر أو علماء المشرق العربي، وضمنها ظهائر بتعيين ولاة أو إعفاء من الكُلف المخزنية وإسدال رداء التوقير والاحترام على بعض الشيوخ والأسر النبيلة، وقد نشر عبد الله كنون اثنتين وستين من هذه الرسائل والظهائر محققة باسم: **رسائل سعدية**، وذلك في تطوان سنة 1954. واكتشفت بعد ذلك ثلاث مجموعات أخرى من الرسائل والظهائر السعدية، وهي مخطوطة في الخزانة العامة والخزانة الحسنية بالرباط، تشتمل كذلك على رسائل متبادلة بين المتأخرين من الملوك السعديين وبين بعض الحكام المستبدين ببعض المناطق، أو بين هؤلاء الحكام بعضهم بعضاً.

- **ديوان قبائل سوس**، أحصى فيه أحد جباة المنصور القبائل السوسية مبيناً عدد أفرادها مستعملاً «الكوانين والسروج» كوحدات في عملية الإحصاء. ويعتبر من الوثائق الفريدة في ذلك العصر. وقد نشر نصه العربي وترجمه إلى اللغة الفرنسية الكولونيل جوستينار، ثم حققته الأستاذة حليمة كرعي كملحق لرسالتها الجامعية بكلية الآداب بالرباط سنة 1984.

- **داء العطب قديم**. مخطوط وقع العثور عليه في أوائل هذه السنة بالخزانة الحسنية بالرباط، وهو عبارة عن كناشة للسلطان مولاي حفيظ يسجل فيها تأملاته حول تقلبات الأوضاع في المغرب خاصة منذ عهد السعديين، ويأتي بعدد من رسائلهم التي لم يعرف بعضها من قبل.

-**حوالات الأوقاف**. كنانيش أصلية يسجل فيها النظار المتصرفون في أملاك الأوقاف أو العدول الذين يحررون صكوكاً بمداخيل الأملاك الوقفية ومصاريفها، ويذكرون أثناء ذلك خطط المدن وأسر الصناع والتجار من مغاربة وأندلسيين ومبالغ كراء الحوانيت والدور والأرحية والأفران والبساتين وغيرها. وما يصرف للأئمة والخطباء والمدرسين والطلبة، ثم يعقب القضاة على ذلك بعبارة التصحيح والإعلام بالصحة ويوقعون بعلاماتهم المشتبكة. وبذلك فإن

الحوالات تعتبر من أصح وأهم الوثائق الأصيلة المفيدة في التعريف بالحياة الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية وغيرها.

وإذا كانت هذه الحوالات موزعة على مختلف المساجد والزوايا بالمغرب فإن قسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط حصل على مجموعة من مصورات هذه الحوالات. وأهمها بالنسبة للفترة التي نتحدث عنها حوالات فاس، وتارودانت. وللأسف لم تستغل هذه الحوالات إلا قليلاً جداً في الدراسات الحديثة.

2 ـ كتب التاريخ:

وهي متنوعة تعنى على العموم بتاريخ الأسر الحاكمة أو المدن وخططها وسكانها، منها:

ـ **بلغة الأمنية ومقصد اللبيب، فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب**، لمؤلف مجهول كتبه عام 820/1417. يترجم لعدد من علماء سبتة منهم امرأة طبيبة. وقد نشره الأستاذ محمد بن تاويت بمجلة تطوان سنة 1964.

ـ **اختصار الأخبار، عما كان بثغر سبتة من سني الآثار**، لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي. أنهى كتابته عام 825/1421. تحدث فيه عن خطط سبتة ومؤسساتها الدينية والعلمية والاقتصادية وختم بذكر قرية بليونش المتصلة بسبتة ذات العيون الغزيرة، والحدائق الغناء.

ـ **نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**، لمؤلف مجهول أنهى كتابتها عام 947/1540. نشر مع ترجمة المانية أواسط القرن الماضي بمونيخ، ثم أعيد طبعه بالعرائش سنة 1940.

ـ **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، لمحمد بن غازي المكناسي المتوفى عام 919/1513 طبع أكثر من مرة، آخرها بالرباط سنة 1964.

ـ **الجمان في أخبار الزمان**، لمحمد بن علي الحاج الشطيبي الأندلسي، المتوفى بتازغدرة من بلاد بني زروال سنة 963/1555. وهو من التواريخ

العامة. ومن الجدير بالذكر أن الحاج الشطيبي كان عالماً مشاركاً ألف نبذة فلكية لطالب الاختبارات النجومية، وهو مخطوط بتونس. كما ألف رسالة في صنعة الفلاحة اعتمد فيها على ما تقرّرَ في كتب علماء الفلاحة الأندلسيين أمثال ابن بصال وابن وافد وابن ليون التجيبي، كما اعتمد على تجاربه الشخصية مبيناً ما يلائم طبيعة البلاد المغربية بصفة خاصة. وقد اشتهر الشطيبي بمباشرة أعمال الفلاحة إلى جانب قيامه بالتدريس. وآثار الشطيبي ما تزال كلها مخطوطة في الخزانات العامة والخاصة بالمغرب.

ـ عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل، أرجوزة في 412 بيتاً لمحمد الكراسي التطواني المتوفى عام 1555/964. يذكر فيها أخبار الوطاسيين منذ البداية إلى ما قبل نهاية دولتهم بعشر سنوات. وقد طبعت بالرباط سنة 1963.

مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا، لعبد العزيز الفشتالي المتوفى عام 1621/1031. ابتدأ تأليفه في العقد الأخير من القرن العاشر (16 م)، ولا يعرف تاريخ انتهائه ولا أنه تمّ. وقد اطلع أحمد المقري على ثماني مجلدات منه، ولا يعرف منه اليوم إلا جزء واحد يتحدث عن عشرين سنة من عهد أحمد المنصور 1578/986 ـ 1597/1006. نشره الأستاذ عبد الله كنون بتطوان سنة 1964، ثم أعيد طبعه بالرباط ببعض إضافات لكن بتصرف غير لائق في النص سنة 1973. ويغلب على الظن أن الأجزاء الأخرى من المناهل ما زالت موجودة ومن الممكن العثور عليها استقبالاً.

3 ـ في التراجم:

تعتبر مؤلفات ابن الاحمر وابن القاضي والمقري المشار إليها أعلاه أهم ما كُتب في تراجم علماء وأدباء وملوك المغرب والأندلس في القرني التاسع والعاشر (15 و 16 م) ويضاف إليها.

ـ وفيات أحمد الونشريسي مؤلف المعيار، المتوفى عام 1508/914، وهي عبارة عن تراجم مقتضبة لمغاربة وأندلسيين على غرار لقط الفرائد السابق

الذكر. وقد نشرته ضمن كتاب **ألف سنة من الوفيات**، بالرباط سنة 1976.

ـ **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، لمحمد بن عسكر الشفشاوني المتوفى في معركة الملوك الثلاثة عام 1578/986. ترجم فيه لأعلام المغرب عموماً، وشماله خصوصاً، ومن بينهم عدد من الأندلسيين. وامتاز بذكر بعض الظواهر الدينية ـ الاجتماعية لمهاجري الأندلس، كالطائفة الأندلسية وشيخها محمد الأندلسي الذي شغل عامة الناس وخاصتم في مراكش وغيرها مدة غير قصيرة من الزمن.

ـ **تحفة الإخوان في مناقب سيدي رضوان**، لأحمد بن موسى المرابي الأندلسي المتوفي بفاس عام 1624/1034، وهو كتاب ضخم في جزءين ألفه المرابي بعد وفاة شيخه رضوان الجنوي عام 1583/991 الذي كان والده مسيحياً من جنوة، وأمه يهودية. وقد تضلع رضوان في العلوم اللغوية والشرعية حتى عد شيخ المحدثين بفاس، كما عد من كبار الزهاد المتصوفة. ويحرص المرابي في **تحفة الإخوان** على ذكر سيرة الشيخ الجنوي وآثاره الشعرية بصفة خاصة. وتعرف اليوم من هذا الكتاب نسخة مخطوطة ملفقة في الخزانة العامة وخزانة كلية الآداب بالرباط.

ـ **المعزى في أخبار الشيخ أبي يعزى**، لأحمد بن قاسم الصومعي المتوفى عام 1604/1013. هذا الكتاب وإن كان مخصصاً لترجمة أبي يعزى من رجال القرن السادس (12 م) فإنه يستطرد كثيراً من الأحداث التاريخية المفيدة المتعلقة بالقرون التالية (13 ـ 16 م). وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة بالمغرب.

ـ **المعرب الفصيح عن سيرة الشيخ الرضى النجيح**، أرجوزة في 1.373 بيت، ترجم فيها محمد بن عبد الله الهبطي المتوفي عام 1593/1001 لوالده الشيخ عبد الله الهبطي، المصلح الاجتماعي الشهير ناظم الألفية في انتقاد عادات مجتمع الريف وسلوكه. والأرجوزة تتعرض إلى ذكر أساتذة المترجم وتلاميذه، وفيهم بعض المهاجرين الأندلسيين، وهو مخطوط بخزانة القرويين بفاس.

4 ـ فهارس:

تُعنى الفهارس أساساً بذكر الشيوخ وشيوخهم إلى مؤلفي الكتب المدروسة في الحديث وغيره من العلوم الشرعية والأدبية وغيرها. وبذلك تلقي أضواء كاشفة على الحركة الفكرية والعلاقات الثقافية بين مختلف الأقطار. وقد أكثر الأندلسيون والمغاربة من كتابة هذه الفهارس، أو البرامج والأثبات كما تدعى في الأندلس، وسنجتزىء بذكر أشهرها في هذا العصر:

ـ **برنامج المنتوري محمد بن عبد الملك الغرناطي المتوفى عام 1431/834**. وهو من الفهارس الموسعة، مشتمل على عدد من علماء العدوتين ومؤلفاتهم. مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، ويقوم أحد طلبة دار الحديث الحسنية بالرباط بتحقيقه.

ـ **ثبت الوادي آشي أبي جعفر أحمد بن علي البلوي**. كتبه حوالي عام 1489/896 عقب خروجه من الأندلس قاصداً الحج مع والده وأفراد أسرته. يذكر هذا الثبت آخر علماء الأندلس قبيل سقوط غرناطة، خاصة العاصمة والمرية والمنكب. وشيوخ المغرب الأقصى والأوسط، لا سيما ابن مرزوق الكفيف التلمساني، وعبد الجبار الفكيكي، ومحمد ابن غازي المكناسي الفاسي. الكتاب باختصار وثيقة علمية نفيسة عن المغرب والأندلس في نهاية القرن التاسع (15 م). وقد حظي بدراسة وافية ـ كأطروحة دكتوراه ـ من قبل الأستاذ عبد الله العمراني التطواني. وطبع في بيروت سنة 1983.

ـ **التعلّل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد**، كتبه محمد بن غازي المتقدم الذكر إجازة لأبي جعفر الواداياشي المذكور قبل هذا، ثم وضع ابن غازي لفهرسه هذا ذيلاً. وهما يعتبران أساس كل الفهارس المغربية لهذا العصر وما يليه، لما كان لابن غازي من اتساع في الرواية من جهة، ولكثرة تلامذته ـ ومنهم أندلسيون ـ وانتشارهم في أنحاء المغرب من جهة ثانية، وقد طبع هذا الفهرس بالدار البيضاء سنة 1979 بتحقيق لأستاذ الباهي التونسي.

ـ **فهرس عبد الرحمن سقين السفياني**، المتوفى عام 1549/956. كانت

له رحلات علمية طويلة إلى المشرق لطلب العلم، وإلى السودان للتدريس، وبذلك اتسعت رواياته وعظمت خبرته وثروته، وانعكس كل ذلك في هذا الفهرس الذي ما يزال مخطوطاً بفاس.

ـ فهرس عبد الوهاب الزقاق الفاسي.

ـ فهرس الحسن بن حرزوز المكناسي.

يجمع بين مؤلفي هذين الفهرسين أنهما كانا فقيهين مفتيين. خطيبين مناصرين للوطاسيين ملوك فاس مناهضين إلى حد التعصب للدولة السعدية الناشئة، لذلك كان مصيرهما معاً القتل على يد محمد المهدي الشيخ السعدي حين دخل فاساً وتمّ له الأمر عام 1554/961. والفهرسان مفيدان في مقارنة الدراسة بالمدينتين المتجاورتين فاس ومكناس في النصف الأول من القرن العاشر (16 م). وهما مخطوطان في مجموع واحد بالخزانة الحسنية بالرباط.

ـ فهرس ابن خروف، محمد بن أبي الفضل التونسي المتوفي بفاس عام 58/966 ـ 1559. وربما عد بعض الناس هذا الفهرس رحلة لأنه يذكر فيه خروجه من تونس وأسره من طرف الإسبانيين، وانتقاله إلى فاس بعد أن افتداه ملكها أحمد الوطاسي بمال عظيم. هذا الفهرس وإن ضاع بعضه ـ أو لم يعثر عليه لحد الآن ـ فإن ما بقي منه مخطوطاً بالخزانة العامة بالرباط يفيد في التعريف بالأوضاع الثقافية والسياسية بشمال إفريقيا وعلاقته بإسبانيا.

ـ فهرس أحمد المنجور المكناسي الفاسي المتوفى عام 1587/995 كتبه بمراكش عام 1591/989 كإجازة لتلميذه ملك العلماء وعالم الملوك أحمد المنصور الذهبي. ويوجد من هذا الفهرس نسختان مختصرة ومطولة. ولعل المختصرة هي الأصل الذي كتبه المنجور من حفظه واستذكره بمراكش بعيداً عن مراجعه، ثم وسعه بعدما رجع إلى فاس. وهو من أمتع فهارس هذا العصر بما احتوى عليه من معلومات كثيرة عن مظاهر الحركة الثقافية بفاس، وحياة العلماء المهاجرين إليها من الأندلس وأقطار إفريقيا الشمالية الأخرى، وقد حققتُ هذا الفهرس عن نسخة مطولة يظن أنها بخط المؤلف ونشرته بالرباط سنة 1976.

ـ الإلمام ببعض من لقيت من علماء الإسلام لعبد الواحد الحسني السجلماسي المتوفي عام 1003/1595، كاتب السعديين ومفتي حاضرتهم. ألف هذا الفهرس بمراكش عام 982/1575 مبيناً فيه دراسته بدرعة وفاس وبذلك يؤرخ للحياة الثقافية في البداية بكيفية موثقة وشيقة. وهو ما يزال مخطوطاً في ملك خاص بالرباط.

5 ـ رحلات:

الرحلات المكتوبة من طرف الأندلسيين والمغاربة في القرنين التاسع والعاشر (15 و16 م) قليلة وهي متنوعة في مادتها، إذ تهتم بالأماكن والمشاهدات إلى جانب الانطباعات والاستطرادات. منها:

ـ تمهيد الطالب، ومنتهى الراغب، إلى أعلى المنازل والمناقب، لعلي بن محمد القلصادي البسطي الغرناطي، المتوفى بتونس عام 891/1486 وهو من شيوخ أبي جعفر البلوي صاحب الثبت المتقدم، خرج مثله من غرناطة قبيل سقوطها إلى الشرق، حيث حج وتنقل في أقطار إسلامية كثيرة، وسجل ذلك في رحلته هذه وقد نشرت في تونس سنة 1978 بتحقيق الأستاذ محمد أبو الأجفان.

ـ النفحة المسكية في السفارة التركية، لعلي بن محمد التامكروتي المتوفى عام 1003/94 ـ 1595. كتبها أواخر عام 999/1591 بعدما رجع إلى مسقط رأسه بدرعة وكان قد تغيب عنها خمسة وعشرين شهراً قام أثناءها برحلة سفارية عن مخدومه أحمد المنصور الذهبي إلى الخليفة العثماني مراد الثالث بالقسطنطينية، وسجل أخبار هذه الرحلة الطويلة وما يتعلق بالعلاقات المغربية ـ العثمانية في النفحة المسكية التي طبعت مصورة عن مخطوطة قديمة بباريز دون تاريخ.

ـ رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب، لأحمد الحجري الغرناطي الشهير بأفوقاي. المتوفى بعد عام 1051/1641. خرج أفوقاي من إشبيلية متنكراً عام 1007/1598 ونزل بالبريجة المحتلة، ومنها فرَّ إلى مراكش حيث بقي يشتغل بالترجمة في بلاط السعديين زهاء أربعين سنة. وتعتبر رحلة الشهاب اليوم

مفقودة، ولم يبق إلا مختصرها الذي كتبه افوقاي بالقاهرة استجابة لطلب علي الأجهوري شيخ المالكية. ويسمى الاختصار ناصر الدين على القوم الكافرين، وهو من أفيد ما كتب في تاريخ الموريسكيين وعيشهم بشبه الجزيرة الإيبرية قبل الطرد وبعده. وقد اهتمت دراسات حديثة عديدة برحلة الشهاب ومختصرها. ونشر ناصر الدين أخيراً بالرباط سنة 1987 بعناية الأستاذ محمد رزوق.

6 ـ فتاوى وكتب مختلفة:

ـ **المعيار المعرب، والجامع المغرب، عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب،** لأحمد الونشريسي صاحب الوفيات المتقدم. يضم نوازل فقهية متصلة بالحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في الأندلس وشمال أفريقيا في القرون السابع والثامن والتاسع (13ـ 14 ـ 15 م) والتي قبلها. وبعض الفتاوي فيه مطولة شبه كتب مستقلة، مثل **أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر،** كتبها الونشريسي قبيل سقوط غرناطة عام 890/1485 وأثارت جدلاً فقهياً حاداً لمدة طويلة. وقد طبع المعيار على الحجر بفاس في القرن الماضي، ثم جدد طبعه محققاً في بيروت 1981 ـ 1985 في 13 جزءاً الجزء الأخير خاص بالفهارس.

ـ **جنة الرضى، في التسليم لما قدر الله وقضى،** لمحمد بن عاصم الغرناطي المتوفى عام 857/1453. مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط، وهو موضوع دراسة جامعية لإحدى الطالبات المغربيات بمدريد.

ـ **بدائع السلك، في طبائع الملك،** لمحمد بن الأزرق الغرناطي المتوفى عام 897/1492 سلك فيه طريقة ابن خلدون في التاريخ الاجتماعي. وقد نشر بتونس سنة 1977 في جزءين، بتحقيق الأستاذ محمد بن عبد الكريم.

ـ **كناشة،** لأحمد زروق الفاسي، المتوفى بمسراتة ليبيا عام 899/1494. وهي عبارة عن مذكرات شخصية عن نشأة المؤلف وتقلباته في مختلف أطوار الحياة. ومن ثم تقدم صورة مصغرة عن مجتمع القرن التاسع (15 م)، وخاصة

جانب التصوف المنتشر آنذاك في المغرب والأندلس، وقد نشـرت كناشة زروق في ليبيا محققة من طرف الأستاذ خشيم.

ـ تنبيـه الهمـم العـاليـة، لمحمـد بـن يَجَّبْـش التـازي المتـوفـي عـام 920/1514، يتحدث ـ نثراً وشعراً ـ عن أحوال المسلمين المتدهورة في المغرب والأندلس، ويذكر احتلال أصيلا من طرف البرتغاليين وما صحبها من مآسٍ، داعياً إلى الجهاد. وقد نشر هذا الكتاب بالدار البيضاء سنة 1976، ضمن دراسة بعنوان: أضواء على ابن يحبش التازي، لأبي بكر البوخصيبي

تلك نظرة سريعة على بعض المصادر العربية المعاصرة لتاريخ عدوتي المغرب والأندلس في القرنين التاسع والعاشر (15 و16 م) وما بلهما تبين مدى تنوع ما كتبه المغاربة والأندلسيون على بلادهم في مختلف الميادين الدينية والثقافية والسياسية والعمرانية، وتدل من جهة أخرى على أن عدداً غير قليل من هذه المصادر ما زال مخطوطاً لم ينشر، أو لم يستغل بعد في الدراسات الحديثة.

المجتمع الأندلسي
من خلال كتب النوازل(*)

دراسة المجتمع الأندلسي حديثة نسبياً، لم تظهر إلا في منتصف القرن التاسع عشر في إطار الاهتمام بإعادة كتابة تاريخ الأندلس من مختلف جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، اعتماداً على المصادر العربية الأصيلة. وكان للمستشرقين فضل السبق في هذا المضمار، ويعد المستشرق الهولاندي دوزي ـ بدون منازع ـ طليعة الباحثين المحدثين في المجتمع الأندلسي بكتابه **تاريخ المسلمين في أسبانيا** المنشور بالفرنسية سنة 1881 في ثلاثة أجزاء. وقد ساعده على ذلك اطلاعه على مجموعة مهمة من المصادر الأندلسية والمغربية فالكلّ يعلم أنه ناشر القسم الأول من **نفح الطيب** للمقري، والقسم الأندلسي من **الحلة السيراء** لابن الآبار، و**البيان المغرب** لابن عذاري، و**المعجب** لعبد الواحد المراكشي.

وسلك نفس السبيل في إسبانيا المستشرق الرائد فرانسيسكو كوديرا الذي أصدر هو ومجموعة تلاميذه عدداً وافراً من المصادر الأندلسية باسم المكتبة لأندلسية، بما فيها **تاريخ علماء الأندلس** لابن الفرضي، و**صلة الصلة** لابن بشكوال، و**بغية الملتمس** لأحمد الضبي، و**فهرست** ابن خير الأشبيلي وغيرها، وما زالت هذه المدرسة حتى اليوم ممثلة في عميد الاستشراق الإسباني كرسية كوميس.

كذلك كانت الدراسات الأندلسية تعتمد أساساً على كتب التاريخ والتراجم

(*) درس افتتاحي للسنة الجامعية 93 ـ 1994 ألقي على طلبة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية يوم 26 أكتوبر 1993.

والفهارس والدواوين الأدبية، ولا تعير اهتماماً لغيرها من المصادر التي هي إلى المجتمع أقرب وبه ألصق، أعني ما كتبه الفقهاء والقضاة والمفتون. وأول من تنبه إلى أهمية كتب الفقه والنوازل كمصدر أساسي لتاريخ الأندلس الاجتماعي والاقتصادي هما المستشرقان الإسبانيان لوبيث أورتيث LOPES ORTIS صاحب البحث القيم عن دخول المذهب المالكي إلى الأندلس، وسالڤادور ڤيلا SALVADOR VILLA الذي نشر فصول الزواج من كتاب المقنع للقاضي ابن مغيث الطليطلي.

وقد استفاد من هذه الدراسات المستشرق الفرنسي ليڤي بروفنسال، فراجع كتاب دوزي تاريخ المسلمين في أسبانيا وصوب بعض ما فيه من هفوات وأخرجه في طبعة منقحة سنة 1931، ونشر بدوره عدداً من النصوص الأندلسية والمغربية قبل أن يُعيد كتابة تاريخ الأندلس بطريقة اعتمدت أيضاً المصادر التي لم يطلع عليها سابقوه، فأخرج في بداية الخمسينات كتابه تاريخ أسبانيا الإسلامية، واستغل في الجزء الثالث منه نوازل ابن سهل الإشبيلي استغلالاً ذكياً ألقى أضواء كاشفة على جوانب من المجتمع الأندلسي لم يقع التعرف عليها من قبل.

أما الباحثون العرب في التاريخ الأندلسي، والاجتماعي منه بصفة خاصة، فقد نشطت دراساتهم بعد تأسيس المعهد المصري في أوائل الخمسينات: معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، وصدور صحيفته التي استقطبت أقلام أعلام هؤلاء الباحثين أمثال عبد العزيز الأهواني وجمال الدين الشيال ومحمود مكي. وقد نشر هذا الأخير في صحيفة المعهد نصين فقهيين قيمين من صنف النوازل هما: كتاب الجدار لعيسى بن دينار القرطبي، وكتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر. وقام بعد ذلك محمد عبد الوهاب خلاف سنة 1978 باستغلال نوازل ابن سهل في أطروحته للدكتوراة: قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري، فكان تعمقه فيها أكثر وظهر أثر ذلك في القسمين الثاني والثالث عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في حاضرة الأندلس.

هكذا بدأ يظهر أثر النوازل الفقهية في الدراسات التاريخية الأندلسية سواء عند العرب أو المستعربين.

فما هي إذاً كُتب النوازل؟ وما عدد ما خلّفه الأندلسيون منها؟ ما بقي منها وما عفّى عليه الزمان؟ وما هي السمات التي تتميز بها؟ وما هي الصعوبات التي على الباحث تذليلها لتخريج هذه النواز، أقرب ما تكون إلى الأصل وأشمل ما يُمكن لأجوبة المفتين؟ وما هي أهم الموضوعات الاجتماعية التي تعرضت لها كتب النوازل؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة باقتضاب وإيجاز حسبما يسمح به الوقت المحدد.

كتب النوازل، وتسمى أيضاً كتب الأحكام، والأسئلة، والأجوبة، والجوابات والمسائل، والفتاوى. هي عبارة عن مؤلفات فقهية حرر مادتها قضاة أو مفتون أو مشاورون (شرح شفوي للمشاورين) في موضوع أحداث واقعية رُفعت إليهم للبت فيها أو لبيان الحكم الشرعي فيها على مذهب مالك طبعاً، أو لإبداء رأيهم في صحة أو عدم صحة تطبيق النصوص الفقهية عليها من طرف قاضٍ أو مفتٍ آخر.

تبتدىء كل نازلة بسؤال يُختصر غالباً من طرف المفتي أو جامع الفتاوي، وقد يطول حين يترك بصيغته الأصلية على ما فيه أحياناً من ضعف لغوي وتركيبي فيكون أفيد لتصوير تفاصيل النازلة المتحدث عنها. تتوالى الفتاوى في بعض كتب النوازل بحسب صدورها عن الشيخ دونما ترتيب، وتُفرز في كتب أخرى بحسب الموضوعات التي تتحدث عنها من عبادات أو معاملات على ما هو متعارف عليه من أبواب كتب الفقه العامة. وقد يموت الشيخ دون أن يؤلّف فتاواه في كتاب فيقوم أحد تلاميذه بجمعها وترتيبها، وتسمى عادة مثل هذه الكتب بالنوازل أو الفتاوى المجموعة مع نسبتها دائماً إلى صاحبها.

وهناك فتاوى أخرى يموت صاحبها دون أن يدونها في كتاب، ولا يتصدى غيره ليجمعها فتبقى مبعثرة يحفظها تلاميذ الشيخ ومعاصروه، وتُروى عنه في الفهارس والبرامج بالسند وينقلها المؤلفون المتأخرون في كتبهم. وهذا النوع هو الغالب في النوازل الأندلسية لا سيما بالنسبة للفقهاء المتقدمين في عصر الخلافة الأموية الذين رووا عن الإمام مالك مباشرة في المدينة المنورة أو

أخذوا عن تلاميذه الكبار أئمة المذهب، أمثال القرطبيين يحيى بن يحيى الليثي، وزياد بن عبد الرحمن شبطون، والغازي بن قيس، وعبد الرحمن بن دينار وأخيه عيسى بن دينار وأبنائهم وحفدتهم الذين توارثوا الفقه والرياسة أجيالاً عديدة وكانوا ملء سمع الأندلس وبصرها، ومع ذلك لم تُدون فتاواهم في كتاب أو دُونت وضاعت، لكن بفضل الرواية والسند الذي يعنى به العلماء المسلمون ظلت آراء هؤلاء الفقهاء وفتاواهم محفوظة في أمهات المدونات الفقهية الأندلسية وغيرها. ويتعذر معرفة عدد هذه النوازل التي لم تجمع في كتاب لكثرتها. وهنا لا بد من الإشارة إلى أهمية كتاب المعيار لأحمد الونشريسي، فهو وإن كُتب في فاس بعد سنوات معدودات من نهاية دولة الإسلام بالأندلس، فإنه يعد أكبر موسوعة فقهية تحتفظ بقسط وافر من هذا الصنف من النوازل الأندلسية، ويُعد بذلك مرجعاً أساسياً لتاريخ المجتمع الأندلسي.

أما كتب النوازل الأندلسية المدونة التي ما زالت معروفة بأسمائها ووصلت إلينا كاملة أو ناقصة فيبلغ عددها نحو ثلاثين كتاباً يختلف حجمها طولاً وقصراً، بعضها في عدة أجزاء وبعضها في جزء صغير أو كراريس بينما عفّى الزمان على أجزائها الأخرى كما عفى على كثير من كتب النوازل التي لا توجد إلا إشارات عابرة إليها في بعض المصنفات المتأخرة.

لكتب النوازل الأندلسية سمات تمتاز بها وتزيد من أهميتها كمصدر لتاريخ المجتمع الأندلسي، فهي تمتد من حيث الزمان امتداد العهد الإسلامي من القرن الثاني إلى آخر القرن التاسع (8 ـ 15 م)، وتغطي مختلف جهات الأندلس، سواء الحواضر الكبرى أو المدن الصغرى. فهناك مثلاً كتاب المقنع في النوازل للقاضي ابن مغيث الطليطلي الذي أشرنا إليه آنفاً، والمنتخب في الأحكام لمحمد بن أبي زمنين البيري، وفتاوى أبي عمر أحمد بن المكوي الإشبيلي، وأحكام القاضي عمر ابن واجب البلنسي.

وتكثر كتب النوازل في الحاضرتين الكبريين قرطبة وغرناطة وتتوالى عبر العصر الإسلامي كله، أمثال فتاوى أصبغ بن خليل (ت 293) وفتاوى المشاور محمد بن لبابة (ت 330) وفتاوى أصبغ ابن الفرج (ت 399) وفتاوى عبد الله بن

دحون (ت 431) ونوازل القاضي المشاور أبي بكر أحمد اللؤلؤي (ت 348) ونوازل القاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل (ت 486) المسماة **الإعلام بنوازل الأحكام أو الأحكام الكبرى**؛ وفتاوى القاضي المشاور أبي الوليد ابن رشد الجد (ت 520) ونوازل القاضي المشاور ابن الحاج (ت 529) المسماة **الفصول المقتضبة في الأحكام المنتخبة**؛ ونوازل أبي الوليد ابن هشام (ت 606) وتسمى **المفيد للحكام فيما يعرض لهم من نوازل الأحكام**. ومن نوازل الغرناطيين أجوبة أبي إسحاق إبراهيم ابن حنكالش (ت 579) المسماة **أجوبة الحكام فيما يقع للعوام من نوازل الأحكام**؛ وفتاوى أبي الحسن علي حدّة (ت 746)؛ وفتاوى محمد بن علاق (ت 806) وفتاوى محمد بن علي الحفار (ت 810)، ونوازل أبي القاسم ابن سرّاج (ت 848) وهذا هو جد كبير المدرسين والمفتين بفاس خطيب القرويين أيام السعديين يحيى السراج. ونشير إلى أن غرناطة ظلت تحتضن فقهاء مرموقين يدرسون ويؤلفون ويفتون إلى آخر رمق للمدينة الإسلامية مثل محمد المواق مؤلف **التاج والأكليل** الذي توفي قبيل سقوط غرناطة، وأحمد الدقون الذي عاش إلى سقوط غرناطة فانتقل إلى فاس وبها مات عام 921.

* * *

رأينا آنفاً أن الفتاوى منها ما هو من تدوين صاحبها، ومنها ما هو من جمع تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه، ومنها ما هو موزع في كتب الفقه دون أن يحويه ديوان خاص. وهذه إحدى الصعوبات التي تعترض الباحث في هذا الصنف من التراث. ولنضرب لذلك مثلاً بأشهر كتب النوازل في الأندلس وهي فتاوى ابن رشد التي حظيت في السنين الأخيرة بعناية خاصة من الدارسين في المؤسسات الجامعية الأصيلة، فحُققت مرتين في وقت واحد تقريباً في تونس وفي المغرب وطُبعت كذلك مرتين في بيروت والدار البيضاء.

من المعلوم أن أبا الوليد ابن رشد الجد خدم الفقه طوال نصف قرن، مدرساً في جامع قرطبة الكبير إلى ما قبل وفاته بأربعة أشهر، ومشاوراً ـ بالفتح ـ

من طرف قضاة الجماعة وقضاة المدن والأقاليم، ومن طرف أمير المسلمين بمراكش وخليفته بجزيرة الأندلس في إشبيلية، ومن عامة الفقهاء والطلبة والمتقاضين، من إشبونة، وباغة، وبياسة، وجيان، وشلب، وغرناطة، ولبلة، ومالقة، وألمرية، وغيرها. وقد جمع أبو الحسن محمد بن الوزان القرطبي أجوبة شيخه أبي الوليد ابن رشد في كتاب عرف باسم نوازل ابن رشد أو فتاويه، إلا أن ابن الوزان لم يُثبت في الكتاب ـ للأسف ـ جميع النوازل التي كانت أصولها بين يديه، مكتفياً بانتقاء ما رآه مناسباً منها، وهو قل من كثر، إذ كانت الأسئلة الواردة على الشيخ تنيف أحياناً على العشرة والعشرين، يجيب عنها جميعاً ولا يذكر ابن الوزان إلا القليل منها. ولحسن الحظ فإن فتاوى أخرى لابن رشد توجد مبعثرة في مصنفات فقهية متأخرة تتبعها المحقق التونسي في مختلف المظان وأضافها إلى الفتاوى المجموعة من طرف ابن الوزان.

وهناك أيضاً كتاب آخر في النوازل منسوب إلى أبي الوليد ابن رشد يوجد مخطوطاً في الخزانة العامة بالرباط يقول ابن رشد في مقدمته: «وبعد حمد الله تعالى والصلاة على رسوله المصطفى، فإني بجميل صنع الله بي، وجزيل أفضاله عندي، وحسن عونه لي، أيام نظري في القضاء والأحكام، وزمن تقييدي أحكام غيري من القضاة والحكام، جرت على يدي نوازل استطلعت فيها رأي من أدركت من الشيوخ والعلماء، وانفصلتْ لديّ مسائلُ نوازلُ كَشَفَ عنها كبار الفقهاء، إذ كانوا من أهل هذا الشأن، بأرفع مكان، وأعلى منزلة، وأعظم درجة، رسوخاً وعلماً، ودربة وفهماً. منها ما شافهتهم فيه، ومنها ما كلمتهم في معانيه، وكنت قد علقت ذلك على حسب وقوعه، لا على ترتيبه وتنويعه، لأتذكر به متى احتجت. . .».

يدل هذا التقديم على أن ابن رشد كان قد بدأ يجمع الفتاوى التي استدعاها هو من معاصريه الفقهاء حين كان مشاوِراً ـ بالكسر ـ قاضياً بقرطبة (من عام 511 إلى عام 515) لكن انشغاله بإنهاء كتابيه **البيان والتحصيل والمقدمات والمهدات** ووفاته بالقرب من ذلك، جعله لا يستوعب كل الفتاوى والأحكام. . . ورأى تلميذه ابن الوزان أن ينتقي جملة من فتاوى الشيخ. وبذلك

يكون لابن رشد كتابان في النوازل، الأول المشهور وهو بقلم ابن رشد، من جمع تلميذه ابن الوزان، وتكون النوازل الثانية بأقلام فقهاء مشاورين آخرين جمعها ابن رشد نفسه ولذلك ما يعزه من كتب التراجم التي نسبت لابن رشد كتابين في النوازل الأول باسم فتاوى، والثاني باسم مسائل. ومعلوم أن للاسمين مدلولاً واحداً.

* * *

تشتمل كتب النوازل على أحكام فقهية متنوعة بحسب الأسئلة الواردة على المفتي، قد تتحدث عن جزئيات دقيقة في العبادات لا تهم المؤرخ في شيء، لكن تتخللها من حين لآخر مادة صالحة للاستغلال في استخراج معالم المجتمع الأندلسي، كتنوع عناصر السكان، وتعايش المسلمين والنصارى واليهود، وإقامة الدور والمساجد والبِيَع والكنائس وغيرها من وسائل العمران، وتعليم أولاد النصارى القرآن، ومهاداة اليهود والنصارى في أعيادهم لجيرانهم المسلمين، والاحتفال بفاتح السنة الميلادية، والمناظرات بين علماء المسلمين والقسيسين، وتملك المعادن، ووفرة الذهب والفضة عملة وحلياً، والكتابة بالذهب في الإجازة، واتخاذ النساء المرود والمشط من الفضة، والاتجار براً وبحراً، وعادة الصدُقات في الزواج والتغالي في المهور، وانتشار طريقة تلثم المرابطين، والتشبه بالأعاجم في اللباس، والتصوف والزوايا والاجتماع للذكر والغناء والشطح. . .

وسنستعرض بعض النماذج من فتاوى ابن رشد. تحتل مسائل الجوار حيزاً كبيراً في النوازل، وتدور حول ما أمر به الإسلام من تسامح، وحسن معاملة، ورفع الضرر. ويتجلى من النماذج التي اخترناها أنه لم يكن هناك تمييز في سكنى المسلمين وأهل الذمة، بحيث تتجاور بيوت المسلمين والمسيحيين واليهود ـ بعكس ما كان عليه الحال في العدوة المغربية ـ وتنتج عن هذا الاحتكاك مشاكل يشاور فيها الفقهاء منها:

ـ اختلاط زقاق خمر النصارى وزقاق خل المسلمين، أو انبجاسها وسيلان ما فيها إلى مطمئن من الأرض واستحالته خمراً أو خلاً. وقد كثر كلام ابن رشد عن الخمر المتخلِّل سواء في كتاب النوازل هذا، أو في كتاب البيان والتحصيل

والمقدمات، وهو في كلها معتدل مراعٍ ضرورة التساكن والتعامل، في حين كان فقهاء أندلسيون آخرون لا يرون رأيه في ذلك، ومنهم القاضي أبو عبد الله محمد بن علي ابن الالبيري الذي كان له حوار طويل مع ابن رشد، ولا يفتأ يرد عليه «بزخارف من القول نثراً وشعراً» الأمر الذي دفع ابن رشد إلى كتابة رسالة مطولة في انتقاده سماها: ذكر ما وقع من الفساد والخطأ والوهم والخلل في تذييل ابن الالبيري، وقال فيها إنه فعل ذلك «ليتبين للخاص والعام أنه ـ أي ابن الالبيري ـ ليس في هذه الطريق من أهل التحصيل، كي لا يغتر به جاهل فيقلده في شيء من العقيدات، وهو يحسبه ثابت القدم في معرفة أصول الديانات».

ـ اشتراك بئر بين دارين لمسلمين يسقي كل واحد منهما من جهته، فباع أحدهما داره من يهودي ـ بحقها في البئر طبعاً ـ وسكنها اليهودي، فقام الجار المسلم يعارض في هذا البيع بدعوى أن استيقاء اليهودي من البئر المشتركة يؤثر على طهارة الماء الذي يستعمله هو في طهارته الشرعية من وضوء وغسل. وشُوور ابن رشد في ذلك فأجاب بأنه لا يسمع كلام الجار المسلم، إذ لا يُفسد عليه ماءَ البئر استيقاءُ اليهودي منه. وإنما يومر المسلم ألاَّ يتوضأ بسؤر اليهودي والنصراني، ولا بما أدخلا فيه أيديهما من الماء اليسير، أما الكثير كماء البئر فلا يؤثر فيه شيء من ذلك.

ـ إضرار جار مسلم بجاره، بين داريهما زقاق نافذ، أحدث المسلم في داره باباً وحانوتين في مقابلة باب جاره، فتأذى الجار من ذلك، وأفتى ابن رشد بوجوب تغيير الباب والحانوتين رفعاً للضرر عن الجار.

ـ إضرار فلاح مسلم بآخر، وهما يملكان أرضين مسقيتين، بإقامته سداً في أرضه وإخراج طرف السد في أرض الجار دون إذنه. وقد أفتى ابن رشد بهدم طرف السد الواقع في أرض الجار حتى لا يتأذى به.

ـ ووردت قضية المعادن في نوازل ابن رشد بما يدل على أن مالكي أرض هذه المعادن كانوا يستغلونها ويتصرفون فيها تصرفاً كاملاً. فقد سئل ابن رشد عن معدن فضة يشترك فيه ستة عشر رجلاً، يتصرفون فيه تصرفاً تاماً ثم أراد

أحدهم أن يهب نصيبه، فهل يجوز له ذلك، أم لا؟ وقد أجاب ابن رشد بجواز هبة المعدن كبيعه لمن يملكه.

ومعلوم أن المذهب المالكي مختلف في أصول المعادن على قولين: أحدهما أن المعادن ليست بتبع للأرض التي هي فيها، سواء كانت الأرض التي هي فيها مملوكة أو غير مملوكة، وأن الأمر فيها إلى الإمام يليها أو يقطعها لمن يعمل فيها حسبما يقتضيه اجتهاده من غير أن يملك أصلها. وهذا مذهب ابن القاسم وروايته عن مالك في المدونة، ورواية يحيى عن ابن القاسم في العتبية.

والقول الثاني ـ وهو مذهب سحنون وبه أخذ الأندلسيون ـ أن المعادن تبع للأرض التي هي فيها. فإن كانت في أرض حرة أو في أرض العنوة أو في الفيافي التي هي غير متملكة كان أمرها إلى الإمام يقطعها لمن يعمل فيها أو يعامل الناس على العمل فيها لجماعة المسلمين، وإن كانت في أرض متملكة فهي ملك لصاحب الأرض يعمل فيها ما يعمل ذو الملك في ملكه.

ـ وفي النوازل أيضاً سؤالان يتعلقان بالعملة الذهبية التي كانت رائجة بالأندلس في عهد المرابطين، حيث نستنتج رواج ثلاث عملات ذهبية، شرقية، وعبادية، ومرابطية. وأنها كانت تسمى دنانير، ومثاقيل، وأن الدنانير الشرقية والعبادية كانت مخلوطة ناقصة، بخلاف المرابطية الصافية الوافية. يتعلق السؤال الأول بحكم زكاة الدنانير الشرقية والعبادية هل تجب الزكاة في عشرين ديناراً منها؟ فأجاب ابن رشد بأن الزكاة لا تجب في عشرين ديناراً إلا إذا كانت الدنانير خالصة الذهب وافية الوزن كالدنانير المرابطية. أما الدنانير الشرقية والعبادية المخلوطة الناقصة فلا تجب الزكاة فيها إلا إذا بلغت قيمة عشرين ديناراً خالصة. ولا عبرة بالعدد بالغاً ما بلغ.

ويتعلق السؤال الثاني بمراطلة الدنانير الشرقية والعبادية بالمرابطية فأجاب ابن رشد بالمنع لأن فيها تفاضلاً، أي زيادة للمعدن الثمين في المرابطية، مقابل الحديد أو النحاس في الشرقية أو العبادية ولا يجوز تبادل الذهب بالذهب ـ كالفضة بالفضة ـ إلا مثلاً بمثلٍ يداً بيد.

وإذا كانت الدنانير العبادية ظاهرة النسبة إلى بني عباد أمراء إشبيلية في فترة الطوائف، فإن الدنانير الشرقية تبقى مبهمة غامضة، غير أننا نفترض انطلاقاً من الوقائع التاريخية أن الأمر يتعلق أولاً بدنانير مصرية لا عراقية، ذلك أن الدولة الفاطمية منذ تأسيس القاهرة أصبحت حاجزاً قوياً بين شطري العالم الإسلامي في الشرق والغرب، وأن بغداد ضعف إشعاعهما منذ أن قامت بها دولة بني بويه وصرفت نظرها نهائياً عن الغرب. كما نفترض أن الدينار المقصود في فتوى ابن رشد هو دينار الخليفة الفاطمي العاشر الآمر المنصور أبي علي (495 ـ 524) وكانت زنة الدينار المضروب في أول عهده 4,08 كرام، وزنة آخر دينار مضروب في عهده 3,50 كرام. وكلا الوزنين ناقص طبعاً عن زنة الدينار الشرعي الذي هو 4 كرام و 14 سنتي كرام و 3 ميلي كرام.

ـ وفي النوازل فتاوى أخرى تتعلق بالذهب المصوغ حلياً خالصاً، أو مرصعاً بالأحجار الكريمة، وحكم الشرع في اقتضاء حلي الذهب عن دنانير، وهو غير جائز طبعاً لعدم المماثلة، وبيع الحلي المرصع بالأحجار بالدنانير الذهبية، حيث يجتمع البيع والصرف في صفقة واحدة. وقد أفتى ابن رشد بالتساهل في هذا الأخير ما دام ليس بالحرام البين وقد أجازه جماعة من الأئمة.

والإشارة التاريخية التي تهمنا في هذه الفتاوى وفرة الذهب في بلاد الأندلس على عهد المرابطين، وتفنن النساء في تحليهن به مسبوكاً خالصاً أو مرصعاً بالأحجار. ووفرة الحلي الذهبي لدرجة رواجه رواج الدنانير المسكوكة. وهذا أمر طبيعي في ذلك العصر الذي طلع فيه المرابطون من أقصى الصحراء المتاخمة لبلاد السودان، مؤمِّنين طرق التجارة بين الشمال والجنوب. ومن المعلوم أن التبر كان من أهم ما تحمله قوافل الجنوب إلى مراكش. ومنها ينقل إلى فاس وسبتة، وإشبيلية وقرطبة.

ـ كما نجد في النوازل إشارات إلى التجارة البحرية وما يتعرض له التجار وبضائعهم من الأسر والنهب على يد القراصنة. ويفهم من السؤال الموجه إلى ابن رشد أن عملية فداء أسرى المركب الذي يسقط في يد العدو واستخلاص

البضائع الموجودة على ظهره، تتم دونما تدخل من طرف التجار المأسورين، وفي مقابل فدية إجمالية. غير أن الطرف الذي يدفع هذه الفدية غير واضح في السؤال، فهل يا ترى هو نائب عن السلطان؟ أو محتسب من الناس؟ المهم أن المركب المأسور استرجع من يد آسريه بكل ما فيه من تجار وبضائع، والسؤال إنما هو فيما يفرض على الناس والأمتعة بعد ذلك.

ـ كما نجد في النوازل فتوى تتعلق بعادة الصدقات عند سكان المنطقة الجنوبية الغربية بالأندلس، فقد سئل ابن رشد من مدينة شلب «عن أهل بلد عرفت لهم عادات في مناكهحم لا يتعدونها: يسوق الرجل منهم لامرأته جزءاً من أملاكه فيحتفظ الأب لابنته بتلك الأملاك، ويقوم من ماله بتجهيز ابنته تجهيزاً يناسب ما ساق لها الزوج من أملاك. يقول السؤال: «وهذه عادة ثابتة قديمة متواترة مستمرة» ثم يقدم السؤال صورة النازلة التي يستفتي فيها، وهي أن رجلاً من هذا البلد تزوج على السنة المتبعة فيها وساق جزءاً من أملاكه لزوجته، فأراد الأب ـ وهو غني ـ أن يجهز ابنته مما ساق زوجها لا من ماله. وقد أجاب ابن رشد بإعمال العادة، وبأن الزوج بالخيار، إن شاء قَبِل ما قام به الأب، وإن شاء استرد ما ساق لزوجته. وهناك أسئلة أخرى تتعلق بمن ساق لزوجته نصف أرض، أو قرية، أو جزءاً من قرية... وهي تدل على انتشار الغنى عند سكان هذه البلاد، وعلى عنايتهم بالزواج وتغاليهم في المهور.

وعن طريقة اللباس في الأندلس يتحدث سؤال وجه إلى ابن رشد عن احتفاظ المرابطين بزيهم الصحراوي وتلثمهم في الأندلس التي لا رمال فيها تدعو إلى ذلك. ويفهم من السؤال أن هذا الزي كان من مظاهر الكبرياء والخيلاء، وربما كان مدعاة للإعجاب والاحتفاء بهؤلاء الغالبين الحاكمين، فجاء جواب ابن رشدمؤكداً إباحة ذلك، بل محبذاً له ومرغباً فيه، لأن في ظهور المرابطين بذلك الزي تذكيراً بأعمالهم البطولية ومواقفهم المجيدة في نصرة المسلمين ولم شتاتهم، وإرهاباً للعدو المتربص ونكاية فيه.

ومن المفارقات أن الأندلسيين في عهودهم المتأخرة بدؤوا يتشبهون بالنصارى في لباسهم، وبدأ المحافظون المتشددون يستفتون الفقهاء، ومن ذلك

فتوى محمد المواق بجواز لباس الدرندين وعلل ذلك بأنه لباس اقتصادي واق من البرد لا حرج فيه مستشهداً بأن النبي ـ عليه السلام ـ لبس جبة رومية.

وبعد فهذا نوع من المصادر الدفينة المفيدة جداً في تاريخ الأندلس الاجتماعي. نثير انتباه الطلبة الباحثين أو السائرين في طريق البحث للاهتمام به. ومعلوم أن تاريخ الأندلس هو جزء من تاريخ المغرب، فالمغاربة هم الذين فتحوا الأندلس وعمروها. وكانت الأندلس ـ لمدة قرون ـ إقليماً في امبراطورية مراكش أيام المرابطين والموحدين، وظلت الصلات قائمة بين العدوتين بعد ذلك إلى نهاية دولة الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية، وبعد ذلك احتضن المغرب الأندلسيين وتراث الأندلس. ومن ثم كان معظم كتب النوازل التي تحدثنا عنها يوجد في خزائن المغرب العامة والخاصة.

مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا(*)

يعتبر كتاب مناهل الصفا مصدراً أساسياً معاصراً للدولة السعدية. ألفه عبد العزيز الفشتالي[1] متولي تاريخ الدولة ووزير القلم الأعلى في بلاط أحمد المنصور الذهبي، ليكون كوثيقة رسمية يعتمدها المؤرخون المشارقة في كتاباتهم عن الدولة السعدية، وذلك على إثر تلقي المنصور من المؤرخ التركي مصطفى ابن حسن الحسني الجنابي النسخة الأصلية من كتاب «العيلم الزاخر، في أحوال الأوائل والأواخر»[2]. «أجمع ما جمع في دول الملوك» والمحتوي على اثنين وثمانين باباً بعدد الدول التي تعرض إلى تاريخها. وقد لاحظ المنصور نقصاً وخلطاً في الباب المخصص للمغرب فكتب إلى المؤرخ التركي يشكره على هديته القيمة ويصله بـ 1500 أوقية ذهباً. وفي نفس الوقت ينبهه إلى ما فيه تجاه المغرب من «غلظ واضح وضوح النهار... إذ سلك شعباً وقد سلكت الدولة وادياً، وجرى على غير سمتها فلم يجد هادياً»[3]. ويطلب منه في الأخير ألا ينشر الكتاب إلا بعد تصحيحه على ضوء ما سيصله في كتاب تاريخ الدولة السعدية: «مناهل الصفا» الذي كلف بإنجازه عميد الكتاب في بلاطه: «عبد العزيز الفشتالي».

(*) نشر بمجلة دعوة الحق، العدد 8 من السنة التاسعة، يونيه 1966

(١) خص الأستاذ عبد الله كنون الجزء الأول من سلسلة «ذكريات مشاهير رجال المغرب» بترجمة عبد العزيز الفشتالي. كما تعرض لمصادر ترجمته ليفي بروفنسال في «مؤرخي الشرفاء» ص 92.

(2) ألف الجنابي تاريخه هذا في أواخر القرن العاشر الهجري بالعربية في مجلدين، ثم اختصره وترجمه إلى اللغة التركية. ارجع في ذلك إلى حجي خليفة، «كشف الظنون»، اسطمبول 1941، 224:1 و 1181:2.

(3) الرسالة من إنشاء عبد العزيز الفشتالي، ويوجد نصها الكامل في «مجموعة رسائل سعدية» تطوان 1954 ص 236 ـ 241.

واشتهر عند المؤرخين أن مناهل الصفا يقع في ثمانية أسفار منذ حدد ذلك العدد أحمد المقري في نفح الطيب. لكن الأستاذ عبد الله كنون في المقدمة التي كتبها لمختصر المناهل المطبوع الذي سنتحدث عنه أخيراً، استبعد أن يكون في المناهل أكثر من ثلاثة أجزاء ما دام الجزء «الثاني» الذي عثر عليه أو على مختصره[1] يتحدث عن معظم حياة أحمد المنصور أهم شخصية سعدية ومخدوم المؤلف، الذي أمره بوضع الكتاب. فلم يبق إذن إلا افتراض أن يكون الجزء الأول في نشأة الدولة السعدية وأخبار ملوكها الأول من محمد القائم بأمر الله حتى عبد الملك المعتصم، والثالث في بقية أخبار المنصور وربما حتى ابنه زيدان الذي أخلص له الفشتالي وتوفي في أيامه. وبذلك تصح مقالة الإفراني في نزهة الحادي أن المناهل يقع في عدة مجلدات، ما دام أقل مفهوم (عدة) ثلاثة.

على أني أميل إلى الاعتقاد أن كتاب «المناهل»، ولو أننا لم نعثر لحد الآن إلا على جزء واحد منه، يقع في ثماني مجلدات. فمقالة الإفراني التي اتخذها الأستاذ كنون كدعامة لتشككه ليست في الحقيقة إلا ترديداً لكلام أحمد المقري في روضة الآس[2]. ومعلوم أن هذا الكتاب سجل فيه المقري أخبار رحلته الأولى إلى المغرب خلال عامي 1009 ـ 1010 هـ (1600 ـ 1601 م) حيث لقي في بلاط المنصور لأول مرة عبد العزيز الفشتالي الذي أخبره عن كتابه المناهل أنه يقع في عدة مجلدات. لكن بعد ذلك بنحو ثمان وعشرين سنة، وبعد إقامة طويلة بالمغرب دامت زهاء خمس عشرة سنة تحدث المقري مرة ثانية عن المناهل بلهجة المتيقن المتأكد فذكر أنه (يعرف) تمام ثماني مجلدات منه، معبراً عن مؤلفه الفشتالي بـ (صاحبه)[3]. ثم إن تسمية الجزء المعثور عليه في

---

(1) عثر الأستاذ عبد الله كنون في فاس على مختصر (الجزء الثاني) من مناهل الصفا ونشره، كما وقع العثور أخيراً على ثلاث نسخ مما سمي بالجزء الثاني من المناهل، إحداها في تونس، ويوجد ميكروفيلم منها في قسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط. والأخريان في الخزانة الملكية بالرباط.

(2) طبعة الرباط، 1964، ص 161 ـ 162.

(3) أحمد المقري، نفح الطيب، القاهرة 1302 هـ. 233:4.

تونس والمكتبة الملكية بالرباط بالجزء الثاني فيه نظر، إذ لم ينص في هذه المخطوطات على ذلك، وليس هناك إلا عبارة وردت في آخر الملخص المطبوع: «انتهى ما أردت اختصاره من السفر الثاني من كتاب مناهل الصفا» وهي تحتمل اختصار بعض السفر لا كله، كما تحتمل كلمة السفر مجموعة أجزاء. وفي قسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط ـ مثلاً ـ نسخة تامة من فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر في سفر واحد، وهو الذي طبع في ثلاثة عشر جزءاً عادياً. والذي يبدو أن الجزء المخطوط من المناهل ليس جزءاً مستقلاً من الأجزاء التي فصلها الفشتالي، بل خليطاً من أجزاء كانت كلها تتعلق بحياة المنصور ومآثره العلمية والعمرانية والسياسية والحربية. يدل على ذلك ما حكاه الفشتالي نفسه من أنه «ذكر في فتح السودان فقط ما يحمله سفر ضخم»[1]. بينما الجزء المخطوط من المناهل يشتمل فيما يشتمل عليه من أخبار المنصور، على فتح السودان في نحو 150 صفحة ـ حسب نسخة تونس ـ تتخللها حوادث بيعة ولي العهد محمد الشيخ المأمون، وانتزاع الخيل من عرب الخلط وقبائل أزغار، وثورة ابن قرقوش ببلاد الهبط وجبال غمارة. . . إلخ. فهل نحن إذن أمام اختصارين للمناهل، مطول ومقتضب؟ هذا أمر عادي في عصور الجمود المتأخرة التي كثرت فيها الاختصارات والشروح والحواشي. ومهما يكن من أمر فيمكننا أن نطمئن إلى أن محتوى الكتابين المخطوط والمطبوع من المناهل هو بلفظ الفشتالي نفسه، إلا عبارات قليلة أقحمها صاحب المختصر المطبوع للتنبيه على الحذف أو التلفيق، وإن كان أغلب النقول المتأخرة عن المناهل إنما هي بالمعنى بسبب طول عبارات الفشتالي المثقلة بالصناعة الإنشائية، والمبالغات التعظيمية. وقد ظلت المناهل موجودة ـ كلها أو بعضها ـ حتى أواخر القرن الماضي، ينقل عنها المؤرخون مباشرة، كالإفراني في نزهة الحادي[2]، والزياني في الترجمان المعرب[3]،

---

(1) أحمد المقري روضة الآس الرباط، 1964، ص 162.

(2) طبعة فاس، ص 72 ـ 74 ـ 76 ـ 77 ـ 82 ـ 85 ـ 86 ـ 93 ـ 104 ـ 107 ـ 109...

(3) مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 658 د، ص 2 ـ 353 ـ 355 ـ 356 ـ 359 ـ 362 ـ 363.

وأكنسوس في الجيش العرمرم[1]، والناصري في الاستقصا[2] ثم افتقدت ولم تسفر عن نتيجة الجهود المبذولة للعثور عليها في النصف الأول من هذا القرن سواء من طرف المؤرخين المغاربة أو بعض المستشرقين كالكونت دوكاستر، وليفي بروفنسال. وقد خصص هذا الأخير بضع صفحات في كتابه مؤرخو الشرفاء للحديث عن المناهل اعتماداً على بعض النصوص المنقولة عنها، وحكى أسف العلماء المغاربة على فقد هذا الكتاب وعد ذلك خسارة لا تعوض[3]. بل وإلى ما قبل أربع سنوات فقط نجد لوطورنو يؤكد ضياع المناهل[4] لدى حديثه عن الزياني ونقوله الخاصة بقصر البديع.

ولما كان الجزء المخطوط من المناهل الذي يقع في 539 صفحة ـ نسخة تونس ـ يفوق حجمه المختصر المطبوع بأكثر من الضعف، ويختص بزيادات تاريخية وأدبية كثيرة تتعذر الإشارة إليها كلها في هذه العجالة، رأيت من الأنسب أن أذكر بعضها مما له علاقة بالتاريخ فقط، لتبيين أهميته وضرورة طبعه كاملاً. ففيما يخص الوثائق يحتوي مخطوط المناهل على بيعة ولي العهد محمد الشيخ المأمون، وهي من إنشاء عبد العزيز الفشتالي في أزيد من إحدى وعشرين صفحة، وبيعة إدريس الوما سلطان بلاد برنو السودانية (النيجر وتشاد الحاليتين تقريباً) وهي من إنشاء عبد العزيز الفشتالي أيضاً في نحو تسع صفحات، ورسالة من المنصور إلى سلطان الحجاز شريف مكة حسن الحسيني يخبره باستعداده للهجوم على اسبانيا واسترجاع الأندلس إلى غير ذلك من المراسلات الموجهة إلى داخل المغرب وخارجه، مما لم ينشر في مجموعة رسائل سعدية، خلافاً لما ورد في مقدمة المختصر المطبوع. ومن الناحية الإخبارية ينفرد المخطوط بصفحات عجيبة تجعل الفشتالي بدعاً من المؤرخين المعاصرين له، وتميزه

---

(1) طبعة فاس، 1336 هـ. 1:159 ـ 168.

(2) طبعة الدار البيضاء، 1954 ـ 1956 5:90 ـ 91 ـ 94 ـ 104 ـ 112 ـ 122 ـ 134 ـ 151 ـ 154 ـ 163 ـ 164 ـ 166 ـ 188 ـ 190...

(3) L.Provençal, Les Historiens des Chorfa, Paris, 1922, pp. 92 - 95.

(4) R. Letourneau, Etudes d'orientalisme, dédiées à la mémoire de L. Provençal, Paris, 1962, p. 633.

باتساع الأفق التاريخي والاطلاع على الماجريات السياسية والدينية في أوربا الناهضة إذ ذاك، مع ربط ذلك بالأحداث المغربية وكشف النقاب عن بعض خبايا السياسة الخارجية لأحمد المنصور تبين مدى وعيه وإدراكه الذكي لمختلف تيارات عصره، وعمله على مسرح السياسة الدولية.

وإذا كانت هذه المعلومات التي أتى بها الفشتالي ليس من شأنها أن تحدث تغييراً جوهرياً فيما نعرف من تاريخ أوربا في هذه الحقبة، فإن فائدتها في الإفصاح عنها من وجهة نظر مغربية تبين ما كان هذا الجانب يؤمله وراء تلك الأحداث مما لا يذكر عادة في الكتب العادية ولا في السفارات والمراسلات الديبلوماسية. فقد تحدث الفشتالي عن أثر معركة وادي المخازن بالنسبة للبرتغال، وما كان من وصاية الكردينال[1] على عرش لشبونة نحو ثلاث سنوات قبل أن يستولي عليه ملك قشتالة فيليب الثاني خال سيبستيان، ويضمه قهراً إلى العرش الإسباني. وهنا يجمل الفشتالي الحديث عن العلاقات المغربية ـ الإسبانية ـ الانجليزية، فيشير إلى ما كان من فرار دون انطونيو المطالب بعرش البرتغال إلى بلاط اليزابيت في لندن، وقدوم ابنه الدون كريستوف[2] على المنصور في مراكش حيث أقام مدة طويلة في بناية صهريج المنارة قبل أن يشارك في الحملة الأنجليزية البحرية ضد أسبانيا. هذه الحملة التي كانت بتدبير المنصور ومساعدته. ويقدم الفشتالي بيانات مدققة عن نوع المساعدة التي كان مخدومه السعدي يقدمها إلى ملكة إنجلترا، فزيادة على إمدادها بالمعادن التي يتوقف عليها صنع المدافع وسائر الآلات الحربية كالنحاس، سمح المنصور للإنجليز بالتزود من المغرب بملح البارود الذي كان محظوراً على المسيحيين بفتوى من العلماء. وعندما تطرق في المناهل إلى الكلام على ثورة الأمير الناصر بالشمال شرح ذلك على ضوء العلاقات المغربية الإسبانية مبيناً ما كان من

(1) يكتب الفشتالي كاف الكردينال قافا. وقد سقطت منه النون فصار «قرديال» ولم ينبه على ذلك في المختصر المطبوع.

(2) يسميه الفشتالي (كشطوبان) وهو تحريف لكريستوف قريب من نطق الإسبانيين به: (كريستوبان).

احتفاظ الإسبان به في بلادهم نحو عشرين سنة قبل أن يجهزوه بالمال والسلاح والأنصار في نواحي قاعدتهم مليلية، وذلك عندما رأوا استعدادات المنصور البرية والبحرية تكاد تشرف على نهايتها لمهاجمتهم، ففتحوا ضده واجهة حربية في عقر داره مقنعة وراء ذلك الأمير الثائر. وتفصح المناهل هنا في عبارات مقتضبة عن شيء خطير مقدمة الحلقة المفقودة للإجابة عن نقطة الاستفهام التي ظلت قائمة مدة طويلة حول سياسة المنصور الوطنية والدينية، من مهادنة المسيحيين أو مصادقتهم، واتخاذ موقف معاكس مع المسلمين الأتراك والسودان! فاهتمام المنصور - حسب منطوق المناهل ومفهومها - كان متجهاً قبل كل شيء إلى القضاء على الإسبان الذين أتوا على المملكة الإسلامية بالأندلس، وأخرجوا الموريسكيين من ديارهم بغير حق وساموهم سوء العذاب على يد ديوان التحقيق، ثم خلفوا البرتغال في الثغور المغربية المحتلة إذ ذاك. غير أن الخليفة السعدي كان يقدر قوة خصمه كدولة ذات امبراطورية عظيمة، وموارد مالية وبشرية هائلة، وأيضاً كدولة مسيحية تتزعم الكاثوليكية وتتمتع بتأييد أغلب الدول الأوروبية التي تتمذهب بمذهبها، ولا تتردد في نصرتها عسكرياً متى وقع الهجوم عليها. ولكي يواجه المنصور القوة بمثلها رأى أن الموارد المحلية من خراج وسكر وتجارة خارجية لن تمده بما يكفيه للاستعداد العسكري الكامل الضامن للنجاح، فلجأ إلى الاستحواذ على معادن الذهب في السودان وتكوين امبراطورية واسعة داخل القارة الأفريقية تمده بالعناصر البشرية اللازمة للجيش البري والبحري. ورمى المنصور بتحالفه مع اليزابيت إلى غرض مزدوج: كسب سند البروتستان[1] الشق الثاني للمسيحية الذي تتزعمه انجلترا في أوربا، وإشغال خصومه الإسبان ليتفرغ إلى تحقيق أهدافه في التوسع القاري والاستعداد العسكري. ويتوسع الفشتالي قليلاً في الحديث عن الجبهة البروتستانية وأعمالها المعادية لإسبانيا، فبعد أن أشار إلى إغارة الأسطول الإنجليزي على لشبونة، ثم تحطيمه للأرمادا، ومهاجمة الأسطول التجاري في قادس وتخريب هذا الثغر

(1) يعبر عنهم الفشتالي بـ «اليروتان» ولعل الباء قد سقطت منه فكان «البيروتان» أو حرف عن البروتستان.

الهام لعرقلة التجارة الإسبانية مع الهند، تحدث عن الحروب الدينية في فرنسا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، وبخاصة أحداث الملك البروتستاني هنري الثالث، ودسائس خصومه الكاثوليك المتعاونين مع ملك إسبانيا من أجل الاستيلاء على عرش فرنسا ورده كاثوليكياً ما دام هنري الثالث لا وارث له، وانضمام هذا إلى ابن عمه ملك نافار، وعمل الملكين البروتستانيين على استرجاع باريس والقضاء على خصومهم إلى أن اغتال أحد الرهبان (جاك كليمان) هنري الثالث. كما أشار إلى انتهاء الفتن الداخلية بجلوس هنري الرابع على عرش فرنسا وتوحيده مملكتي نافار وباريس، فناصب إسبانيا العداء لاسترجاع ما كانت قد اقتطعته من الممتلكات الفرنسية، في حين كانت البلاد الواطئة ثائرة على إسبانيا تحاول التخلص من سيطرتها... وكأن الفشتالي يريد أن يبرهن على أن هذا الثالوث البروتستاني المحارب لإسبانيا هو الحليف الطبيعي للمنصور الذي كان بدوره يُعد العدة لغزو شبه جزيرة إيبيريا.

ويطول بنا الحديث لو حاولنا تتبع كل ما انفرد به الجزء المخطوط من المناهل. فلنكتف بهذا القدر لنلقي نظرة خاطفة على مختصره الذي نشره المركز الجامعي للبحث العلمي بالرباط، بتحقيق وتقديم الأستاذ عبد الله كنون. والمختصر (بكسر الصاد) مجهول، افترض المحقق أن يكون أحد كتاب السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله الذي كان معجباً بالمناهل، نظراً لما يتميز به هذا المختصر من حذف عبارات التعظيم المبالغ فيها في جانب المنصور السعدي، والاقتصار على سرد الأخبار وتلخيصها وتلفيقها. وقد عثر الأستاذ كنون على مخطوط المختصر في فاس فقابله على أصل ما سمي بالجزء الثاني من المناهل الذي اكتشف في تونس وأعده للنشر قبل أن يطلع على مخطوطتي المكتبة الملكية بالرباط لنفس الجزء، فتدارك ما أمكن تداركه في التحقيق والمقابلة عليهما وإن لم تختلفا في الجملة عن نسخة تونس فيما يخص الأخطاء والبياضات.

يتناول المختصر المطبوع تاريخ نحو ست عشرة سنة من حياة أحمد المنصور الذهبي (986 ـ 1002/ 1578 ـ 1593) ـ وإن أقحم صاحب

الاختصار في الأول (ص 18) بضع جمل في ذكر وفاة المنصور وتقدير عمره ومدة خلافته ـ . يبتدىء ببيعة المنصور عقب معركة وادي المخازن ويستعرض الأحداث التي تلتها من تمهيد البلاد والقضاء على قواد جيش الأندلس المشاغبين على الدولة، وثورات الأمير داوود بن عبد المومن في سوس، والأمير الناصر بن عبد الله الغالب في ضواحي مليلية، وابن قرقوش المكناسي في بلاد الهبط وجبال غمارة. كما يتحدث عن عرب أزغار ببلاد الغرب وموقفهم من السعديين منذ قيام دولتهم إلى ذلك العهد، ويستطرد أخبار دخولهم إلى شمال أفريقية وتقلبهم فيها خلال العصور الفاطمية والموحدية والمرينية. وبعد أن وصف بيعات ولي العهد محمد الشيخ المأمون لا سيما البيعة الكبرى في التجمع العظيم ببسيط تامسنا، أطنب في الحديث عن فتح السودان، فأتى على ما كان من استيلاء المنصور على تيكورارين وتوات وسائر تخوم الصحراء، الذي أخضع لسلطته علاوة على المدن والقرى والقصور أكثر من 40.000 خيمة، وعلى مراسلات المنصور لسلطان مالي وسفاراته له حول مشكل معدن الملح بتغازى، وأخبار الجاسوسية والتضريب بين الأمراء السودانيين آل سكية، واستقدام أحدهم إلى مراكش للتشويش على سلطات كاغو، ثم تطويق (مالي) قبل غزوها بالاستيلاء على الإمارات الغربية الصغيرة حتى مصب نهر السنغال[1]، والحصول على بيعة صاحب مملكة برنو في الجهة الشرقية. وفي الحديث عن الغزو نجد كثيراً من التفاصيل عن عدد الجيش وعدده وتنظيمه وقادته ومسالكه في الصحراء، وعن المعارك العنيفة حول تنبكتو وكاغو وفي مستنقعات أعالي نهر النيجر، ثم عن تنظيم تلك الأقاليم النائية من الامبراطورية السعدية وترحيل بعض القبائل العربية والبربرية لاستيطانها من معقل وجشم ومصامدة.

ويختص الجزء الأخير من الكتاب بذكر مآثر المنصور ووصف خلقه وخلقه جملة وتفصيلاً، ويسهب في ذكر حلمه وتمسكه بالدين وتوكله وصبره

---

(1) يخلط الفشتالي ـ ككثير من المؤرخين القدماء ـ بين الأنهار الإفريقية، فيطلقون اسم (النيل) على كل من النيجر والسينغال والنيل. على أن الفشتالي نبه إلى أن هناك نيلين: نيل مصري يصب في البحر المتوسط، ونيل آخر يصب في المحيط.

وعفوه وعدله وسخائه وشجاعته وحسن تدبيره وسياسته، معززاً ذلك بضرب أمثلة لحوادث شاهدها بنفسه. ولما تحدث عن سعة علم المنصور استعرض مقروءاته وأشياخه نقلاً من خط المنصور نفسه، فاحتفظ لنا بذلك بجزء مهم من فهرس ذلك الملك العالم الذي يعتبر اليوم ضائعاً كأكثر تآليفه. وربما كان هذا القسم أضعف ما في الكتاب وأقربه إلى الظنة، يتعين على القارىء أن يسير فيه بحذر أكثر ويعرض كل ما يجد على محك النقد والتمحيص، ليسلم من المغالطات والمبالغات التي أوقع فيها المؤلف تملقه لمخدومه وإضفاؤه عليه حلى الملائكة والرسل حتى كأنه خلق مبرءاً من كل عيب ومتوجاً بكل حسن كما يقولون!

وتكون خاتمة المطاف بالوقوف على وصف شيق لقصر البديع، وكأَنَّ المؤلف قد ألهم أن الدهر سيعفي على آثاره فبادر إلى تخليده في طرسه لتتمكن الأجيال اللاحقة من القراءة إن عزت المشاهدة. وهناك صفحات عديدة تصف القصور المتصلة في البديع، لا سيما الدار الكبرى التي تحتوي ساحتها على خمسمائة سارية عظيمة من المرمر، وعشرين من القباب الفخمة، كقبة الزجاج ذات السقف الزجاجي الملون والخمسينية، وقبة النصر، وقبة التيجان. وحتى ملحقات القصر نالت عناية الفشتالي، من مساجد ودور وحمامات، وجناح خاص بالحريم مبني في طبقات على صفين متقابلين بكيفية هندسية عجيبة تحجب رؤية النساء وتضمن وصول النور الكافي بل «الفائض»، ورياض فسيحة مغروسة بجميع أنواع الأشجار المثمرة، كبستان النهر، والمسرة، والبركة العظمى التي تطول مد البصر وتضطرب أمواجها كالبحر، تحيط بها على حافاتها يميناً وشمالاً سلسلة من «الخصص» المتدفقة بالمياه.

ويقدم لنا «مختصر المناهل» عن آخر سنة يؤرخ لها ـ 1002 هـ ـ فائدتين هامتين. أولاهما استمرار توسيع البديع بتخطيط قبة عظيمة لاستقبال الوفود في أقصى بستان النهر، يزيد طولها على ثلاثمائة شبر، ووضع تصميم أبوابها ونوافذها وسقفها وأنواع زخرفها. والثانية ما كان عليه المنصور إذ ذاك ـ وقد تم فتح السودان ـ من الاستعداد العظيم، وما تنتجه معامل السلاح في مراكش من

الآلات النارية من بنادق ومدافع وكور وغيرها، وما يستجلبه من الأسلحة الأوربية مما تزخر به مخازنه الهائلة تحت الأرض وفوقها، وعزمه على اتخاذ حصن خاص بخزن الأسلحة داخل القصبة السلطانية بعد أن امتلأت كل المخازن القديمة. . .

وقد اقتصر عمل الأستاذ كنون ـ كما صرح بذلك في المقدمة ـ على تقديم نص صحيح أقرب ما يكون إلى الأصل الذي كتبه المؤلف، عن طريق المقابلة مع مخطوطات تونس والرباط، دون إضافة شروح أو تعليقات تزيد على غرض تحقيق النص. ونشر مع هذا المختصر ثلاثة ذيول كانت معه في الأصل المخطوط، أحدها يتعلق بقيام الدولة السعدية في نحو خمس صفحات، والثاني في أخبار بعض الخلفاء العثمانيين في سبع صفحات، ويضم الثالث مجموعة شعرية لأدباء مغاربة من عهد السعديين في اثنين وأربعين صفحة، مع خمسة فهارس للمواضيع والأعلام والأماكن والأشعار والكتب.

وإذا كان لا بد من أن نقول كلمة عن قيمة هذا الكتاب، فإننا لا نجد غير تأكيد ما ذهب إليه عموم المؤرخين منذ عصر المؤلف حتى اليوم، من أن المناهل مصدر هام لمعرفة تاريخ السعديين عموماً، وواسطة عقدهم أحمد المنصور خصوصاً. فالمؤلف لا ينقل عن كتاب، وإنما يؤرخ لأحداث قريبة العهد يستقيها ممن عرفوها وأدركوها، أو يتحدث عن حوادث عاشها، ووثائق كتبها بخط يمينه أو أشرف على إنجازها من طرف بعض مساعديه كتاب البلاط. ولا يضير كونه مؤرخاً رسمياً للدولة ينعم بخيراتها وينافح عنها وينشر محاسنها، فما أفدناه من وضعيته الرسمية هذه من الاطلاع على كثير من الأسرار والحقائق أكثر بكثير مما فاتنا من معرفة الجوانب القاتمة لتلك الدولة، وما أقذى عيوننا من مبالغات مكشوفة وعبارات طنانة مفرطة في التقديس والإجلال. على أن الجوانب الأخرى التي لم تساعد وظيفة الفشتالي وظروفه الخاصة على التعرض إليها قد عرفت بعد ذلك ـ وربما بشيء من التشنيع والتقريع ـ بواسطة مؤرخين ناقمين على السعديين أو مشايعين لمن خلفوهم في الحكم، مثل المؤلف المجهول صاحب تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمادرتية. ويجب ألا ننسى

أن الفشتالي أديب قبل كل شيء يسجل بأسلوبه المنمق الأحداث البارزة للفترة التي أرخها وكأنه يؤدي مهمة من مهماته الرسمية في ديوان الإنشاء. فهو لذلك لا يعير اهتماماً للنواحي الاجتماعية، ولا يسجل من أخبار عامة الناس إلا بقدر ما لها من اتصال بالقصر، حتى إذا واتته الفرصة للكلام على فتح بلاد، أو قضاء على ثائر، أو وصف حفلات، أو غير ذلك من المناسبات التي يتبارى فيها الأدباء، أطلق لقلمه العنان في إيراد قصائد أو مختارات منها مما يضفي على كتابه صبغة مزدوجة تاريخية وأدبية.

المنتقى المقصور على مآثر خلافة المنصور(*)

ألف أحمد بن القاضي كتاب المنتقى المقصور في أواخر القرن الهجري العاشر (السادس عشر) بعد أن خلصه المنصور الذهبي من الأسر باذلاً في فدائه 20.000 أوقية من الذهب (ما ينيف عن مائة كيلو ذهب). وكان القراصنة الإسبان قد أسروا ابن القاضي في جماعة من الحجاج بعد أن ابتعدوا قليلاً عن الشواطىء المغربية في البحر المتوسط. وظل هذا المؤرخ في محنته عند المسيحيين أحد عشر شهراً[1] عانى خلالها شدة عظيمة وبلاء كثيراً. وقد صور لنا ما كان يعامل به النصارى أسراهم المسلمين من التجويع والإعراء والضرب والتكليف بما لا يطاق، مدفوعين بالتعصب الديني الأعمى، وبالرغبة في الحصول على الفداء والثراء[2] فالكتاب إذن عبارة عن رد التحية والاعتراف بالجميل لعاهل كريم. وهو لذلك طافح بالمدح والتقديس للمنصور، يصوره وكأنه ملك من الملائكة الأطهار، أو نبي من الأنبياء المعصومين. غير أن القارىء الحاذق يستطيع أن يقرأ الكتاب بحذر وأناة متصيداً ما به من الفوائد التاريخية والاجتماعية والأدبية، معرضاً عما لا يعنيه من عبارات طنانة ومبالغات مكشوفة. إذ لا تخفى أهمية هذا التأليف باعتباره معاصراً للدولة السعدية، يتحدث صاحبه عن حوادث عاشها، وأشياء شهدها أو سمع أصداءها عن قرب. ثم إن اسم الكتاب يذكرنا بتأليف آخر في نفس الموضوع ظهر قبله ببعض سنوات، وهو: الممدود والمقصور، من سنا أبي العباس المنصور للكاتب

(*) نشر بدعوة الحق، العدد الأول من السنة العاشرة، نونبر 1966.

(1) أسر ابن القاضي في 24 شعبان 994/10غشت 1586، وأطلق سراحه في رجب 995/ يونية ـ يوليوز 1587.

(2) انظر المنتقي المقصور، مخطوطة مراكش بالخزانة العامة بالرباط، ص 58 وما بعدها، والزاوية الدلائية. ص 88.

المبدع محمد بن عيسى التملي الذي أصابه غضب الخليفة فاختفى في غياهب السجن والقبر، واختفى معه إلى الأبد كتابه القيم. وكأنَّ ابن القاضي أبى إلا أن يعوض مخدومه عن ذلك بالمنتقى المقصور.

أما أسلوب الكتاب فسلس منطلق لا تكلف فيه ولا سجع إلا ما دعت الحاجة إليه عند الوصف أو الدعاء... وقد ركز المؤلف كل كلامه حول المنصور عدا الباب الرابع والعشرين، فقد سمح فيه لنفسه بالتحدث عمن لقي في أسفاره من المشايخ والعلماء، والخاتمة التي ملأها بإفاداته وإنشاداته. على أنه في الأبواب الأخرى لم يلتزم الموضوعات التي توحي بها عناوينها التزاماً. فكثيراً ما يستطرد وينساق مع الأشباه والنظائر عن قصد. وأشار إلى ذلك في خطبة الكتاب بقوله: «وأذكر أثناء ذلك كله بعض قصائد ومقطعات أنشدتها، وفوائد وحكايات استفدتها، وملحاً ونوادر استحسنتها، ونكتاً غريبة انتقيتها، وطرفاً عجيبة تلقيتها، يصغي إليها المنتهي والبادي، والعاكف في ربع الأدب والشادي، ليكون ذلك كالمعين على مطالعة الكتاب، لأن النظر في فن واحد قد ترغب عنه النفوس، بخلاف ما إذا نمق بغيره فقد يسلي العبوس[1]».

محاولات نشر الكتاب:

بدأ الحديث في الأيام الأخيرة يروج حول ضرورة طبع المنتقى المقصور. وكم كانت دهشتي عظيمة حينما علمت من بعض المهتمين بهذا الشأن أنهم يظنون أن الأمر هين مفروغ منه ما دامت هناك مخطوطات متعددة معروفة اليوم لهذا الكتاب، وكأنهم لا يدركون ما في هذه المخطوطات من اضطراب وبياض وبتر... وقد سبق لأصحاب المطبعة الحجرية بفاس أن بدأوا يشتغلون «بالمنتقى» وطبعوا منه فعلاً نحو أربعة كراريس ثم توقفوا عن العمل. ولا ندري ما إذا كان ذلك ناتجاً عن صعوبات اعترضتهم من نوع ما أشرنا إليه. كما أن محمد بن عثمان الرئيس السابق لكلية ابن يوسف كان يعتزم نشر هذا الكتاب. ونسخة مراكش التي سنتحدث عنها كانت في ملكه ـ قبل أن تصير إلى

(1) المنتقى المقصور، مخطوطة مراكش. ص: 3،

خزانة الأكلاوي ـ وقد كتبها كتابة واضحة إعداداً للنشر، وهيأ الغلاف بالشكل الذي رأى أن يخرج عليه، مثبتاً في أسفله أن حقوق الطبع والترجمة محفوظة له بصفته الناشر. ولعل من حسن الحظ أن لم ير النور هذا المشروع الذي لم يعد إعداداً مناسباً. وكان أحد الزملاء في قسم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط أخذ يعد المنتقى المقصور للنشر كرسالة للديبلوم ثم لم يتمكن من الاستمرار في عمله. إن ذلك لا يعني أني أعارض في نشر هذا الكتاب أو أحاول التنقيص من أهميته أو تثبيط الهمم، بل بالعكس أرجو صادقاً أن يتيسر نشره وسائر ما تزخر به خزائننا العلمية من تراث خالد. لكن أرى من الضروري قبل كل شيء أن يصرف مجهود جدي في التنقيب عن نسخ أخرى منه في بعض خزائن الخاصة أو المكتبات العامة بالخارج، وتبذل العناية اللازمة للمقابلة والتصحيح والتلفيق، والرجوع إلى المظانّ في الكتب المعاصرة أو القريبة من عهد المؤلف للاستعانة بما فيها من إشارات أو اعتراضات أو نقول، لمحاولة إخراج نسخة كاملة أو قريبة من الكمال. فيكفي ما بين أيدينا من مطبوعات تاريخية وغيرها، سواء على الحجر أو الحروف، يشوهها التحريف والخطأ والنقص، مما يجعل الاستفادة منها ضئيلة أو متعذرة، إن لم تكن مدعاة لتشويش الأفكار وقلب الحقائق.

تصميم الكتاب:

رتب ابن القاضي كتاب المنتقى المقصور على مقدمة، وستة وعشرين باباً[1]، وخاتمة. تكلم في المقدمة على نسب المنصور وحسبه وأخبار والده ووالدته بالخصوص، وعلى حقيقة الخلافة والعلاقات بين الملك والرعية[2]. وتحدث في الباب الأول عن حسن خلق المنصور ورجاحة عقله وكمال خلقه، وفي الثاني عن محافظته على التكاليف الشرعية، وفي الثالث عن عدله وقيامه

(1) لم يحدد ابن القاضي في خطبة الكتاب عدد الأبواب، وإنما رجحنا ذلك اعتماداً على الأرقام الأخيرة الواردة في المخطوطة المصورة عن الخزانة الزيدانية بمكناس.

(2) نرى أن هذا محتوى المقدمة في ثلاث مخطوطات. وأن المخطوطة الرابعة لا تشتمل مقدمتها إلا على نسب الخليفة، ويبقى ذكر بعض ما يتعلق بالخلافة إلى الخاتمة.

بالشريعة، وفي الرابع عن تعظيمه المولد النبوي، وفي الخامس عن رعايته لأهل العلم، وفي السادس عن حسن ظنه بالله، وفي السابع عن نظره في أمور رعيته، وفي الثامن عن حلمه وكرمه، وفي التاسع عن صبره ومقابلته الإساءة بالإحسان، وفي العاشر عن شدة حيائه، وفي الحادي عشر عن بره بوالدته، وفي الثاني عشر عن مراعاته لأهل ود والده. وفي الثالث عشر عن إيثاره لأهل العلم. وفي الرابع عشر عن العلوم التي يفضلها. وفي الخامس عشر عن تنزه مجالسه عن الغيبة والنميمة. وفي السادس عشر عن إقالته العثرات. وفي السابع عشر عن قبوله المعذرة وعفوه عند المقدرة. وفي الثامن عشر عن قبوله للشفاعات. وفي الثاني والعشرين عن شعره. . . وفي الرابع والعشرين عمن لقي المؤلف في سفره من المشايخ والأخوان. وفي الخامس والعشرين عن اهتمام المنصور بتمهيد الطرق. وفي السادس والعشرين عن عظيم سلطته وعلو همته.

أما الخاتمة فقد خصها بذكر «نكت غريبة، وطرف بديعة عجيبة».

اختلاف النسخ:

كنت أثناء كتابتي ترجمة ابن القاضي في الزاوية الدلائية وقفت على ثلاث مخطوطات مبتورة من كتاب المنتقى المقصور، اثنتان في قسم الوثائق من الخزانة العامة بالرباط. إحداهما مصورة عن مخطوطة المكتبة الزيدانية بمكناس ـ وهي أحسنها وأوفاها ـ والثانية تحمل رقم 764 وهي عتيقة. أما الثالثة ففي خزانة القصر الملكي بالرباط[1]. ثم وقفت بعد ذلك على مخطوطة رابعة في جملة الكتب التي حجزت من خزانة الأگلاوي بمراكش، وهي وإن كانت واضحة الخط، فإنها لا تقل عن أخواتها تحريفاً وبياضاً وحذفاً. . . وقد تبين من مقابلة هذه النسخ وتلفيق ما فيها أن هناك أربعة أبواب مفقودة، واختلافاً كثيراً متنوعاً في كلمات العناوين. وترتيب الأبواب. ومحتوى المقدمة والخاتمة، وزيادة أو نقصان بعض الصفحات أو السطور في عدة مواضع، وتقديماً وتأخيراً، بل حتى خطبة الكتاب ليست موحدة في جميع النسخ.

(1) انظر كتاب الزاوية الدلائية. ص: 90. هامش رقم 60.

والغريب أنها تختلف عند ذكر برنامج الكتاب لتطبق ذلك الاختلاف في مواضعه. وهكذا نص في خطبة ثلاث مخطوطات على أن المقدمة تشتمل على نسب المنصور وحقيقة الخلافة وحقوق الملك والرعية، وفي الخاتمة نكت غريبة.. وهذا ما تجده فعلاً في مقدمة هذه النسخ وخاتمتها. بينما قصرت خطبة المخطوطة الرابعة المقدمة على نسب المنصور تاركة مسألة الخلافة وما معها إلى الخاتمة، وذلك ما تجده أيضاً في أول الكتاب وآخره! فمن غير ذلك يا ترى؟ أهو المؤلف بعد أن أعاد النظر في الترتيب والتهذيب؟ أم هو تصرف ـ إلى هذا الحد ـ من بعض النساخ أو المختصرين؟ إننا لم نر أحداً ممن ترجم لابن القاضي أشار إلى أنه اختصر أو زاد في «المنتقى»، أو أن أحداً غيره قام بذلك. ومهما يكن من أمر، فالمسألة ما تزال بحاجة إلى مزيد من البحث والاستقصاء والتأمل. وسأورد هنا مجمل ما في المخطوطات الأربع من اتفاق واختلاف، دون أن أتعرض للجزئيات المتعلقة باختلاف الكلمات والعبارات والفقر داخل النص مما لا محل له هنا:

أولاً: تتفق مخطوطات الرباط الثلاث في محتوى المقدمة والخاتمة، فتجعل في المقدمة زيادة على نسب المنصور وحسبه خمسة فصول. الأول في الخلافة وحقيقتها وآراء الفقهاء المختلفة فيها، والثاني في فضل الإمامة. والثالث في وجوب طاعة الإمام. والرابع في آداب الرعية مع الملك. والخامس فيما يجب على الملك للرعية. وتترك للخاتمة ذكر بعض النكت والطرف. في حين تجعل مخطوطة مراكش المقدمة مقتصرة على نسب الخليفة، ولا تأتي من الفصول الخمسة إلا بفصلين في الخاتمة.

ثانياً: تتفق المخطوطات الأربع في الأبواب الخمسة الأولى ترتيباً ومحتوى إلا ما كان من إضافة كلمات أو تغيير سجعات في بعض العناوين.

ثالثاً: تتفق مخطوطات الرباط الثلاث في الأبواب التسعة التالية، غير أن المخطوطة المصورة منها تمتاز بزيادة نحو ثلاث صفحات آخر الباب السابع، بقيت بيضاء في الأخرى. وينقص مخطوطة مراكش البابان السادس والثاني عشر.

رابعاً: الأبواب الخامس عشر، والسادس عشر. والسابع عشر. توجد في كل من المخطوطة المصورة ومخطوطة القصر الملكي. غير أن هذه الأخيرة تسمي الأول من هذه الأبواب: الرابع عشر ـ مكرر ـ وترقم التاليين له بالخامس عشر والسادس عشر. وهذا تحريف واضح من الناسخ في ترتيب الأبواب. وينقص مخطوطة مراكش الباب السادس عشر، وفيها الباب السابع تحت رقم 8.

أما المخطوطة رقم 764 فتقف في الباب الخامس عشر، وليس فيها بعده إلا الخاتمة.

خامساً: تختص المخطوطة المصورة بالباب الثامن عشر، وبعده بياض يعقبه الباب الثاني والعشرون. ويفتقد الثالث والعشرون ثم تتناسق الأبواب الباقية من الرابع والعشرين حتى السادس والعشرين. أما مخطوطتا القصر الملكي ومراكش فليس فيهما من هذه الأبواب إلا الأخيران. وهما تحت رقمي 17 و18 في مخطوطتي القصر، ورقمي 19 و20 في مخطوطة مراكش.

يتلخص منها أن المخطوطة المصورة تمتاز عن الأخريات بزيادة ثلاثة أبواب، لا توجد في غيرها. وهي الثامن عشر، والثاني والعشرون. والرابع والعشرون. ومع ذلك يظل الكتاب مبتوراً تنقصه أربعة أبواب: التاسع عشر، والعشرون، والواحد والعشرون. والثالث والعشرون.

نماذج من محتويات الكتاب:

بالرغم من كون حياة المنصور الذهبي تناولها كل من ابن القاضي في المنتقى المقصور، والفشتالي في الجزء المعثور عليه من مناهل الصفا، بنفس الاتجاه والتصميم والطريقة تقريباً، وإطلاع المؤلفين معاً على نفس المعلومات والأحداث بحكم المعاصرة والاتصال بالبلاط، فإن محتوى كتاب كل منهما ينفرد بأشياء لا توجد في الآخر. لذلك نجد في «المنتقى» ـ مثلاً ـ مزيداً من الدقة في وصف بعض الجوانب من الحفلات والهبات، والمجالس الخاصة والعامة، وأخبار بعض رجال الدولة ومهامهم وتصرفاتهم والعلاقة بين

الحكام والمحكومين مما يجعل هذا الكتاب لا يمكن أن يسد غيره مسده. وهكذا تجد في مقدمة «المنتقى» نص وثيقة الوقف المشتمل على عقارات كثيرة وقفتها أم المنصور عودة بنت أحمد الوزكيتي على المسجد الذي أسسته بباب دكالة من مراكش. وفيها أنها وقفت «جيمع السبعين حانوتاً غير نصف حانوت الواجب لها ذلك في نصفها من القيسارية المشتركة بينها وبين مساكين المارستان المخترعة لها وسط سوق الخضرة المراكشية، دون البقعة المتصلة بها، وجميع الأرحى الجديدة المخترعة لها على وادي تسلطنت القريب من أرحى أولاد الأمين محمد بن قاسم القسطالي وأولاد التاجر عبد الله الجاريي المشتمل بيتها على أربع مدارات مع جميع داره المبنية له، وجميع العين الكبرى التي تملكتها من ورثة أحمد بن ربوح الكائنة بالمخالص خارج باب تاغزوت مع جميع أرضها وجناتها ومائها وما عدا الحظ الواجب لأولاد الصالح السيد أبي عمرو القسطلي فيها بجميع منافع ذلك كله ومرافقه وحقوقه الداخلة فيه والخارجة عنه. يصرف خراجها ومستفادها في مصالح الجامع المذكور من مرتب أئمته وفقهائه ومؤذنيه وقرائه والقيمين بسائر وظائفه وسدنته. . »[1].

وتجد في الباب الربع وصف مهرجان ليلة المولد النبوي بحضرة الخليفة، وما يقرأ فيها على التوالي من آي القرآن الكريم، وكلام ابن عباد، وقصائد المدح ومقطعات الشعر الملحنة بالأنغام، ثم قيام الشعراء لإنشاد قصائدهم بين يدي المنصور حسب مراتبهم، ومد سفرات الأطعمة والحلويات. ويفيدنا ابن القاضي ـ تاريخياً ـ أن عادة إحياء ليلة المولد بالقراءة والإنشاد كانت قد انقطت من المغرب منذ عهد المرينيين إلى أن أحياها المنصور. وعندما يتحدث عن إجازة المنصور الشعراء في آخر الحفل يحدد المبالغ التي كانوا يعطونها، وهي تتراوح ما بين 300 و 5.000 أوقية.

وعندما يتحدث ابن القاضي عن اهتمام المنصور بالعدل وإنصاف الرعية

---

(1) انظر النص الكامل لوثيقة الوقف في المنتقى المقصور مخطوطة مراكش. ص. 13 ـ 17.

يقدم لنا تفصيلات هامة عن مجالسه العادية للنظر في المظالم، فيذكر أنه كان «إذا صلى الجمعة تارة يجلس بمقصورة المسجد، وتارة عند ضريح والده، وتارة بقبته الخمسينية التي شادها في البديع للشكاية فتعرض عليه في تلك المواضع حكاية القضايا، وترفع إليه الشكايا، فيقضي فيها بعدله... وربما يعرض عليه شيء منها في أيام الديوان: السبت والاثنين، والأربعاء بل لا بد أن يعرض عليه منها في كل يوم... ويعين في كل سنة من يتفقد أحوال رعيته، ومن ينهي أمرها لحضرته. ويأخذ العهد من خواصه وجلاسه على مثل هذه الأمور ألا يخفوا عنه شيئاً جل أو قل، كبر أو صغر. وقد يتولى بعض هذا بنفسه فيركب ويشق حضرة مراكش ليفحص في ركوبه عن أحوال رعيته ويتوصل كل إلى شكايته. ولقد شاهدت ذلك منه مراراً... ويأمر بالنداء في البلدان برفع الظلامات إليه ويحرص على ذلك...» ثم يقدم أسماء بعض العلماء والكتاب والوزراء الذين كانوا محل ثقة الخليفة ليتولوا عنه النظر في شؤون المظالم، مثل المفتي عبد الواحد الحسني، وقاضي الجماعة قاسم الشاطبي، والفقيه علي بن سليمان التملي، والكاتب عبد العزيز الفشتالي والشاعر أبي عبد الله بن عمر، والقائد إبراهيم السفياني...

وبعد، فهذه نظرة خاطفة على كتاب المنتقى المقصور أحد المصادر الأساسية لتاريخ بلادنا في فترة «ذهبية» لامعة، نرجو أن يكرس الباحثون جهودهم لإكمال ما به من نقص وإصلاح ما به من تحريف واختلاف لإخراجه للناس في حلة زاهية مشرفة.

كتب التراجم والفهارس والكناشات
كمصادر لتاريخ إفريقيا فيما وراء الصحراء (*)

من المعلوم أن ما سجله الرحالة العرب في كتب المسالك والممالك، يعد من أقدم وأوثق وأغنى ما كتب عن إفريقيا ما وراء الصحراء في العصر الوسيط، بل تكاد تكون مؤلفاتهم المصدر الوحيد المكتوب عن هذه البلاد الشاسعة المجهولة. ولا يقتصر فضل الكتابات العربية على تلك العهود البعيدة، وإنما يستمر إلى العصور الحديثة، بالرغم على ما أخذ الأوربيون يكتبونه عن إفريقيا منذ أن اكتشفوها ثم استعمروها خلال القرون الأخيرة.

وبعد الحرب العالمية الثانية التي نبهت الأفارقة، فقاموا يطالبون بالاستقلال، ويحطمون الأغلال، ملتحقين بركب الأمم الحرة في المنظمات الدولية، ظهر اهتمام من نوع جديد بالتعرف على ما في إفريقيا وشعوبها وحضارتها. وتبنت منظمة اليونيسكو مشروع التاريخ العام لإفريقيا، على الصعيد الدولي. بالقرار 13,324 الذي صادقت عليه في دورتها الرابعة عشرة، وتبعاً لذلك تعددت اجتماعات الخبراء، ومنها اجتماع تنبكتو في 30 نونبر ـ 7 ديسمبر 1967 حول استعمال المصادر المكتوبة لتاريخ إفريقيا.

وعلى إثر ذلك ظهر عملان علميان جليلان:

الأول: مجموعة مختارة من النصوص العربية الموجودة في المخطوطات المغربية التي لها أهمية علمية لمصادر تاريخ إفريقيا، وعلاقة مناطقها المختلفة ببعضها. جمعها وعرف بها بتكليف من منظمة اليونيسكو الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، وذلك سنة 1973 تقع في 120 صفحة، في مقدمة وثلاثة فصول.

(*) ألقي في ندوة المصادر العربية لتاريخ إفريقيا التي أقامتها منظمة اليونيسكو بمقر وزارة الخارجية المغربية.

تتحدث المقدمة عن الخزانات العامة والخاصة التي رجع إليها المؤلف في كل من الرباط وفاس ومكناس ومراكش وتازا، وتأكد بأن هذه المجموعة لا تشتمل إلا على نصوص لم يسبق نشرها. في حين يضم الفصل الأول نصوصاً جغرافية من **الروض المعطار** للحميري، و**مسالك الأبصار** لابن فضل الله العمري؛ والثاني نصوصاً تاريخية ـ سياسية، من **مناهل الصفا** للفشتالي، و**المنتقى المقصور** لابن القاضي، و**الرسالة العجالة** للمختار الكنتي، وغيرها؛ والثالث نصوصاً ثقافية من **مباحث الأنوار** للولالي، و**الإرشاد** للمختار الكنتي، و**حديقة الأزهار** لمحمد بن المعطي السرغيني المراكشي.

ونشير إلى أن للأستاذ إبراهيم الكتاني بحثاً آخر عن **مؤلفات علماء غرب إفريقيا في المكتبات المغربية**، وهي محاضرة ألقاها بمؤتمر الدراسات الشرقية السابع والعشرين بجامعة ميشيگان في الولايات المتحدة الأميركية سنة 1967. مشفوعة بفهرس يحتوي على 114 من الكتب أو الرسائل والإجازات أو المنتسخات الإفريقية.

والثاني: **مجموعة المصادر العربية المتعلقة بإفريقيا الغربية (بلاد السودان) من القرن 8 إلى 16 م**. للراهب يوسف كيوك، وقد نشرت بباريز سنة 1975، ثم أعيد نشرها مصححة مكملة سنة 1985. تشتمل على 760 نصاً عربياً مترجماً إلى اللغة الفرنسية، مرتباً ترتيباً زمنياً من وهب بن منبه قبل سنة 110 (728 م) إلى محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى عام 909 / 1496 م. وقد استقى المؤلف ترجمة المغيلي من **نيل الابتهاج** لأحمد بابا السوداني، وهي كل ما يتعلق بالقرن السادس عشر في هذا الكتاب.

نتساءل بعد هذا: هل غادر الشعراء من متردم؟ وهل بقي لباحث ما يجد من نصوص عربية تراثية يمكن أن تضاف إلى قائمة مصادر تاريخ إفريقيا ما وراء الصحراء؟ الحقيقة أن الكتب المشار إليها آنفاً نقبت بكثير من الصبر والأناة في المظان التي لها صلة قريبة أو بعيدة بموضوع إفريقيا، وأتت بحصيلة لا يستهان بها، في مواضيع مختلفة سياسية واجتماعية ودينية وثقافية وعمرانية لم يكن من السهل على الباحثين العثور عليها مجموعة مصححة دانية القطوف. ومع ذلك.

فإنها تبقى ـ كسائر أعمال البشر ـ بعيدة عن الاستقصاء والإحاطة والكمال. ولنضرب لذلك مثلاً بآخر كتاب تحدثنا عنه، وهو نيل الابتهاج الذي اقتبس منه كيوك ترجمة المغيلي. ففيه عشرة نصوص أخرى لتراجم علماء سودانيين مات بعضهم بمراكش وبعضهم بالسودان، أهملهم المؤلف أو زاغ عنهم بصره.

وفي كفاية المحتاج لأحمد باب أهم من ذلك كله:

ترجم فيه المؤلف لنفسه وذكر شيوخه ومقروءاته ومؤلفاته.

ومما يدل على أن آفاق البحث ما زالت فسيحة بعيدة:

ـ ظهور مكتبات جديدة لم تكن معروفة من قبل، كالمكتبة الصبيحية بسلا التي طبع الجزء الأول من فهرس مخطوطاتها أخيراً.

ـ العثور على مخطوطات جديدة من حين لآخر في رفوف المكتبات العامة والخاصة، وفي ثنايا المجاميع التي لا يعرف في الغالب منها إلاّ ما يوجد في طليعتها.

ـ طبيعة المؤلفات العرية القديمة، ومنها المغربية طبعاً، في الانسياق مع الاستطراد لأدنى سبب أو ملابسة، الأمر الذي لا نستغرب معه في أن نجد مقاطع تاريخية تهم مجتمع بلاد السودان وثقافته وحضارته في كتب الفقه، والأدب، وقواعد اللغة، مثل كتاب المعيار للونشرسي، وديوان ابن إدريس العمراوي، وحاشية المهدي الوزاني على الفتوحات القيومية بشرح الآجرومية.

وأود في هذا العرض أن أتحدث بشيء من الاقتضاب عن ثلاثة أصناف من هذه الكتب التي لا تكاد تخلو من نصوص أو إشارات تهمّ تاريخ بلاد السودان.

الصنف الأول:

كتب التراجم، وهي كثيرة متنوعة، منها ما يخص إقليماً أو قبيلاً، أو مدينة أو شخصاً بعينه، ومنها ما يعم قطراً أو أقطاراً أو العالم الإسلامي بأكمله. وسأجتزىء بنموذجين منها:

1 ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، لمحمد بن الطيب القادري. وقد نشر أخيراً بالرباط في طبعة موسعة محققة في أربعة أجزاء. نجد

فيه تراجم عدد من علماء السودان ممن لم يترجم لهم أحمد بابا لتأخر وفاتهم عن وفاته أو عن تاريخ انتهائه من التأليف. مثل محمد بن أندغمحمد قاضي تنبكت من قبل السعديين إلى أن توفي بها عام 1020 / 1611م، وأخيه المؤلف المكثر أحمد بن أندغمحمد الذي تولى قضاء تنبكت من بعده وتوفي عام 1044/34 ـ 1635[1].

وقد اختلطت ترجمة هذا القاضي على بعض المؤلفين المتأخرين فحسبوه أحمد بابا، لأن كلاً منهما يدعى أحمد بن أحمد، ووفاتهما معاً بتنبكت في سنوات متقاربة.

وترجم القادري كذلك لعبد الله بن عبد الجليل البرنوي عالم برنو الكبير وصالحها الشهير (ت 1088/1677) وهذه الترجمة التي تستغرق خمس صفحات من الكتاب، تمتاز بنقلها نصوصاً مطولة من كتاب أحمد الحلبي ريحان القلوب فيما للشيخ عبد الله البرناوي من أسرار الغيوب الذي يعد اليوم مفقوداً.

كما نجد في نشر المثاني فذلكة تاريخية عن التوارگ واللمتونيين ومواطنهم بين المغرب وبلادالسودان، وعلاقاتهم مع جيرانهم أهل كلنبر من بلاد برنو، والحروب التي جرت بينهم في أواخر القرن الحادي عشر (17م) وانتهت بتغلب السودانيين وخضد شوكة التوارگ[2].

على أن أهم مسألة سودانية توسع فيها القادري هي مسألة العبيد بالمغرب، بسط القول فيهم وتتبع مراحل مشكلتهم على مدى نحو ثمانين سنة[3]، منذ أن أشار بعض القضاة على السلطان إسماعيل بن الشريف بجمع عبيد المخزن السعدي وتكوين جيش منهم يخدم الدولة ويتولى نشر الأمن وحماية الثغور.

وقد أحدثت هذه المسألة ضجة اجتماعية وفكرية كبرى بالمغرب استمرت عقوداً من السنين. ذلك أن الأمد كان تطاول على هؤلاء الأرقاء الذين انحلت

---

(1) نشر المثاني، 331:1.
(2) المصدر السابق، 164:1.
(3) نفس المصدر، الجزآن الثالث والرابع في مواضع متعددة.

عرى صلتهم بالمخزن في عهد فترة الاضطرابات الطويلة التي أعقبت وفاة أحمد المنصور، وتفرقوا شيعاً في الحواضر والبوادي، واختلطوا بالصهر والولاء طوال ثلاثة أجيال، فأصبح من العسير تمييز الأحرار من الأرقاء. واشتط بعض مَن أسند إليهم تنفيذ هذه الخطة، وفي مقدمتهم الباشا محمد عليليش، فوقع هرج ومرج، وامتحن بعض الفقهاء. وانتهى الأمر بتكوين ما عرف في التاريخ بجيش «عبيد البخاري» هذا الجيش الذي قام على عهد المولى إسماعيل بأدوار عظيمة في الحفاظ على الأمن حيث وُزعوا على القصبات العسكرية التي أنشئت في السهول والجبال وفيما وراءها. غير أن هذا الجيش بعد وفاة المولى إسماعيل، وجد نفسه القوة العظمى في البلاد، فغدا يتصرف تصرفاً أهوج متحكماً في البلاد والعباد، ينصر مِن أبناء المولى إسماعيل، وهم كثير، مَن يوافق هواه اليوم ويخلعه غداً، وحتى أقواهم المولى عبد الله بن إسماعيل نصروه وخلعوه سبع مرات كما هو معروف في التاريخ. ولم يحد من غُلواء هؤلاء الجند إلا سيدي محمد بن عبد الله الذي تمكن من حل عراهم وتفريقهم على القبائل. ولعل من أوسع وأوثق ما كُتب عن جيش عبيد البخاري هو ما في نشر المثاني، لا سيما مرحلة ما بعد المولى إسماعيل التي عاشها المؤلف ووعاها وسجل أحداثها بكثير من التجرد والموضوعية وسنعود إلى مسألة العبيد بعد قليل.

II ـ **فتح المنان في ترجمة الشيخ محمد بن أبي زيان**، لعبد الرحمن بن محمد بن بان اليعقوبي. من قبيلة رشيدة بناحية دبدو. المتوفى حوالي عام 1170 م/ 1756 م، والكتاب مخطوط لا توجد منه إلا نسخة واحدة ـ فيما أعلم ـ بفرع الزاوية القندوسية بأوطاط الحاج. يمتاز هذا الكتاب في خلال ذكر رواية القنادسة واتساع عمرانها على عهد الشيخ ابن بوزيان بالإشارة إلى أنها أصبحت محطة للقوافل التجارية الذاهبة والآيبة من السودان، وسوقاً كبيراً لتجارة الرقيق. وفي هذا الكتاب وصف دقيق للقوافل، ودور الشيخ ابن بوزيان في حمايتها بواسطة «رقاص» يبعث معها حاملاً رسالة مختومة بخاتمة، فيكون الرقاص في نفس الوقت رئيس القافلة، وإمامها في الصلاة، ودليلها في مجاهل الصحراء، وحاميها ضد كل من يعترض سبيلها من القبائل الرحل، إذ يطلعهم

على رسالة الشيخ فيعتنون باسمه ولا يمسون القافلة بسوء، وهكذا حتى بلاد السودان التي يوجد فيها كذلك عدد من مريدي الشيخ وأنصاره. ولا تخفى أهمية هذا النص الذي يمدنا بمعلومات مفيدة عن جانب من العلاقات التجارية بين المغرب والسودان في القرن الثاني عشر (18 م) الذي تشح فيه المعلومات وتعز المصادر. بل ويدلنا على تغير الخريطة الجغرافية للطريق التجاري التقليدي في صحراء المغرب الشرقي.

الصنف الثاني:

كتب الفهارس أو البرامج والمشيخات، وهي أكثر عدداً وأوسع مجالاً للاستطراد من كتب التراجم، يسجل فيها العلماء مقروءاتهم وشيوخهم وأسانيدهم، وذكرياتهم وإنشاداتهم أحياناً. وأقتصر كذلك على اثنين منها:

أ ـ فهرس أحمد بن علي المنجور الفاسي[1]، المتوفى عام 995/ 1587، يذكر فيه من جملة شيوخه عبد الرحمن بن علي سقين السفياني الفاسي، ويقص خبر رحلته إلى المشرق عام 909/ 1503 م بعد أن اجتاز ببلاد السودان، ومرَّ في إيابه عليها، ثم لم يُقم طويلاً في فاس حتى رجع إلى مملكة برنو، ودخل مدينة كنم وغيرها «وحدَّث هنالك بمحضر ملوكهم، فعظموه وأجلسوه على الفرش الرفيعة، ووصلوه بالصلات الجزيلة.. ونال عندهم المنزلة الرفيعة، ووُلد بعضُ أولاده هناك. ثم انفصل عنهم بعد سنين كثيرة إلى وطنه فاس مملوء الحقائب، مُوَفَّى الآمال والرغائب، وصلها سنة أربع وعشرين (وتسعمائة)»[2].

يبين هذا النص جانباً من الصلات الثقافية بين شمال الصحراء وجنوبها، ويحلُّ لغز ما نعثر عليه في ثنايا الكتب السودانية من ارتباط أسانيد علمائهم بسلسلة الأسانيد المغربية، لا سيما في الحديث. فعبد الرحمن سقين، ولو أنه تتلمذ على الإمام ابن غازي، يعدُّ رأس المسندين، وشيخ جماعة المحدثين. بفاس وبالمغرب كله. وما بالك به يقيم خمس عشرة سنة ببلاد السودان منقطعاً

(1) طبع بالرباط عام 1970.
(2) فهرس المنجور، ص 6.

للتدريس، كم سيأخذ عنه من طلبتها وشيوخها!

ب ـ **الإعلام ببعض من لقيته من علماء الإسلام**. فهرس عبد الواحد بن أحمد الحسني السجلماسي المتوفي عام 1003 (1595 م). درس عبد الواحد الحسني على الشيخ محمد بن مهدي في زاويته بدرعة، ثم على شيوخ فاس أحمد المنجور وأقرانه، ثم لقي شيوخاً آخرين بمراكش، منهم العالم الصحراوي محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي، الفقيه المتمكن، والمحدث المسند، أخذ عنه عبد الواحد الحسني فيما أخذ **صحيح البخاري**، وأجازه فيه ـ كما أجازه المؤرخ أحمد بن القاضي ـ «بحق قراءته إياه على الشيخ الفقيه العالم أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بَغْيُعُ عن أبي عبد الله انْدَغُمُحمد بن محمد التازختي» ويتصل سند هذين الشيخين السودانيين بالحافظ ابن حجر الذي تنتهي سلسلته المعروفة إلى الإمام البخاري.

هكذا يؤكد فهرس عبد الواحد الحسني، بكيفية معكوسة، ما رأيناه في فهرس المنجور من وطيد الصلات الثقافية، وتشابك الأسانيد بين المحدثين السودانيين والمغاربة . .

الصنف الثالث:

الكناشات، وهي نوعان، كناشات رسمية يسجل فيها العدول والقضاة أو الأمناء والنظار وغيرهم من موظفي الدولة، مسائل معينة من الشؤون العامة أو الخاصة، وتدعى أيضاً دواوين. وكناشات علمية يضمِّنها الكُتَّاب فوائد متنوعة مما يدخل في نطاق اهتمامهم فقهاً أو تاريخاً أو أدباً، نثراً أو شعراً. وقد ولع المغاربة بهذا الصنف من التدوين حتى كان الأثر الوحيد الذي يخلِّفه العالم أو الأديب بعد وفاته أحياناً، وحتى تعددت كناشات الفرد الواحد فبلغت عشراً أو أنافت عليها. وأورد المرحوم الأستاذ عبد السلام ابن سودة عدداً كثيراً من الكناشات في كتابه **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**. وسأكتفي هنا بالحديث عن كناشة رسمية، وأخرى علمية، وكلاهما تتعلق بمسألة الوصفان السود بالمغرب[1].

---

(1) مخطوط خاص بالرباط.

1 ـ الكناشات الإسماعيلية:

تقع هذه الكناشات في أجزاء عديدة لا نعرف منها اليوم إلا كناشتين بالخزانة العامة بالرباط مسجلتين تحت عدد 5 ج و 394 ك[1].

تتكون كل كناشة من فصول يعبَّر عنها بترجمات، الترجمة الأولى في الكناشة ج تتعلق بالقبيلة اليحمدية، وفي الكناشة ك بما في مدشر مشتة من ربع القبيلة المسارية المسمَّى بأولاد محمد، تتلوها ترجمات خاصة بأرباع هذه القبائل أو أخماسها حسب التقسيمات الإدارية المتعارفة آنذاك. وفي كل ترجمة يقع إحصاء المماليك الذين ثبت رقهم لملاّكهم الأصليين في تلك القبيلة، وتُثبَت رسوم عَدِّ الورثة وأصولهم المتفق عليها مهما تعددت الأجيال حتى يخلص الملك ثابتاً للملاك الحاليين. ثم تأتي رسوم أخرى تُذكر فيها شراءات المالكين للوصفان، يثبت فيها اسم الوصيف وأبيه وأمه وجده، ويوصف لونه وقده وسنه والأمارات المميزة له إن كانت، ومَن تزايد لهم من الذكور والإناث، تتلوه قوائم الشهود مع أوصافهم، وهم عشرات في كل رسم، كل ذلك مركب في إطار عبارات التوثيق العدلية المعروفة، مختوم بتوقيعات العدول الطغرائية، مؤدى لدى قاضي الجماعة المحلي الذي يُعلم بثبوت الرسوم ويضع علامته الطغرائية كذلك. تتلوه، زيادة في التوثيق، عبارات الثبوت وتوقيعات قضاة المنطقة.

ويأتي بعد ذلك رسم شراء نائب السلطان لأولئك الوصفان من مالكيهم ودفع الأثمان لهم بنفس المنهج التوثيقي المذكور.

وقد لُخِّصت تلك الكناشات أو الدواوين في كتاب سمي **جنى الأزهار، ونور الأبهار، من روض الدواوين المعطار**[2]. لم يذكر اسم مؤلفه. وهو يُجمل الرسوم والعقود المفصلة في الكناشات، ويَسْتَنْتِج أن جملة الوصفان المشتراة

(1) مخطوطتان أصليتان في حجم كبير، نحو 50 سم × 40 سم، مكتوبتان بخط نسخي دقيق مختلف ملون مجدول، مدموج مليح أحياناً، مبسوط جميل أحياناً أخرى.

(2) مخطوطة الخزانة الحسنية تحت عدد 11880 ز. وتقع في 56 صفحة، مكتوبة بخط مغربي جميل ملون مذهب.

221.320 من الذكور والإناث الكبار والصغار، وأن قدر المال المدفوع لأربابهم عشر مائة قنطار من الدراهم الفضية من السكة الإسماعيلية.

ويشير مؤلف هذا الكتاب إلى المزايا التي حصل عليها هؤلاء الوصفان على يد السلطان المولى إسماعيل الذي اعتنى بتأديبهم وتهذيبهم «وجعلم جنداً مباركاً سعيداً عرمراً» ومن المعلوم ـ تاريخياً ـ أن هؤلاء الجنود ترقوا في الخدمة العسكرية، فكان منهم قواد كبار للجيش، كما كان منهم عمال ومتصرفون وخاصة بطانة السلطان ومحلّ سره وثقته.

2 ـ كناشة السلطان مولاي عبد الحفيظ المعنونة بداء العطب قديم[1] كتبها ـ على ما يبدو ـ بعد الأزمة المغربية التي حملته على توقيع معاهدة الحماية، فأداه تفكيره إلى أن أصل الأزمة أو ما سماه بداء العطب قديم، يرجع إلى عهد فتنة أبناء المنصور من بعده، ثم اختفى في عهد المولى إسماعيل، ليتجدد بعد وفاته على يد جيش عبيد البخاري. وقد أتى برسائل لأبناء المنصور وأحفاده يَمدُّون فيها اليد إلى دول أجنبية، وضمنها رسالة بعث بها أحمد المنصور إلى علماء الأزهر يستفتيهم في مسألة تملك العبيد السود، سنرجع إليها بعد قليل. ثم أورد إحدى وعشرين رسالة بعث بها المولى إسماعيل إلى ولده المأمون خليفته بسجلماسة وما يليها من بلاد القبلة، ينتقد فيها سلوكه كحاكم انتقاداً مراً، ويشحذ عزيمته للاهتمام بجميع الأقاليم التابعة له والممتدة عبر الصحراء إلى تخوم السودان، وكأنه يرى في ذلك إرهاصاً لما سيحدث، إذ كان المأمون المرشح الأول لخلافة أبيه لولا حادث الثورة الذي قضى عليه.

وإذا كنا لسنا بصدد التعليق على هذه الرسائل لخروجها ـ جزئياً ـ عن نطاق مداخلتنا، فإننا نثير الانتباه فقط إلى أهمية هذه المخطوطة التي تزيد بكثير على الرسائل إلى المأمون المطبوعة التي لا تتعدى خمساً.

أما رسالة أحمد المنصور إلى علماء الأزهر فتقع في ثمان صفحات وهي

(1) مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت عدد 11.400 ز، فيها نحو 350 صفحة مكتوبة بخط مغربي جميل، عليها تعليق بخط مولاي عبد الحفيظ نفسه.

خالية من التاريخ، لا توجد ضمن مجموعة الرسائل السعدية المطبوعة ولا في المجموعات الأخرى المخطوطة. تذكر الرسالة في البداية «أن هذه الأقطار المغربية هي في الحقيقة كلّها ثغور ورباط لقربها من مجاورة العدو الكافر، واحتياجها إلى المناضل عن دين الإسلام في أدانيها وأقاصيها والمُدافع والمثابر، فلا جرم يحتاج من ولاه الله أمرها، وأسند إليه تدبيرها، إلى جند كثيف، وجيش متظافر حصيف، يتأتى به الدفاع عن البيضة الإسلامية، والحماية والكفاية لهذه الأمة الحنفية».

ثم تتحدث الرسالة عما كانت عليه الدول المغربية المتعاقبة من العزة والمنعة وكثرة الأجْناد وعمارة بيت المال، إلاّ أن الدولة الشريفة الجديدة أتت على حين فترة من الملك دامت نحو ثمانين سنة. فوجدته فارغاً من الجيش والعيش، ووجدت أهل المغرب لا يصلحون للجندية فتركتهم يشتغلون بمعاشهم ويؤدون ما يلزمهم لبيت المال. ثم يقول صاحب الرسالة: «وقصدنا إلى هؤلاء المماليك فاشتريناهم من مُلاَّكهم بعد البحث عنهم والتفتيش فيهم على الوجه الشرعي، والسَّنَن المرعي. ووجدنا هؤلاء المماليك الكثيرُ منهم قد أبق لسيده، وخرج عن حكمه وتصرفه ويده. وما منهم واحد إلا وقد لحقه وصف الإباق وعرف به من قبل أبيه أو أجداده أو جدّاته . . . . . وتشتتوا هكذا في البلدان والأقطار، ولا سيما حين عموم القحط والهرج حين تقلص ظل الخلافة من هذه الأقطار المغربية ـ لا أعاد الله ذلك على المسلمين ـ حتى أكلت الأوجاعُ والسنون الكثيرَ من هؤلاء المماليك»،

وتثير الرسالة بعد ذلك مسألة الشرعية في تملك هؤلاء الوصفان السود فتقول: «هذا مع أن أصلهم من كفرة السودان المجاليب من هنالك عن طريق الشراء ممن يجاورهم ويغير عليهم ويغزوهم. ولم يزل البيع فيهم والشراء في كل وقت وحين، والمشترون لهم في كل عصر متفاوتون بحسب الرغبة فيهم، وتأكد الحاجة إليهم، فمنهم المكثر، ومنهم المقلل كأهل المشرق فيما يتملكون من رقيق الروم والحبشة ومن في معناهم من أجناس كفرة الأقاليم الجنوبية».

وإذا كان أسلوب الرسالة المنمق المثقل بالسجع والدعاء شبيهاً حقاً

بأساليب كتاب المنصور من أمثال عبدا لواحد الحسني السجلماسي ومحمد بن علي وعبد العزيز القشتاليين، يؤيد هذه النسبة ويزكيها، فإن موضوع شراء العبيد بأعداد ضخمة من أجل تكوين جيش نظامي يحل محل الجنود من الأهالي، يُشكك على الأقل في نسبتها إلى المنصور الذي لا تُعرف له حركة كهذه تجاه السود بالمغرب. بل هناك نصوص معاصرة للمنصور تذكر العناصر التي يتركب منها جيشه وهم أهل سوس وشراكة، والأندلسيون والعلوج. ولولا أن هذه النسبة أتت من قبل خبير عالم لا تخفى عليه الوثائق المخزنية لجزمنا بأن الرسالة للمولى إسماعيل. ومهما يكن من أمر فإن لهذه الوثيقة قيمتها في تأكيد اهتمام المخزن السعدي أو العلوي بهذا الصنف من الوصفان السود الذين كان يوجد منهم بالمغرب في القرن الحادي عشر (17 م) مآت الآلاف، والعمل على تأديبهم وتهذيبهم واستخدامهم في عمل شريف، وإتاحة الفرص لمن ظهرت نجابته وكفايته منهم في أن يتسنّم أسمى الرتب العسكرية والمدنية.

وبعد، فإن أمام الباحثين في تاريخ بلاد السودان معيناً لا ينضب غميساً في مختلف المؤلفات العربية المغربية. والأمل وطيد في أن يتعاون الشباب المغربي الذي أخذ يتخصص في الدراسات الإفريقية، والباحثون الشباب في الأقطار الشقيقة فيما وراء الصحراء تعاوناً صادقاً خالياً من كل العقد والأحكام المسبقة التي دسّها المستعمر الدخيل هنا وهناك لأغراض لا تخفى. فشمال الصحراء وجنوبها من البحر المتوسط إلى خليج غانا بلد واحد موصول الرحم منذ وُجد الإنسان على سطح هذه القارة الطيبة وحتى اليوم وإلى ما شاء الله: وكفى بالإسلام الحنيف جامعاً لهذه الأقطار وموحداً هادياً «مَن عمل صالحاً فلنفسه، ومَن أساء فعليها وما ربك بظلاّم للعبيد».

نص صحراوي جديد يتحدث
عن العلاقات الثقافية بين شمال الصحراء وجنوبها
في القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17 و18 م)(*)

ترجع الصلات، في العصر الإسلامي، بين المغرب وأقصى الصحراء وما وراءها من بلاد السودان إلى عهد ظهور الإسلام بهذه المنطقة، إذ من المعلوم تاريخياً أن الفاتح العربي عقبة بن نافع الفهري بلغ السوس الأقصى أو جاوزه عام 62 (682 م)فتوقف عند ماسة في رواية، أو عند مصب واد نون في رواية أخرى، أو قطع الصحراء الساحلية ودخل بلاد السود في رواية ثالثة. ومما لا جدال فيه أن عقبة ترك، قبل رجوعه إلى القيروان، بعض رجاله في البلاد المفتوحة يعلّمون القرآن ومبادىء الإسلام، وأن الولاة العرب من بعده ثم الأدارسة ملوك فاس، تابعوا عملية نشر الإسلام في المناطق الجنوبية المتقدمة إلى أن أحكم المرابطون ملوك مراكش الصلات الدينية والدنيوية بين بلاد البيضان والسودان في غرب إفريقيا كما هو مشهور.

ولما قامت امبراطورية مالي على أنقاض امبراطورية غانا في منتصف القرن السابع (13 م)، سادت علاقات الثقة وحسن الجوار بينها وبين الامبراطوريتين الموحدية بمراكش ثم المرينية بفاس. ومن أبرز وأحدث ما سجله المؤرخون والرحالة عن العلاقات الطيبة بين هذه الامبراطوريات الإسلامية ما ذكره ابن خلدون عن السفارات المتبادلة بين ملكي مالي: منسى موسى وابنه منسى سليمان، وملك المغرب أبي الحسن المريني، والسفارة التي

(*) عرض ألقي في الندوة الرابعة الأوربية ـ الإفريقية المقامة بمدينة أرفود في تافيلالت أيام 20 ـ 25 أكتوبر 1985.

تحدث عنها الحسن الوزان (جان ـ ليون الإفريقي) وسار فيها مع عمه مبعوثين من طرف ملك فاس الوطاسي إلى ملك كاغو.

وقد جَدَّتْ أحداث بالمنطقة في القرن العاشر (16 م) قلبت الأوضاع رأساً على عقب. ففي السودان استبد الأسكيون بمملكة سنغاي في حوض النيجر ووسعوها على حساب الممالك الصغيرة المجاورة التي نشأت أيضاً عن انحلال امبراطورية مالي وانقسامها. واهتم الأسكيون بتنشيط حركة تجارة القوافل عبر الصحراء. وفي المغرب عملت الدولة السعدية الناشئة بالسوس الأقصى على توسيع رقعة نفوذها، في نفس الوقت منذ البداية، شمالاً على يد أحمد الأعرج، وجنوباً على يد محمد المهدي الشيخ الذي جعل في مقدمة اهتماماته بعث التجارة مع بلاد السودان عن طريق تنظيم القوافل وضمان أمن الطرق. وكانت السيطرة على ممالح الصحراء في تغازى وتاودني أول ما اختلف عليه الأسكيون والسعديون، وتطور الخلاف بعد أن ولي الملكَ أحمدُ المنصور الذهبي على أثر انتصار المغرب الساحق على البرتغال، وظهر طموحه في إقامة خلافة إسلامية إفريقية بزعامته تناهض الخلافة العثمانية التي لم يعترف بها السعديون قط واعتبروها غير شرعية. وفي هذا النطاق استرجعت جيوش المنصور بلاد توات وتيكورارين بشرق الصحراء، وتمكنت ـ دون قتال ـ من أن تأخذ البيعة للمنصور من الممالك السودانية الغربية الثلاث بحوض السينغال، في حين جاءت إلى مراكش رسل إدريس ألوما ملك برنو في المنطقة الشرقية تحمل بيعته وبيعة قومه للمنصور عن طواعية وتطلب منه المدد والعون. ولم تستعص على المنصور إلا مملكة سنغاي التي رد ملكها إسحاق أسكيا على دعوته رداً غير جميل، أدّى إلى إرسال حملات عسكرية مغربية هزمت إسحاق وقضت على مملكته، وأصبح نفوذ السعديين في إفريقيا الغربية يمتد من المحيط إلى بحيرة التشاد.

شملت العلاقات الجديدة ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة. غير أن انحلال السلطة السعدية بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي، وقيام زعامات محلية متناحرة أدى في النهاية إلى انحلال العلاقات السياسية والاقتصادية، باستثناء الثقافة التي لم تتأثر بالأحداث وظلت قائمة على ما كانت عليه بين الشمال

والجنوب. ومن أحسن من سجل هذه الظاهرة مؤلف كتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور.

مؤلف هذا الكتاب أبو عبد الله الطالب بن محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي التكروري (ت 1219 / 1805 م) لم يكد يعرف عنه أحد شيئاً خارج مسقط رأسه أو يطلع على كتابه، فلم تذكره كتب التراجم القديمة، ولم يشر إليه أصحاب معاجم الأعلام الكبرى الحديثة، كبروكلمان، والزركلي، وإسماعيل باشا البغدادي، وعباس بن إبراهيم المراكشي، ومحمد المختار السوسي. ولحسن الحظ فإن أحد تلاميذ المؤلف كتب ترجمته بعد وفاته وأضافها في آخر فتح الشكور، فرأينا عند نشر الكتاب أن نجعلها في الطليعة ليتعرف القراء على المؤلف منذ البداية.

يستنتج من هذه الترجمة ومن الإشارات العديدة الواردة في ثنايا الكتاب أن أبا عبد الله الطالب محمد من أسرة تكرورية عريقة شهيرة بالصلاح، لم يكن يشتغل بغير الإمامة بمسجد ولاته والتدريس به للطلبة وتربية المريدين بتلقينهم ورد الطريقة الناصرية الذي أخذه عن الشيخ عبد المالك الركاني تلميذ الشيخ محمد بن ناصر الدرعي بواسطتين. فكان الناس يعطون أبا عبد الله الطالب محمد زكواتهم وهداياهم، فينفق على نفسه وأهله بالمعروف، ويصرف ما بقي في اقتناء الكتب ثم في حاجيات فقراء قومه. وألف هذا العالم كتباً أخرى غير فتح الشكور، منها:

ـ كتاب في التاريخ.

ـ وكتاب في نسب الشرفاء ذرية مولاي الشريف. ولعله جد شرفاء سجلماسة ملوك المغرب العلويين. فقد ورد في فتح الشكور غير ما مرة ذكر بعض هؤلاء الملوك خاصة مولاي إسماعيل بن الشريف، وسيدي محمد بن عبد الله.

يحتوي كتاب فتح الشكور على أكثر من مائتي ترجمة لعلماء من بلاد التكرور، أو مَن دخلها من غيرهم، أو تتلمذ لهم أهل التكرور، عاش معظمهم

فيما بين 1060/1650 م و 1215/1800، ومنهم عدد من المغاربة كما سنرى.

ظل هذا الكتاب مخطوطاً مجهولاً تقريباً إلى أن تحدث عنه الأستاذ الإنجليزي هنويك، في أواسط الستينات، بمجلة البحوث الصادرة عن قسم المخطوطات العربية بمركز الدراسات الإفريقية في جامعة إبادن بنيجيريا، واعتبره ذيلاً لكتابي أحمد بابا **نيل الابتهاج**، وعبدالرحمن السعدي، **تاريخ السودان**. وقد اشتركت في تحقيقه مع الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني اعتماداً على مخطوطة أصلية من نواكشوط، ومصورتين عن مخطوطتي باريس ولندن، ونشرته دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1981.

حدد المؤلف في آخر المقدمة بلاد التكرور فقال إنه: «إقليم واسع ممتد شرقاً إلى أدغاغ، ومغرباً إلى بحر زناقية، وجنوباً إلى بيط، وشمالاً إلى أدرار». ولما لم أتمكن بعدُ من معرفة مواقع أدغاغ وبيط، فإن أدرار والبحر يضعان التكرور في الجهة الغربية من المنطقة التي يلتقي فيها شمال السودان بجنوب الصحراء، وهو أمر تتفق عليه المصادر القديمة، والدراسات الحديثة، لكن تختلف الروايات عن مدى امتداد التكرور شرقاً وجنوباً. إذ من المعلوم أن التكرور ـ في الأصل ـ مدينة قديمة كانت على ضفاف نهر السينغال واندثرت، وبقي اسمها يطلق على منطقة مجاورة لها، يبدو أنها كانت ضيقة، ثم توسعت بعد ما هاجر إليها حكام غانا البيض حين تغلبت عليهم شعوب «السوننكي» الزنوج أواخر القرن الثامن للميلاد. وظلت منطقة مستقلة عن مملكة غانا في تخومها الغربية، متمتعة بعلاقات حسن جوار مع القبائل المغربية المتاخمة لها في الشمال، خاصة لمتونة وكدالة. في حين كانت هذه القبائل مثل أهل التكرور في عداء ونزاع دائم مع ملوك السوننكي إلى أن قضى عليهم المرابطون. وكانت بلاد التكرور في عهد إمبراطورية مالي تكوِّن قسمها الغربي الذي هو أحد الأقاليم الخمسة التي تتألف منه هذه الإمبراطورية، وبلغت من الشهرة والإشعاع بحيث أصبح اسم التكرور يطلق على مالي كلها، ويدعي ملكها ملك التكرور. ومهما يكن من أمر فإن بلاد التكرور ظلت طوال العصر الإسلامي منطقة متميزة بالنبل والعلم والتجارة، وكادت جميع صلاتها بالشمال تقتصر على المغرب

الأقصى بحكم موقعها الجغرافي ووجود أُسر صنهاجية كثيرة فيها.

ولو أردنا أن نحدد منطقة التكرور من خلال فتح الشكور، لوجدنا أنها تمتد شرقاً إلى تنبكتو وما وراءها، لكن يصدُّنا عن ذلك أن المؤلف لم يلتزم بذكر تراجم التكروريين وحدهم، كما رأينا.

الصلات الثقافية:

تتجلى الصلات الثقافية في فتح الشكور بين بلاد التكرور والمغرب الأقصى من خلال ثلاث محاور أساسية:

1 ـ المادة الدراسية التي تتشابه كثيراً فيما كان يدرسه التكروريون آنذاك في ولاته وودان وتشيت وغيرها، وما يدرسه المغاربة في فاس ومراكش والمراكز البدوية. فالمادة هي هي تقريباً: لغة وقواعدها، وتوحيد وكلام، وفقه وأصول، وسيرة وتصوف. وحساب وفرائض وفلك. والكتب كذلك متشابهة مع الإقبال البالغ على مختصر خليل بشروحه المعروفة المشرقية والمغربية، وإضافة بعض شروحه المحلية، كشرحي أحمد بابا، والقاضي الطالب أبي بكر بن محمد الولاتي المحجوبي. واهتمام كثير بالنحو بقراءة الآجرومية وألفية ابن مالك. وهنا نلاحظ إقبال المغاربة على أحد شروح الآجرومية المسمى الفتوحات القيومة لأحمد بن اندغمحمد التكروري السوداني. اشتهر هذا الشرح كثيراً وعلّق عليه المغاربة، كسيدي المهدي الوزاني، وطبع مراراً على الحجر بفاس، وما زال يدرس بالقرويين إلى ما قبيل الاستقلال.

وفي فتح الشكور ورد ذكر كتب مغربية عديدة شغف بها التكروريون وتدارسوها وكتبوا عليها تعاليق وشروحاً منها: كتاب الشفا للقاضي عياض السبتي، وكتاب دلائل الخيرات لمحمد بن سليمان الجزولي، ومنظومات ابن سعيد المرغيتي السوسي في الفلك والتوقيت، وابن عبد البر التازي في القراءات، وأبي الحسن الزقاق الفاسي في أحكام القضاء. وفُتن التكروريون في التاريخ بصفة خاصة بالقصيدة اللامية المعروفة بالفشتالية لمحمد بن علي الفشتالي كاتب أحمد المنصور الذهبي. نظم فيها وفيات شرف الطالب لابن

فنفذ باختصار كبير ورمز للتواريخ بالحروف الأبجدية، مبتدئاً من وفاة الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين، إلى عصره أعني أوائل القرن الحادي عشر (17 م). وفعلاً كانت هذه المنظومة التاريخية بدعاً من التأليف، فذيلها كثير من المغاربة كالمكلاتي وميارة الفاسيين، وأضافوا إليها أشهر الأعلام إلى عصرهم. وكذلك فعل التكروريون وضعوا لها ذيولاً عدة، مثل أحمد بن محمد بن موسى بن إيجل الزّيدي، والمختار بن الطالب سيدي أحمد.

2 ـ الأسانيد العلمية لعلماء التكرور التي تتصل بأشهر علماء المغرب، الأمر الذي يؤكد ما اعتاده التكروريون من طلوع إلى المراكز العلمية المغربية للاغتراف من ينابيعها. ولم يكونوا يقفون عند المراكز المغربية التي على مشارف الصحراء في سوس ودرعة وتافيلالت، وإن كانت هي الغالبة، وإنما كانوا يتوجهون إلى مراكش وفاس وغيرهما من المراكز الواقعة شمال المغرب.

ونسجل من خلال كتاب فتح الشكور ظاهرة تعد من المفارقات البارزة بين علماء التكرور وعلماء المغرب: قلة الفهارس العلمية بل انعدامها عند علماء التكرور وورودها بكثرة عند علماء المغرب، خاصة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17 و18 م)، بحيث لا نجد في فتح الشكور ذِكراً لأي فهرس باستثناء فهرس محمد بن يعقوب، وهو مراكشي، استفاد منه أحمد بابا كثيراً في كتبه: **نيل الابتهاج**، و**كفاية المحتاج** وغيرهما، وعن طريقه استفاد منه المؤلفون الصحراويون والسودانيون. ومعلوم أن هذه الفهارس تساعد كثيراً مؤرخ الحركة الفكرية، بما يجد فيها من تفاصيل دقيقة عن دراسة صاحبها، تصل أحياناً إلى وصف الأستاذ ولباسه، وكيفية جلوسه للتدريس، وطريقته في الإلقاء والحوار مع الطلبة، والإملاء عليهم. فضلاً على أوقات الدراسة، والكتب المدروسة، والكراسي العلمية في أمهات المساجد والمدارس وما لها من أوقاف، مما يمكن معه معرفة ظروف عيش الأساتذة والطلبة، بل والخريطة الثقافية للمدينة أو القرية أو الإقليم. وكأنَّ مؤلف فتح الشكور شعر بنقص الفهارس عند مترجميه فسدَّ ذلك الفراغ بما ذكر من أحوال العلماء الذين ترجم لهم، ومشايخهم، ومؤلفاتهم، وتلامذتهم، والوظائف الدينية والعلمية التي شغلوها في بلدهم.

ومن نماذج الأسانيد العلمية المغربية في فتح الشكور، سند محمد بن الحاج عثمان بن السيد بن الطالب صديق الجماني (المترجم رقم 100):

أ/ في قراءة الإمام نافع، عن «الإمام المحقق أستاذ المغرب كله، بل لأستاذ الدنيا كلها» عبد الرحمن بن القاسم ابن القاضي الفاسي، عن شيخه عبد الرحمن بن عبد الواحد، عن الشريف المريي، عن القاسم بن إبراهيم الدكالي، عن الإمام ابن غازي. وكل هؤلاء الأعلام مغاربة فاسيون.

ب/ في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، عن الحاج عبد الله بن محمد بن أحمد بن عيسى المغربي، عن الإمام محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي، عن والده، عن إمام فاس محمد القصار.

3 ـ الأسانيد الصوفية لكبار شيوخ بلاد التكرور. التصوف التكروري ـ مثل التصوف المغربي ـ شاذلي عموماً، جزولي خصوصاً. متشبع بمحبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وآله الكرام. وفيما يخص هذه النقطة نجد في فتح الشكور صوراً عديدة لمجالس المتصوفين في زواياهم ومساجدهم ومجالسهم الخاصة لا تكاد تختلف عن مجالس المتصوفين في المغرب الأقصى، فهم يقرؤون الأوراد المتركبة أساساً من الاستغفار والهيللة والصلاة على الرسول الكريم بصيغ متعددة، ويداومون على قراءة أحزاب الإمام الشاذلي، وأسماء الله الحسنى لابن عباد الفاسي ودلائل الخيرات لمحمد بن سليمان الجزولي، والبردة والهمزية للبوصيري، وبانت سعاد، والعشرينيات، وما شاكلها.

ومن أشهر شيوخ التصوف في بلاد التكرور عبد المالك بن عبد الله الركالي الشريف الحسني، أخذ عنه مؤلف فتح الشكور وعقد له ترجمة حافلة (رقم 198). وكان إشعاع هذا الشيخ يصل إلى توات وما وراءها من بلاد الصحراء الشرقية. كما كان أبوه عبد الله شيخاً صوفياً شهيراً، أخذ الطريقة الناصرية عن شيخ المغرب الشرقي محمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان، عن مبارك العنبري الغزواني، عن الشيخ سيد مَحمد ابن ناصر الدرعي التامكروتي. ويتصل سند الشيخ ابن ناصر بالإمام أحمد زروق الفاسي، ويتصل سند هذا بالشيخ أبي

الحسن الشاذلي الغماري تلميذ مولاي عبد السلام ابن مشيش الإدريسي دفين جبل العلم بين تطوان وشفشاون.

وإلى هذه المحاور الثلاثة الأساسية، يجد قارىء فتح الشكور إشارات عابرة كثيرة تؤكد الصلات الروحية بين المغرب وبلادالتكرور مثل التراجم التي خصصها المؤلف لطائفة من علماء المغرب، بسبب ما كان لهم من صدى واسع بين علماء وصلحاء التكرور، ولو أنهم ـ على ما يبدو ـ لم يأخذ عنهم التكروريون مباشرة، وإنما تتلمذوا لهم عن طريق قراءة مؤلفاتهم. وفي مقدمتهم الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي، وابنه محمد العربي الفاسي، وحفيده محمد المهدي الفاسي.

دراسات المستشرق
ألفريد بيل المتعلقة بالمغرب (*)

إن موضوع المغرب في الدراسات الاستشراقية الذي اختارته أكاديمية المملكة المغرب موفقة لهذه الندوة موضوع شاسع ـ كما نعلم ـ يمتد عبر أربعة قرون خلت، ويتصل بعدد من الدول الغربية. وبعد أن أصبحت فرنسا تتاخم الحدود الشرقية لبلادنا على إثر احتلالها للجزائر وتونس طغت الدراسات الاستشراقية الفرنسية واصطبغت بصبغة استعمارية مكشوفة على يد الرحالة والمبشرين وأضرابهم من المخبرين.

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت الدراسات الاستشراقية الفرنسية المتعلقة بالمغرب تأخذ طابعاً علمياً أو تزعم لنفسها ذلك، سواء في المدرسة العربية الناشئة بالجزائر أو فيما سمي بالبعثة العلمية للمغرب حين أصبحت مؤسسة رسمية مقيمة بطنجة، حتى إذا فرضت الحماية على المغرب هيمن المستشرقون الفرنسيون على الساحة الثقافية واحتكروا كل المبادرات، وكتبوا عن ماضي المغرب وحاضره في الكتب والحوليات والدوريات والنشرات ما يصعب تعداده وتقييمه.

وقد اخترت موضوعاً لعرضي شخصية معروفة في عالم الاستشراق الفرنسي باعتدالها وغزارة إنتاجها، ألا وهو ألفريد بيل A. BEL، وهو من المخضرمين الذين عاشوا طرفاً من القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين، وأقاموا مدة في كل من الجزائر والمغرب، وكتبوا عدداً من الكتب والبحوث عن بلادنا.

(*) ألقي في ندوة «المغرب في الدراسات الاستشراقية» التي أقامتها أكاديمية المملكة المغربية بمراكش في أبريل 1993.

ولد أ. بيل في مدينة سلان دي بان شرقي فرنسا في 41 ماي سنة 1873 ودرس بها إلى أن حصل على البكالوريا العلمية في سن السابعة عشرة، وبدأ يشتغل في التعليم ببلده لكن سرعان ما انتقل إلى الجزائر ولم ينه العقد الثاني من عمره، فعمل معيداً بإعدادية مدينة بليدة، ثم بثانوية وهران حيث بقي خمس سنوات. وفي نفس الوقت أخذ يتعلم اللغة العربية في نطاق نظام الترجمة المحدث آنذاك في المدرسة العليا للآداب بالجزائر التي كان يدرس بها ويشرف على إدارتها المستشرق الكبير روني باسي فلم يلبث أ. بيل أن حصل على بروفي اللغة العربية وهو ابن أربع وعشرين سنة فسماه باسي مدرساً بثانوية الجزائر، وفيها تعرف على المستشرقين ديستان ودوتي. وبعد سنتين حصل على دبلوم اللغة العربية في الترجمة، ثم دبلوم الدراسات العليا في التاريخ والجغرافيا بعد أن هيأ بحثين، التاريخي منهما تحت إشراف روني باسي عن بني غانية بقايا المرابطين الذين حاربوا الموحدين وأزعجوهم معظم فترة حكمهم.

وهكذا صار أ. بيل يعمل بالجزائر إلى جانب هيئة من المستشرقين المتمرسين بالدراسات الإسلامية العربية عامة والبحوث المغربية والإفريقية خاصة، أمثال روني باسي وولديه أندري باسي وهنري باسي وجورج مارسي وويليام مارسي وإيميل لاووست وغيرهم ممن درسوا في الجزائر والمغرب ونشروا عنهما كتباً وبحوثاً مرجعية.

لم يهتم ألفريد بيل بالدراسات اللغوية التي كانت سائدة بين زملائه في الجزائر، وتخصص في التاريخ الديني والعلمي والفني والحضاري لبلاد المغرب الكبير. وإذا كانت معظم كتاباته عن تلمسان والجزائر بحكم إقامته الطويلة هناك، فإن حظ المغرب منها لا يقل أهمية من حيث الكيف كما سنرى.

وفي سنة 1914، استدعي المقيم العام ليوطي أ. بيل إلى المغرب وسماه مندوباً لإدارة الكتابة العامة للدولة الشريفة (الإدارة الفرنسية) فيما سمي آنذاك بلجنة تحسين التعليم بالقرويين أو مجلس العلماء التحسيني للقرويين. وقد احتفل بتدشين هذا المجلس في أول اجتماع له بقصر البطحاء بفاس يوم 21

جمادي الثانية عام 1332/17 ماي 1914. وبالرغم على أن أعمال هذا المجلس لم تدم إلا بضعة شهور ولم تسفر عن أية نتيجة إيجابية، فإن أ. بيل ظل مقيماً بفاس ثلاثين شهراً، اهتم خلالها، إلى جانب «تحسين» التعليم الإسلامي، بخزانة القرويين التي كانت مخطوطاتها تشغل بال إدارة الحماية والمستشرقين الفرنسيين المتطلعين إلى ما فيها من ذخائر ووثائق. وقد كثّف ألفريد بيل اتصالاته بعلماء فاس وأدبائها وصناعها وحرفييها، واطلع على المآثر والنقوش والتحف والمخطوطات قبل أن يرحل مثقلاً بالمستندات والنماذج والمستنسخات إلى تلمسان حيث أخذ يحرر ويؤلف ويترجم مواد تتعلق بالحاضرة الإدريسية والمغرب عموماً. من ذلك، علاوة على الكتب الثلاثة التي سنتحدث عنها بعد قليل، كتاب يترجم النقوش العربية بفاس، وبحث في الصناعات الخزفية بفاس، ومساهمة في دراسة الدراهم الموحدية ومقال عن الأمراء المرينيين الأولين والإسلام، إلى ما كتبه في دائرة المعارف الإسلامية عن المرابطين وعن الموحدين.

والنماذج الثلاثة التي ارتأينا تقديمها في هذا العرض تعطي إلى حد مّا فكرة عن الاتجاهات المختلفة لاهتمامات أ. بيل العلمية. يمثل الكتاب الأول شغفه بالمخطوطات العربية، والثاني اختياره لكتب تاريخ المغرب وطريقته في التحقيق والترجمة، والثالث خلاصة آرائه في دخول الإسلام واستقراره ببلاد المغرب وأثر الفرق الدينية المحلية والطارئة طوال العصر الإسلامي.

نشر الكتاب الأول: باسم برنامج يشتمل على بيان الكتب العربية الموجودة بخزانة جامع القرويين بعاصمة فاس. طبع بالمطبعة البلدية بدار المكينة بفاس سنة 1917 في 159 صفحة، وهو أول فهرس للمخطوطات نشر في المغرب محتوياً على 1542مخطوطاً و 98 مطبوعاً على الحجر. وقد كتب أ. بيل تقديماً لهذا الفهرس بين فيه الصفة الرسمية التي أهلته لولوج خزانة القرويين والخطوات التي قطعها مع إدارة الحماية لإعادة فتح الخزانة بعد أن أقفلت أكثر من عامين، وإدخال عبد الحي الكتاني وعالم آخر إليها قبل أن تسند

عملية تحرير قائمة الكتب إلى الفقهيين عبد الواحد الفاسي وإدريس بن طلحة. وأدمج في هذا التقديم شيئين:

ـ تقريراً مجملاً لعبد الحي الكتاني عن تاريخ خزانة القرويين ومحتوياتها وأسباب تناقص الكتب فيها، وبعض النفائس التي ما تزال بها.

ـ ونص الضابط، أو القانون، الذي وضعه لتنظيم خزانة القرويين وخزانتي مسجدي الرصيف وفاس الجديد، باتفاق مع السلطة المركزية للحماية، وهو يتركب من ثمانية فصول تحدد طريقة إحصاء الكتب والحفاظ عليها، وقراءتها وإعارتها، من جهة، وتمنع من جهة أخرى صرف أي مبلغ مالي عليها إلا بموافقة إدارة عموم الأوقاف (الإدارة الفرنسية).

يستوجب هذا الكتاب الملاحظات التالية:

ـ أنه لا يعكس واقع خزانة القرويين آنذاك ولا تظهر فيه أسماء كثير من الكتب التي كان المستعربون الفرنسيون يتطلعون إليها. وذلك لأسباب، منها حذر العلماء المغاربة القيمين على خزانة القرويين واحتمال إخفاء بعض الكتب المهمة في ركام الخروم قبل أن يغلقوها على إثر فرض الحماية. ومنهم الفقيه أحمد بن محمد بن العباس البوعزاوي الذي قضى حياته يتمم الكتب المبتورة في هذه الخزانة وينسخ بخطه الدقيق المليح الصفحات الناقصة. وقد اتهمه المتشيعون للفرنسيين، مثل صاحب كتاب **الشعر والشعراء بفاس**، بأنه كان يختلس كتب الخزانة القرويين ويأخذها لنفسه. وقد برّأه الله مما قالوا، إذ بعد وفاته عام 1337/1919، بيعت خزانة كتبه المخطوطة في المزاد العلني بفاس ولم يعثر فيها على أي كتاب أو ورقة لخزانة القرويين. وقصته مبسوطة في كتب عبد السلام ابن سودة **زبدة الأثر وسل النصال**.

ـ أن عدداً غير قليل من الكتب المذكورة في هذا الفهرس هي عبارة عن مجاميع تحتوي على كتب كثيرة ورسائل عديدة قد تبلغ العشرة والعشرين وأكثر، فلا يسجل محررا قائمة البرنامج إلا اسم الكتاب الأول فقط. وبذلك اختفت أسماء فهارس العلماء القدماء والمحدثين من هذا البرنامج ولم تتجاوز قائمة

كتب التاريخ والتراجم والرحلات فيه ثلاث صفحات، بينما شغلت علوم القرآن والحديث والفقه واللغة وقواعدها سائر صفحات الفهرس، وهي بطبيعة الحال لا تعني هذا الصنف من المستعربين الفرنسيين، لذلك أعربوا عن خيبة أملهم في فهرس بيل بعد صدوره وأعرضوا جزئياً عن خزانة القرويين فنجاها الله منهم.

ـ وهناك ملاحظة أخيرة وهي أن هذا الفهرس الذي ظل مرجعاً معتمداً أكثر من نصف قرن منسوباً إلى أ. بيل معدوداً في طليعة مؤلفاته إلى عهد قريب، ولو أن الغلاف لا يحمل اسمه، ليس لبيل فيه غير قسم من التقديم، أما نص الفهرس من ألفه إلى يائه فهو لمحرريه الفقهيين عبد الواحد الفاسي وإدريس بن طلحة. ولولا أنه أصبح متجاوزاً بعد الفهرس الجامع الذي كتبه المرحوم العابد الفاسي لخزانة القرويين لوجب رد الاعتبار للمؤلفين الحقيقيين.

الكتاب الثاني: زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي الفاسي. نشر أ. بيل النص العربي في مطبعة كاربونيل بالجزائر سنة 1340/ 1922، في 86 صفحة وترجمه إلى الفرنسية ونشر الترجمة بنفس المطبعة سنة 1923 في 198 صفحة.

يعد هذا الكتاب ضمن مجموعة الكتب التي ألفت في العصر المريني للتعريف بمدينة فاس، بعد أن استرجعت مكانتها كحاضرة للدولة، وازدهرت باكتشاف ضريح مؤسسها إدريس الأزهر. وكانت نسخ زهرة الآس نادرة، لم يتمكن المستشرقون في الجزائر من الاطلاع عليها بعد أن قاموا بترجمة مثيلاتها: **القرطاس، والذخيرة السنية، وروضة النسرين.** لذلك اعتبر أ. بيل عثوره عليها في خزانة القاضي محمد العبادي بفاس اكتشافاً مهماً.

استنتسخ أ. بيل من مخطوطة العبادي نسخة لنفسه، ولم يكلف نفسه عناء مقابلتها بالأصل وإنما وكل ذلك إلى صديقين له من علماء القرويين ـ على حد تعبيره ـ ولم يزد عند قراءته النص العربي للترجمة على التنبيه في تعليقات قصيرة وقليلة جداً على اختلاف بعض الكلمات أو الجمل التي نقلها الجزنائي عن **القرطاس**، أو التي نقلها عنه ابن القاضي في **جذوة الاقتباس**. ولم يرجع إلى

المعاجم للتأكد من بنية بعض المفردات التي لا معنى لها في النص ولا تحتاج إلا إلى إضافة نقط أو حروف أو حذفها أو تقديم أو تأخير في ترتيب حروف بعض الكلمات، كما سنرى بل نجد جملاً كتبت مرة صحيحة وأخرى مصحفة فتركت بحاليها من الصحة والتصحيف وهكذا خرج النص العربي مليئاً بالأخطاء وظل مقروءاً هكذا زهاء نصف قرن.

وقد تبين فيما بعد أن نص زهرة الآس الذي نشره أ. بيل ليس مصحفاً فقط ولكنه ناقص مبتور، وكأنه مختصر للكتاب الأصلي الذي عثر عليه الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور في الخزانة الملكية ونشره محققاً سنة 1967 بعنوان جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس. ومن الزيادات المهمة في النسخة الثانية مقدمة المؤلف الجزنائي التي يبين فيها ظروف تأليفه لهذا الكتاب ويجيب عن كثير من التخمينات والأسئلة التي طرحها أ. بيل في تقديمه. يخبر الجزنائي أنه ألف زهرة الآس لوزير بني مرين المستبدّ عليهم عمر الياباني وجعل موضوعه مقتصراً على تأسيس مدينة فاس من طرف الأدارسة الحسنيين وبناء جامعي القرويين والأندلسيين. ومن المعقول في تلك الظروف التي شالت فيها نعامة المرينيين أن يعرض الجزنائي عن مآثرهم بفاس على ضخامتها وروعتها. كتب أ. بيل مقدمة مطولة للترجمة الفرنسية لزهرة الآس حاول فيها أن يلقي بعض الأضواء على المؤلف الجزنائي ـ في غيبة أخباره عند أصحاب كتب التراجم ـ عن أصله ونشأته ودراسته وصلته بفاس ومصادر كتابه وأسلوبه. وبالرغم على أمانة الجزنائي الذي ذكر مصادره تفصيلاً وإجمالاً في طالعة كتابه وخاتمته وأثناء فصوله فإنه لم يسلم من لمزه بالسرقات الأدبية. وهي نعرة طاغية عند المستشرقين الفرنسيين المعاصرين لألفريد بيل تجاه جميع المؤلفين المسلمين. والذي تولى كبرها منهم ليڤي بروڤنسال.

وإذا كنت لا أراني أهلاً للحكم على مدى سلامة أسلوب أ. بيل في لغته الفرنسية، فإنني أشير إلى أن ترجمته لزهرة الآس لا تكاد تختلف عن النص العربي تصحيفاً وتحريفاً وحذفاً وإقحاماً، لأنه ـ كما يقال ـ : «أساء فهماً فأساء حكماً» والغريب أن الأخطاء النسخية في النص العربي تجعل بعض العبارات

مغلفة لا معنى لها أو متناقضة مع عبارات أخرى صحيحة في موضع آخر من الكتاب، ومع ذلك لا يُعيرها المترجم اهتماماً ولا يتوقف عندها، بل يقتحمها على علاتها ويؤولها تأويلاً وهمياً بعيداً بما يناسب السياق العام في نظره وسأسوق هنا بعض الأمثلة.

ففي صفحة 5 من النص العربي عند كلام الجزنائي عن مزايا سكان الإقليم الرابع الأوسط الذي تقع فيه مدينة فاس، واعتدال أبدان أهله بفضل اعتداله: قال فسلموا من «شقره الروم... وغلظ الترك... ودماثة أهل الصين» فحرفت هذه الصفات عنده إلى «شغرة... وغلط... ودماهة» وترجمها كذلك مصحفة.

* وفي صفحة 13 من النص العربي عند الكلام على وصول إدريس الثاني إلى زالع ليبني فيه مدينة عظيمة يقول الجزنائي: «فظهر له أن الهوام تكثر فيه زمن القيظ» فكتبت العبارة مصحفة في نسخة بيل: «فظهر له أن الهدام تكثر فيه زمن الفيض» وترجمها ترجمة مصحفة مطابقة.

وبعدها صحفت عنده كلمة «المطر» في عبارة الجزنائي فكتب «القطر».

* وفي صفحة 15 لدى الكلام على دخول مذهب مالك إلى بلاد المغرب أورد الجزنائي العبارة المشهورة المكررة في كتب التراجم: «إلى أن جاء سحنون ففض حلق المخالفين» فصحفت في نسخته: «فعظ خلق المخالفين» وترجمها هكذا ولا أدري من أي «قاموس» أخذ معنى «عظ» و «خلق».

* وفي صفحة 17 ألحقت ـ خطأ ـ ياء الإضافة بكلمة «كتاب» في نسخة أ. بيل فقرأ: «ومن أراد الوقوف على أكثر من هذا فليطالع كتابي ـ بدل كتاب ـ المستفاد في ذكر الصالحين من العباد وترجمه هكذا منسوباً للجزنائي، وذكر في التقديم ضمن ما استخرجه من عناصر ترجمة مؤلف زهرة الآس أن له كتاباً آخر بعنوان المستفاد... وأنه لا يعرف شيء عن هذا الكتاب. والعجب أن الجزنائي ذكر المستفاد مرة أخرى في صفحة 6 منسوباً لمحمد بن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بالكتاني فلم يعره المترجم اهتماماً وأبى إلاّ أن يضيف مشكلاً وهمياً

جديداً إلى الاختلاف القائم حول مؤلف هذا الكتاب الذي اكتشف قسم منه أخيراً في فكيگ ونشر حوله وحول مؤلفه أخونا الأستاذ محمد بنشريفة بحثاً قيماً في إحدى المجلات الوطنية.

ونشير في الأخير إلى أن الشعر أسوأ حظاً من النثر في الترجمة عند أ. بيل وقد يختلط عليه بالنثر إذا استرسل الناسخ في كتابة الأبيات كما حدث في بيتي أبي علي البصير المشهورين اللذين ختم بهما الجزنائي كتابه، وانضم إلى ذلك تصحيف فصرنا نقرأ عنده مشكولاً بالعربية ومترجماً ترجمة حرفية: «العمر أبيك ما نسب العلا إليّ كرمٌ وفي الدنيا كريم ولكن البلاد إذا اقشعرت وطوح نبتها رعي الهشيم» بدلا من:

لعمر أبيك ما نسب المعلى ... إلى كرم وفي الدنيا كريم

ولكن البلاد إذا اقشعرت ... وصوح نبتها رعي الهشم

* * *

أما الكتاب الثالث فصدر الجزء الأول منه بباريس سنة 1938 بالفرنسية تحت عنوان: La Religion musulmane en Berberie في 411 صفحة، ثم ترجمه إلى العربية عبد الرحمن بدوي ونشرته دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1981 في 460 صفحة بعنوان: **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**. وكان المؤلف عازماً على إصدار جزءين آخرين يضمنهما تفصيلات ما أجمله في الجزء الأول وعكف على ذلك في سنواته الأخيرة التي عاشها بمكناس لكنه توفي قبل أن يحقق أمله في 18 فبراير 1945.

يتناول هذا الكتاب موضوعاً حيوياً شاسعاً هو الإسلام في بلاد المغرب منذ الفتح العربي أي مجمل التاريخ الديني والاجتماعي لهذه البلاد طوال أربعة عشر قرناً. وإذا كان نطاقه الجغرافي واسعاً يمتد من ليبيا إلى الأندلس فإن معظم التطورات والتفاعلات المتعاقبة فيه جرت في المغرب الأقصى الذي تركزت فيه السلطة بفاس ومراكش في معظم العصر الإسلامي.

ولتقديم صورة مصغرة عن عمل أ. بيل في هذا الكتاب ـ مثلما فعلنا من

قبل - أجتزىء ببعض الملاحظات العامة قبل التوقف قليلاً عند ثلاث نقط تتصل بالتاريخ الديني لبلادنا.

يتميز كتاب الديانة الإسلامية ببلاد المغرب من الناحية التوثيقية بقوائم بيبليوغرافية ضافية، منها مصادر عربية أصيلة اجتهد المؤلف في نقل أسمائها في طليعة كل باب إلا أنها تبقى شكلية على العموم لا تستغل ككتب علوم القرآن والحديث والسير والتواريخ الكبرى التي لم تترجم، وأخرى غربية بمختلف اللغات الأوربية، وهي عبارة عن دراسات حديثة منشورة ككتب أو أبحاث في مجلات علمية. وهي المعتمدة عند المؤلف، مع الرجوع إلى بعض ما ترجم من كتب التراث الإسلامي. وقد انطلق أ. بيل من مبدأ نفي الموضوعية عما كتبه المسلمون - عموماً - عن تاريخهم، ومن ثم ضرورة الاعتماد على ما كتبه غيرهم عنهم. ويصل به الإمعان في هذا المبدأ أن يرفض أحياناً شهادات تاريخية معاصرة للأحداث كروايات أبي عبيد البكري في المسالك والممالك، وأخبار البيدق الذي لازم المهدي ابن تومرت في ظعنه وإقامته ليقدم عليها رأي باحث غربي يعيش اليوم دون سند ولا معرفة إلا مجرد التخمين والتأويل.

لا يعني هذا أن كل المراجع الغربية التي يعتمد عليها أ. بيل مشبوهة، بل منها ولا شك ما هو ذو طابع علمي واضح كمؤلفات وأبحاث أستاذه روني باسي وغيره من المستشرقين الذين أشرنا إليهم في طليعة هذا العرض. لكن منها مراجع أخرى كتبها رهبان وأشباههم من المتعصبين ضد الإسلام. الذين يرجعون إلى وثائق أديرة العصور الوسطى التي تشوه عن جهل وحقد تاريخ الإسلام أو يقرؤون كتب المسلمين متتبعين ما تشابه من النصوص ابتغاء الفتنة والتحريف، مثل گولد تْسيير الذي يعتمده أ. بيل في كل ما كتب عن تاريخ الإسلام والشريعة الإسلامية، يستشهد بآرائه وينقل عنه نصوصاً طويلة من كلامه أو ترجمته. فهو معه مثلاً في أن أسباب اندفاع العرب في الفتوح إنما هي الحاجة المادية والطمع لا الوازع الديني.

بعد هذه الملاحظات السريعة أنتقل إلى النقط الثلاث المتعلقة بالتاريخ الديني لبلادنا في كتاب أ. بيل: العقيدة السنية، والمذهب المالكي، والتصوف.

يربط أ. بيل بين الفتح الإسلامي والعقيدة السنية ويرى أن المغاربة تلقوا هذه العقيدة منذ وطئت خيول المسلمين أرضهم. وهذا صحيح. لكنه يطيل الحديث عن نشأة علم الكلام في المشرق ومذاهب النقليين والعقليين إلى أن ظهر المذهب السني الوسط مع الأشعري في القرن الرابع الهجري ويبقى انعكاس هذه التيارات الشرقية على المغرب غير واضح، خاصة العقيدة الأشعرية التي سيتجدد حديث المؤلف عنها أثناء تعرضه لمسألة «التجديد العقدي» على يد المهدي ابن تومرت بما يفهم أنه الذي عمل على نشر هذا المذهب في المغرب وإحلاله محل العقيدة المنتشرة أيام المرابطين. وليس هناك من النصوص التي وقفنا عليها ما يدل على أن مذهب الأشعري مُنع من دخول المغرب أو حورب فيه قبل الموحدين. بل كان الدارسون المغاربة الذين يرحلون إلى المشرق طلباً للعلم يأخذونه عن المتكلمين كما يأخذون العلوم الشرعية والعقلية الأخرى، ثم يقومون بتدريس علم الكلام في بلادهم. بل يؤكد كلام عبد الواحد المراكشي الذي يعتمد عليه من يجعلون نشر الأشعرية بالمغرب من عمل ابن تومرت، يؤكد انتشار علم الكلام على عهد المرابطين وأن الفقهاء كانوا يكرهونه وما زالوا يستنكرونه بحضرة الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين حتى أقنعوه بذلك فكتب إلى البلاد بتجنب الخوض فيه. لكن ذلك لا يعني نبذ العقيدة الأشعرية السنية التي أصبحت شائعة في مختلف بلاد الإسلام، وإنما نبذ البراهين المنطقية منها لصعوبة فهم عامة الناس لها. وليست اتهامات الموحدين لخصومهم المرابطين بالتجسيد والتجسيم إلاّ مغالطات سياسية بالدرجة الأولى. ولو كانت العقيدة الأشعرية من عمل الموحدين لنبذت بعد حين مثلما نبذت وامّحت تعاليمهم الدينية الأخرى.

وعن دخول المذهب المالكي إلى المغرب وتمكنه فيه رغم ما قوبل به في بعض الأحيان من مضايقة أو منع، يأتي كلام أ. بيل مضطرباً أو متناقصاً ويبقى على العموم ناقصاً قاصراً. يرى أ. بيل أنّ دخول هذا المذهب إلى المغرب (ما يشمل بلاد المغرب والأندلس) تمّ فيما بين القرن الثالث والرابع، والشخصية الرئيسية عنده هي سحنون القيرواني مع إشارة عابرة إلى يحيى بن يحيى الليثي.

إلى أن يضايقه المذهب الشيعي بعد قيام الدولة الفاطمية في تونس، ثم يعود إلى الظهور بعد زوال سلطة الفاطميين إلى أن يفرضه المرابطون فرضاً على عدوتي المغرب والأندلس حين بسطوا نفوذهم عليهما ويختفي مرة أخرى إبان سطوة الموحدين ليعود إلى الظهور بعدهم ويستمر إلى الوقت الحاضر.

هكذا يقدم أ. بيل المذهب المالكي في القرون الخمسة الأولى قليل الأنصار، محدود الانتشار، والواقع خلاف ذلك. فالمذهب المالكي دخل إلى منطقة الغرب الإسلامي على يد عدد غير قليل من تلاميذ الإمام مالك الذين أخذوا عنه مباشرة، أمثال يحيى بن يحيى المذكور آنفاً، وهو لواتيٌّ من ناحية طنجة استقر بقرطبة، وقرعوس بن العباس الثقفي القرطبي، وزياد بن عبد الرحمن شبطون القرطبي، وعبد الرحمن بن هند الطليطلي، وسعيد بن عبدوس الأموي الطليطلي، وعبد الرحمن بن عبد الله الأشبوني وغيرهم، ثم على يد الطبقة الثانية التي أخذت عن تلاميذ مالك، وأشهرهم محمد العتبي مؤلف **المستخرجة**، وعبد الملك ابن حبيب مؤلف **الواضحة**، وهما كتابان لا يقلان أهمية عن مدونة سحنون.

وعرف المذهب المالكي طوال القرون الخمسة الهجرية الأولى انتشاراً واسعاً في هذه المنطقة العربية من العالم الإسلامي، لا من حيث الممارسة فقط ولكن أيضاً من حيث الإنتاج الغزير الجيد مما هو مذكور عند القاضي عياض في المدارك وغيره. ولذلك انفرد المذهب المالكي في هذه المنطقة، وصمد أمام تعنت الفاطميين والموحدين وغيرهم.

ولم يفرض المرابطون المذهب المالكي ـ كما زعم أ. بيل ـ ولكنهم ـ بالعكس ـ استمدوا منه قوتهم منذ قيام حركتهم الجهادية بزعامة عبد الله بن ياسين إلى آخر عهدهم، ولم يحملوا الناس على ترك القرآن والحديث والأصول، ولا على الإعراض عن الاجتهاد. وإنما كثر الإقبال على الفروع لما كانت تؤهل له من شفوف وحظوة ورغد عيش سواء في البلاط أو في مختلف

المناصب الشرعية. ويكفي أن نعرف أن أعظم إنتاج فقهي أندلسي تم أيام علي بن يوسف بن تاشفين، وهو كتاب البيان والتحصيل لابن رشد الجد، وهو إن ارتكز على تحليل السماعات المذهبية في مستخرجة العتبي فإن أكثر اعتماده على الآيات والأحاديث، واجتهادات ابن رشد الشخصية التي انتشرت في أقطار العالم الإسلام المتمذهبة بمذهب مالك. كما ألف في نفس العصر أعظم كتاب يجمع بين فروع الفقه وأصوله، وهو المقدمات الممهدات لنفس المؤلف ابن رشد الجد. وبعد اضمحلال نفوذ الموحدين استبد ساعد المذهب المالكي أكثر، وأصبحت فاس أكبر حواضر المذهب المالكي بدون منازع.

* * *

أما التصوف المغربي فهو عند بيل متأخر نشأ على إثر حركات المرابطين والموحدين وكردٍّ فعل لحياة البذخ والترف عند الفقهاء وإعراض العامة والخاصة عن أوامر الدين. وهذا ينافي ما نجده في كتب المناقب وغيرها من وجود عدد من الزهاد والعبّاد المتبرك بهم قبل هذا التاريخ بكثير.

إن التصوف في المغرب يمكن أن يوصف أيضاً بالسني، كالعقيدة والمذهب، وهو بذلك قديم قدمهما انتقلت بذوره مع الفاتحين، ثم نمت وتطورت. وهو ليس غير الإحسان الوارد في حديث عمر: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) الذي تبلور في سلوك الإمام الجنيد. إنه بسيط سليم ـ على العموم ـ من الشطحات وغريب الإشارات. ولحسن الحظ نجد نماذج حية للمتصوفين المغاربة في القرون الثمانية الأولى في كتب التشوف لابن الزيات التادلي والمستفاد للتميمي الفاسي والمقصد الشريف في صلحاء الريف للبادسي. ولا تخلو كتب التراجم بعد ذلك من ذكر أحوال المتأخرين من الزهاد والصالحين.

وقد أكد الشيخ عبد الواحد ابن عاشر الفاسي في القرن الحادي عشر (17 م) تشبث المغرب بهذا الثلاثي السني في بيت من المرشد المعين:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

وما زال المذهب الرسمي لهذه البلاد.

كان غرضي من هذا العرض السريع عن المستشرق الفرنسي الفريد بيل وبعض أعماله المتعلقة بالمغرب تقديم نموذج مبسط لتلك الدراسات التي كتبها الفرنسيون في ظروف الحماية مشتملة على الغث والسمين. قد آن الأوان لينظر فيها المواطنون لنقدها أو لإثارة الانتباه إليها على الأقل.

* * *

صفحات مغربية للدكتور نقولا زيادة (*)

الدكتور نقولا زيادة من علماء المشرق القليلين الذين يهتمون بقضايا الجناح الغربي لبلاد العروبة. وهو علم غني عن التقديم، نعرفه من خريجي جامعة لندن، يعمل أستاذاً للتاريخ العربي الحديث، ورئيساً لدائرة التاريخ والآثار بالجامعة الأمريكية في بيروت. لا يستأثر به كرسي الجامعة ولا يصرفه عن الانطلاق في أجواء فسيحة. يتجلى ذلك في محاضراته، وبحوثه العديدة في مجلات الشرق والغرب، ومؤلفاته التي بلغت لحد الآن خمسة وعشرين، باللغتين العربية والإنجليزية. عرفت السنة المنصرمة منها مؤلفين اثنين، هما: دمشق في عصر المماليك، وصفحات مغربية.

هذا الكتاب الأخير هو الذي سنحاول التعرف على بعض محتوياته. وهو كما قال المؤلف في كلمة التصدير «مجموعة مقالات ومحاضرات وإذاعات أعدت في مناسبات متفاوتة في الزمن، متباينة في الحاجة. فأولاها ترجع إلى أواخر سنة 1951، وآخرها وضع في سنة 1965، بعضها نشر في دوريات علمية والبعض الآخر نشر في الصحف والمجلات، ومنها ما لم ينشر وإنما أذيع. ومن ثم فهي مختلفة في الحجم. وبسبب تباعد الزمن في كتابتها، وتنوع الحاجة التي كتبت من أجلها، فقد تفاوت الأسلوب فيها بشكل واضح...».

نعم تضم صفحات مغربية اثنين وأربعين فصلاً تتناول تاريخ المغرب العربي بأقطاره الأربعة: ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب. نال المغرب الأقصى منها اثني عشر فصلاً. نقرأ في القسم الأول تراجم المنصور الذهبي، والمولى إسماعيل، والحسن اليوسي، ومحمد بن زاكور، وأبي القاسم الزياني، ومحمد

(*) نشر بمجلة دعوة الحق، العدد المزدوج 6 و 7 من السنة العاشرة. أبريل - ماي 1967.

أكنسوس. وفي القسم الثاني المخصص لرحلات حديثة نجد وصفا لأطلال وليلي الرومانية ومقارنتها بآثار بعلبك في الشام. وفي القسم الثالث المعنون بكتب من المغرب العربي، نقف على طرف من أدب شنقيط، فيه مقطعات لبعض أدباء هذا الإقليم المغربي، ونصوص من كتابي الوسيط في أدب شنقيط، وشعراء موريطانيا. ثم تعليق على كتابي الأستاذ عبد الله كنون: النبوغ المغربي، وأحاديث عن الأدب المغربي الحديث. أما القسمان الأخيران من الكتاب، المترجمان بقضايا مغربية، وفي الحياة الفكرية والأدبية المعاصرة، فليس فيهما إلا فصل واحد عن جامعة الرباط والتعليم بالمغرب.

هكذا نتبين ـ ولو من بعد ـ الغرض النبيل الذي قصد إليه الدكتور زيادة من تعريف مواطنيه عرب المشرق بأخبار إخوانهم عرب المغرب، محاولاً أن يستقصي ـ في نتف يسيرة ـ تاريخ أربعة عشر قرناً لهذا القطر الشاسع الممتد من تخوم مصر حتى المحيط الاطلنطيقي.

«سهم أصاب وراميه بذي سلم　　　من بالعراق لقد أبعدت مرماك»

إذن لا بد من الاختصار والاختيار. وإذا كان لاحق لأحد في أن يحشر أنفه في هذه العملية التي تختص بالمؤلف وحده وتخضع لتفكيره وذوقه، فإن من حقنا نحن المعنيين بالأمر ـ وأظن الدكتور متفقاً معي في هذا ـ أن نحرص على أن يكون الحديث عنا فيما وقع عليه الاختيار سليماً لا تشوبه شائبة. لذلك رأيت أن أقف وقفة قصيرة أمام بعض النقط التي استلفتت نظري أثناء قراءة صفحات مغربية دونما تصنيف أو استقراء...

في ترجمة المنصور الذهبي، وهي أطول وأهم ترجمة في الكتاب ـ نحو 20 صفحة ـ تعترضك هذه العبارة المشوشة: «ظلت شواطىء المغرب الشمالية والشمالية الغربية موضع نزاع ومنافسة بين الإسبان والعثمانيين[1]». وكلنا يعلم أن شواطىء المغرب في تلك الجهات لم تكن قط موضع نزاع بين الإسبان والعثمانيين. إذ لم يكن الإسبان يحتلون من شواطىء المغرب على عهد الملك

(1) صفحات مغربية، ص 56.

البرتغالي سبستيان ـ وهو العهد الذي يتحدث عنه المؤلف ـ سوى مدينة مليلية. ولم يملك العثمانيون قط أي ثغر مغربي، اللهم إلا ما كان من التجاء الأخوين عروج وخير الدين أثناء إغارتهما على الأندلس إلى حجر باديس. وهي ـ آنذاك ـ جزيرة صخرية صغيرة بالقرب من الشواطىء المغربية بين مليلية وسبتة. ولكي يؤمن الإسبان شواطئهم من إغارات الأتراك سعوا إلى احتلال حجر باديس، وقاموا ضدها بإغارات بحرية متكررة لقيت مقاومة عنيفة من طرف السكان المغاربة ـ حسب المصادر الأوروبية نفسها ـ ولا ذكر إطلاقاً لاشتراك الأتراك في تلك المعارك من قريب أو بعيد. وليس هناك إلا تهمة باطلة ـ من جملة تهم كثيرة ـ رمى بها بعض المغرضين من المؤرخين الأوروبيين الملك السعدي، ورددها مؤلفنا بقوله: «فقد استعدى الغالب الإسبان على الأتراك[1]».

وفي الحديث عن مقدمات معركة وادي المخازن ذكر المؤلف «أن يوحنا الثالث ملك البرتغال (1521 ـ 1557) تخلى عن المناطق التي كانت بلاده قد احتلتها على شاطىء المغرب لانصرافه إلى العمل البعيد.. وخلفه على العرش سبستيان (1557 ـ 1578) الذي أراد أن يعيد أمجاد أسلافه في المغرب، فكان يرنو إلى تلك البلاد بنظره، دون أن يقوم بأي عمل..»[2] حتى استعان به محمد المتوكل فلبى النداء. والواقع أن البرتغاليين لم يتخلوا عن بعض الشواطىء المغربية زهداً فيها وانصرافاً إلى العمل البعيد، وإنما اضطروا إلى ذلك اضطراراً بعد أن فتح السعديون ضدهم واجهتين حربيتين، أولاهما في بلاد عبدة بقيادة أحمد الأعرج، والأخرى في سوس برئاسة محمد الشيخ. وجرت في بلاد حاحة والشياظمة من عبدة معارك طاحنة طوال سنتين (923 ـ 924/ 1517 ـ 1518) بين الوطنيين المجاهدين، والبرتغاليين ومن انضم إليهم من المارقين بقيادة يحيى بن تاعفُفت. فكان الانكسار البرتغالي الأول بعد أن هلك كل من حاكم آسفي Lopez Barriga والقائد يحيى بن تاعفُفت، واحتمى الباقون بالأسوار متنقلين بذلك من طور الهجوم إلى طور الدفاع. وطال أمد المعارك في سوس

---

(1) المصدر السابق في نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق، ص 57.

25 سنة (923 ـ 948/ 1517 ـ 1541) وتعددت الوقائع بين السعديين والبرتغاليين، كانت الحرب فيها سجالاً بين الفريقين، إلى أن تمكن البطل محمد الشيخ يوم 12 مارس 1541 من تحطيم قوى الاحتلال في حصن فونتي (أكدير) وإلقاء من تخطته المنية من المنهزمين إلى البحر ليتشبثوا بالمراكب البرتغالية المدبرة إلى غير رجعة. فكانت الضربة القاضية على سياسة التوسع البرتغالي في المغرب وأصدرت لشبونة الأمر بتجميع قواتها في البريجة (الجديدة الحالية)، وطنجة، وسبتة. والانسحاب من أسفي، وأزمور، والعرائش والمعمورة. وقد اعترف بتبخر أحلام المستعمرين البرتغاليين وحبط سياستهم العدوانية في المغرب حتى المتعصبون من مؤرخي الإفرنج[1]. ثم إن سبستيان الطامع في استعادة ما خسرت بلاده في المغرب لم يبق (بدون عمل) ينتظر محمد المتوكل أن يستنجد به؛ بل صرف همه إلى إعادة الكرة على المغرب منذ أن أمسك بيده زمام الأمور. قبل أن يتصل به المتوكل بأربع سنوات ـ بحملة تمهيدية في المغرب حيث أقام بضعة أشهر في سبتة وطنجة، واشترك في مناوشات حربية مع المجاهدين المغاربة ببلاد الهبط، تكشف له عن شدة مراس هؤلاء واستماتتهم في الدفاع عن حوزة الوطن. فأخذ ـ منذ ذلك الوقت ـ يعد العدة ويجري الاتصالات السرية والعلنية مع أمراء أوربا الصليبيين في إيطاليا وسويسرا والمانيا والبلاد المنخفضة ليزودوه بالسلاح والمقاتلة. ثم رجع إليه سفيره Nuno-Alvares Pereira من بلجيكا بـ 4000 من أقوى الجنود المدربين و000 25 قنطار من مسحوق البارود، و7000 بندقية من مختلف الأنواع، مع آلاف مؤلفة أخرى من القذائف وفتائل المدافع... و6000 برميل من الدقيق، و3000 قنطار من الجبن، و45000 قنطار من اللحم المملح[2].

أما ما ورد بعد ذلك من أن سبستيان «خرج في صيف 986/1578 من

---

(1) انظر مثلاً: H. Terrasse, Histoire du Maroc, 2: 162-164.

(2) انظر في هذا الموضوع: H. de Castries, Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, France, 1er Série. I:407,..

البرتغال واحتل طنجة وأصيلا دون صعوبة[1]». فإن الأمر لا يتعلق باحتلال جديد، بل بإنزال الجند فقط إذ كانت طنجة في يد البرتغال منذ عام 1464/869، وأصيلا منذ عام 1471/876.

وإذا انتقلنا إلى عهد المنصور نفسه فإننا نجد المؤلف يذكر أثناء شرح سعة سلطانه ويفصل في فتوحاته بأقطار السودان، وما كان منها بطريقة الحرب أو لا فيقول: «أما توات وتيكورارين وبورنو فقد كتب المنصور إلى أصحابها فقبلوا طاعته[2]» وهنا أولاً خلط بين توات وتيكورارين المنطقتين الصحراويتين المغربيتين، التابعتين اليوم لحكومة الجزائر بعد أن اقتطعتهما فرنسا في جملة ما اقتطعت من المغرب على عهد الاستعمار، وبين بورنو المملكة السودانية القديمة الممتدة من حدود مملكة سونكاي غرباً حتى بلاد النوبة بتخوم مصر شرقاً. ويحمل حتى اليوم جزء منها هذا الاسم (بورنو ـ كانيم) ويكون إقليماً في شمال جمهورية نيجيريا. على أن المنصور ـ حقيقة ـ لم يجلب على بورنو بخيل ولا ركاب، وإنما بايعه ملكها إدريس ألوما عن طواعية واختيار، بعكس الحال في بلاد توات وتيكورارين التي كانت قد أنفت من الخضوع إلى السلطة المركزية منذ أن فشلت ريح المرينيين والوطاسيين، فجرد المنصور كتائب متعددة لإرجاعهما إلى الطاعة أولاً، ثم للقضاء على المتنطعين من الرؤساء فيهما بعد ذلك[3].

وأثناء الحديث على علاقات المنصور بالدول الأجنبية، وبخاصة الأوربية منها، ورد في الصفحات أن الإنجليز نشطوا حينذاك في معاملاتهم التجارية مع المغرب «وكان المنصور قد أدخل قصب السكر وعصره إلى البلاد بحيث صار المغرب من البلاد التي تزود أقطارا كثيرة بحاجتها من السكر...[4]». والحقيقة أن المغرب عرف ازدهار صناعة السكر وزراعة قصبه الجيد قبل المنصور

(1) صفحات مغربية، ص 75.
(2) المصدر السابق، ص 62.
(3) انظر كتاب مناهل الصفا المطبوع في تطوان سنة 1964، ص 36 وما بعدها.
(4) صفحات مغربية، ص 65.

ودولته، بل وقبل الدول التي سبقتها من وطاسية ومرينية وموحدية. وهذا الجغرافي البكري يذكر في المسالك والممالك ما كان في القرن الخامس الهجري (11 م) من توسع في زراعة قه ب السكر بإقليم سوس، ووجود السكر بكثرة في مدينة ايغلي السوسية حيث يباع بسعر مثقالين للقنطار، ويستطيع الإنسان أن يحمل منه ما شاء مقابل ربع درهم فقط. وفي القرن التالي (6 هـ / 12 م) يؤكد هذه الحقيقة الإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ويقول عن قصب السكر المزروع آنذاك بسوس إنه لا مثيل له في غير ذلك الإقليم، سواء من جهة حجمه الغليظ أو غزارة عصيره، وأما الحديث عن الدولة السعدية، فإننا نجد مؤسسها محمد الشيخ يُعنى بمزارع السكر ومصانعه في السوس بمجرد استيلائه على حصن فونتي من يد البرتغال وتطهير الشواطىء الجنوبية من المحتل الدخيل. وقد احتكر هذه المادة الثمينة وجعل منها إحدى ركائز نظامه الاقتصادي الجديد.

وبخصوص ما ورد في الصفحات من تهيب المنصور من الإسبان، وارتيابه من مقام الناصر بن عبد الله الغالب عندهم، فلم يستجب لرغبة بريطانيا في التحالف معه «إلى أن كانت سنة 1588 إذ انكسر أسطول إسبانيا الأرمادا في مهاجمته لانجلترا، فأضعف ذلك نفوذ فيليب، وجرب فيليب حظه بإطلاق الناصر ففشل أمره. عندئذ قبل المنصور بأن يهاجم إسبانية مع انكلترا على أن يقتسما الغنيمة..[1]» الواقع أن التحالف بين المنصور وايليزابيث تحقق قبل هذا التاريخ، بل إن الفضل في انتصار الانكليز على أسطول الأرمادا الإسباني يرجع إلى المساعدات المادية المهمة التي قدمها الملك السعدي لحليفته ملكة انكلترا. وعلاوة على الرسائل الكثيرة في الموضوع التي تزخر به مجموعة مصادر غير منشورة لتاريخ المغرب ـ السلسلة الإنكليزية ـ. فقد سجل هذه الحقيقة مؤرخ مغربي معاصر كان في نفس الوقت أمين سر المنصور ووزيره، وهو عبد العزيز الفشتالي في كتاب مناهل الصفا[2]. على أنه كان للمنصور في قضية ابن أخيه

(1) المصدر السابق، ص 66.

(2) النسخة المخطوطة الموسعة، ميكروفيلم المكتبة العامة بالرباط، رقم 779.

الناصر المقيم في إسبانيا تكتيك سياسي آخر بالتشويش على فيليب بإمكان إثارة المطالب بعرش البرتغال ضده[1]. وفعلاً كان المطالب بالعرش الدون أنطونيو ملتجأ إلى البلاط الإنكليزي، وابنه كريستيان مقيماً ببستان المنارة في مراكش طوال سنوات كانت الاتصالات السرية مستمرة بين المنصور وايليزابيت في تحديد المبالغ المالية اللازمة لتهيىء العدد والعدد من أجل الإجلاب على الملك الإسباني من الخارج والداخل. وحتى قضية الهند التي ظن المؤلف أنها كانت السبب في صرف همة اليزابيث عن إسبانيا وجيرانها ـ المغرب؟ ـ فإن المنصور كان في الواقع مشاركاً فيها مشاركة فعالة، وتبادل في الموضوع مراسلات عديدة مع ايليزابيث، لوضع الترتيبات الكفيلة بنجاح حملة مغربية ـ انجليزية لاحتلال الهند واقتسامها بين الامبراطوريتين البريطانية والسعدية. وقد أملى هذا التعاون ضرورة ملحة باحتياج كل من العاهلين إلى الآخر في تلك العملية العسكرية العظيمة. فايليزابيث كانت بحاجة إلى ذهب المنصور، وهو لا غنى له عن أسطولها العتيد لقطع المحيطات. وطال الحوار بينهما في ذلك، بسبب رغبة اليزابيت في الاستئثار بمباشرة الغزو على أن ينال العاهل المغربي حظه من الغنيمة بعد. ويأبى هو إلا أن يشارك جنده جنباً إلى جنب مقاتلة الإنجليز، ويسند في إحدى رسائله الأخيرة لملكة انكلترا وجهة نظره بأن الجنود المغاربة أقوى على تحمل حرارة الهند من الجند الانكليز الناشئين في منطقة باردة، وبأن كثيراً من الهنود وجيرانهم يعتنقون الإسلام فلا ينفرون حينئذ من إخوان لهم في الدين. ويضيق المقام عن تعداد النصوص المعاصرة بخصوص مخطط المنصور في غزو إسبانيا واسترجاع الأندلس، سواء من رسائل المنصور نفسه، أو من آثار المؤرخين والأدباء الذين عاشوا في بلاطه، ولم يكن ذلك وليد أمنية عابرة (دغدغت) المنصور بعد أن مد إليه الخليفة العثماني يد السلم والصلح، وسعت إليه الملكة الانكليزية بالحلف والتعاون، خلافاً لما توهمه عبارة الصفحات.

---

(1) من المعلوم أن فيليب ملك إسبانيا ضم إليه بلاد البرتغال وامبراطوريتها، بعد هلاك سبستيان في معركة وادي المخازن بنحو ثلاث سنوات. وظلت البرتغال تابعة لإسبانيا زهاء 60 سنة.

ومع اعترافنا بأن ترجمة ملك عظيم كالمنصور لا تفي بها صفحات معدودات، فإننا نلاحظ غمطاً بيناً في جانب الرجل وفي جانب عصره الذهبي باختيار أمثلة تافهة في بعض النواحي المهمة. فالطب بالمغرب آنئذ أجل من أن يستدل عليه بإنقاذ محمد الطبيب حياة الملك المريض، أو برسالة يشرح فيها المنصور لابنه طرق الوقاية من الوباء المنتشر. فلماذا لا يشار ولو في سطور إلى وجود هيئة طبية عظيمة منظمة في مراكش، يرأسها أبو القاسم الوزير الغساني صاحب التآليف الخالدة، **كالروض المكنون في الحميات والأورام**، و**حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار**، و**مقتطف ريحانة الجيوب في العقاقير والعشوب**. وإلى جانبه عبد الغني بن مسعود الزموري مؤلف كتاب **الفائق المفيد في علاج الحصى بقول سديد**، وأبو القاسم الفشتالي صاحب **حافظ المزاج ولافظ الأمشاج بالعلاج**، وعلي بن إبراهيم الأندلسي صاحب الأرجوزتين الطبيتين في خواص الخضر والفواكه، وطبائع الأعشاب ومفعولها في مداواة مختلف الأمراض. . . وكذلك الشأن في علوم الفلك والهندسة والرياضيات التي أشار إليها المؤلف إشارة عابرة، وكأنها لم تعرف إذاك عشرات الجهابذة المتخصصين الذين غصت رحاب مجالسهم التعليمية في المساجد والمدارس، وخلفوا مجموعة ضخمة من المؤلفات المفيدة، أمثال ابن حميدة المطرقي، وأحمد بن التقليتي، والحسن المسفيوي، وعبد الرحمن البعقيلي، وعبد القادر الطليط وغيرهم. . أما الأدباء فما أكثرهم في ذلك العصر الزاهر. ونظرة خاطفة في **روضة الآس** التي أثبت فيها أحمد المقري أسماء الأدباء الذين لقيهم في مراكش وفاس، وبعض آثارهم الأدبية أثناء رحلته قبيل وفاة المنصور، كافية للمتعرف على مدى الثروة الأدبية الضخمة في المغرب آنذاك. وربما كان أبو الحسن الشامي الذي اختاره مؤلف الصفحات ثالث ثلاثة، أقل أدباء ذلك العصر آثاراً معروفة لدينا اليوم ـ ولو أن المقري ردد ذكره في **نفح الطيب** و**أزهار الرياض** ـ . ونحن نعتز به (وبأصله الشامي) اعتزازنا بابن ميمون الغماري دفين جبل لبنان، ونشير إلى أن الأسرة الشامية عاشت في المغرب قبل عهد المنصور بمدة غير قصيرة وما تزال حتى اليوم متفرعة في فاس وغيرها من مدن المغرب. .

نجتزىء بهذا القدر لتعذر تتبع كل موضوعات الكتاب في هذه العجالة، ونود قبل أن نطوي الصفحات إلى أن ننبه إلى هفوات حول أعلام حرفت ـ ربما كانت المطبعة مسؤولة عن بعضها ـ مثل البريجة (كتبت البريغة) وابن عسكر (حذفت كافه) وعلي بن محمد التامكروتي (كتب التامفروتي) وأبو العباس ابن القاضي (أسقطت منه كلمة ابن) وخلفون (كتبت بالحاء المهملة). . . ونشير إلى طريقة المؤلف في الإتيان بنقول طويلة يضعها بين قوسين ولا ينسبها إلى أصحابها[1]، أو يستعمل في ذلك عبارات مبهمة كالنسبة إلى أحد المؤرخين[2]. أو أحد كبار المؤرخين الغربيين[3]. وإذا كان ذلك من ضرورة المحاضرات الإذاعية ـ مثلاً ـ فإن الأنسب أن تراجع قبل دفعها إلى المطبعة لتخرج في كتاب، وتزود بهوامش تبين مصادر وأرقام صفحات النصوص المقتبسة، ويعاد النظر في الفصول المكتوبة قبل سنوات لتصحح على ضوء ما جد في موضوعها: فاليوسي لم يحج مع (المعتصم ابن السلطان) وإنما رافقه ابنه محمد اليوسي الذي كتب الرحلة الحجازية وأتى فيها بنص إجازة والده الحسن اليوسي لأشهر علماء الأزهر إذاك محمد الخرشي صاحب الشرح المشهور لمختصر خليل[4]. ولم يؤلف اليوسي كتاباً في الهيئة، وإنما وهم الأستاذ بيرك في قراءة ترجمة اليوسي المكتوبة في الصفحة الأولى من القانون المطبوع على الحجر بفاس فحرف كتاب في الهيللة إلى كتاب في الهيئة[5]، وتبعه مؤلفنا في ذلك. كما تبعه في عد القصيدة الرائية من الحكم الصوفية، وهي في رثاء الزاوية الدلائية[6]، واعتبر ككتب فقهية التعليق على شرح كبرى السنوسي، ومشرب العام والخاص، مع أن موضوعها علم التوحيد[7]. . . ولعل أهم فصل كان من المؤكد مراجعته

(1) انظر مثلاً صفحات 13 ـ 19 ـ 20 ـ 23 ـ 43 ـ 59 ـ 62 ـ 67.
(2) ص 47.
(3) ص 21.
(4) ارجع إلى كتاب الزاوية الدلائية، ص 105.
(5) المصدر السابق، ص 102. ـ هامش ـ .
(6) نفس المصدر، ص 104. هامش رقم 89.
(7) صفحات مغربية، ص 100. والزاوية الدلائية ص 102.

ـ بالنسبة إلينا ـ هو المتعلق بجامعة الرباط والتعليم العالي في المغرب. إذ هو يحتوي على أرقام لم تعد تعبر عن واقع التعليم العالي ببلادنا، لاعتماده على إحصائيات سنتي 1958 ـ 1959. وكان بإمكان المؤلف ـ وقد قضى شطراً من عطلة الصيف الماضي بالرباط ـ أن يحصل بسهولة على إحصائيات جديدة، وفيها يجد أن كلية الآداب وحدها تضم 2.581 طالباً وطالبة.

وبعد، فهذه ملاحظات عابرة أوحت بها قراءة صفحات مغربية لا ترمي إلى التعريف والتعقيب بقدر ما تستهدف إثارة همة الدكتور زيادة، حتى يولي بلادنا اهتماماً أكثر في نشاطه العلمي ويخرج لنا كتباً أخرى عن المغرب لا تقل عمقاً وطرافة عن مؤلفاته في الموضوعات المشرقية.

وثيقة مغربية جديدة
حول زيارة امبراطور المانيا غليوم الثاني لطنجة(*)

عرفت القضية المغربية سنة 1905 تطورات خطيرة، وصراعاً دولياً حاداً بلغ القمة بين دولتي فرنسا وألمانيا المتصارعتين على بسط نفوذهما على المغرب. فرنسا التي كانت تخطط، منذ احتلالها للجزائر وتونس، لإلحاق المغرب بهما من أجل تكون «أفريقيا الشمالية الفرنسية»، وألمانيا العدوة التقليدية لفرنسا، التي كانت تعارض بشدة التوسع الفرنسي في المنطقة، وتزاحمها في المغرب الأقصى اقتصادياً وسياسياً، عن طريق التقرب من المخزن والظهور بمظهر المدافع عن احترام سلطته واستقلال البلاد وحريتها.

وقد انكشفت أطماع فرنسا في المغرب حين بعثت في أوائل سنة 1905 بسفيرها سان ريني طايندي ليعرض على السلطان عبد العزيز إدخال بعض الإصلاحات على المغرب. وكان أكبر رد فعل لمعارضة ألمانيا للمساعي الفرنسية زيارة الامبراطور غليوم الثاني لطنجة يوم 31 مارس 1905التي صرح أثناءها بأنه «جاء ليزور سلطان المغرب سيد البلاد» وقال لكل من جلالة السلطان وممثل فرنسا: «إن زيارته لطنجة تعني أن ألمانيا ترغب في الحرية التجارية ومساواتها لغيرها من الدول الأخرى، وإنه يريد أن يعامل السلطان مباشرة بصفته حاكماً حراً وسيداً لبلاد مستقلة، وأنه يود من صميم فؤاده أن تراعي فرنسا رغبته هذه».

وقد كتب مؤرخون مغاربة وأجانب كثيراً عن هذه الزيارة الفريدة من نوعها وحللوها واستخلصوا نتائجها مع ما أسفر عنه مؤتمر الجزيرة الخضراء الذي

(*) نشر في مجلة دار النيابة بطنجة، العدد 8 في خريف سنة 1985.

انعقد بعد عشرة أشهر من هذه الزيارة ولعبت فيه ألمانيا دوراً رئيسياً. وقد وقفت أخيراً في الخزانة العلمية الصبيحية بسلا على رسالة بعث بها أحد عدول مرسى طنجة آنذاك السيد محمد القادري إلى أمين مرسي الجديدة السيد الطيب الصبيحي بتاريخ 29 محرم عام 1323/5 أبريل 1905 ـ أي بعد مرور خمسة أيام على زيارة الامبراطور غليوم ـ يتحدث فيها عن هذه الزيارة ويذكر له عنها تفصيلات دقيقة تبين مدى اهتمام المخزن بها والاستعدادات المادية والأدبية التي اتخذها لاستقبال الامبراطور والاحتفاء به على الصعيدين الرسمي والشعبي.

إنني، وإن كانت بضاعتي في هذه الفترة مزجاة لأنها بعيدة عن العصر الذي اهتم به، أبيت إلا أن أعلق تعليقاً بسيطاً على نقطة واحدة في الوثيقة بدت لي غريبة من غرائب المتناقضات الكثيرة في عهد ما قبل الحماية.

تتحدث هذه الوثيقة عن تغيير مكان الاستقبال الرسمي الذي كان مقرراً باتفاق بين نائب المخزن وممثل ألمانيا بطنجة أن يكون في دار المخزن بالقصبة، لكنه تم بدار نيابة الألمان ـ التي ستصبح فيما بعد دار النيابة المخزنية ـ دون أن تبين السبب. وأشارت إلى هذا التغيير أيضاً وثيقة أخرى نشرها أخونا أحمد معنينو (مجلة البحث العلمي، العدد 26، يوليوز ـ ديسمبر 1976. ص 29 ـ 30) وهي عبارة عن تقرير أرسله الوفد المخزني الرسمي لاستقبال الامبراطور إلى السلطان مولاي عبد العزيز كتب يوم الاستقبال نفسه بعيد مغادرة غليوم الثاني لطنجة، جاء فيه: «.... ووصل للمون في الساعة الحادية عشر والنصف وتلقيناه وسرنا معه والقلعة مضروبة عليه بقصد الدخول لدار المخزن ومنها لمرشان كما تواعدنا على ذلك قبل. ثم إنه لما وصل لباب الفحص انقلب إلى فسينتهم ولم يسعنا إلا مصاحبته ودخلنا معه وبها وقعت الملاقاة»..

وتمتاز الوثيقة التي ننشرها اليوم عن وثيقة البحث العلمي بالإفصاح عن كون المستقبلين المغاربة عرفوا رغبة الامبراطور في أن يتم الاستقبال بدار النيابة الألمانية، منذ نزل رجال الحاشية إلى ميناء طنجة على الساعة 9 والنصف، وكان جميع المستقبلين الرسميين آنذاك من مغاربة والمانيين وممثلي الدول الأجنبية الأخرى حاضرين برأس لمون، فطلب رجال الحاشية الألمان من ممثلي

المخزن أن يأمروهم بالانصراف والحضور إلى دار النيابة الألمانية على الساعة 11حيث ستتم الملاقاة.

فلماذا هذا التغيير؟ يحتمل أن يكون النائب الألماني بطنجة لم يخبر حكومته بما اتفق عليه مع ممثلي المخزن، لضيق الوقت أو لأنه لم ير ضرورة لذلك. إذا افترض حسن النية. وإذا قدرنا العكس ـ وهو الأرجح ـ ربما يكون الممثل الألماني اتفق مع المخزن على شيء وهو يرى غيره، فأوعز إلى الحاشية في آخر ساعة أن تغير برنامج الاستقبال، إمعاناً في التنطع واستغلال الظروف السياسية المتدهورة في البلاد. ولو كان الألمانيون منطقيين مع أنفسهم صادقين فيما عبر عنه امبراطورهم من كونه يعتبر عاهل البلاد حراً مستقلاً كامل السيادة لذهب تواً إلى دار المخزن التي هي مقر السلطة الشرعية، لا سيما وهو يعلم علم اليقين ـ بواسطة ممثله المقيم بطنجة ـ بأن المخزن بالغ في إعداد مراسم لاحتفاء والاحتفال، سواء داخل دار المخزن أو في ساحة مرشان والطرق التي يمر منها الموكب، بحيث عطلت الديوانة أربعة أيام قبل وصوله، واستمرت لاحتفالات الشعبية ثلاثة أيام بعد مجيئه، وحضر فرسان جبالة لاستقباله على خيولهم وبطلقات بنادقهم التي لم تنقطع منذ وصوله إلى خروجه من طنجة.

الواقع، فيما يبدو، أن زيارة امبراطور المانيا لطنجة لم تكن حباً في لمغرب والمغاربة، وأن التصريحات التي فاه بها سواء لنائب المخزن أو لممثل رنسا لم يكن الغرض منها مساندة المغرب المتشبث باستقلاله داخل إطار لمؤامرات الدولية الجهنمية. وإنما جرت في سياق المنافسة بين الجارتين لأوربيتين العدوتين، فرنسا العريقة في الاستعمار الطامعة في التوسع والمزيد، ألمانيا المتطلعة إلى أخذ نصيبها من «الوزيعة» الإفريقية في المرحلة الأخيرة من تسام الأوربيين مناطق النفوذ في هذه القارة البئيسة. ولا أدل على صحة ما لناه من أن ألمانيا دافعت في مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 أكثر ما دافعت ن سياسة الباب المفتوح التي تزعج فرنسا بالدرجة الأولى وتطمئن ألمانيا على صالحها التجارية، ولا تسد على المغرب ذريعة الامتيازات التي دخل منها لاستعمار إليه. كما أن ألمانيا لم تتردد سنتي 1909 و1911 في توقيع اتفاقيتين

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

[illegible]

مع فرنسا تطلقان يدها في التصرف في المغرب ضداً على المعاهدات والتصريحات السابقة، في مقابل تنازل فرنسا لألمانيا عن قسم من الكونغو بإفريقيا الاستوائية.

وها هي صورة رسالة الخزانة العلمية الصبيحية، ونص ما تتعلق به الحاجة منها مما يتصل برحلة غليوم الثاني إلى طنجة.

الحمد لله وحده

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصحبه وسلم تسليماً

. . . وقبل وصول الامبراطور الألمان لهذه المياه، وصل هنا سفير مولانا وعمه الشريف البركة مولاي عبد الملك، ومعه الفقيهان سيدي أحمد بن المواز، وسيدي إدريس البوكيلي، والقائد بوعزة ابن بوشتي أو بوشتي ابن بو عزة خليفة قائد المشهور، والقائد محمد ابن العرابي الفرايحي. واحتفل الناس بدخولهم وتلقيهم. فدخلوا بعد ظهر الثلاثاء في أبهة رفيعة - زاد الله راية الإسلام علواً وفخراًومجداً آمين. وهيئت البلد بإكساء جميع حيطانها بالربيع والأزهار والأنوار والألواح المذهبة، وأفرش مون المرسى بالزرابي، ودار المخزن بالقصبة أفرش براحها بالزرابي، وقبابها بنواميس الصفر المكسوة بالطيسان وأزر الحرير الرفيع، وكنابيات الموبر، وكذا الشلييات منه. وأسطوانها أفرش بالملف أرضه وحائطه، وصنع وثاق من أخراط 36، باطنه طيسان، فضرب بمرشان، وأديرت بقباب وردت من الحضرة الشريفة، وأفرش الكل مساحة كبيرة بالزرابي وهيا وأواني الفضة والمعدن والطوس والبلور، والحلاوي والأشربة الرفيعة وكذا وكذا وكذا. وصباح الجمعة ساعة وصل الامبراطور في باكير صحبته فرقاطة. وعندما سامت مرشاناً أخرج الباكير مدفعاً هائلاً، ولما وصل للمرسى أخرج آخر، وأجابته فرقطاتان فرنسيتان بالمرسى، وسلمت فرقاطة ألمان، وأجابت البلد. ونزل كبراؤه لرؤية البلد، ووجدوا نواب الأجناس برأس المون مع خليفة مولانا، فقالوا إن الامبراطور ينزل ساعة 11، والنواب يذهبون لدار نيابة الألمان حيث الملاقاة، فذهبوا جميعاً. وفي الساعة المذكورة نزل وتلقاه

الخليفة والنائب ومن معهم والأمناء كلهم وأعيان البلد، ومر بالبلد على هيئة عجيبة قاصداً دار نيابته، فجلس بالبسينة حيث تلقى النواب المذكورين وتجار جنسه وقال لهم ـ على ما بلغنا ـ : إني جئت لتفقدكم، ومولاي عبد العزيز قائم بنفسه، ولا سبيل لأحد عليه والمغرب البلد هو المغرب اليوم وغداً. وساعة 12 انفرد بالشريف مولاي عبد الملك الذي أنزل فيمن ذكر في هيئة أنيقة قاصداً البحر سلام. وقد كان نائبه طلب من النائب أن يأتي الجبلية من أحواز البلد ويقفون بهيئتهم بالسوق البراني. . . فوجه أخاه والد. . . وكان السوق المذكور غاصاً إلى أطرافه كلها بالعدة، ولم يفتروا من البارود إلى أن نزل، وبقيت الفرجة بعده 3 أيام بمرشان ولم يتحرك من أشغال المخزن شيء بعد أن لم تفتح الديوانة قبل وروده أربعة أيام بالإذن. وقد أمر الباشا راب محمد بالملاقاة مع الريسوني، فكتب له بأنه ورد عليه بفرسان 25 فأجابه بأنه لا يقبله إلا بفرسان 3 وقال له لا تحتاج إلى ذلك، فأنا المكلف، وقد ألزمت القبائل بإعمال النزائل بالطريق، ومن ضاعت له إبرة فهي في ضماني. ولا زال يتدبر الباشا المذكور في المشي إليه، نطلب الله تعالى أن يكون ورود هذا الامبراطور الذي لم يتقدم له نظير فيه سلامة وصلاح للمسلمين آمين. . .

ذكريـــات ومذكــرات
للحاج أحمد معنينو (*)

ولد الحاج أحمد معنينو بمدينة سلا قبل أن تفرض الحماية على المغرب بست سنوات، وشارك في أول مظاهرة وطنية ولما يمض على الحماية أكثر من ثماني سنوات. فشب وترعرع في جو الكفاح والمقاومة. ارتبط اسمه بالحركة الوطنية في مختلف أطوارها حتى لكأنه الوطنية ولكأنّ الوطنية هو. وقدر له أن يحارب الاستعمار الفرنسي في مسقط رأسه، والإسباني في تطوان، وأتت ثورة الملك والشعب أكلها بالانعتاق والاستقلال وبقي الحاج أحمد معنينو في عهد الحرية ـ كما كان من قبل ـ وجهاً لامعاً من وجوه الوطنية المشرقة، وعلماً شامخاً ثابتاً على المبادىء القومية النقية الصادقة.

لقد وفق الحاج أحمد معنينو في الفترة الحالية من حياته، إلى الاعتكاف في مكتبه الساعات الطوال، والرجوع إلى وثائقه وملفاته يتصفحها ويستنطقها، ليحرر سلسلة كتب لا يتجاوز كل جزء منها مائتي صفحة، يسجل فيها مذكراته وذكرياته، مقدماً بذلك معلومات مفيدة عن حياته ونشأته ونشاطه، ومضيفاً شهادة لها قيمتها عن تاريخ الحركة الوطنية التحريرية لا سيما وقد قال في المقدمة: «أتعهد بأنني سألتزم الموضوعية في كتاباتي لبسط ما شاهدته وعايشته وشاركت فيه من وقائع وأحداث [. . . .] وألتزم بأنني سأكون صادقاً في القول، مدققاً في الأحداث، ذاكراً للأسماء والتواريخ. وإذا ما كتب علي أن أخطىء أو أن أسهو فذلك راجع فقط إلى ضبابية عابرة قد تمس ذاكرتي، أو نسيان قد يطفو فترة وجيزة، فيسبب حذفاً غير متعمد ولا مقصود. وأقسم بالله أنني سأصون العهد. . .».

(*) ألقي في حفل تكريم المجاهد الحاج أحمد معنينو الذي أقامته جمعية أبي رقراق بقاعة بلدية سلا.

يشتمل الجزآن الأول والثاني من مذكرات وذكريات اللذين هما الآن قيد الطبع على ثلاثة وعشرين فصلاً، تتحدث الفصول العشرة الأولى عن فترة العشرينات إلى سنة 1932 والفصول الباقية عن السنوات الخمس بعدها 1933 ـ 1937.

تبدو في الفصول الأولى من المذكرات شخصية المؤلف ببساطتها وتعقيداتها، بتواضعها وطموحاتها: تلميذ مجد نهم يتنقل بين الكتّاب والمساجد والزوايا للأخذ عن شيوخ سلا وأعلام الرباط وفاس، ثم شيوخ الشام والحرمين الشريفين. ولا يفوته في أثناء ذلك أن يحضر ـ على صغر سنه ـ التجمعات الوطنية وطلائع مظاهرات الاستنكار والاحتجاج ضد تصرفات المستعمر.

يأخذ عن أعلام السلفية بالمغرب، كأحمد بلفقيه الجريري، وأبي شعيب الدكالي، والمدني ابن الحسني، ومحمد بن العربي العلوي، ومع ذلك لا يجد غضاضة في أن يحضر مجالس الذكر في حلقات درقاوة، وأن يقوم سنة 1924، مع والده بزيارة زاوية مجوط ببني زروال، ليجد فيها العالم محمد بن عبد الرحمن الجاي يدرس باب الجهاد من مختصر خليل، ويحض الناس على مساندة البطل الثائر محمد بن عبد الكريم الخطابي، وفي طريقه إلى بوبريح مقر الزاوية الدرقاوية الأم، يسمع طلقات بندقيات المجاهدين الريفيين.

يتحدث الفصل السادس من ذكريات ومذكرات عن حجة المؤلف الأولى سنة 1930، فقد فتح له الحج آفاق التعرف عن قرب على العالم الخارجي، والاحتكاك برجال الفكر والسياسة في العالم العربي. فاتصل بالوطنيين في بيروت، واطلع على الصحف الصادرة بها التي يقارب عددها خمسين. وحضر ـ لحسن الصدف ـ مقاطعة شركة الكهرباء الأجنبية في لبنان. تتبع مراحل هذه المقاطعة منذ دعت إليها الصحف الوطنية كفكرة، إلى أن نجحت المقاطعة وخضعت الشركة الاستغلالية للمطالب الشعبية. كما اتصل بالعالمين اللبنانيين الشهيرين، يوسف النبهان، وعمر مَحْمَصاني. ولقي بدمشق بدر الدين الحسيني شيخ المحدثين ببلاد الشام فأجازه إجازة عامة. وفي المدينة المنورة ناقش أحد المدرسين بالحرم النبوي في بعض ما أتى به من معتقدات وهابية متطرفة،

وانتقده انتقاداً مراً. ومن الغريب إنصاف الشيخ المحاضر وإعلانه على رؤوس الملأ تراجعه عما قال، وإقراره بأن الحق ما أتى به الشاب المغربي، يعني الحاج أحمد معنينو. وقد بلور له هذا النقاش فكرة الإصلاح الأولى التي رمى إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وما علق بها في مراحل التطبيق من تجاوزات ومبالغات.

يحتل الظهير البربري وذيوله حيزاً واسعاً في ذكريات ومذكرات، فيكون موضوع الفصلين السابع والثامن. لقد اندلعت شرارة الظهير البربري والحاج أحمد معنينو متغيب في الحج. فكان أول نبأ تلقاه من مستقبليه عند أوبته هو هذا الحدث السياسي المزعج. وهنا تظهر مرة أخرى ازدواجية شخصية المحتفى به: تصوف وسياسة، وأذكار وعرائض. توجه إلى الزاوية الدرقاوية بحومة باب حساين بسلا على عادة الحجاج آنذاك، ومكث فيها أياماً يستقبل الزوار المهنئين. وفي هذه الزاوية زاره عبد اللطيف الصبيحي في جماعة من الشباب الوطني السلوي، وأخبره بتفاصيل الحادث. ومن المعلوم أن عبد اللطيف الصبيحي كان أول من اكتشف خطة الفرنسيين البربرية بحكم عمله كمترجم في مصالح الإقامة العامة، كما كان أكبر متحمس لمقاومة السياسة الاستعمارية الرامية إلى كسر وحدة الشعب المغربي بفصل شطر مهم من الأمة عن الشريعة الإسلامية التي هي الجامعة لأطرافه، والآصرة القوية التي تشد صرحه المرصوص.

كان عبد اللطيف الصبيحي يرى ضرورة خلق وعي عام بخطورة الموقف عن طريق قراءة اللطيف في المساجد، في سلا والحواضر الأخرى، وفي القرى والبوادي. لكن كيف السبيل إلى ذلك والمستعمر بالمرصاد، والصحافة الوطنية منعدمة؟ هنا يتحدث صاحب المذكرات عن الدور الذي قام به في هذا الصدد مع شخصيتين مشهورتين: الحاج علي عواد قاضي سلا وخطيب المسجد الأعظم، وعبد القادر الجعيدي مقدم الطائفة الدرقاوية وخطيب جامع الشهباء. تحدث الحاج أحمد معنينو صباح يوم الجمعة إلى المقدم الجعيدي في شأن تدهور أوضاع المسلمين راجياً منه أن يذكر اسم الله اللطيف في خطبة الجمعة، فأجابه المقدم بحكمة ابن عطاء الله الشهيرة: «كيف يستقيم الظل والعود أعوج؟» ومع

ذلك قبل مبدأ قراءة الصلاة المنفرجة التي تنتهي بعبارة «ما ضاق أمر إلا فرجه الله». كما زار الحاج أحمد القاضي عواد في بيته وهو يتهيأ للخروج إلى المسجد فحدثه عن الحج والحجاج، ورجا منه أن يطلب في دعائه اللطف بالمؤمنين. قبل القاضي الاقتراح بدون تردد، وكان شديد الغيرة على الدين، صادق المحبة في الله ورسوله. فلما كان على المنبر ذكر أحوال المسلمين وبكى ـ على عادته ـ وقرأ دعاء اللطيف. كان ذلك منطلق ذكر اسم الله اللطيف بعد الصلاة بكيفية جماعية مؤثرة من أفواه جميع المصلين بالمسجد الأعظم، ثم المساجد الأخرى بسلا، ثم في الرباط وفاس وسائر جهات المغرب. بينت المذكرات كذلك الدور الذي قام به الوطني المقدام الحاج بوبكر المالقي صهر عبد اللطيف الصبيحي، في تهريب الوثائق والمعلومات المتعلقة بالظهير البربري وحركة اللطيف، ونشرها في الخارج، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في رفع معنوية الوطنيين من جهة، وإرباك المستعمرين والفت في عضدهم من جهة أخرى.

وقد توسعت المذكرات في التأريخ لحركة اللطيف كأول حركة دينية سياسية ناجحة في بث الشعور الوطني فاضحة لخطط المستعمر المبيتة. وبينت بسوق تواريخ وشهادات ونصوص، سَبْق مدينة سلا في هذا المضمار، وهو موضوع طالما نوه به المحتفى به وألح عليه في خطبه ومقالاته.

ينتقل الفصل التاسع من المذكرات لظهور المناشير السرية في العمل الوطني سنة 1931. وهذا الفصل بأحداثه ومفاجآته وبطولاته، صالح لأن يكون وحده موضوع مسرحية ممتعة أخاذة. فقد رأى الوطنيون، بعد مرور سنة على صدور الظهير البربري، أن يضيفوا إلى حركة اللطيف التي لم تنقطع عملاً احتجاجياً آخر، فطبعوا في مصر كميات هائلة من منشور يندد بالاستعمار وسياسته البربرية الشنعاء. وتوجه الحاج أحمد معنينو إلى فاس، ومن بيت صديقه إبراهيم الوزاني بمدرسة العطارين أخذ خنشة من هذا المنشور ليوزعها ـ هو ومن يثق به من الشباب الوطني ـ ليلة 16 مايو 1931 في الذكرى الأولى للظهير البربري بمدينتي سلا والرباط وما يمكن من مناطق الجنوب. وتم ذلك بالفعل في سرية تامة، فكان أكبر مفاجأة للمستعمرين أن يروا المنشور موزعاً

بكيفية مكثفة في شمال البلاد وجنوبها بالرغم على ما اتخذوه من احتياطات واستعدادات.

وفي السنة الموالية حينما قرب موعد الذكرى الثانية للظهير البربري، طبع الوطنيون منشوراً ثانياً أورد في المذكرات فقرات منه، لكنهم نظراً للتأهب الكبير الذي أبداه المستعمرون والحصار الشديد المضروب على الشباب الوطني قرر هؤلاء تأخير توزيع المنشور إلى ما بعد 16 مايو إلا إبراهيم الوزاني الذي أبى إلاَّ أن يوزع نصيبه من المناشير في نفس الليلة. ولما وصل المحتفَى به إلى مدرسة العطارين بفاس ليلاً لم يجد إبراهيم الوزاني في بيته ووجد نصيبه من المناشر في بيت طالب آخر. وبعد الانتظار برهة من الزمن، أقفل باب المدرسة وحضر المقدمون والشرطة بحثاً عن إبراهيم، فقيل لهم إنه بالمدرسة المصباحية، فتوجهوا إليها وخرج على الفور الحاج أحمد معنينو ومن معه يحملون أوزار المناشير على ظهورهم، ليضعوها في دكان خراز قبل أن يتوجهوا إلى ضريح المولى إدريس. وهناك علموا بأن إبراهيم الوزاني ألقي عليه القبض وهو يوزع المناشير. . .

يبتدىء الجزء الثاني من ذكريات مذكرات بثلاثة أحداث وطنية بارزة عرفتها مدينة سلا سنة 1933:

الأول: تأسيس جمعية المحافظة على القرآن الكريم، وهي أيضاً من ذيول الظهير البربري. حيث أخذ تلاميذ مدرسة أبناء الأعيان بالسور يحضرون قراءة الحزب بالجامع الأعظم بعد صلاة المغرب، وتكاثر عددهم وغدت التلاوة مرتلة منظمة. وتكونت لجنة ثلاثة ـ من بينهم المحتفى به ـ كمسؤول عن جمع التبرعات لشراء المصاحف. وضاقت الخزانة القديمة بالمصاحف فجددت ووسعت وزخرف بابها بالتذهيب وكتب عليه ـ بتدخل من الشاب محمد حصار ابن ناظر الأحباس ـ اسم الجمعية وتاريخ التأسيس 1353 هـ، ثم أسس شباب الرباط جمعية مماثلة وخزانة للمصاحف بالمسجد الأعظم بالرباط، وانتشرت الفكرة في حواضر أخرى.

يرتبط بتأسيس جمعية المحافظة على القرآن بالعدوتين حادث طريف يدل

على مدى ابتهاج محمد الخامس ـ رحمه الله ـ وعنايته بهاتين الجمعيتين الفتيتين، وهو استدعاؤه المشرفين عليهما إلى القصر الملكي عند دخول سمو ولي العهد إلى الكتَّاب. وفي المذكرات وصف ضاف لهذا اللقاء وظروفه وآثاره باعتباره من اللقاءات المباشرة الأولى التي تمت بين العاهل الكريم والشباب الوطني.

الثاني: الاحتفال بعيد العرش في سلا ـ لأول مرة ـ يوم 18 نونبر 1933، بعد أن دعا لإقامته المأسوف على شبابه محمد حصار في مقال نشر بمجلة المغرب الصادرة بالرباط، وشاركت فيه الشبيبة الرياضية التابعة لجمعية الاتحاد الرباطي السلوي التي تأسست في سنة 1932، وتكونت من خمس فرق، من بينها فرقة الكشافة التي ستتطور لتحمل اسم الكشفية الحسنية.

وقد أورد المؤلف وثائق وصوراً ونصوصاً من مجلة المغرب، والسلام والسعادة تؤكد سبق سلا إلى إقامة هذا الاحتفال الذي أصبح من الأعياد الوطنية الرسمية.

الثالث: الاحتفال في سلا بذكرى مرور سنة على صدور مجلة «مغرب» بباريس، التي كان يديرها المحامي الاشتراكي الحر جان لونگي، ويشارك في تحريرها صفوة الشباب المثقف أمثال محمد حسن الوزاني وأحمد بلافريج وعمر بن عبد الجليل. حضر هذا الحفل عدد غير قليل من الشباب الوطني بسلا والرباط وفاس وغيرها، وألقى فيه محمد حسن الوزاني خطاباً سياسياً هاماً، وحَمَل عمر بن عبد الجليل البشري للحاضرين بعزم محمد حسن الوزاني على إصدار جريدة عمل الشعب بالفرنسية في مدينة فاس.

وتتميز سنة 1936 في ذكريات ومذكرات بحدثين بارزين.

الأول: انعقاد المؤتمر السادس لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بالمغرب بعد أن منع بقرار مقيمي انعقاد المؤتمر الثالث الذي كان مقرراً سنة 1933. افتتح المؤتمر السادس بالرباط وخطب فيه الحاج أحمد معنينو للترحيب بوفود المغرب العربي، ثم تتابعت أشغال المؤتمر بسلا وفاس.

تتحدث المذكرات بإسهاب عن جمعية طلبة شمال إفريقيا ودورها في

توحيد العمل بين شباب المغرب الكبير، منذ تأسست بفرنسا سنة 1928، والمراحل التي قطعتها، والمؤتمرات التي عقدتها قبل 1936.

الثاني: مظاهرة كبرى للمطالبة بحرية الصحافة. يوم فاتح دجنبر 1936 في سلا وكثير من المدن المغربية. خصصت المذكرات صفحات عديدة لهذه المظاهرة وأسبابها وذيولها، واعتبرتها تحولاً نوعياً في مواجهة المستعمر، سواء في توسيع القاعدة الشعبية التي أعدتها وحبكت خيوطها، أو في الخروج من مرحلة الانتقاد والاستنكاف إلى مرحلة المطالبة بالحرية. جاءت هذه المظاهرة نتيجة اجتماع سري عقد بالرباط في أواخر أكتوبر 1936 حضره زهاء تسعين ممثلاً للشبيبة الوطنية من سلا والرباط وفاس ومكناس ومراكش والدار البيضاء والجديدة وأسفي وتازا ووجدة. وتقرر فيه إقامة تجمعات شعبية موسعة بقدر الإمكان في مختلف أنحاء المغرب، تمهيداً لأول مؤتمر وطني يعقد يوم 17 نونبر 1936 بمدينة الدار البيضاء للمطالبة بحرية الصحافة. وقد منعت سلطات الحماية هذا التجمع في آخر ساعة، فقامت مظاهرة صاخبة بالبيضاء وألقي القبض على ثلاثة من كبار الوطنيين: محمد حسن الوزاني، وعلال الفاسي، ومحمد اليزيدي، ومن ثم تقرر أن يكون يوم فاتح دجنبر 1936 يوم مظاهرات عامة.

في المذكرات تفاصيل مدققة عن الإعداد السري لمظاهرة سلا، مع ذكر الأسماء والأماكن والساعات، والمحاكمات التي أعقبتها، وكان للحاج أحمد معنينو النصيب الأوفر: ستة شهور سجناً ـ بدل ثلاثة للآخرين ـ باعتباره المسؤول عن المظاهرة.

وينتهي الجزء الثاني من المذكرات بفصل عن النفي الاضطراري للحاج أحمد معنينو سنة 1937 بعد تفاقم الأوضاع السياسية وإلقاء القبض على الزعماء الوطنيين، وخروجه من مدينة سلا متعللاً بالحج، ولن يعود إليها إلا بعد أحد عشر عاماً ليشارك إلى جانب إخوانه الوطنيين ـ كعادته ـ مشاركة فعالة في الأعمال البطولية التي أدت إلى الاستقلال وإقامة قواعد الديموقراطية. أمتع الله بطول حياته، وأسبغ عليه رداء العافية، وجزاه أحسن الجزاء على ما قدمت يداه.

مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية
لأبي بكر القادري (*)

تفضل الأستاذ المجاهد والأخ الكبير العزيز سيدي أبو بكر القادري فأهداني نسخة من كتابه القيم **مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**، فعكفت على قراءته منذ استلمته قراءة مسترسلة بحيث لم أنم تلك الليلة ـ على غير عادتي ـ إلا بعد أن أتيت على نهايته. دفعني إلى ذلك أكثر من سبب. فصاحب المذكرات من الوجوه الوطنية الوضاءة في مدينتنا عرفته قبل أن أشب عن الطوق في الشارع وفي المسجد كرمز من رموز الشباب الحي العامل النشيط المتمتع باحترام الكبار والصغار. وهذه الفترة التي تتحدث عنها المذكرات، إن كانت تبتدىء وعمر المؤلف سبع عشرة سنة، فعمري لم يكن آنذاك يجاوز سبع سنين، ومع ذلك كنت أميز الأشخاص وأعي الأحداث ولو أني لا أدركها على حقيقتها، وقد بقيت أشياء تختزنها ذاكرتي طلاسم مغلقة فجاءت المذكرات تحل تلك الألغاز والمعميات.

إن مادة الكتاب شيقة جذابة في حد ذاتها، متنوعة متشابكة بقدر ما هي متباينة، يغلب عليها الطابع السياسي والإصلاحي، لكن القضايا الدينية والاجتماعية كثيراً ما تطفو على السطح وبعشرات الصفحات. وتبقى الميزة البارزة لمذكراتي في الحركة الوطنية هي المصداقية والموضوعية كما سنرى.

كثيرة هي الموضوعات التي استوقفت نظري في هذا الكتاب لأنني عشتها وشاركت فيها أو سمعت عنها وشاهدت آثارها، فانتقيت منها ثلاثة أحداث كان

(*) ألقيت في حفل تكريم الأستاذ أبي بكر القادري المقام بقاعة بلدية مدينة سلا من طرف جريدة العلم.

أثرها أعمق في نفسي، وسأقف عندها قليلاً معلقاً أو مضيفاً أو متسائلاً، مستسمحاً صاحب المذكرات فهو بها أعلم.

ـ **الحدث الأول:** جمعية المحافظة على القرآن الكريم. هنا أشير إلى ملاحظة تصيحيحة بسيطة في كتاب **مذكراتي في الحركة الوطنية**، هي عدم التدقيق في مطابقة التاريخيين الهجري والميلادي. وذلك راجع ـ ولا شك ـ إلى أن اعتماد الكُتّاب ـ وبخاصة الوطنيين المغاربة ـ في الثلاثينات على التاريخ الهجري بالأساس وعدم إثبات الموافق الميلادي إلا عندما يتعلق الأمر بالاتصال بالفرنسيين، لتقديم احتجاج أو مطالب أو كتابة مقالات بالفرنسية في مجلة مغرب الباريسية أو عمل الشعب الفاسية. وما أشبه ذلك. لذلك نجد في المذكرات تواريخ ميلادية تطابق بالتقريب حيناً ولا تطابق أحياناً. وهذا يحتاج إلى عملية مراجعة عامة في الكتاب وأظن أن هناك استثناء واحداً في الكتاب هو التاريخ الهجري المثبت هنا في انطلاق عملية قراءة القرآن بالمسجد الأعظم بسلا مساء يوم 26 ذي الحجة عام 1351/ 1932، وذلك اعتماداً على مخطوط المرحوم محمد حصار المنشور في الصفحة الموالية (179). ويظهر أن ذلك سبق قلم. إذ المطابق ليوم 26 ذي الحجة عام 1351 هو يوم السبت 22 أبريل 1933، وهذا بعيد. وربما كان المقصود 26 ذي الحجة عام 1350 = الثلاثاء 3 ماي 1932. وبالرجوع إلى ما كتبه المجاهد الحاج أحمد معنينو في مذكراته ـ ولو أنه لم يذكر يوم الانطلاقة بالتاريخ الهجري ـ لكنه حدد المناسبة في الذكرى الثانية لصدور الظهير البربري 16 ماي سنة 1932. وبذلك تكون الانطلاقة بالتأكيد سنة 1932.

حقاً إن جمعية المحافظة على القرآن الكريم مفخرة كبرى للشباب الوطني السلوي الرائد. وكنت من الملازمين لمجالسها في قراءة الحزب بعد صلاة المغرب بالمسجد الأعظم. وما زلت أتصور تلك الصفوف الطويلة المنتظمة المتراصة من الأطفال والشباب يتقدمها صف أمام جدار القبلة يمتد يميناً إلى ناحية الزاوية التجانية وشمالاً إلى ناحية دار ابن خضراء، وصف آخر أمام المحراب يمتد جوفاً نحو الفناء. وكنت أجلس في الجناح الأيمن المواجه

لخزانة المصاحف والباب القبلي. وما زلت أرى في مخيلتي صاحب المذكرات الأستاذ أبا بكر القادري ـ حفظه الله ـ يمشي بين الصفوف الطويلة منظماً التلاوة بصوته وحركات يديه. وما زالت أصوات كثير من القراء ترن في أذني بدءاً من الإمام المرحوم الحاج محمد عواد الذي يفتتح الحزب إلى المرحوم محمد بن المكي القادري الذي كان ذا صوت جهوري عذب تمازجه بحة مريحة مليحة، ويتميز صوته أكثر عند تغيير نغمة القراءة في ربع الحزب أو نصفه.

وبعد قراءة الحزب كنا نقرأ جماعة كذلك ـ في بعض أيام الأسبوع ـ أحاديث من الأربعين النووية يفتتحها صاحب المذكرات بتقديم مؤلفها محيي الدين يحيى بن شرف النووي. وكنت بحكم التكرار حفظتها عن ظهر قلب، والعجب أنني ما زلت حتى الآن أحفظها برواتها ومخرجيها ودرجات صحتها وما هي بأول بركاتكم يا أبا بكر!

ـ **الحدث الثاني**: إنشاء المدارس الحرة. اهتمت المذكرات بتاريخ تأسيس المدارس الحرة الإسلامية في جميع أرجاء المغرب كرد فعل وطني ضد سياسة الحماية الرامية إلى إحلال اللغة الفرنسية محل العربية، وقصر التعليم على فئة قليلة من تلاميذ ما أسمته بمدارس أبناء الأعيان. ونظراً لمكانة الأستاذ أبي بكر القادري المكينة في ميدان التعليم الحر وسعة اطلاعه وإحاطته بمسائل هذا الصنف من التعليم ومراحل تطوره، فقد أتى حديثه عنه شاملاً مفصلاً سواء في تطوان عاصمة الشمال وطنجة أو في حواضر الجنوب كالرباط وفاس وسلا والدار البيضاء ووجدة والقنيطرة ووزان ومراكش ومكناس وفكيك وتازا. كان حظ سلا في هذا الفصل من الكتاب وافراً نظراً لاطلاع المؤلف المباشر على هذه المؤسسات التعليمية، عرف بعضها تلميذاً، وبعضها معلماً أو مديراً ومؤسساً وذكر أن سلا عرفت في الثلاثينات أربع مدارس حرة، الأولى مدرسة درب العلو التي ابتدأت في الزاوية الغازية بطالعة سلا وفتحت أبوابها يوم الأحد 3 ذي القعدة عام 10/1339 يوليوز 1921 (هنا أيضاً التاريخ بالتقريب)، والثانية مدرسة الفقيه محمد بن احساين النجار في باب سبتة، والثالثة مدرسة الفقيه الحاج العربي بن مبارك العبادي بالزاوية الصديقية قرب درب ابن شعبان، إضافة

إلى مدرسة رابعة هي المكتب الإسلامي بالزاوية القادرية.

وقد أغفل صاحب المذكرات مدرسة خامسة مهمة هي مدرسة زين العابدين ابن عبود في حي برمادة. فتحت أبوابها في صيف سنة 1932، وكان من بين المدرسين فيها رواد الوطنية من شباب سلا الأساتذة أبو بكر القادري والحاج أحمد معنينو ومحمد البقالي ومحمد بن المكي القادري وغيرهم. وبعد سنة غادر هؤلاء الشباب مدرسة ابن عبود وأسسوا المكتب الإسلامي بالزاوية القادرية الذي سيعرف فيما بعد أعرف ـ شخصياً ـ مدرسة ابن عبود معرفة عين ونسب ـ كما يقال ـ التحقت بها في مطلع عام 1353 / 1934 وما زالت أصداء عمل الأساتذة الشباب الذين غادروها تتردد على ألسنة التلاميذ الذين سبقوني إليها. ومكثت فيها زهاء ست سنوات ملازماً دروس الشيخ ابن اعبود صباح مساء، فيها وفي المسجد الأعظم بسلا أو جامع مولاي سليمان بالرباط بين العشاءين إلى أن أقفلت عند بداية الحرب العالمية الثانية حين التحق الشيخ ابن اعبود بالدار البيضاء.

كان التعليم في مدرسة ابن اعبود حديثاً نسبياً، ينقسم التلاميذ حسب مستوياتهم إلى أقسام، ويكتبون في الدفاتر، وتشرح لهم الدروس على السبورات وإن كان جلوسهم على الحصر، ويتلقون إلى جانب القرآن الكريم مبادىء اللغة والدين، ودروساً في الحساب واللغة الفرنسية ولو بصورة متقطعة، وكان من جملة من يعمل في ذلك أحياناً الدكتور المهدي ابن اعبود وهو يومئذ ما زال طالباً. كان الشيخ زين العابدين بن اعبود صاحب المدرسة يهتم شخصياً بالتلاميذ المتقدمين ـ وكنت منهم ـ وكان يحضر معنا عدد من كبار التلاميذ الرباطيين أمثال والزهرا، وبلكناوي، والعوفير، وعبد الموجود، والحسناوي، والمكي ابن مسعود، يلقي علينا دروساً مطولة صباحاً ومساءً. وقد سجلت في مذكرات كتبتها في ذلك الحين أسماء الكتب التي درسناها عليه وتواريخ افتتاحها واختتامها بالتاريخ الهجري. ومن جملة مقروءاتنا عليه في قواعد اللغة والأدب الآجرومية، والألفية ولامية الأفعال ـ أكثر من مرة ـ وملحة البيان، والكافي في العروض والقوافي، وخزانة الأدب لابن حجة الحموي؛ وفي الفقه وأصوله:

رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومختصر خليل ـ قسمناه أربعة أرباع ـ والفروق للقوافي.

ذكرت هذا لأبين أهمية هذه المدرسة المغفلة، وأمثل للجهود الجبارة التي بذلها التعليم الحر في سلا إبان فترة الكفاح الوطني في الثلاثينات موضوع مذكرات الأستاذ أبي بكر القادري.

ـ **الحدث الثالث**: مقاومة انتشار الخمور بسلا. يؤكد هذا الحدث ما قلته في البداية عن مصداقية مادة كتاب **مذكراتي في الحركة الوطنية**. فكل التفاصيل الواردة فيه عن هذا الحدث مطابقة تماماً لما جاء في مصادر أخرى: فالزمن هو يوم عاشوراء عام 1353/28 أبريل 1934، وصاحب الفكرة هو المرحوم محمد حصار، وانطلاق العملية من متجر جزائري يبيع الخمر بالقرب من الزاوية القادرية بحي زناتة، وأن العملية أسفرت عن اعتقال الحاج أحمد معنينو ومحمد حصار، تلتها حركات احتجاج وعريضة قدمت لجلالة الملك رددت صداها صحف تطوان وفاس.

ويضيف الحاج أحمد معنينو أن حملة التطهير هذه بدأت حوالي الساعة العاشرة صباحاً واستمرت إلى منتصف النهار وبلغ عدد الخمارات التي أفرغت وأقفلت سبعاً وعشرين.

وأضيف إلى ما سبق مشاهدة ـ ولا أقول شهادة لأنها غير مقبولة من طفل لم يبلغ الحلم ـ ذلك أني خرجت مع التلاميذ من مدرسة ابن اعبود زوال ذلك اليوم وكنت حديث عهد بالالتحاق بها فوجدنا ازدحاماً شديداً أمام دكان يبيع الخمر بجوار المدرسة وبداخله رجل وسط قامة وسناً، معمم على طريقة الواسطة وقد وقف بباب الحانوت كل من الحاج أحمد معنينو ومحمد حصار، الأول يخاطب صاحب الدكان بصوت جهوري مؤنباً ومتوعداً، وصاحب الدكان يتقهقر إلى داخل الدكان وكأنه يمانع، وإذا بمحمد حصار يستعمل عصاه (البوردو) ويسقط قنينة خمر من رف مرتفع فزاد دوي تكسيرها ومنظر الخمر المراق من حماس المتجمهرين، وانصرفنا نحن التلاميذ.

لقد كان ذلك آخر العهد بخمارة بورمادة وبخمارات أخرى أغلقت داخل المدينة، وإنه ـ والحق يقال ـ لنجاح باهر لهذه الزمرة المؤمنة المكافحة.

إن كتاب **مذكراتي في الحركة الوطنية** ليعدّ بحق سجلاً لمفاخر الشباب الوطني الرائد مليئاً بالمواقف المشرفة المنبثقة عن إيمان راسخ، وإرادة صلبة للتغيير والإصلاح لا تُقهر، يجب أن يقرأه الجميع، وبخاصة الشباب الصاعد ليستمد منه العبرة والقدوة.

أهنىء المؤلف المجاهد الكبير الأستاذ أبا بكر القادري على هذا القسم الأول الممتع من ذكرياته عن الحركة الوطنية، وأرجو الله أن يمد في عمره ويمتعه بالعافية حتى نقرأ له الأقسام الأخرى من المذكرات عن الفترات اللاحقة.

* * *

(2)
مخطوطات ووثائق

- المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي
- المخطوطات والوثائق في الخزانات المغربية
- مخطوطات منطقة الريف
- مخطوطات الصحراء المغربية
- كناشة أدبية مخطوطة من القرن الحادي عشر
- بعض نفائس مخطوطات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا
- إحياء التراث المخطوط بالمغرب

المخطوطات العربية
في الغرب الإسلامي(*)

قد يتساءل المرء لماذا تقام هذه الندوة الدولية حول وضعية المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي؟ ولماذا تحشد كل هذه الطاقات للبحث في موضوع قد يبدو لأول وهلة أن أمره قد تكلفت به فهارس المكتبات التي نشرت وينشر العديد منها؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات تقتضي الحديث عن أهمية المخطوطات العربية عموماً، ودور الغرب الإسلامي في إثراء التراث العربي والحفاظ عليه عبر العصور. . .

وغير خاف ما كان للمسلمين من بالغ الاهتمام بالدراسات المتعمقة المتنوعة عبر الحقب، وما أنتجوه فيها من كتب مطولات، ورسائل مختصرات، وما عرف لهم فيها من حوار وردود ومناظرات، مما يعد ثورة فكرية لا يستهان بها، وإسهاماً جدياً في الحضارة الإنسانية بوجه عام. ذلك ما نريد أن نثير انتباه الباحثين إليه، ليطلعوا أو بالأحرى ليزدادوا اطلاعاً على هذا التراث المخطوط الضخم، ويتعرفوا عن قرب على ما يزخر به من عطاءات وإمكانات، وما يقف دونه من صعوبات ومعوقات، فيقبلوا على إحيائه وتجديده، تعريفاً وتنظيماً وتحقيقاً.

قد تكون المخطوطات العربية أكثر المخطوطات في العالم، لا لكون العرب أكثر الأمم عدداً، ولا لكون حضارتهم أعرق الحضارات وأطولها زمناً في مسار التاريخ. وإنما لكون العربية لغة القرآن، ومن ثم لغة الإسلام، أصبحت

(*) قسم من تقرير تمهيدي ألقي في الندوة الدولية حول المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي التي أقامتها مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدرسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء.

القاسم المشترك بين جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها منذ القرن الهجري الأول حتى مطلع قرننا القرن الخامس عشر هذا، ولا حاجة إلى التذكير بإسهام المسلمين ـ على الصعيد العالمي ـ في مختلف ميادين المعرفة الإنسانية لا سيما في القرون الستة الأولى التي امتازت بالخلق والإبداع، فكان التراث العربي الضخم الذي استفادت منه الإنسانية قاطبة، مثلما استفادت قبل من التراث الإغريقي واللاتيني، وهي على درب التطور والتدرج نحو الحضارة الغربية التي نعيشها.

وقد تنبه الأوربيون في مطلع عصر النهضة إلى ظاهرة عالمية اللغة العربية، وبالتالي وحدة مفاهيم المخطوطات العربية وتداولها على امتداد رقعة العالم الإسلامي. وسجل عالم أندلسي مغربي يدعى أحمد بن قاسم الحجري أفوقاي في هذا الصدد حواراً طريفاً جرى بينه وبين علماء هولنديين في سنة 1612، وذلك في كتابه ناصر الدين على القوم الكافرين الذي نشر في السنة الماضية.

كان أحد هؤلاء الهولنديين قضى سنوات في بلاد الهند، وحمل معه منها مخطوطاً عربياً في التصوف يتحدث عن سيرة صالح كان لا يكلم أحداً في الجامع، وإذا اضطر إلى الإجابة خرج إلى الباب وتكلم. قدم الرحالة هذا الكتاب إلى أفوقاي وطلب منه إن كان يستطيع قراءته، فاطلع عليه وقال: فهمت كل ما فيه وباستطاعتي أن أترجمه إلى اللغة الأجنبية. تعجب الهولنديون وقالوا: كيف تفهم أنت في بلاد بينها وبين بلادك مسافة سنة في البحر تقريباً. ونحن في أوربا متجاورون ولغاتنا شتى لا يفهم بعضنا البعض.

ونشير إلى أن أفوقاي كان يعرف إلى جانب العربية، الإسبانية والبرتغالية والفرنسية من اللغات الحية، كما كان يعرف اللغتين الإغريقية واللاتينية، وهو الذي ترجم من الإسبانية إلى العربية كتاب العز والمنافع، لمواطنه إبراهيم بن أحمد بن نافع الأندلسي التونسي، وسيتحدث لنا عنه الأستاذ حسين مؤنس.

إذا كان الشرق الإسلامي قد سبق في ميدان الإنتاج الفكري مع العباسيين في بغداد، فإن الغرب الإسلامي لم يلبث أن دخل حلبة السباق العلمي مع

الأمويين في قرطبة، والأغالبة في تونس، والمرابطين والموحدين في مراكش، ثم لم ينقطع التأليف عند المسلمين حتى في عهد ما سمي بعصر الانحطاط، بل ازداد كماً ـ على الأقل ـ في هذه الفترة وظهر علماء موسوعيون أفذاذ أمثال ابن خلدون، وابن خلكان، والقلقشندي والجلال السيوطي، وأحمد المقري، وأحمد ابن القاضي، وأضرابهم كثير.

ومثلما تعرضت المخطوطات العربية لكارثة الإغراق والإحراق في الشرق على يد التتار، تعرضت المخطوطات العربية في الغرب بعد نهاية دولة الإسلام في الأندلس إلى ضروب من الإتلاف على يد محاكم التفتيش الرهيبة. ثم بعثر عدد كثير من هذه المخطوطات التي استطاع أن يخرجها المهاجرون الأندلسيون المطرودون في جملة ما سمح لهم بحمله من أمتعتهم النفيسة على ظهورهم، وشتت في مختلف بقاع الأرض التي التجؤوا إليها شرقاً وغرباً، إذ وصلوا كما هو معلوم حتى إلى أميركا. ولم يسلم من التراث الأندلسي المخطوط ـ نسبياً ـ إلا ما نقل إلى العدوة المغربية، وبخاصة المغرب الأقصى.

لا أريد أن أستمر في رسم هذه الصورة القاتمة عن المخطوطات العربية التي عرفت محنة أخرى لا تقل شراسة عن سابقاتها خلال القرنين الأخيرين مع الاستعمار الغربي المتسلط على العالم الإسلامي، وذلك عن طريق السلب والنهب، والتحريف والتعتيم حتى عد بعضهم صمود التراث العربي المخطوط لكل هذه الخطوب من معجزات التاريخ.

إن من حسنات هذه الندوة أن جمعت في صعيد واحد علماء متخصصين من مختلف جهات المعمور، آصرتهم اهتمام مشترك بالمخطوطات العربية في الغرب الإسلامي، ليتحدثوا إلى الحضور الكريم عن الوضعية الحالية لهذه المخطوطات أو عن بعض الجوانب العلمية والتقنية في طرق التعامل معها. أتوا من المغرب وموريتانيا والجزائر وتونس ومصر والمملكة العربية السعودية، والكويت، وتركيا، ومن إسبانيا، وفرنسا، وانجلترا، والنمسا، وألمانيا، وهولندا، وأميركا.

إن هناك أقطاراً أخرى توجد بها مجموعات من المخطوطات العربية غير ممثلة هنا، كما أن ثمة خزانات كثيرة للمخطوطات العربية في المساجد والزوايا بالمغرب وسائر البلاد الإسلامية، سنستمع إلى عرض نموذج واحد منها فقط بزاوية تنغملت، إضافة إلى مكتبات خاصة لا تقع تحت حصر. وأحسن نموذج لها كتاب خلال جزولة للمرحوم المختار السوسي الذي طاف أثناء إقامته الإجبارية بسوس في منتصف القرن الهجري الماضي على عشرات الخزانات وسجل في هذا الكتاب بعض ما اطلع عليه فيها في أربعة مجلدات... إنها فرصة لطرح قضايا التراث العربي المخطوط، ومناقشتها من ف مختصين خِرِّيتين، وإفساح مجال الحوار أمام الباحثين والمتهمين بهذ اللون من التراث العربي الإسلامي من أجل استعداد أحسن للإسهام في الندوات المتخصصة المقبلة التي ستعمل على تحليل وتفصيل ما تجمله هذه الندوة الأولى.

المخطوطات والوثائق في الخزانات المغربية

سيقتصر هذا العرض على ذكر أهم المكتبات العامة والخاصة داخل المغرب المحتوية على مصادر التاريخ المغربي، سواء احتوت على النوعين التاليين أو أحدهما:

أ ـ كتب مخطوطة ألفت لأول مرة في جانب من الجوانب التاريخية، كتاريخ عصر من العصور أو إقليم أو مدينة أو زاوية، أو تراجم شخصيات علمية أو دينية، منفردة أو مجتمعة لفترات معينة، أو شبه تراجم ذاتية في الفهارس والإجازات. ومثلها مخطوطات أخرى في مواضيع لا صلة لها بالتاريخ في الظاهر، كالفقه والنوازل والعقائد والتصوف واشتملت مع ذلك على استطرادات تاريخية ذات بال.

ب ـ وثائق مكتوبة. أو غير مكتوبة، كالظهائر السلطانية والمعاهدات الدولية والمراسلات الرسمية وغير الرسمية، وسجلات الحسابات والأحكام، وحوالات أوقاف المساجد والمدارس والزوايا، وعقود المعاوضات والأنكحة والتركات. وكذلك مجموعات النقود والآلات والآنية والخرائط والصور وما إلى ذلك. وفي هذا الصنف أيضاً وثائق مقحمة في كتب لا يظن أن توجد بها، من شروح وحواش ورحلات ودواوين شعرية.

أهم مكتبة في المغرب تشمل مصادر تاريخية هي:

الخزانة الملكية بالرباط:

وتجمع في حظيرتها آلاف المخطوطات التي كانت من قبل موزعة في القصور الملكية بفاس ومراكش والدار البيضاء ودار السلام بالرباط ومن ضمنها عدد وافر من المؤلفات التاريخية بخطوط مؤلفيها.

ونقلت إليها أخيراً المكتبة الزيدانية الشهيرة بمخطوطاتها ووثائقها المنشور بعضها في الأجزاء الخمسة المطبوعة من كتاب إتحاف أعلام الناس.

وتحتوي الخزانة الملكية أكثر من ذلك على آلاف مؤلفة من المراسلات الرسمية ودفاتر الحسابات لمداخيل الدولة ومصاريفها. وكم من كتاب كان يعد ضائعاً أو لم يكن معروفاً إلا بعض أجزائه، فوجد في هذه الخزانة العامرة. والجهود مبذولة منذ سنوات لفهرسة ذخائرها وتنظيم وثائقها. وقد تم فعلاً فهرسة أكثر من عشرة آلاف مخطوط، وترتيب آلاف الوثائق في ملفات ترتيباً زمنياً يسهل تناولها والرجوع إليها[1]. ومن أشهر المكتبات العامة المشتملة على مصادر التاريخ المغربي:

1 ـ الخزانة العامة بالرباط:

أسست سنة 1919 تابعة لمعهد الدراسات المغربية العليا، ولم يكن بها آنذاك غير بضع مئات من المخطوطات فهرسها ليفي بروفنسال سنة 1920، وطبع هذا الفهرس ضمن مطبوعات معهد الدراسات المغربية العليا. وما زالت هذه المخطوطات حتى اليوم في المكتبة تحمل الأرقام من 1 إلى 531. ثم صدر ظهير سنة 1926 الذي أصبحت هذه المكتبة بمقتضاه مؤسسة عمومية ذات كيان قائم يسمى «الخزانة العامة للكتب والوثائق» لها الصلاحية في ممارسة شؤونها الإدارية والفنية بتسيير من مجلس إداري يضم عناصر حكومية مختلفة. وصدر سنة 1934 ظهير آخر ينص على إدخال الوثائق والمستندات الحكومية إلى الخزانة العامة. واقتنت المكتبة مخطوطات أخرى بلغت 1189 مخطوطاً سنة 1953، وهي الحاملة للأرقام من 532 إلى 1.720 د، فهرسها في جزءين عبد الله الرجراجي وعلوش، نُشرا كذلك ضمن مطبوعات معهد الدراسات المغربية العليا سنة 1954 ـ 1958. وبلغ ما اقتنته المكتبة في السنوات الثلاث التالية 1954 ـ 1957 ستمائة مخطوط حملت الأرقام من 1721 إلى 2321 د،

---

(1) انظر بحث محمد الفاسي عن الخزانة السلطانية وبعض نفائسها في مجلة البحث العلمي، أعداد 3 ـ 4 ـ 5 ـ 6 ـ 7، شتنبر 1965 ـ أبريل 1966.

وفهرسها كذلك محمد إبراهيم الكتاني في جزئين طبع أولهما بالرباط سنة 1973، والثاني مهيأ لم ينشر بعد.

وفي الخزانة العامة قسم يختص بتاريخ المغرب يدعى قسم البيبليوغرافيا المغربية يضمّ كشفاً عاماً لكل ما يكتب عن المغرب من بحوث ومقالات، يسجل في جذاذات مزدوجة مرتبة حسب المواضيع وأسماء المؤلفين، ويجمع في فهرس خاص كان يطبع أولاً على الراقنة ثم على المكررة بالفرنسية، كل مجلد لسنة، ابتداءً من سنة 1929. وبعد الاستقلال أصبحت البيبليوغرافية الوطنية المغربية تطبع بالعربية والفرنسية في شكل مجلة شهرية.

وقد تطور أمر المخطوطات والوثائق بالمكتبة العامة بعد الاستقلال، فدخلتها آلاف مؤلفة منها، بعضها وهو القليل بالشراء، وأكثرها عن طريق الهبات أو نقل مكتبات كبرى إليها كمكتبات الشيخ عبد الحي الكتاني، والباشا التهامي الاكلاوي، والصدر الأعظم محمد المقري، ووزير العدل محمد الحجوي.

ومنذ سنة 1969 أسست جائزة الحسن الثاني السنوية للمخطوطات والوثائق، فعرض منها في السنة الأولى 2000 مخطوط ووثيقة، وفي السنة التالية 3.000 وهكذا في تصاعد مستمر. واكتشفت بهذه الطريقة مخطوطات نادرة ووثائق غريبة صورتها الخزانة العامة في أشرطة أو أخرجتها على الورق أو اقتنتها من أصحابها.

هذه الثروة الضخمة من المخطوطات، ومن بينها عدد كثير من المخطوطات التاريخية، فهرست فهرسة تقريبة وجزئية، وكذلك الوثائق والمستندات الحكومية. ويوم يتم تنظيم كل هذه المدخرات ستصبح الخزانة العامة بالرباط أكبر معين يرده المتعطشون لتاريخ هذه البلاد.

2 ـ الخزانة العامة بتطوان:

كانت هذه المكتبة في النصف الأول من هذا القرن تقوم في المنطقة الشمالية أو الخليفية الخاضعة للحماية الإسبانية، بالدور الذي تقوم به الخزانة

العامة بالرباط. وتحتوي بدورها على عدد هام من المخطوطات والوثائق، فُهرست أولاً فهرسة تقريبية، وطبع فهرس المؤلفين وعناوين الكتب المحفوظة في المكتبة العامة بتطوان للمرحوم أحمد المكناسي عام 1952 في 602 صفحة، كما طبع جزآن من سلسلة وثائق لدراسة تاريخ المغرب. اختص أولهما بمراسلات السلطان مولاي الحسن الأول، وثانيهما بمراسلة وزارائه. ولما تم الفهرس الجديد المحتوى على أزيد من ألف وثيقة أصدر الأستاذ المهدي الديرو مدير المكتبة ومحمد الغازي الرويفي رئيس قسم الوثائق بها سنة 1970 سلسلة جديدة بعنوان: **فهرس الوثائق التاريخية** اشتمل الجزء الأول منها على السنوات العشر الأولى من عصر السلطان مولاي الحسن الأول (1291 ـ 1300 هـ / 1874 ـ 1883). ونشير إلى أنه كان يصدر بتطوان سنوياً مجلة **البيبليوغرافية المغربية**، من وضع بعض المثقفين هناك.

3 ـ خزانة القرويين بفاس:

أقدم المكتبات المغربية العامة وأشهرها، احتوت على بقايا مخطوطات فريدة من العصر الوسيط. ورغم ما حل بها من نهب واختلاس في المدة الأخيرة، خاصة أيام الحماية الفرنسية، فإنها ما زالت تحتفظ بمخطوطات تاريخية قيمة. وقد فهرسها لأول مرة المستشرق الفرنسي ألفريد بيل فهرسة تقريبية بمساعدة بعض المغاربة المشتغلين بها آنذاك وطبع هذا الفهرس بفاس سنة 1918. ثم فهرسها محافظها السابق المرحوم محمد العابد الفاسي فهرسة علمية مدققة، إلا أن هذا الفهرس لم يطبع بعد[1]. ونشر محمد العابد الفاسي كذلك دراسة قيمة عنها وعن المكتبات المغربية عموماً في كتيب بعنوان **الخزانة العلمية بالمغرب**، اشتمل على ذكر بعض نفائس مكتبة القرويين، وذلك بمناسبة عيد جامعة القرويين عام 1380/ 1960.

4 ـ خزانة ابن يوسف بمراكش:

هي ثانية المكتبات المغربية القديمة بعد القرويين، إلا أن يد الإهمال

(1) لقد طبع هذا الفهرس بعد ذلك في أربعة مجلدات سنة 1979ـ1989بعناية ابن المؤلف الأستاذ محمد الفاسي.

أصابتها فيما أصابت من معالم مراكش حين تخلى عنها المرينيون كحاضرة لدولتهم. وتضم هذه المكتبة اليوم بين جنباتها بقايا المخطوطات التي أوقفها الملوك السعديون على مساجد مراكش ومدارسها وأضرحتها، وعدداً من مؤلفات علماء ومؤرخي عاصمة الجنوب وبخاصة في القرون الأربعة الأخيرة.

فهرس مخطوطات هذه المكتبة محافظها الأستاذ الصديق بن العربي فهرسة مدققة، وطبعها على الآلة المكررة[1].

5 ـ خزانة الجامع الأعظم بمكناس:

يكفي للدلالة على أهمية هذه المكتبة احتواؤها على بقايا مخطوطات السلطان إسماعيل الذي بلغت عاصمة مكناس في عصره درجة عالية في الرقي والحضارة، وتزاحم على بلاطه السفراء والعلماء من أوربا وغيرها من أقطار المعمور، غير أن مخطوطات هذه المكتبة لم تفهرس بعد، وإنما وضعت قائمة تقريبية ببعض محتوياتها.

6 ـ خزانة الجامع الأعظم بسلا:

هذه المكتبة العلمية عتيقة، يرجع تاريخ تأسيسها والمسجد الأعظم والمدارس المتصلة به إلى عصر الموحدين فالمرينيين، ورغم قلة المخطوطات الباقية بها فإنها تمتاز بما تحتوي عليه من مؤلفات علماء هذه المدينة القدماء والمحدثين.

وقد جددت بنايتها داخل المسجد الأعظم في السنوات الأخيرة، وفتحت للعموم ولو أن فهرسة كتبها غير تامة.

7 ـ خزانة الجامع الكبير بتازا:

يرجع عهد الكتب الوقفية بتازا إلى عصر السلطانيين المرينيين يوسف بن يعقوب وابنه أبي الحسن حيث بنيا هنالك المسجد الأعظم والمدرسة العلمية وشحنا خزانتيهما بالكتب. ونظراً للاتصال العلمي الوثيق الذي كان قائماً طوال

---

(1) هو الآن قيد الطبع من لدن دار الغرب الإسلامي في بيروت.

القرون الماضية بين تازا وتلمسان، فإن هذه المكتبة حوت في جملة ما احتوت عليه مخطوطات تاريخية أو قريبة الصلة بالتاريخ لمؤلفين تازيين وتلمسانيين.

8 ـ خزانة وزان:

تتصل هذه المكتبة بضريح المؤسس الحقيقي لمدينة وزان مولاي عبدالله الشريف العَلَمي جدّ الشرفاء الوزانيين. وقد بدأت حركة الكتب في هذه المدينة مع الحركة الصوفية العلمية التي أحدثها هناك هذا الشيخ وآله وأتباعه العلماء أواخر القرن الهجري الحادي عشر (17 م).

ومما تمتاز به مكتبة وزان كتب المناقب التي تؤرخ للحركة الصوفية الشاذلية بالمغرب في العصر الحديث.

9 ـ خزانة المعهد الإسلامي بتارودانت:

مدينة تارودانت المتواضعة اليوم على ضفاف نهر سوس، كانت في القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة (16 و17 م) العاصمة الأولى للسعديين قبل أن ينتقلوا إلى مراكش، وثالثة الحواضر الكبرى بالمغرب. تعددت مساجدها ومدارسها واكتظت بالمعلمين والمتعلمين، كما امتلأت خزائنها بأعلاق الكتب. وقد عدت عوادي الزمن على معظم تلك الذخائر، وجمع ما بقي منها أخيراً في مكتبة المعهد الإسلامي. ويجد الباحث في تاريخ سوس بهذه المكتبة ـ على قلة مخطوطاتها ـ ما لا يجده في غيرها من المكتبات.

10 ـ الخزانة العلمية الصبيحية بسلا:

من أغنى المكتبات الحديثة بالوثائق والمخطوطات التاريخية، أصلها مكتبة خاصة بباشا مدينة سلا العلامة المرحوم الحاج محمد الصبيحي، أوقفها قبيل وفاته على المستفيدين من الباحثين والطلبة، وبنى لها ولده الأستاذ عبد الله الصبيحي بناية فاخرة وأعطاها كل وقته وتفكيره تنظيماً وفهرسة وإنفاقاً بغير حساب. ولما كان البيت الصبيحي من أعرق البيوتات السلوية نبلاً وعلماً وجاهاً، فإن المكتبة الصبيحية حوت كثيراً من المراسلات السياسية المتبادلة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بين حكومة المخزن ورجال هذه الأسرة.

وفي ميدان المكتبات العامة بالمغرب ظاهرة تثير الانتباه، ألا وهي وجود مكتبات في البادية لا تقل أهمية عن مكتبات الحاضرة، سواء من حيث عدد المخطوطات أو محتواها. ولعل ذلك راجع إلى الحركة الصوفية المصطبغة بالصبغة العلمية التي عمت مدن المغرب وقُراهُ في القرون الماضية. وقد أصاب هذه المكتبات إبان الحماية الفرنسية نوع من الإهمال، وانتُهبت من بعضها مخطوطات قيمة، في حين توفق بعض المشرفين إلى التستر على مدخرات مكتباتهم وحجبها عن أعين الطامعين. وكان الفضل في إحياء هذه المكتبات وتنظيمها بعد الاستقلال لوزارة الأوقاف والخزانة العامة للكتب والوثائق على يد الأستاذين محمد إبراهيم الكتاني ومحمد المنوني.

وسنقتصر في هذا المدخل على ذكر أربعة من كبريات هذه المكتبات الوقفية القروية:

أ ـ دار الكتب الناصرية بتامكروت

تقع هذه المكتبة في أسفل وادي درعة بالصحراء جنوبي زاكورة، أسسها الشيخ مَحمد بن ناصر الدرعي في منتصف القرن الهجري الحادي عشر (17 م) وأوقفها في آخر حياته على طلبة العلم المتكاثرين في زاويته. وقد أضاف أبناء الشيخ وحفدته إلى هذه المكتبة عدداً من مؤلفاتهم ومقتنياهم من المخطوطات في رحلاتهم بالمغرب والمشرق. وتضم اليوم زهاء 4.200 مخطوط.

فهرس هذه المكتبة الأستاذ محمد المنوني فهرسة مدققة، وكتب عنها بحثاً قيماً بعنوان حضارة وادي درعة طبع هو والفهرس على الآلة المكررة، ونشر تباعاً في مجلة دعوة الحق.

ب ـ المكتبة العياشية أو الحمزاوية:

موقع هذه المكتبة في جبل أيت عياش بالأطلس الكبير جنوبي ميدلت. أسسها الرحالة الصوفي الشهير أبو سالم العياشي مؤلف الرحلة الحجازية ماء الموائد أواخر القرن الهجير الحادي عشر (17 م). وشحنها بمؤلفاته وما نسخه أو استنسخه أو اشتراه في رحلاته العديدة الطويلة. وزاد هذه المكتبة إغناءً ولده

الصوفي العالم حمزة الذي تنسب إليه اليوم المكتبة والزاوية.

فهرس هذه المكتبة أيضاً الأستاذ محمد المنوني إلا أن الفهرس لم يطبع بعد.

ج ـ مكتبة تانغملت بتادلا:

توجد مكتبة تانغملت في هضاب تادلا غير بعيدة عن الشلال الشهير أزود. وتحتضن عدداً من مؤلفات علماء وسط المغرب في منطقة الدير وحدور الأطلس المتوسط. يقال إن عدداً غير قليل من مخطوطات مكتبة الزاوية الدلائية الشهيرة آلَ إلى مكتبة تانغملت. وانصب شره المستعمرين على هذه المكتبة أكثر من غيرها فاختلسوا منها أشياء كثيرة جعلت سلطات المغرب تغضب وتحتج على الفرنسيين باعتبار أن مخطوطات المكتبة وقفية لا يجوز إخراجها من موضعها. ووضعت قائمة آنذاك بما بقي فيها من مخطوطات ما تزال محفوظة حتى اليوم. وقد نقل بعض تلك المخطوطات إلى الخزانة العامة بالرباط.

د ـ مكتبة بزو:

تقع قرية بزو على الهضاب المشرفة على وادي العبيد بين مراكش وبني ملال. ومكتبتها كمدرستها قديمة تحتوي على مخطوطات لا توجد في غيرها. إلا أنها للأسف لم تفهرس بعد، وإنما يعثر فيها بين الفينة والأخرى على بعض النوادر.

أما المكتبات الخاصة التي تحتوي على وثائق ومخطوطات تاريخية وغيرها فلا يكاد يأتي عليها الحصر وهي في القرى والجبال أكثر منها في الحواضر والمدن. وكنموذج لما تزخر به مكتبات الخواص في البادية المغربية، نحيل من يريد التعرف على المكتبات الخاصة بإقليم سوس وحده على رحلة المرحوم محمد المختار السوسي خلال جزولة المطبوعة أجزاؤها الأربعة بالمطبعة المهدية بتطوان أوائل عهد الاستقلال، فقد سجل فيها عشرات المكتبات السوسية التي زارها وتحدث عن آلاف المخطوطات والوثائق فيها، ووصف المئات من هذه المخطوطات التي قرأها أو تصفحها. ذلك أن

الفرنسيين نفوا محمد المختار السوسي أيام طغيان الحماية من مدينة مراكش وقضوا عليه بالإقامة الإجبارية بمسقط رأسه سوس، فمكث هناك نحوعشر سنوات تجول أثناءها على البغال في قرى ومداشر سوس سهلاً وجبلاً واطلع على ذخائر المكتبات ومدخّرات الأسر التي يضنّون عادة بإطلاع الناس عليها، وسجل كل ذلك في كتابه القيم خلال جزولة.

وسنجتزىء هنا بذكر بعض المكتبات الخاصة الغنية، إذ لا مناص من الاكتفاء بأقل القليل في هذا المجال:

1 ـ المكتبة الفاسية: للمرحوم محمد العابد الفاسي، من أغنى المكتبات بالمخطوطات عموماً، ومخطوطات الأسرة الفاسية التي توارثت العلم طوال قرون خصوصاً. وآلَ إلى هذه المكتبة معظم مؤلفات وكنانيش العلماء الفاسيين بخطوط أصحابها، كمحمد العربي الفاسي، وعبد الرحمان ابن عبد القادر الفاسي، ومحمد المهدي الفاسي، وأبي حفص عمر الفاسي وغيرهم كثير. ورغم أن صاحب المكتبة كان محافظ خزانة القرويين وواضع فهرسها، فإن مكتبته الخاصة غير مفهرسة، وكم كان رحمه الله يلاقي من عنت في استخراج بعض الكتب التي نرغب في الاطلاع عليها.

2 ـ المكتبة الأحمدية بفاس لعبد السلام ابن سودة مؤلف دليل مؤرخ المغرب الأقصى، الكتاب الذي لا غنى عنه لمن يريد البحث في ماضي بلادنا. وليست ثروة هذه المكتبة في العدد العديد من المخطوطات التاريخية التي كونت المادة الأساسية لكتاب دليل المؤرخ وذيله الذي لم يطبع بعد، والعقود العتيقة والصور العديدة فحسب، وإنما تتجلى أهمية المكتبة الأحمدية أيضاً فيما تحتوي عليه من وثائق نفيسة تتعلق بتاريخ مدينة فاس عامّة.

3 ـ المكتبة الناصرية بسلا لآل الشيخ أحمد بن خالد الناصري مؤلف الاستقصا ففيها مصادر هذا الكتاب القيم، ومنها مخطوطات فريدة بخطوط مؤلفيها من مختلف قرون العصر الحديث. وأغنى هذه المكتبة ولدَا مؤلف الاستقصا بتآليفهما التاريخية باللغتين العربية والفرنسية، وبما اقتنياه طوال نصف

قرن من المخطوطات والوثائق المتعلقة بتاريخ المغرب عموماً ومدينة سلا خصوصاً.

4 ـ مكتبة ابن غازي بالرباط للأستاذ محمد المنوني العالم المنقطع للبحث والكتابة في تاريخ المغرب منذ نحو أربعين سنة، والذي لا ينقطع عن العمل على استكشاف واقتناء كل ما له صلة قريبة أو بعيدة بتاريخ هذه البلاد من مخطوطات ووثائق.

5 ـ مكتبة الأستاذ إبراهيم الكتاني بالرباط، فيها من نفائس المخطوطات التاريخية أو القريبة من التاريخ الشي الكثير، وهي بما تحتوي عليه من مؤلفات الأسرة الكتانية العالمة شبيهة بما في المكتبة الفاسية للعلماء الفاسيين، ومن ضمنها مؤلفات والد صاحب المكتبة أحمد بن جعفر الكتاني وعددها 96 كتاباً كلها بخط المؤلف.

6 ـ المكتبة الكنّونية بطنجة، هي مكتبة العالم المغربي الشهير عبد الله كنون مؤلف كتاب النبوغ المغربي، وفيها جميع مصادر هذا الكتاب الذي كان له دوي هائل في الشرق والغرب. وأصل المكتبة للشيخ التهامي بن المدني كنون جد عبد الله كنون.

مخطوطات منطقة الريف (*)

يختزن المغرب، كما هو معروف، كمية وافرة من المخطوطات العربية المتنوعة الأصول والخطوط، يرجع تاريخ بعضها إلى القرون الإسلامية الأولى. وإذا كان المخطوط بطبيعته مهماً، فإن للمخطوطات المحلية التي ألفها المغاربة أو انتسخوها أهمية إضافية لما تختزنه من خصوصيات هذا البلد معرفة وفناً وذوقاً وتفكيراً، بل وقوة وضعفاً وانفتاحاً وانكماشاً وتأثراً وتأثيراً، بالنسبة للمحيط الذي يعيشون فيه. وتجدر الإشارة هنا إلى أربع ملاحظات:

أولاً: عن نوعية المخطوطات المغربية، فقد كانت حتى نهاية عهد المرابطين كلها تقريباً ـ بالإضافة إلى المصاحف ـ متعلقة بفروع الفقه المالكي، ثم توسعت مع الموحدين والمرينيين فمن بعدهم، فشملت الأصلين والتفسير والحديث والسير والتاريخ، والرياضيات والفلك والفلسفة وما إلى ذلك من المنقولات والمعقولات.

ثانياً: أن المخطوطات العربية في المغرب هي مزيج من المؤلفات والمنتسخات المغربية والأندلسية، بحيث يكاد يتعذر التحديد والتمييز بينها أحياناً، أسلوباً ورسماً وخطاً، لشدة الاتصال بين العدوتين المتجاورتين وسهولة التنقل بينهما، وتشابه المناخ العلمي في كل من قرطبة وإشبيلية وغرناطة، وسبتة وفاس ومراكش وسلا وتطوان وغيرها من حواضر المغرب والأندلس.

ثالثاً: أن مراكز المخطوطات التي جلبت أنظار الرحالة والمؤرخين وعموم الدارسين إنما هي المراكز العلمية التقليدية في الجنوب مثل فاس ومراكش

(*) عرض ألقي في ندوة «صيانة المخطوطات في البحر المتوسط» التى أقامتها وزارة الشؤون الثقافية بمدينة الحسيمة يوم 28 شتنبر 1989.

ودرعة وسوس. لذلك رأيت أن أتحدث في هذه الندوة المقامة بأقصى الشمال عن المخطوطات العربية في منطقة الريف.

رابعاً: أن هذا العرض الوجيز لا يتسع لاستيعاب مخطوطات الريف عامة، لذلك سأترك جانباً ما يتعلق منها بالعصر الوسيط، وأكتفي بمخطوطات العصر الحديث، أي من فترة انهيار مملكة غرناطة.

أقصد بالريف ما يشمل السلسلة الجبلية كلها شرقها وغربها وحدورها الجنوبية، أي ما يسمى بجبال غمارة وما يعرف ببلاد جبالة وبلاد الهبط، وسأقتصر على ذكر بعض المراكز العلمية فيها كنماذج فقط. وما أنتجته من مخطوطات أو حوته من مكتبات سواء بقيت أو اندثرت.

وأثير الانتباه في البداية إلى أن المراكز العلمية في الريف خلال العصر الحديث تكاد تكون كلها قروية باستثناء حواضر قليلة أنشئت أو جددت حديثاً. أما الحواضر العلمية التقليدية في هذه المنطقة فقد احتل معظمها البرتغاليون أو الإسبانوين، وأعظمها وأهمها مدينة سبتة التي سقطت سنة 818 هـ. كما أنبه إلى أن هذه المراكز والخزائن تقل في الجهة الشرقية، وتكثر كلما اتجهنا غرباً أو انحدرنا جنوباً.

وأبادر إلى القول أيضاً في هذا المدخل إلى أن أخطر مخطوط مغربي في مطلع العصر الحديث كان له ـ رغم صغر حجمه ـ أكبر صدى في الغرب الإسلامي كله: المغرب العربي وبلاد السودان، وما زال العمل جارياً به إلى أيامنا هذه، كان من هذه المنطقة الجبلية، وهو **رسالة وقف القرآن** للإمام محمد بن بوجمعة الهبطي السماتي المتوفى عام 930/ 1524. فقد وحد هذا الكتاب الوقف في المصاحف، ومكن من القراءة الجماعية للقرآن في المساجد، وما زالت خزائن المخطوطات في هذه الأقطار تحتفظ بما لا يحصى عدداً من المصاحف المكتوبة حسب وقف الهبطي، بل ما زالت المصاحف تطبع حتى اليوم تبعاً لهذا الوقف، كالمصحف الحسني، والمصحف التونسي، والمصحف الجزائري المطبوع قبل سنتين بدار الغرب الإسلامي في بيروت.

يأتي في طليعة المراكز العلمية الحضرية بمنطقة الريف مدينة تطوان التي جدد بناءها الأندلسيون المهاجرون سنة الثمانينات 888/ 1483 وعمروها هم وسكان جبال الريف المجاورة. واستوطنها كذلك علماء من فاس والمغرب الأوسط. ومن أقدم المؤلفين فيها محمد بن عبد الرحمان الكراسي الأندلسي (ت 964/ 1557) صاحب الأرجوزة التاريخية **عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل**، وأبو القاسم بن سلطان القسنطيني (ت بعد 999/ 1551) مؤلف كتاب **في الرد على الطائفة الأندلسية الضالة في مجلدين**، وهو اليوم في حكم المفقود، ومحمد العربي الفاسي (ت 1052/ 1642) المؤلف المكثر.

وقد عرفت تطوان تطورات سعيدة في ميدان المعرفة والتأليف طوال القرون التالية إلى أن أصبحت عاصمة الشمال الإدارية والعلمية في عهد الحماية. وتتوفر الآن على مركزين مهمين للمخطوطات المفهرسة، الخزانة العامة، وخزانة المعهد الخليفي.

تأتي بعدها مدينة شفشاون، وتاريخ تأسيسها مقارب لتاريخ تجديد تطوان، أي أواخر القرن التاسع الهجري (15 م). أسسها من شرفاء جبل العلم بنو راشد لتكون رباطاً ينطلق منه المجاهدون لمحاربة المحتلين لثغور المغرب الشمالية، وبخاصة سبتة وطنجة. ويذكر كأول قاض بها بعد التأسيس علي بن ميمون الغماري (ت 917/ 1512) وهو شخصية علمية صوفية فذة، انتقل إلى المشرق واستقر بدمشق الشام ومات في بيروت. ألف كتباً كثيراً امتازت بالأصالة ودقة الملاحظة والصلابة في الحق، ونقد المجتمع في المغرب والمشرق. ومن بين مؤلفاته **الرسالة المجازة في معرفة الإجازة**، فيها وصف حي ومركز للدراسة بفاس أواخر القرن التاسع، وتعريف بهيئة التدريس في القرويين، ومختلف الفنون المدروسة بها من شرعية ولغوية وعقلية.

وتولى خطة القضاء بشفشاون بعد ابن ميمون عالم مؤلف آخر هو محمد بن علي ابن عسكر الشفشاوني (ت في معركة وادي المخازن 896/ 1578) صاحب **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن**

العاشر، وهو مصدر أساسي لتاريخ العلم والتصوف في تلك الفترة بالشمال بصفة خاصة. طبع أكثر من مرة إلا أن به تصحيفاً كثيراً يمكن أن يصحح إن وجد له مخطوط أصيل.

وقد درج في هذه المدينة خلال مختلف أطوار حياتها علماء وأدباء ومتصوفة خلفوا بها مؤلفات يظن أن مخطوطاتها ما تزال لدى الخواص بشفشاون أو في مكتبات ملحقة ببعض الجوامع.

ونجد مثل ذلك في مدينة وزان التي لم تمصر إلا في أوائل القرن الحادي عشر (17 م). عندما انتقل إليها بأهله أحد شرفاء جبل العلم أيضاً، وهو عبد الله الشريف بن إبراهيم، وأسس بها زاوية كانت نواة لما بني حولها من دور وأسواق ومساجد، ولم تكن وزان قبل ذلك سوى مدشر بسيط على ربوة مخضرة بأشجار الزيتون وسط قبيلة مصمودة.

ومن أقدم المؤلفين هناك موسى بن علي الوزاني الذي تناولت مؤلفاته موضوعات فقهية وكلامية وصوفية، وكان إلى ذلك ملازماً لنساخة الكتب. قال عنه معاصره ابن عسكر: «وكان كثير الانتساخ لكتب العلم بيده، نسخ منها أكثر من ثلاثمائة ديوان من الدواوين الكبار، وجمع فتاوى فقهاء عصره في سفر».

وعاش بوزان في عهد تأسيسها عبد الكبير بن عبد المجيد الكثيري الملقب اعليوات، وهو غماري من بني زجل، متمكن في الفقه والتصوف والجدل وعلم الكلام. من مؤلفاته المعروفة: **السيف المتين في الرد على مَن كفر عوام المسلمين**؛ **وسراج الغيوب في أعمال القلوب**. وهذا الكتاب الأخير مخطوط ضخم في 669 صفحة، يعتبر أوفى مصدر للتعريف بمبادىء الطائفة الأندلسية الضالة المشار إليها آنفاً، والرد عليهم.

تضم اليوم الخزانة الملحقة بضريح مولاي عبد الله الشريف مجموعة كبيرة من المخطوطات إلا أنها للأسف في تناقص مستمر.

أما المراكز العلمية القروية بمنطقة الريف فتقع في قمم الجبال أو على ضفاف الأودية في شعاب متشعبة نظراً للوضعية الأمنية المتدهورة بالمنطقة. منها:

بَطُّوية (أو بطّيوة أو أبطيو) وهي قبيلة صنهاجية كبرى ذكر ابن خلدون أنها تتكون من ثلاثة أقسام، أحدها بقّوية أو إبقّيون، تمتد أراضيها على الساحل فيما بين غساسة أو الناضور والمزمة أو الحسيمة، متوغلة في الجبل مشتملة على عدة قمم، منها جبل بني عيسى وسط بلاد بطوية الذي كان في القرن الحادي عشر (17 م). من المراكز العلمية النشيطة.

اشتهرت بطوية في التاريخ الحديث بميزتين: أولاهما الجهاد دفاعاً عن حوزة الوطن، بمشاركة العلماء الذين دأبوا على قسم السنة شطرين، شطر للتدريس، وشطر للرباط والجهاد. وأكثر ما كان رباطهم وجهادهم ضد المحتلين لمليلة وسبتة. أقدم من عرفت تراجمهم من العلماء البطوئيين المجاهدين يرجع إلى النصف الثاني من القرن العاشر، ومن أواخرهم البطل المغوار محمد بن عبد الكريم الخطابي.

الميزة الثانية أنه كانت لبطوية في الميدان العلمي صلة وثيقة بكل من علماء تازا وتلمسان وفاس، يتعلمون فيها ويعلمون. واستوطن بعض البطوئيين في حقب مختلفة هذه المدن وبقي عقبهم فيها، وتولى بعضهم القضاء في عدد من الحواضر واشتهرت تآليفهم الفقهية بالخصوص ودرست في جامع القرويين.

المخطوط الذي نقدمه كنموذج لمؤلفات البطوئيين هو مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح، لعيسى بن موسى البطوئي (ت 1040/ 1630) وهو عالم صوفي مجاهد، درس في بطوية وفاس وتلمسان. وكتابه هذا عبارة عن شبه موسوعة في مجلدين ضخمين من نحو 1200 صفحة من القطع الكبير، يتركب من مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة. تتناول المقدمة فضائل العلم والعلماء والحث على طلب العلم، وتتحدث الأبواب الستة الأولى عن مسائل الإيمان والإسلام وآداب الإنسان مع الخالق تعالى وحفظ الجوارح الظاهرة والباطنة وما إلى ذلك من مباحث التصوف. أما الفصول الثلاثة الأخيرة من الباب السابع فقد جعل منها المؤلف فهرسه الخاص، ذكر شيوخه ومقروءاته ورحلاته في طلب العلم، بينما خصص الباب الثامن

للجهاد مفصلاً القول في معناه لغة وشرعاً، مبيناً أقسامه وأصوله وشروطه وفرائضه وآدابه. ولما تحدث عن الاستماتة في مجابهة العدو عقب على ذلك بقوله: «واعلم ـ رحمك الله ـ أن أصل الوهن والضعف عن الجهاد ومكافحة العدو هو حب الدنيا وكراهة بذل النفوس لله تعالى وبذل مهجتها للقتال في سبيل الله. ألا ترى إلى حال الصحابة وكيف مهد الله لهم البلاد، ودان لدينهم العباد، لما بذلوا لله أنفسهم في الجهاد. وحالنا اليوم كما ترى: عدد أهل الإسلام كثير، ونكايتهم في الكفار نزر يسير».

وفي غرب الريف نذكر مركزين جبليين متميزين:

أ ـ بني حسان شمالي مدينة شفشاون بينها وبين تطوان، تعرف ديارهم اليوم بسوق أربعاء بني حسان. اشتهر هذا المركز في القرن العاشر الهجري بأسرة ابن خجو العالمة التي اشتغلت بالتدريس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتربية الرجال والنساء. وفي طليعتهم أبو القاسم محمد بن علي بن خجو (ت 956/ 1549). ألف في التصوف كتاب **ضياء النهار المجلي لغمام الأبصار في نصرة أهل السنة الفقهاء الأخيار**، وثلاث رسائل في موضوعات اجتماعية إصلاحية، تتحدث إحداها عن **عادة اختلاط الرجال والنساء في الريف**، والثانية **عن صحة إيمان البدو الجهال**، والثالثة **عن عادة زيارة القبور**.

وعمل في بني حسان إلى جانب الشيخ أبي القاسم أخوه الحسين بن علي ابن خجو، وكان مثله عالماً عاملاً على تقويم ما اعوج من أخلاق قومه وعاداتهم. له فتاو متفرقة في العديد من المخطوطات، وأخته آمنة بنت علي بن خجو، وهي عالمة مشاركة في الحديث والفقه والتصوف والأدب، اشتغلت بتعليم النساء والبنات في مسقط رأسها إلى أن انتقلت إلى بيت زوجها الهبطي كما سنرى.

وتذكر كتب التاريخ عالمة أخرى من هذه الأسرة تدعى العريفة بنت خجو الحسانية، وأنها هذبت حريم الملك محمد المهدي الشيخ السعدي حين دخل هو وأهله لأول مرة إلى فاس في منتصف القرن العاشر وعليهم سمة البداوة «فإنها علمته ـ يقول الأفراني في النزهة ـ سيرة الملوك في منازلهم وحالاتهم في

الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وغير ذلك، فاكتسى ملك محمد الشيخ بذلك طلاوة، وازداد في عيون العامة رونقاً وحلاوة، بسبب جريانه على العوائد الحضرية».

ب ـ **الجبل الأشهب** في الجنوب الشرقي لمدينة شفشاون غير بعيد عنها، اشتهر في القرن العاشر بآل الهبطي الذين نزحوا إليه بعد احتلال طنجة من قبل الإسبانيين. أبرز شخصية فيهم الشيخ عبد الله بن محمد الهبطي (ت 963/ 1556). انقطع للتربية طيلة عمره حريصاً على تعليم الكبار والصغار والخدم بنين وبنات، مبادىء العقيدة وأركان الإسلام وقواعد الإحسان. ثم تزوج آمنة بنت علي ابن خجو فصارت تعلم النساء والبنات، حتى كاد يكون جميع سكان الجبل عارفين بأمور دينهم رجالاً ونساء وصبياناً. لم يكتف الشيخ الهبطي بالتعليم الشفوي، وإنما ألف ـ كما فعل المهدي بن تومرت من قبل ـ عدداً من العقائد المبسطة والمنظومات التعليمية السهلة لينتفع بها المتعلمون والمتعلمات. وأسس في الزاوية مكتبة شحنها بنسخ عديدة من مؤلفاته وغيرها وفتحها لجمهور القراء ووضع لها نظام الإعارة ليستفيد منها المتعلمون في الجبل الأشهب والجبال المجاورة.

ونظم عبد الله الهبطي **ألفية إصلاحية** تعد وثيقة تاريخية فريدة، وتصور حياة الريفيين وعاداتهم في أفراحهم وأتراحهم. وتشغل المرأة الريفية حيزاً كبيراً في هذه **الألفية**.

خلف عبد الله الهبطي بعد وفاته في زاوية الجبل الأشهب ابنه العالم محمد الهبطي المعروف بالصغير، وقضى زهاء نصف قرن يعلم ويربي، وألف ـ كأبيه ـ عدداً من الكتب ذات النزعة الفقهية العقدية، والتاريخية الإصلاحية. منها كتاب **كنز السعادة في بيان ما يحتاج إليه من نطق بكلمة الشهادة**، وكتاب **في مصطلحات الصوفية**، وآخر شرح به نونية أبي مدين الغوث سماه **كشف الأستار الغيبية عن وجه القصيدة الشعيبية**، وكتاب **مباحث الكلية والجزئية في المنطق**. على أن أهم تآليف محمد الهبطي هو رجزه المسمى **بالمعرب الفصيح عن سيرة الشيخ الرضى النصيح**، يقع في 1.373 بيت عرف فيه بأبيه عبد الله، وأمه آمنة

بنت خجو، وضمنه كثيراً من الفوائد التاريخية المتعلقة بمنطقة الريف ورجالها.

وفي أقصى غرب بلاد غمارة نشير كذلك إلى مركزين علميين نابهين.

1 - **بني زيات** على ساحل البحر المتوسط في الضفة اليمنى لوادي لاو، ويكاد يشبه الزياتيون البطوئيين في كثرة علمائهم وانتقالهم إلى الحواضر العلمية الحضرية حيث يدركون المراتب السامية، إلا أن ارتباطهم أساساً بمدن تطوان والقصر الكبير وفاس. ومنهم فريق زناتيون يتصل نسبهم ببني عبد الواد ملوك تلمسان، هاجر أجدادهم إلى المغرب الأقصى في القرن السابع ونزلوا على أبناء عمهم الغماريين الصنهاجيين فامتزجوا بهم ودعوا مثلهم زياتيين. ومنهم بنو الشيخ يوسف بن مهدي الزياتي العلماء الذين سيذكرون قريباً.

أقدم من عرف من المؤلفين الزياتيين في العصر الحديث هو الرحالة الحاج زروق الزياتي شارح أرجوزة عبد الرحمن الرقعي التي نظم بها مقدمة ابن رشد الفقهية، ومحمد بن يوسف الزياتي الذي هاجر إلى بلاد السودان ينشر فيها علمه ويدرك من الثروة والمكانة ما أدركه المهاجرون قبله، وهناك أدركته الوفاة بعد عام 990/ 1582.

وقد انتقل الحسن بن يوسف الزياتي إلى فاس وتزوج بنت الشيخ أبي المحاسن الفاسي، فاشتغل بتدريس القراءات والحديث والأصلين والفقه والمنطق وألف عدداً من الشروح والحواشي للكتب الذي كان يقوم بتدريسها. وهنا أنجب ابنه عبد العزيز الذي هو بحق أشهر بني زيات وأفقههم وأعلمهم باللغة وقواعدها، ووضع - كأبيه - عدداً من الشروح والحواشي لأمهات كتب النحو والصرف، وألف إلى جانب ذلك كتاب **الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة**. إنه وثيقة تاريخية غنية لمعرفة الاجتهادات الفقهية لعلماء الريف من جهة، ولدراسة الأوضاع الاجتماعية لهذه المنطقة من خلال النوازل والأحكام والفتاوى.

2 ـ **بني زجل** على ضفاف وادي لاو أيضاً جنوبي قبيلة بني زيات. فقهاؤهم معروفون منذ أوائل القرن العاشر (16 م). هاجر بعضهم إلى شفشاون كآل بني عرضون العلماء الذين هم أغزر الزجليين إنتاجاً. ويتميز من بينهم أحمد بن الحسن ابن عرضون الذي أنافت مؤلفته على عشرة، وهي متنوعة طريفة ذات أسلوب سهل خال من الحشو طبع بعضها وبقي أكثرها مخطوطاً. من هذه المخطوطات: **حدائق الأنوار في الصلاة على النبي المختار**، ورسالة **التودد والتحابب**، وهي في الصداقة والصديق، لا على الطريقة الأدبية الفلسفية التي سلكها أبو حيان التوحيدي ولكن بروح دينية صوفية تدعو جميع المسلمين إلى التآخي في الله ومراعاة حقوق الصداقة «لتصفو الأخوة من شوائب الكدرات» كما يقول المؤلف. ومنها **شرح أسماء الله الحسنى**، وأرجوزة **في صناعة تسفير الكتب**. وهذا ثاني كتاب ألف في هذه الفترة يعالج هذه التقنية اليدوية الدقيقة، إلى جانب كتاب أحمد بن محمد السفياني.

ونختم هذا العرض بإشارة خاطفة إلى مراكز بني زروال العلمية، هذه القبيلة الكبرى المستقرة جنوبي جبال غمارة في مرتفعات متدرجة في حدور وسهول ضيقة ممتدة إلى مجرى نهر ورغة. وهي خليط من بطون صنهاجية ومصمودية، وفصائل عربية أسكنها معهم المرابطون والموحدون. وقد اشتهر الزرواليون بالإقبال على التعليم وحفظ القرآن الكريم في أكثر من أربعمائة مسجد أو كتّاب حتى كادت الأمية تنعدم بينهم. واشتهر علماؤهم منذ قرون في بلادهم وفي خارجها خاصة بفاس. ونشير إلى صعوبة ضبط أنسابهم، فعلاوة على تعدد صيغ النسبة الرئيسية حيث تكتب زروالي وزرويلي وأزروال، ينسب بعضهم إلى الجدود أو المداشر التي يسكنونها. من أشهر مراكز بني زروال:

ـ **بني دركول**، مدشر قريب من وادي أوضور أحد روافد نهر ورغة ومقر الزاوية اليالصوتية. واليالصوتيون أسرة علمية عريقة تنسب إليها المدرسة المصباحية المعروفة شمال جامع القرويين بفاس، إذ كان الشيخ مصباح اليالصوتي أول من درس بها بعد تشييدها أوائل القرن الثامن الهجري. ومن

اليالصوتيين المؤلفين في العصر الحديث الشيخ عبد الوارث اليالصوتي (ت 971/ 63 ـ 1564)، وأحمد بن عبد الله اليالصوتي (ت 1006/ 1598)، وعلي بن محمد اليالصوتي (ت 1039/ 29 ـ 1630).

ـ تازغدرة المطلة على وادي أولاي من روافد ورغة كذلك. وأشهر علمائها في هذا العصر الرحالة محمد بن علي الحاج الشطيبي (963/ 1556) وهو من أصل أندلسي. ألف عشرات الكتب والرسائل في مختلف الموضوعات الفقهية والصوفية والتاريخية والفلكية والفلاحية، وانتسخ بيده عدداً غير قليل من أمهات الكتب. كان هذا الرجل ـ كما يذكر مترجموه ـ قوي البنية، إذا فرغ من التدريس باشر الفلاحة بيده غرساً وسقياً وتشذيباً حسب الطرق العلمية التي وردت في كتابه. ولما زرت قبل سنوات ضريحه وبقايا المسجد الذي كان يدرس فيه لاحظت أن المرتفعات المحيطة بهما مكسوة بأصناف الأشجار المثمرة الخضراء اليانعة، وربما كان ذلك من بقايا عمل هذا العالم العامل، إلا أنني بعكس ذلك لم أجد عند التاغدريين ما كنت أنتظر العثور عليه من مخطوطات مؤلفات الشطيبي ومنتسخاته.

وبعد، فأين هي مخطوطات العلماء الريفيين والجبليين المتراكمة عبر القرون والأجيال؟ إذا كانت نسخ بعضها موجودة في المكتبات العامة والخاصة عبر الأقاليم الجنوبية، فإن كثيراً منها، وبخاصة الأصول، ما تزال هنا عند الأسر تتوارثها وتضن بها عن الباحثين إلى أن تتلاشى أو تتسرب في ظروف غير عادية لأيدي من لا يهمهم غير الربح العاجل، فتهاجر هذه المخطوطات بعيداً وتفتقد إلى الأبد.

إنني أقترح ـ في نطاق صون التراث المخطوط ـ على وزارة الشؤون الثقافية وعلى المحسنين الموسرين الواعين من أبناء الريف أن يعملوا على تدارك ما يمكن تداركه، وذلك

1 ـ برصد مبالغ مالية كافية لاقتناء هذه المخطوطات وحفظها في خزانة كخزانة تطوان مثلاً، بعد أن تؤخذ منها صور بالميكروفيلم أو الميكروفيش

توضع رهن إشارة الباحثين في مختلف الخزانات العامة.

2 ـ بتأليف لجنة من أبناء المنطقة الخبراء في ميدان المخطوطات تتولى عملية الاقتناء، سواء بالاتصال بمن يعملون ـ عن غير وعي ـ على تهجير هذه المخطوطات، وهم معروفون، أو عن طريق الاتصال المباشر بأصحاب المخطوطات في القرى والمداشر.

مخطوطات الصحراء المغربية (*)

أسعدني الحظ في مطلع السنة الجارية 1983 بأن زرت صحبة الأخوين الأستاذين محمد إبراهيم الكتاني. ومحمد المنوني. أقاليمنا الصحراوية. في نطاق عمل لجنة التأليف والترجمة والنشر المتفرعة عن اللجنة الوطنية للثقافة، بحثاً عن المخطوطات المغربية الصحراوية، ورغبة في التعرف والتعريف بالحياة الثقافية والاجتماعية والحضارية في تلك المناطق العزيزة التي طالما جثا عليها الاستعمار البغيض بكلكله وضرب حولها ستاراً من حديد.

كان أكثر مقامنا بالداخلة التي قضينا بها زهاء أسبوع في اتصال دائم مع علمائها وأدبائها. وزرنا عدداً من بيوت الشرف والعلم والصلاح، فأوقفنا أهلها عن طيب خاطر وبكثير من الكرم والشمم على مدخراتهم العلمية التي يحافظون عليها أشد المحافظة ويحرصون عليها أتم الحرص. وبذلك أمكننا الاطلاع على عدد غير قليل من مؤلفات الصحراويين وأشعارهم ومراسلاتهم ومنتسخاتهم. فسجلنا ما وسعنا الوقت ونسخنا بالتصوير نصوصاً يعسر نسخها باليد. وذلك ما نريد تقديم نبذة منه لقراء المناهل الكرام، بعد إعطائهم نظرة موجزة عن هذا الأقليم.

إقليم وادي الذهب:

يقع إقليم وادي الذهب جنوب خط العرض 24. بين إقليم بوجدور شمالاً، وموريتانيا جنوباً وشرقاً، والمحيط الأطلسي غرباً، في مساحة تنيف على مائة ألف كيلومتر مربع، وتسكنه 27 قبيلة. منها قبيلة الركيبات [1]، وقبيلة

(*) نشر بمجلة المناهل، العدد 28.

(1) الركيبات شرفاء حسنيون ينتسبون إلى المولى عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم بين =

العروسيين[1] وقبيلة أولاد دليم[2] وقبيلة أيت الحسن[3] وقبيلة أولاد تيدرارين[4] وقبيلة أزركيين[5]. ويشتغل أهل هذا الإقليم برعي الماشية من إبل وغنم وماعز،

= تطوان وشفشاون، وحفيد المولى إدريس باني فاس ودفينها. ويميز النسابون الصحراويون بين الرقيبات ـ بالقاف ـ القاطنين بجهة الشرق، والركيبات ـ بالجيم المعقودة ـ القاطنين بالسواحل الغربية.

وتحتوي الرقيبات على الفخذات التالية: الجنحة، والبيهات، والقاسم إبراهيم، وسلام، والعيشة، والفقرة: كما تحتوي الركيبات على فخذات: أولاد الشيخ، والسواعد، وأولاد موسى، وأولاد داود، والمدينيين، والتهلات.

(1) العروسيون شرفاء حُسينيون يرفعون نسبهم إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وهم فصيلتان: أولاد الخليفة، وأولاد سيدي بومهدي، ومعلوم أن موطن العروسيين الأصلي ببلاد الهبط شمال المغرب.

(2) أم قرى أولاد دليم هي أوسرد في الجنوب الشرقي للداخلة. ومن قراهم كذلك العركوب، وأم دريگة، وبير انزران، وايميليلي، وبير گندوز، وزوگ، وإقوينيت، وميجگ، والگويرة. وفيهم خمس فخذات: أولاد لخليگة، وأولاد تكدي، والسراحنة، وأولاد بعمر، والوديگات.

(3) في هذه القبيلة فصيلتان: اينجورن، والميسات يقطنون جميعاً في السواحل الغربية.

(4) تشتمل على الفخذات التالية: ليدادسة، وأهل الطالب علي، والعبوبات، وأولاد موسى.

(5) فيها ثلاث فصائل: شتوكة، وايت سعيد، والكراح.

أما سائر القبائل فهي:

- قبيلة آل محمد سالم التي نخصها بالحديث في هذا البحث.
- قبيلة ايت باعمران التي أصلها في ايفني.
- قبيلة فيلالة أهل سيدي بوبكر دفين ضاحية العيون.
- قبيلة أهل بارك الله المختصة في حفر الآبار.
- قبيلة السكارنة.
- قبيلة آل الشيخ ماء العينين العالم الصالح الشهير.
- قبيلة أولاد بوسبع.
- قبيلة آيت موسى وعلي.
- قبيلة مجاط التي أصلها من الأطلس المتوسط بمنطقة زاوية الدلاء.
- قبيلة يكوت.
- قبيلة كنتة.
- قبيلة تندغة.

وبالفلاحة خاصة في منطقة تاورطة وتنكير اللتين تجهز فيهما مساحات سقوية مهمة. ويعمل عدد كثير منهم في التجارة، بحيث يعد سوق الداخلة من أهم أسواق الجنوب في الثياب والآلات الاليكترونية وغيرها.

المكتبات:

المكتبات متعددة في الصحراء، وكلها تقريباً في ملك الخواص، حتى ما يوجد منها في بعض الزوايا يعتبر ملكاً لأهل الزاوية من أبناء الشيخ وحفدته. ومعظم الكتب والكراريس والأوراق فيها من تأليف علماء الصحراء وأدبائها، مكتوبة بخطوط صحراوية لا تختلف كثيراً عن خطوط بادية المغرب في الشمال، بل تماثلها تماماً في النقط وعلامات الوقف وترتيب حروف الهجاء، وتتحد مع كتب حواضرنا العلمية من حيث الموضوع عقيدة أشعرية، وفقهاً مالكياً، وتصوفاً سنياً جنيدياً، ونحواً بصرياً، وحساباً بالأرقام العربية الغبارية، وأدباً عربياً صميماً.

ويظهر الطابع الثقافي المشترك بين شمال المغرب وجنوبه ظهوراً جلياً في الكتب الدراسية التي لا تكاد تختلف في مضارب الصحراء عنها في رحاب القرويين وابن يوسف: فالأجرومية، وألفية ابن مالك، ومرشد ابن عاشر، ورسالة ابن أبي زيد، ومختصر خليل بشروحها وحواشيها هي هي هنا وهناك. اللهم إلا ما كان من بعض الشروح والتعاليف والأنظام المحلية الخاصة، بل نجد في الصحراء إلحاحاً على استعمال مؤلفات علماء شمال المغرب في

= - قبيلة اذيقب.
- قبيلة امراكن.
- قبيلة المناصير.
- قبيلة الفيكات.
- قبيلة الشرفا: وفيهم أهل السيد، وأهل مولاي الشريف، وأهل تيشيت.
- قبيلة أولاد اللب.
- قبيلة مشظوف.
- قبيلة الشماسيد.
- قبيلة عمني - بتفخيم الميم - أولاد غيلان.

التدريس لا نجد له مثيلاً في مساقط رؤوسهم بفاس أو تازا أو سلا أو غيرها.

ومن مميزات مكتبات الصحراء كذلك توزيع أجزاء الكتاب الواحد على مكتبات متعددة، وإن كان مثل هذا يوجد أحياناً في مكتبات الخواص بالحواضر، إلا أنه في الصحراء أكثر انتشاراً وتكراراً. فمعظم الكتب المتعددة الأجزاء التي وقفنا عليها إنما اطلعنا على بعض أجزائها، لأن الأجزاء الأخرى عند بعض حفدة المؤلف في أماكن قد يتعذر الوصول إليها بسبب طبيعة الارتحال والانتجاع السائدة في الصحراء. ومن حسن الحظ ـ مثلاً ـ أننا اطلعنا على أجزاء من كتاب عند أحد حفدة مؤلفه في الداخلة، ثم عثرنا على الأجزاء الأخرى عند حفيد آخر له بالعيون. الأمر الذي يتطلب من وزارة الشؤون الثقافية القيام بعملية طويلة النفس تهدف إلى تجميع مخطوطات الصحراء وتنظيمها عن طريق التصوير والفهرسة.

ومن أهم المكتبات الصحراوية:

- مكتبة آل سالم المجلسيين بالداخلة والعيون.
- مكتبة اليعقوبيين بالداخلة.
- مكتبة آل الشيخ ماء العينين بالسمارة.
- مكتبة آل الليلي بالعيون وزاوية سيدي حمود بطرفاية.

نماذج من كتب علماء الصحراء وأدبائها:

هناك أسر علمية صحراوية كثيرة توارث أفرادها العلم والأدب أجيالاً وأحقاباً، ذكر بعضها أحمد بن الأمين الشنقيطي في كتابه الوسيط، ومحمد الإمام بن الشيخ ماء العينين في الجأش الربيط، ووقفنا في زيارتنا الصحراوية على ما لا يوجد في الكتابين من أخبار العلماء والأدباء وآثارهم، الأمر الذي يدل على أن الحياة الفكرية في الصحراء ما زالت مجهولة أو غامضة في معظمها، وأن ميدان الاكتشاف العلمي والتنقيب الأدبي ما زال فسيحاً أمام شبابنا الباحثين. وسنقتصر في هذه العجالة على أسرة واحدة من الأسر العلمية التي لقينا أفراداً منهم في هذه الرحلة، وهي أسرة آل سالم المجلسيين، فكان لنا

معهم حوار وسمر[1] وقيدنا من مكتبتهم الغنية بأيدينا أو صورنا بالوسائل البسيطة الموجودة هناك كما ذكرنا.

ينتسب آل سالم المجلسيون إلى موطنهم الأول بعيون مدلس داخل الصحراء، وقد حرفت العامة الجيم دالاً، لكنهم يُفصِّحونها في كتابتهم وأشعارهم، فيدعون أنفسهم ويدعوهم الناس مجلسيين[2]، ويرفعون نسبهم إلى إبراهيم الأموي الذي يقال إنه من ولد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز.

* وجد الأسرة الذي اشتهر بالتدريس والتأليف في العصور المتأخرة هو محمد بن محمد سالم[3] الذي كانت له مدرسة متنقلة على الطريقة الصحراوية[4] يسير في ركابه فيها طلبة كثيرون من مختلف جهات الصحراء، وألف عدة كتب اتسمت كلها بالعمق وطول النفس، منها:

- الريان، في تفسير القرآن، في سبعة أجزاء ضخام.

- لوامع الدرر، في شرح المختصر، أي مختصر خليل، في سبعة أجزاء ضخام كذلك.

وتوفي هذا العالم عام 1302 هـ. وقبره شهير في دومس على بعد نحو 80 كلم من أوسَرْدْ الذي هو مركز الداخلة، وترك أربعة أولاد نجباء ساروا على نهجه في التدريس والتأليف: أحمد، وعبد القادر، وحبيب الله، وعبد الملك الملقب حمد الله. وقد أشار إليهم وإلى مؤلفات الشيخ والعلوم التي شارك فيها

---

(1) نخص بالذكر منهم الفقيه الأديب الشيخ أحمد حبيب الله المجلسي وكيل جلالة الملك بالداخلة الذي أفادنا كثيراً من محفوظاته الغزيرة وكتبه القيمة جزاه الله خيراً.

(2) عند أحمد بن الأمين في الوسيط (ص. 848) مدلش ـ بالشين المعجمة ـ وهو خلاف ما سمعناه مشافهة من القوم في عين المكان. ومدلس أقرب إلى مجلس من مدلش بداهة.

(3) يرفعون نسبه هكذا: محمد بن محمد سالم بن محمد سعيد بن محمد بن أبي السيد ابن أبي بكر بن علي بن يمغدش (معناه: سالم) بن وديعة الله بن عبد الله بن أحمد بن يفتا (معناه: أخيار) بن يدر (معناه: يعيش أو يحيا) ابن إبراهيم الأموي.

(4) انظر أحمد بن الأمين، الوسيط، ص 517 وما بعدها.

هو وأبناؤه، الشريف ولد سيدي أحمد الصبار المجلسي[1] في مرثيته الطويلة التي منها:

بعد الحمام أنيل عُمراً ثانيا	من قال حج لن يلوح كذابه
ما مات من أبقى اللوامع بعده	والنهر يجري تستهلّ سحابه
ولبحره الريّان يكفي وحده	يشفي الغليل ذوي الغليل شرابه
ولحسبُهُ الدر النظيم حلى ولم	يسبق إلى ما جاء فيه كتابه
لا تنس وشي الأخضري فإنه	حتم إذا عد الخصال حسابه
ولحسبه أنجابُه شرفاً وقد	أبدت لنا إنجابهُ أنجابه
مَنْ مِثلُ أحمد في الخصال جميعها	والشطر في إيجازه إطنابه
من مثل عبد القادر الجيلاني إذ	حفظ الهدى والغيُّ عسّ ذيابه
أترى حبيب الله ذا مثل وقد	أحيي الليالي حين نام صحابه
من مثل عبد الله إذ أربا أتت	تنسابُ أو دارت به طلابه
. . . . بهمُ كتابُ الله أتقن حفظُه	تجويدُه تأويله إعرابه
والسيرة الغراء أحكم حفظها	غزواته وبعوثُه أنسابُه
وكذا التصوف والحديث وقد أضا	علم النهى أشكاله وحسابُه
. . . عدلُ الأشج ونورُ آل محمد	لاحا عليه فما اختفت أنسابُهُ

● وقد خلف الشيخ محمد بن محمد سالم في المدرسة المتنقلة ابنه عبد الله حمد الله، فتكاثر تلامذته وعظم الإقبال عليه، وبلغ عدد تلاميذه الراتبين 150 من أولاد بير، و 120 من تنْدْغة، و105 من أهل تكونات، بالإضافة إلى عدد كثير من التلاميذ الغير الراتبين من مختلف قبائل الصحراء.

وظهر أثر تعليم هذا الشيخ في أبنائه وبناته، فكانوا جميعاً فقهاء أدباء، ونذكر من بينهم:

● السيدة هنْدُو بنت عبد الله حمد الله المجلسية، العالمة الصالحة التي

---

(1) انظر المصدر السابق ص 858 ـ 859، وقد أملى علينا هذه المرثية الشيخ أحمد حبيب الله المجلسي من حفظه.

اشتغلت ـ كأهلها ـ بالتدريس والتأليف. وقد حدثنا ولدها الشيخ أحمد حبيب الله أنه قرأ عليها القرآن الكريم حفظاً وتجويداً، ومتون مختلف العلوم، ومختصر خليل، ومن تآليفها:

- **الدر الأسني، في أسماء الله الحسنى.**
- **نظم فروع الشيخ خليل،** وهو رجز في نحو أربعمائة بيت.

ولها ألغاز فقهية منظومة كثيرة كانت تحاور بها إخوتها وأهلها الفقهاء. ونسخت بخطها كتاب **ثمان الدرر** الذي سنتحدث عنه بعد، وتعتبر هذه النسخة أحسن مخطوطات هذا الكتاب وأصحها وأوثقها، وهي محفوظة عند ولدها الشيخ بَمْبَا المجلسي. وتوفيت هذه العالمة عام 1372، وقبرها شهير بروضة الجُسْت في التخوم المغربية المجاورة لموريتانيا.

واشتهر الأديب أحمد بن محمد بن محمد سالم المجلسي بأمداحه النبوية. ومنها ما يسمى:

- **المديحيات الهاشميات،** وهي أربع قصائد في كل واحدة منها خمسة وستون بيتاً.

لكن عالم الأسرة الكبير غير مدافع هو عبد القادر بن محمد بن محمد سالم المجلسي، وهو الذي سماه الشريف الصبار في المرثية السابقة عبد القادر الجيلاني. وربما كان ذلك اسمه الكامل وإنما اختصرته الألسنة تخفيفاً. كان مشاركاً في علوم القرآن والحديث، والتوحيد والفقه والأصلين، والسير والأنساب، واللغة والنحو والبلاغة والمنطق والحساب، وألف كتباً عديدة منها:

- **ثمان الدرر، في هتك أستار المختصر،** في ستة أجزاء ضخام.
- **شرح إضاءة الدّجُنَة، في عقائد أهل السُّنَة،** لأحمد المقري.
- **نزهة الأفكار، في شرح قرة الأبصار.**
- **قرة العينين، في غزوات سيد الكونين.**

● **أدلة أخرى عن أصالة مغربية الصحراء:**

اشتمل كتاب ثمان الدرر على فصول محررة في غاية الأهمية بالنسبة

للتاريخ السياسي والديني في المنطقة، تدل على سلامة تفكير مؤلفه الشيخ عبد القادر المجلسي وقوة يقينه وصدق وطنيته. فقد قامت ضجة دينية كبرى في الصحراء أثناء تكالب الأوربيين على المغرب أواخر القرن التاسع عشر، حيث أصاب جنوب البلاد ما أصاب شمالها من تضييق ومناورات وتدخل أجنبي، واختلفت آراء فقهاء الصحراء، وافترقوا إلى انهزاميين استسلاميين يدعون إلى الرضى بالأمر الواقع، ومقاومين صامدين يأمرون بمقاطعة الكفار وعدم الركون إليهم. وكان من الفريق الأول المدعو ابن باليل الذي أفتى بقبول حكم النصارى المسيطرين. والانفصال عن العرش المغربي المغلوب على أمره آنذاك. وقد تصدى للرد عليه جماعة من الفقهاء الأحرار، ومنهم الشيخ عبد القادر المجلسي الذي ضمن فتواه النقدية أحد فصول كتابة ثمان الدرر، ومما جاء فيها:

«. . . وتعيين الإمام واجب كتاباً وسنة وإجماعاً، وطاعته كطاعة رسول الله، ومعصيته كمعصية رسول الله، ومعصية الرسول هي معصية الله تعالى، ومعصية الله هي رأس الكفر. وهي - الإمامة - واجبة كتاباً لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾[1]، وسنة لقوله: **اسمع وأطع وإن كان عبداً حبشياً**[2]، وانعقد الإجماع على وجوبها، فلم يرد ناسخ فيها من حديث ولا آية، ولذلك بوب العلماء عليها مع التوحيد، لمشابهتها لعقائد الإيمان. . .

فالحاصل أن نصب الإمام فرض مجمع على وجوبه، وشروطها ستة سأذكرها قريباً إن شاء الله، قادها الرسول ﷺ، ثم صاحبه ثم الفاروق، ثم ذو النورين، ثم أبو السبطين، ثم خادم وحيه معاوية بعد أن سلمها له سيد شباب أهل الجنة مورد الحديث وريحانة جده ﷺ، ثم كانت ملكاً عَضُداً، ويغفر الله للمسلمين. وبالاختصار عما بعد ذلك من الأزمنة، أحببت تبيين حقوق سلطاننا

---

(1) يريد ولا شك الآية 59 من سورة النساء: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾.

(2) حديث صحيح روي بصيغة الإفراد وصيغة الجمع وقد أخرجه ابن ماجة في كتاب الجهاد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم حبشي كان رأسه زبيبة.

أمير المؤمنين الحسن ابن أمير المؤمنين محمد[1] علينا، وأن ما جرعتنا النصارى من المضض وقطع الطريق لا يسيغ جواز العمل بغير أمره ونهيه. ومن رأى مع النصارى غير هذا فهو ـ والعياذ بالله تعالى ـ يرفل في غياهب جهله وخسران عمره، وكيف لا وقد ضل سواء السبيل. ومن خرج عن بيعته ومازج النصارى بعقيرته فهو ممن نص العلماء على أن جهاده أحب إليهم من جهاد الروم، لأن أمير المؤمنين الحسن بن أمير المؤمنين محمد ـ أمد الله في حياته، وأولاه الأوفر من نصره وعنايته، وجعل أعاديه أحاديث ومزقهم كل ممزق ـ قد تسلسلت ا يعة الشرعية في أسلافه الكرام، وغرست إمامتهم من منبعين عريقين أم لين هما الشرف والدين، فلا يجوز اليوم لمن يومن بالله ورسوله الخروج عن طاعته، ولا التبرم عن إمرته، لا سيما في هذا الزمن الذي بلغت فيه شوكة النصارى الربا، وبلغ سيلهم الزبى. فيا خسارة من لم يجاهد لإعلاء كلمة الله تعالى تحت إمام عادل جاهد بنفسه. . . » وقد عاش الشيخ عبد القادر المجلسي تسعاً وتسعين سنة ومات عام 1937، وقال في رثائه الشيخ عبد السلام ولد حرمة العلوي رجزاً مطولاً ذكر فيه كذلك تآليفه، منه:

. . في يوم عيد النحر وقت الظهر	حدي أمرٌ أيُّ أمر إمْر
أقوت ربوعُ الفقه والتوحيد	والنحو واللغة والتجويد
وأربُعُ المنطق والبيان	وأربعُ البديع والمعاني
وأقْفَرت معاهدُ الحساب	وسيرة المختار والأنساب
وأربع الحديث والتفسير	ودور حل المشكل العسير
وبادت الخلائق الحسان	والبذل والإنفاق والإحسان
واشتبه الحرام بالحلال	وأذِن العالمُ باختلال
أن مات محيي الدين عبد القادر	مقيِّدُ الشوارد النوادر
شيخ الشيوخ العالم ابن العالم	نجل الرضى محمد بن سالم
مؤلف الواضح والمَباحث	مَنْ ماله في العلم مِنْ مُباحث
وسُلم المقاصد والثمان	وكم حوى من درر ثمان

(1) يقصد الحسن الأول بن سيدي محمد بن عبد الرحمن.

كشـــرحـــه لقـــرة الأبصـــار ناهيك شرحاً نزهة الأفكار
وشـــرحـــه إضـــاءة الـــدُجُنَّـــةْ أسكنـــه الله فسيـــح الجنـــة
عمـر فـي طـاعـة ربـه العلـي بخـدمـة العلـم وحسـن العمـل
عـاش حميـداً ومضـى سعيـداً عمـــا نهـــاه ربـــه بعيـــدا
فلتبكـه الأصحـاب والأقـارب ولتبكـه الجيـران والأجـانـب
وليبكـه الجـاهـل والضعيـف وليبكـه التحـريـر والتصنيـف
وليبكـه العمـوم والخصـوص ولتبكـه الشـروح والنصـوص
وليبكـه المعقـول والمنقـول ولتبكـه الأبحـاث والنقـول
إن قليـــلاً عبْـــرةٌ مُهـــراقـــة فيـه وجفـنٌ مِسبـلٌ رقـراقـه
فـرحمـة الـرب الكـريـم القـادر على إمام العصر عبد القادر . .

ونذكر هنا على سبيل التنظير أن للشيخ محمد العاقب بن مايابي الجكني كتاباً بعنوان :

ـ **ذم موالاة الكفار ومدح الهجرة عن بلاد الكفر**، يضرب فيه على نفس وتر الشيخ عبد القادر المجلسي في فتواه السابقة المدمجة في ثمان الدرر، وله في هذا الكتاب لامية طويلة يحذر فيها قومه الصحراويين من الركون إلى النصارى والثقة بوعودهم فيقول :

. . . لا تشتـروا دنيَّـة بـدينكـم لـم يـرْضهـا غيـرُ الـدني الأرذل
تـرجـون أمْـن الكـافـريـن بعـدمـا نفـاه نـصُّ المحكـم المُنَـزَّل
تـالله مـاالكـافـر عهـدٌ ولا لـه أليـةٌ إذا مـا يـأتلـي
قـد أخـذ الله عليهـم عهـده أن يـؤمنـوا بـالعـربـي المـرسـل
فنقضـــوا ميثـــاقـــه وأنتـــم تـرجـون منهـمُ وفـا السمـوأال
هيهـات أن يـؤمـن كـافـر وهـل ترجو سخال الضأنِ أمْن الجَيْئل
ومـنْ يَثِـقْ بكـافـر فهْـو لمـا فـي عقلـه ودينـه مـنْ دخـل

. . . الضّيْغم الضيغم يا من رام أن   يسري في الليل البهيم الأليل
وعد النصارى كاذبٌ، وعدلهم   جورٌ وميرهم وخيم المأكل
وسلمهم حرب، وبذل مالهم   تغلب بالكيد والتحيل
والسمّ في جوارهم وقربهم   ومسلم بنارهم لا يصطلي
لا يلدغ المؤمن مرتين في   جُحر حديثٌ سار سير المثل
يا عجباً لحازم يخشى العصا   ولا يبالي بالظُّبا والأسل
يظل لا ينال أمن يومه   وهو يُرجي الأمن في المستقبل
ومترف مخول مما يشا   يرضى بأن يكون بعض الخول
وطامح إلى المقامات العُلى   في الدين يرضى بالمقام الأسفل

ثم يدعو قومه إلى التماسك والتعاضد والاحتكام إلى كتاب الله لحمل راية الجهاد بالنسبة للقادرين، والهجرة بالنسبة للعاجزين:

يا معشر الإسلام لا تسالموا   فتنشبوا في كِنّة المُحتبل
كونوا على العدو لله يداً   وفي التنازع لزوم الفشل
ولا على المسكين إثم، إنما   الإثم على كل عريف مقبل
عليكمُ القرآن وهو فارق   كي لا نضل باتباع السبل
على القوي كُتب الجهاد لـ   ـكِنْ هجرةٌ على الضعيف الأعزل
وهو كفائيٌّ أصالة وعيـ   ـنيٌّ لدى مجي العدو المقبل
وما بقوة السلاح عبرةٌ   لا فرق بين صعدة ومنصل
لكلْتُم الدين إلى مَنْ دونكم   من اللصوص بئس شين الوكل
إن الجهاد ذروة الإسلام لا   يبغي به باغي الهدى من بدل
هل تكرهون في الجهاد غير إحـ   ـدى حُسنيين خبَّةٍ أو نفل
كم فيكمُ من عدد وعُدد   في الحرب دأبا بينها في شغل
من نكل يصول فوق نكل   وجحفل يسطو أمام جحفل
لو حاربوا العدا كما بينهم   لثُلّ عرْشُ الكفر دون مهل
. . . وعدنا الله بنصره، وما   لكلمات الله من مبدل

أمّـا المُقـام تحتهـم فـإنـه بَشْـلٌ بـإجمـاع القـرون الأول
أتتـراءى نـار مسلـم وكـا فر؟ نهى عـن ذاك خيرُ مرسـل

ذلك بعض ما جاشت به أفئدة فقهاء الصحراء وأدبائها، وسطرته أقلامهم فسارت بذكره الركبان، تمسكاً بدينهم، وتشبثاً بمغربيتهم، ودفاعاً عن وطنهم، وتلك أثارة مِنْ عِلمِ أسرة آل سالم المجلسيين، وما أكثر الأسر الصحراوية العالمة! وما أعظم ما خلفوه من آثار مكتوبة ومحفوظة في الصدور!

* * *

كناشة أدبية مخطوطة من القرن الحادي عشر(*)

الكنّاشة كلمة دخيلة في اللغة العربية، تعني مجموعة كراريس يسجل فيها الكاتب مسائل متفرقة، وفوائد متنوعة، مما يدخل في نطاق اهتمامه، فقهاً أو تاريخاً أو أدباً، نثراً أو شعراً أو غير ذلك. وقد ولع المغاربة بهذا الصنف من التدوين، حتى كان الأثر الوحيد الذي يخلفه العالم أو الأديب بعد وفاته أحياناً، وحتى تعددت كنانيش الفرد لواحد فبلغت عشراً أو خمس عشرة أو أكثر من ذلك. وخص أخونا المرحوم الأستاذ عبد السلام بن سودة الكنانيش التاريخية المغربية بفصل من كتابه القيم **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، فذكر عشرات ـ أفراداً وجمعاً ـ وألقى نظرة وجيزة عن كل ما وقف عليه منها. وأقدم ما ذكر من الكنانيش يرجع إلى القرن التاسع الهجري (15 م) أعنى كناشة الشيخ الصوفي الشهير أحمد زروق الفاسي دفين مسراتة بليبيا.

والكناشة موضوع حديثنا أدبية، كتبت بمدينة فاس في النصف الثاني من القرن الهجري الحادي عشر (17 م). وقفت عليها عندما كنت أهيىء أطروحة حول الحركة الفكرية بالمغرب أيام السعديين، وحسبتها لدى قراءتي السريعة لها مجهولة المؤلف، وقلت إنها لأحد تلاميذ أحمد بن القاضي وأحمد المقري، نظراً لكثرة ما ينقل عنهما ويصف كلاً منهما بشيخ شيوخنا. ولما خرجتها مرقونة على الآلة الكاتبة وأمعنت النظر فيها أمكنني التعرف على صاحبها الذي وقع اسمه في الكناشة مرتين مرة باسمه المختصر في الصفحة 16 بعد أن أورد بيتين خاطب بهما أحد أصحابه الأدباء مستعيراً منه كتاباً فأبطأ في تمكينه منه، وشرح إشارة وردت في البيت الثاني منها ثم أضاف بنفس الخط «وكتب محمد الزجالي

(*) ألقي في ندوة المغرب الشرقي بكلية الآداب ـ وجدة.

وفقه الله» ووقع مرة أخرى باسمه الكامل في الصفحة 59 على إثر قصيدة بعث بها إلى شيخه قاضي فاس الفقيه الأستاذ أحمد بن محمد الزموري[1] مطلعها:

يا من به شرف الزمان وافتخر   وبمدحه صدح الهزار على الشجر

وبعدها بنفس الخط أيضاً: «وكتب محمد بن قاسم الزجالي» وستتحدث عن الزجالي بعد. تقع هذه الكناشة في 96 صفحة، مكتوبة بخط صاحبها محمد بن قاسم الزجالي ـ على الأرجح ـ ، وهو خط مغربي نسخي دقيق مدمج أحياناً لا يخلو من جمال. صينة على العموم، ليس في بدايتها مقدمة ولا في نهايتها خاتمة، وليس فيها أيضاً ما يدل على النقصان، فلا ندري لذلك إن كانت تنقصها أوراق من الأول أو الأخير أم لا.

تشتمل الكناشة على نحو ألف بيت من مختلف بحور الشعر المعروفة قصائد وموشحات ومقطعات وأبياتاً مفردة، لاثنين وثلاثين أديباً شاعراً[2] عاش معظمهم في عصر أحمد المنصور الذهبي. وقد صنفتهم أربعة أصناف:

1. ملكان
2. وفقيهان
3. وأربعة عشر مشاركاً في علوم مختلفة إلى جانب الأدب والشعر.
4. وأربعة عشر أديباً خالصاً، من بينهم أدباء مغمورون أو مجهولون تماماً.

وإذا كان الحديث عنهم جميعاً لا يتسع له المقام، فسأكتفي بإشارات خاطفة في التعريف بهم، وذكر نماذج قصيرة من شعرهم أو نثرهم.

1. الملكان الأديبان في الكناشة هما ذو الدولتين أحمد بن أبي سالم المريني (776 ـ 796/ 1374 ـ 1393)[3] الشاعر المفلق حسب عبارة

(1) توفي أحمد بن محمد الزموري عام 1057 هـ انظر ترجمته عند محمد القادري نشر المثاني، 38:2، وانظر كذلك إجازته القرآنية في كتابنا الحركة الفكرية، 102:1.

(2) في الكناشة علاوة على ذلك ـ أسماء عدد آخر من شعراء الجاهلية أو الإسلام بالمشرق مع بعض أشعارهم، ضربت عنهم صفحاً في هذا البحث الخاص بالمغاربة.

(3) انظر أحمد الناصري، الاستقصا، 61:4 ـ 78. وأحمد ابن القاضي، جذوة الاقتباس =

الناصري في الاستقصا. وقد أورد له صاحب الكناشة بيتين في الغزل:

يا عـادلي دع عنك عـذل العـادل | واخلع عذارك في الحبيب الواصل
وإذا ذكـرت عشيـة بمحـاسـن | فـاذكـر عشايـانـا بـدار العـادل

وإذا كان البيتان مذكورين في جذوة الاقتباس، فإن الكناشة صححت البيت الثاني المصحف في طبعة الجدوة الحجرية وبينت في طرة بخط صاحب الكناشة المراد بدار العادل «بأنها المعروفة الآن بدار المخارط بسلا».

2. والثـانـي هـو أحمـد المنصـور الـذهبـي (986 ـ 1012/ 1578 ـ 1603)[1] خليفة العلماء وعالم الخلفاء ـ حسب عبارة الشيخ أحمد المنجور ـ وقد ذكر له مقطعات شعرية كثيرة، مما نجده في كتب ابن القاضي والفشتالي.

والفقيهان المذكوران في الكناشة هما:

3. علي بن موسى بن هرون المطغري (ت. 951/ 1545)[2] مفتي فاس وعالمها الكبير، أورد له أبياتاً قالها في سد الماء الجاري لأهل عدوة فاس حين خرب وأصلحه الملك أحمد الوطاسي.

4. ومحمد بن محمد بن قاسم ابن سودة (ت 1076/ 1666)[3] قاضي فاس ومفتيها. أورد له في الكناشة قصيدتين رد بهما على أديبين هنآه بتولية الأمراء الدلائيين إياه خطة الفتوى بفاس. وهما كأبيات المطغري مما يعرف بشعر الفقهاء.

أما الصنف الثالث من الأدباء المذكورين في الكناشة، وهم المشاركون في علوم شتى، فهم:

5. عبـد الـواحـد بـن أحمـد الـونشـريسـي (ت. 955/ 1549)[4] الفقيه المتضلع في التفسير والحديث واللغة والأدب، المشهور برقة الطبع، وإجادة

= ص 53 ـ 54.

(1) انظر كتابنا الحركة الفكرية، 386:2 ـ 387 والهامش 31.

(2) المصدر المذكور 359:2 ـ 350، والهامش 19.

(3) انظر محمد القادري نشر المثاني، 150:2 ـ 151.

(4) انظر الحركة الفكرية، 350:2، والهامش 20.

الكتابة وقرض الشعر الموزون والملحون، إلا أن أغلب شعره ضاع للأسف، والنتف الباقية متفرقة في مخطوطات، وهي في الموسيقى، والاحتفال بالمولد النبوي والغزل وما إلى ذلك. ومن مؤلفاته: معلمته الفقهية الشهيرة **سنى المقتبس لفهم قواعد الإمام مالك بن أنس**، في ألف وخمسمائة بيت من نوع الشعر التعليمي الأندلسي الذي يسهل حفظه وفهمه. أورد له في الكناشة أبياتاً قالها في سد فاس الذي جدده أحمد الوطاسي، أولها:

أيا أهل فاس سدد الله سدكم برأي أبي العباس حامي حمى فاس

6. عبد الواحد بن أحمد الحسني (ت. 1003/ 1595)[1] كاتب السعديين منذ المراحل الأولى لتأسيس دولتهم، الذي أسند إليه المنصور الفتوى بمراكش والتدريس بجامع الأشراف في حي المواسين. وهو صاحب الفهرس القيم الموسوم **بالإلمام ببعض من لقيت من علماء الإسلام**. **واختصار نكت السيوطي على الألفية والكافية والشافية**، **ونزهة الطرف**، **وشذور الذهب**. وله مؤلفات أخرى في النحو والعروض والأدب، معظمها بخطه في مكتبة الأسكوريال.

أورد له صاحب الكناشة الذي يدعوه عبد الواحد الشريف ثلاث قصائد الأولى غزلية مطلعها:

متى تصليني فالوصال يتاح ويطوى حجاب للنوى ويزاح
ويجمعنا دهرٌ على مثل ما مضى يطيب به مساؤنا وصباح

وقصيدتان مولديتان، نقل الزجالي أولاهما من خط عبد الواحد الحسني بمقدمة تاريخية مفيدة، تحدد السنة التي بدأ فيها أحمد المنصور يحتفل بالمولد النبوي في مجالس فخمة توقد فيها الشموع الضخمة المزخرفة التي ما تزال تشاهد مواكبها حتى الآن بمدينة سلا، ويتبارى الشعراء في إنشاد مولدياتهم بين يدي السلطان. تلك هي سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة. مطلع هذه المولدية الأولى:

لمن أينق تفلي الفلا بمناسم وتعلو متونا للربى والمعالم

(1) المرجع المذكور، 379:2، والهامش 12.

تشق جلابيب الدياجي صدورها وتسبح في بحر من الليل عاتم

ونقل المولدية الثانية كذلك من خط الشاعر الشريف الذي ذكر في المقدمة أنه ألقاها بين يدي المنصور في حفلات مولد عام ثلاثة وتسعين وتسعمائة، ملطعها:

حدِث حديث أصيحابي وسماري وجيرتي حالتي يسري وإعسار

القادحين بزند البين نار أسىً بين الجوانح من شوق وتذكار

القصيدة الغزلية الأولى ما أظن أنها توجد في غير هذه الكناشة. والمولدية الأولى طويلة عدد أبياتها 66، لم يذكر منها صاحب المجموعة الشعرية التي ذيل بها كتاب **مناهل الصفا** غير 12 بيتاً وقال إنها طويلة، أما المولدية الرائية ـ وعدد أبياتها 77 بيتاً ـ فقد ذكرت تامة في **المجموعة الشعرية** إلا أنها نسبت إلى الشيخ محمد بن أحمد بن مجبر المساري. وهي نسبة خاطئة قطعاً لأمرين، أولهما أن الشيخ المساري معروف بالتمكن في علوم القرآن وقواعد اللغة، ولا يعرف له ميل للأدب ولا تعاط للشعر، والثاني أنه توفي عام 983 أي قبل أن يتولى المنصور الملك بثلاث سنوات.

7. محمد بن علي الهوزالي المدعو النابغة (ت 1012/ 1604)[1] شارح ديوان المتنبي، المتضلع في الأدب واللغة تضلعه في الفقه والنوازل، له قصائد طويلة النفس تحدث عنها تلميذه عبد الرحمن التامنارتي في **الفوائد الجمة**. ولم يورد له صاحب الكناشة سوى أبياتٍ مقصورة ذيل بها أبياتاً لأحمد المنصور في تمر طيب.

8. محمد بن يوسف ابن رضوان (ت 1014/ 1605)[2] «من ذرية الإمام رئيس الكتاب الشهير أبي القاسم ابن رضوان صاحب المؤلف في السياسة»[3] وهو إلى أدبه مشارك في الحساب والطب، والفقه والفرائض، لقيه أحمد

(1) انظر **الحركة الفكرية**، 2:408، والهامش 10.
(2) انظر ابن القاضي، **درة الحجال**، 2:211 ـ 212 رقم 655.
(3) أ. المقري، **روضة الآس**، ص 338.

المقري في مراكش أثناء رحلته الأولى وأثبت في روضة الآس شيئاً من شعره، كما أثبت له صاحب الكناشة قصيدة سينية في سد فاس الذي جدده أحمد المنصور، وأبياتاً غزلية بارى بها بعض معاصريه الأدباء.

9. أبو القاسم الوزير الغساني (ت 1919/ 1610)[1] الأندلسي الفاسي انتهت إليه رئاسة الطب في عصره، وألف فيه وفي النباتات والعقاقير كتباً عديدة، بعضها الآن قيد التحقيق والطبع، وهو إلى جانب تضلعه العلمي أديب ماهر في صناعة الإنشاء، طويل النفس في الشعر، يظهر الطابع الأندلسي جلياً في نثره وشعره. من الذين أعجب أحمد المقري بأدبهم، وذكره في كتبه أزهار الرياض وروضة الآس، ونفح الطيب، وأتى له بنماذج عديدة ترسلاً وتوشيحاً وشعراً. ولم يذكر له صاحب الكناشة سوى أبيات في الغزل، وأخرى في السد الذي جدده أحمد المنصور بفاس عام 1009.

10. أحمد بن القاضي (ت 1025/ 1616)[2] المؤرخ الشهير، الفقيه الرياضي الأديب المؤلف المكثر، يتجلى ذوقه الأدبي في كتبه: جذوة الاقتباس، ودرة الحجال، ورائد الفلاح، وبخاصة في المنتقى المقصور الذي هو كتاب أدب أكثر منه كتاب تاريخ.

ويحظى أحمد ابن القاضي في الكناشة الأدبية بنصيب الأسد، لا تخلو معظم الصفحات من ذكر اسمه، من الصفحة الأولى حتى ما قبل الأخيرة.

والأشعار التي أوردها صاحب الكناشة لشيخ شيوخه أحمد ابن القاضي كثيرة متنوعة، فيها القصائد الطوال والمقطعات والأبيات، في المدح والتهنئة والرثاء، والغزل، والإخوانيات، والمولديات، وغيرها. ولعل من المفيد لمن يدرس الآثار الأدبية لابن القاضي أن يقارن بين ما ذكر منها في المظان المعروفة وما ورد منها في هذه الكناشة، فربما وجد فيها شيئاً مما ضاع من أدب ابن القاضي في أسره عند المسيحيين كما هو معروف.

---

(1) انظر الحركة الفكرية 381:2، والهامش 20.

(2) المصدر السابق، 368:2، والهامش 65.

ومن قصائد أحمد ابن القاضي في الكناشة التي لم نطلع عليها قبل، مرثية شيخه مفتي فاس وعالمها الكبير يحيى بن محمد السراج ـ المعروف بالأصغر ـ (ت 1007/ 1598)[1] يقول فيها.

وكـان فـي الـدرس حيـن يلقـي ... لطــالبــي الفقــه منــه علمــا
شبيــه بــدر وهــم نجــوم ... وواســط العِقــدِ راق نظمــا
. . . يـا نفـس صبـراً علـى ملـم ... وجـه العـلا منـه صـار جهمـا

11. عبد العزيز بن محمد الفشتالي (ت 1031/ 21 ـ 1622)[2] وزير القلم الأعلى وأكبر أدباء المغرب في العصر السعدي، فضل بعض النقاد المحدثين ترسيله على ترسيل لسان الدين ابن الخطيب، وأعجب أحمد المقري بنثره وشعره ـ وكان له صديقاً وفياً في المغرب وبعد رحيله إلى المشرق ـ فقدمه على غيره من فحول الكتاب والشعراء على كثرة ما يحفظ ويورد من آثارهم، خاصة الأندلسيين. وقد جمعت أشعار الفشتالي أخيراً في دراسة جامعية ولا أدري إن كان بعض ما أورده له صاحب الكناشة غير موجود في الديوان الجديد، لأن شعره ونثره فيها يغطي أزيد من عشر صفحات كاملة.

يمتزج شعر الفشتالي في الكناشة بالنثر أحياناً وتتنوع أغراضه لتشمل جميع ضروب الشعر القديمة. من ذلك قصيدة خاطب بها ابنه محمداً يتلوها نثر يبين مرامي القصيدة ومزاياها، وكأنه يأخذ بيد ولده الأديب ليسير به في نفس الطريق البلاغي.

لم تقتصر أمداح عبد العزيز الفشتالي على أحمد المنصور، وإنما شملت أبناءه الأمراء أيضاً، أبا فارس الواثق، ومحمد الشيخ المأمون. ومن المولديات المطولات في الكناشة ما أنشده الفشتالي في مولد عام 1009، مطلعها:

دار الحمى أدنفت جسمي ذكراك ... فـأنعشـي بشـذا ريـاك مضنـاك
وحمليـه صبـا فـي طـي هبتهـا ... نشر لدى الصبح يفشي سر ليلاك

(1) انظر الحركة الفكرية، 362:2، والهامش 54.
(2) المصدر السابق، 400:2، والهامش 84.

وله من قصيدة في التشوق مطلعها:

ظعنت ركايكمُ وقلبي طائر   والشوق فيك لدي تاه آمر
ولئن غدا جسمي مقيماً بعدكم   فالقلب في أولى الطلائع سائر

ومن أهم قصائد الفشتالي التاريخية في الكناشة النونية التي قالها عند قدوم جؤذر باشا من السودان في ذي القعدة عام سبعة وألف، فهي تبين مكانة هذا القائد في الدولة رغم عزله وتبطل تهافت المؤرخين المحدثين لا سيما الأوربيين القائلين بأن حصيلة فتح السودان كانت تافهة لا تناسب المصاريف الباهظة التي تحملها بيت المال، خاصة الذهب الذي لم يصل منه إلى المغرب بعد الفتح سوى اليسير، مرة أو مرتين. فهذا القائد جؤذر يرجع من السودان ـ بعد سبع سنوات ـ ومعه من أحمال التبر ما يكوّن هضاباً وتلالاً، ومن المعلوم أن قافلة الذهب الأولى دخلت إلى المغرب في نفس عام الفتح، والهدنة لم يتم الاتفاق عليها بعد، ثم لم تنقطع قوافل التبر حسبما جاء في مختلف المصادر العربية. مطلع هذه القصيدة:

علم انتصابك للعلى متمكن   والفتح من حركاته متعين
والصعب طوعك فهو سهل كله   والاشد عندك فهو أسلس ألين

ومنها:

إن العباد كفلتهم فكفاكم   أرزاق هذا الخلق ذاك المعدن
وافتك منه هضابُ تبرٍ أوقرت   ظهر المطي به سفائن تشحن
وتراكمت أثقال كل ذخيرة   غصّ الفضاء بها وضاق المعطن

12. الحسن بن أحمد المسفيوي المراكشي (ت 1032/ 1623)[1] عالم متمكن في الطب والحساب والهندسة، وأديب شاعر ناثر وشاح. جمع ديوان أبي الحسن الششتري بتكليف من أحمد المنصور، وأنشد بين يديه قصائد طوالاً مولديات وأخرى سياسية قالها في فتح تيكورارين والسودان وإخماد بعض الثورات غير أنه لم يرد له في الكناشة غير بيتين ساجل بهما مخدومه المنصور.

---

(1) انظر الحركة الفكرية، 401:2، والهامش 86.

13. علي بن أحمد الشامي الفاسي (ت 1032/ 1623)[1] فقيه أصولي وأديب شاعر، كتب لأحمد المنصور ثم لولي عهده محمد الشيخ المأمون، وشرح مقصورة المكودي، وألف درة الإسعاف بنظم أجداد بعض الأشراف. أورد له الزجالي في الكناشة قصيدة طويلة في اثنين وستين بيتاً بعث بها إلى صاحبه أحمد المقري بعدما هاجر إلى مصر عام 1027، يمدحه ويذكر بعض مؤلفاته، مطلعها:

دعوا شفة المشتاق من سقمها تشفى ... وترشف من آثار ترب الهدى رشفا
وتلثم تمثالاً لنعل كريمة ... بها الدهر يستسقى الغمام ويستشفى
ولا تصرفوها عن مناها وسولها ... بعد لكم، فالعدل يمنعها الصرفا

14. محمد بن علي الوجدي الملقب بالغماد (ت 1033/ 1624)[2] هذا الأديب البارع عرفه أحمد المقري وهو ما يزال بتلمسان، فكانت بينهما مكاتبات ومساجلات، الأمر الذي جعلنا نعتقد أن محمد الوجدي كان ما يزال بمدينة وجدة القريبة من تلمسان مسقط رأس المقري، أواخر القرن الهجري العاشر أو حتى أوائل القرن الحادي عشر، وأنه لم ينتقل إلى فاس إلا قبيل انتقال لمقري إليها عام 1009، حيث التقيا والوجدي ما يزال تحت وطأة حرفة الأدب، لم يتمكن بعد من الانخراط في سلك كتبة ولي العهد محمد الشيخ المأمون وقد عمل الوجدي بعد ذلك كاتباً للمأمون بفاس، ثم للمنصور بمراكش، فكانت له جولات أدبية كثيرة مع كتاب البلاطين وشعرائهما.

ألف محمد الوجدي عدة كتب احتفظ لنا المقري بأسماء ثلاثة منها:
- تميمة الألباب ورتيمة الآداب.
- الألباب الطائشة في مناقب أم المؤمنين عائشة.
- العنبر السحري فيما أنشد فيه صاحبنا أبو العباس المقري.

وللوجدي آثار نثرية وشعرية كثيرة عفى الزمان على معظمها إلا ما حفظه له المقري في روضة الآس، ونفح الطيب وغيرهما من مؤلفاته، وإلا ما أورد له

(1) المصدر السابق، 373:2، الهامش 77.
(2) نفس المصدر، 432:2 ـ 433، والهامش 6.

الزجالي في الكناشة. وما دمنا في وجدة فإننا سنأتي بنماذج قصيرة من شعر هذا الأديب ونثره. من ذلك قوله من قصيدة غزلية ـ والغزل أكثر بضاعة هذا الأديب:

يا قلب عشقك للحسان من الصور	يتلو عليك النازعات من السور
إن رمت نظم الحسن بعد وشرحه	فخذ البيان له بقول معتبر
إن الرشاقة واللطافة والصبا	حة والملاحة والحلاوة والحور
في حلة ذهبية فضية	موشية بنفيس أفراد الدرر
صيغت لمن أهوى وألبس سندساً	منها وديباجاً عليه قد ظهر
. . . فإذا بدا وإذا شدا وإذا رنا	خلت الغزال أو الهزار أو القمر

ويقول في مطلع موشحة غزلية أيضاً ـ وموشحاته كذلك كثيرة:

يا قد غصن البان	رفقاً على المشتاق
قد ضرني الهجران	والقلب في إحراق

* * *

قد طال يا سفّاك	في حبكم سهدي
لكنه إذ ذاك	أحلى من الشهد
بلحظه الفتاك	أقصر عن البعد

وكانت رسائل محمد الوجدي ـ على عادة أدباء عصره ـ تستهل بأبيات شعرية قد تبلغ العشرة والعشرين بيتاً. من ذلك ما كتب به إلى أحمد المقري:

تحية أخوان معطرة النشر	تخص الإمامَ الأوحد السامي القدر
ويغشى الجناب المقري عبيرها	وتوليه منا أطيب الحمد والشكر

وهي في ثلاثة عشر بيتاً.

الإضافة التي التحق بأصلها فرعاً، وأثني على فضلها طبعاً وشرعاً، والمكانة التي رقت الأفلاك، وامتطت سنام الفرقد والسماك، واستخدمت عطارد فاستفاد من علومها، وما منعت المشتري من أعلاق فهومها. . . سلام كريم، طيب واكف بالتعظيم، صيب كما تارج الروض غب سمائه، وتاه سام الصبح على حام الليل بضيائه، عن صافي محبة وخلة، وشفوف فؤاد أنهل الفؤاد

وأعله. ووحشة حندسها داجي، وتذكر كل حين لكم يناجي.....

15. عبد الواحد بن عاشر الأنصاري الفاسي (ت 1040/ 1631)(1) الفقيه الشهير بنظمه المرشد المعين، مؤلف الكتب الكثيرة في القراءات والفقه والسيرة والنحو والتوقيت. كانت له قدرة فائقة في النظم التعليمي، ومشاركة أدبية نثراً وشعراً. أورد له الزجالي في الكناشة أبياتاً ساجل بها بعض أدباء حيه من عدوة الأندلس بفاس، وذكر لذلك قصة، وأخرى في موضوع أسئلة فقهية وردت عليه من قاضي تطوان.

16. أحمد بن محمد المقري (1041/ 1631)(2) أعرف من أن يعرف به. وإنما نشير إلى أنه أقام سنوات بفاس تولى أثناءها الفتوى والخطابة والتدريس بالقرويين، واحتك بعلمائها وأدبائها، فكان من أثر ذلك ما نجده عند الزجالي في الكراسة، نثراً وشعراً، ويشغل منها ذلك نحو ست صفحات.

17. محمد بن أحمد المكلاتي المعروف بالأكبر (1041/ 1631)(3) أديب شاعر ناثر، يمتاز عن كثير من معاصريه بسلاسة التعبير وعذوبة اللفظ إلى متانة اللغة وسلامتها. كما يمتاز عنهم باهتمامه بالمشاكل الوطنية، فهو صاحب الرسالة العجيبة التي بعث بها إلى المجاهدين بتطوان يستحثهم ويستنهض هممهم لمقاومة الإسبانيين المغيرين، كما أنه صاحب التحفة الأدبية الرائعة المعروفة **بالمقامة الزهرية في مدح المكارم البكرية**، التي يمجد فيها لذلك شيخ الدلاء محمد بن أبي بكر الدلائي الذي احتضنت زاويته في الأطلس المتوسط الدراسات العربية والأدبية بصفة خاصة خلال عصر الاضطراب والفتن أواخر عهد السعديين.

وقد أورد الزجالي لمحمد المكلاتي في الكناشة قصيدة وطنية رائعة قالها في تمجيد محمد العياشي السلوي ورفاقه المجاهدين الذين أبلوا البلاء الحسن

---

(1) الحركة الفكرية 370:2 والهامش 69.

(2) نفس المرجع، 367:2 والهامش 63.

(3) المرجع السابق، 374:2، والهامش 79.

في قتال الإسبانيين بثغر العرائش. مطلعها:

ثغر العرائش ضاحك مستبشر	جذلان عن هذي الوقائع يخبر
غاب الرماح تشبكت أغصانها	روض المنايا بالجماجم مثمر
... جند الإله وحزبه أنصاره	يقتادهم يوم النزال غضنفر
جاءت به أمّ الشجاعة واحداً	يفنى به ذاك العديد الأكثر
فإذا رآه المسلمون تهللوا	وإذا جنح العجاجة كبروا
فله من النصر العزيز ملاءة	مسرودة ومن الملائك عسكر

18. محمد بن يوسف التملي (1048/ 1668)[1] متخصص في القراءات واللغة مؤلف فيها، وهو إلى ذلك شاعر ناثر، آثاره الأدبية متفرقة في كتب ابن القاضي والمقري والقادري من المغاربة، وفي كتب المحبي وابن معصوم والخفاجي من المشارقة. أورد له الزجالي في الكناشة أبياتاً من قصيدة طويلة ورسالة مطولة كذلك، القصيدة استجاز بها أحمد المقري، مطلعها:

أموقظ جفن العلم من بعد ما أغفى	وباسط كف البذل من بعدما كفا
ومحيي رسوم الأكرمين التي عفت	ومجري معين الفهم من بعدما جفا

أجاب عنها المقري بقصيدة طويلة أيضاً من نفس الروي والقافية أجازه فيها. مطلعها:

أيا ما جدا أعيت محاسنه الوصفا	وإنسانَ عينِ الودِّ والأخلصَ الأصفا

والرسالة كتب بهاالتملي أيضاً إلى أحمد المقري بفاس في أواسط ذي القعدة عام ستة وعشرين وألف يستهلها بقوله: الحمد لله الذي ألف بين لطائف الأرواح، وإن تناءت الأشباح، وجعل المواصلة في ذاته والمحبة من أجله سبيلاً كفيلاً بنيل كل فلاح... هذه الرسالة إلى جانب أسلوبها الفني تفيدنا تاريخياً بأمرين:

1. أن المقري ألف كتاب أزهار الرياض بمدينة فاس، لأن التملي يطلب منه أن يبعث إليه بنسخة منه إن أتمه.

---

(1) المرجع المذكور، 2:392 ـ 393، والهامش 51.

2. أن التملي عزم على تأليف فهرسة يذكر فيها من لقيه من الشيوخ الأفاضل وقد تحدثت عن هذه الفهرسة كتب التراجم إلا أننا نفتقدها اليوم.

أما الأدباء الخلص الأربعة عشر المذكورون في الكناشة فهم:

19. محمد بن قاسم الزجالي صاحب الكناشة. (ت 1072/ 1662)[1] فهو ـ كما في نشر المثاني ـ من بني الزجالي الذين كانوا وزراء بقرطبة، وهم ـ حسب ابن حزم ـ من قبائل البربر من مديونة، وقد أورد الزجالي لنفسه في الكناشة مساجلات شعرية مع الشيخ عبد الواحد ابن عاشر ومع بعض أدباء الدلاء، ولعه عاش مدة في زاويتهم، بالإضافة إلى المقطعتين اللتين أشرنا إليهما سابقاً، وهكذا يتبين لنا من مختاراته في الكناشة أنه كان أديباً ولوعاً بأخبار الأدباء وآثارهم.

20. محمد بن عبد العزيز الفشتالي (ت بعد 1010/ 1601)[2] أديب سار على نهج والده في الترسيل وقرض الشعر، وهو أحد الشبان الذين صحبهم المقري في رحلته الأولى إلى مراكش وأورد مختارات كثيرة من شعره. ثم لم نقف له على خبر بعد ذلك إلا ما أورده الزجالي في الكناشة من قصائد ومقطعات جلها مذكور عند المقري.

21. 22. محمد وأحمد ابنا عبد الواحد بن أحمد الحسني (ت 1009/ 1600)[3] من الشبان العلماء الأدباء الذين لقيهم المقري بمراكش وأورد لهما كذلك مقتطفات أدبية وأخبر أنهما ماتا بالوباء الواحد بعد الآخر.

23. عبد الرحمن الزرويلي الشفشاوني المعروف بابن الخطيب، وهو أديب هجاء، لم يمدح أحداً من خلق الله قط، توفي بعد (990/ 1582)[4] أورد له الزجالي قصيدة في هجو مراكش، وتعرف له أخرى في هجو القصر الكبير.

---

(1) انظر ترجمته عند محمد القادري، نشر المثاني، 2: 127 ـ 128.
(2) انظر الحركة الفكرية، 384:2، والهامش 26.
(3) المصدر السابق في نفس الصفحة، والهامش 24.
(4) انظر أحمد ابن القاضي، درة الحجال، 98:3 ـ 99.

24. عبد الوهاب بن محمد العربي الفاسي (ت 1077/ 1667)[1] من الأدباء الذين كانت لهم صلة وثيقة بعلماء الدلاء وأدبائها، أورد له الزجالي في الكناشة قصيدة طويلة في مدح أهل الدلاء وزاويتهم مطلعها:

نهـج الهـدى فـي استقـامـه لمـن يـروم مـرامـه
إن تبـغ نجـدا وتهـوى عـراره وثمـامـه
أهـل الـدلاء أهـل نجـد وأرضهـم أرض رامـه

25. أحمد بن محمد بن بكار (ت 1057/ 1647)[2] من بني بكار قبيلة من المستقرين على وادي ايناون، وهم فرع من هوارة ورغة المنتمية لقبائل صنهاجة. لا يعرف عنه إلا الصلاح و «المقطعات الشعرية» التي أورد له الزجالي في الكناشة.

26. أحمد بن يحيى الهوزالي من قواد ولي العهد المأمون له نظم رائق حسب درة الحجال (ت 994/ 1586)[3] أورد له قصيدة سنية في مدح أحمد المنصور ذكرها له الزجالي في الكناشة.

27. محمد السايح، وهو صالح كأخيه أحمد، مات بفاس عام 1076/ 1666[4] ولا يعرف له من الأدبيات كذلك غير ما ذكره الزجالي في الكناشة.

28. محمد الفشتالي لعله محمد بن علي الفشتالي (ت 1021/ 1612)[5] الكاتب النابغ صاحب المراسلات الكثيرة في كتاب رسائل سعدية. وأورد له الزجالي أبياتاً قليلة.

29. أحمد بن محمد ميارة. وأظنه تحريفاً لمحمد بن أحمد ميارة. الفقيه المشهور بتأليفه المتوفى عام (1072/ 1662)[6] أورد له كذلك مقطعات شعرية.

---

(1) انظر محمد القادري، نشر المثاني، 2· في سنة 1077.
(2) المصدر السابق في عام 1057.
(3) أحمد ابن القاضي، درة الحجال، 156:1.
(4) انظر محمد القادري، نشر المثاني 2: عام 1076.
(5) انظر الحركة الفكرية، 399:2، والهامش 81.
(6) المصدر السابق، 371:2، والهامش 71.

أما الأدباء الثلاثة الآخرون فلم نقف على ذكر لهم في غير كناشة الزجالي وهم:

30. محمد بن عبد الرحمن الكعبي المعروف بالخطيب القصري. إلا أن يكون تحريفاً لمحمد بن عبد الرحمن العوفي (ت 1068/ 1658)[1] وهو معروف بالأدب وقرض الشعر. أورد له الزجالي كذلك مقطعات شعرية.

31. علي بن أبي بكر بن أحمد، من كتاب ديوان أحمد المنصور، ومن رفقاء عبد الواحد بن أحمد الحسني، أورد له مساجلات أدبية معه.

32. محمد بن الزبير الكدميوي حلاه في الكناشة بوزير القلم الأعلى، وحائز القدح المعلى.... الكاتب الأديب، اللودعي الأريب... وأورد له مقطعتين أولاهما في شكوى الزمان، والثانية في الغزل.

---

(1) انظر محمد القادري، نشر المثاني، 2: عام 1068.

بعض نفائس مخطوطات
الخزانة العلمية الصبيحية بسلا

الخزانة العلمية الصبيحية خزانة وقفية مفتوحة لعموم الباحثين، تضم ثلاثة أقسام: مخطوطات، ومطبوعات، ودوريات، باللغة العربية وباللغات الأجنبية. وقد وقف كتب هذه الخزانة منذ نحو عشرين سنة باشا سلا العلامة المرحوم الحاج محمد الصبيحي، وأسند مهمة المحافظة عليها إلى ولده الأستاذ عبد الله الصبيحي الذي شيد للخزانة بناية فخمة في أحسن موقع بالمدينة ووقفها أيضاً، وتفرغ لتنظيمها وتنمية مذخراتها حتى تضاعف عدد الكتب فيها مرات وما زالت تنمو باستمرار.

تحتوي هذه الخزانة على بضعة آلاف من المخطوطات العربية، فهرس منها لحد الآن 1337 مخطوط في جزء أول نشره سنة 1985 معهد المخطوطات العربية بالكويت التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والجزء الثاني قيد الإعداد.

مخطوطات الخزانة العلمية الصبيحية متنوعة شاملة لكل العلوم التي عرفها المسلمون، من شرعية، ولغوية، وعقلية، ودخيلة. ويغلب عليها الطابع العلمي، والرياضي ـ الفلكي بصفة خاصة، لأن الواقف الحاج محمد الصبيحي كان من أمهر الرياضيين الفلكيين، كما كان كذلك عدد من جدوده الذين تحتفظ الخزانة ببعض مؤلفاتهم ومنتسخاتهم في هذا الميدان. وتمتاز هذه الخزانة أيضاً باحتوائها على مجموعات كاملة من مؤلفات طائفة من علماء سلا والرباط وفاس وأدبائها بخطوط مؤلفيها.

وهناك ظاهرتان تجدر الإشارة إليهما:

1 ـ يوجد في الخزانة الصبيحية عدد غير قليل من المخطوطات الغير المرتبة أو في شكل خروم، يبذل المحافظ جهده في تنظيمها وإصلاحها.

2 ـ تضاف إلى مذخرات الخزانة الصبيحية باستمرار مخطوطات أصلية أو مصورة على الورق من مختلف الخزانات الخاصة بالعدوتين سلا والرباط، وأهمها خزانة المؤرخ السلوي الشهير أحمد بن خالد الناصري مؤلف الاستقصا.

وقد صنفت المخطوطات المفهرسة أو التي هي في طريق الفهرسة في عشرة أصناف:

1 ـ القرآن وعلومه، بما في ذلك المصاحف، وكتب التجويد والتفسير والرسم والضبط.

2 ـ الحديث وعلومه والسيرة النبوية.

3 ـ التوحيد والمنطق، والفقه وأصوله، والفرائض والوثائق.

4 ـ التصوف بإدخال الأحزاب والأوراد والأذكار والأدعية، والمواعظ والخطب والأمداح النبوية.

5 ـ اللغة وقواعدها والأدب.

6 ـ التاريخ بإضافة كتب التراجم والمناقب والأنساب والفهارس والرحلات.....

7 ـ الحساب، والفلك، والاسطرلاب، والربع المجيب، والتنجيم.... (ونشير إلى أنه توجد بالخزانة مجموعة من الآلات الفلكية القديمة والحديثة).

8 ـ الطب، مع الأعشاب، والأزهار، والحيوان، والطيور، والموسيقى.

9 ـ الكيميا وما إليها من سر الحرف والخط، والرمل، والأوفاق...

10 ـ متنوعات، مثل التعليم، والسياسة، والتقاييد، والكنانيش....

وهذه نماذج من نفائس المخطوطات الأصلية أو المصورة على الورق التي هي في طريق الفهرسة:

ـ **صحيح البخاري عشاري التجزئة، بخط أندلسي جميل مشكول**. من النفائس.

ـ **كتاب الفتيا في الفقه على مذهب مالك والرواة من أصحابه**، تأليف محمد بن حارث بن أسد بن حارث الخشني القيرواني الأندلسي المتوفى عام 336 ضبط فيه الاصطلاحات والإشارات الفقهية في أربعة وستين باباً من أبواب الفقه، عبادات ومعاملات، مبتدئاً بباب الوضوء، ومنتهياً بباب أحكام الذمي. وهي من النوادر.

ـ **إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك** لأحمد الونشريسي مؤلف المعيار نسخة عتيقة عليها تعليقات وطرر مفيدة، وبآخرها تقاريظ.

ـ **الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة** للسان الدين بن الخطيب وهي بخط أندلسي جميل مشكول بالشكل التام.

ـ **زهر الأكم في الأمثال والحكم** للحسن اليوسي، نسخة ملوكية مذهبة مجدولة مشكولة جزئياً إلاّ أنها ناقصة تنتهي أثناء حرف الدال.

ـ **تبصرة الغافل، وتذكرة العاقل** لمحمد بن الطيب المريني، في التصوف ومكارم الأخلاق.

ـ **المقرب في وصف المجيب**، لأحمد بن أبي حميدة المطرفي المراكشي، وهو من كبار الرياضيين الفلكيين في العهد السعدي. وله في الخزانة أيضاً:

ـ **بغية ذوي الرغبات في شرح عويص رسالة المارديني في الربع المجيب من الميقات**.

ـ **ديوان أدبي سعدي**، يشتمل على قصائد ومقطعات مختلفة لشعراء القرن الحادي عشر الهجري (17 م).

ـ **مجموع أسئلة وأجوبة مواضيع مختلفة**، يبتدىء بسؤال لأحمد بن إبراهيم العطار الأندلسي المراكشي موجه للحسن اليوسي في مسائل الإلهيات،

والمنطق والبلاغة. . مع تعقيبات لأحمد بن يعقوب الولالي تلميذ اليوسي ومؤلف مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار.

ـ **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة** لعبد الرحمن التامنارتي. من مصورات الخزانة الناصرية، نسخة جيدة تعزز المخطوطات الأصيلة المصورة المعروفة لهذا الكتاب النفيس في الخزانة الحسنية وفي الخزانة العامة.

ـ **الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، لمحمد بن عيشون الشراط، ومعه ذيله المسمى: **التنبيه على من لم يقع به من الفضلاء تنويه**.

ـ **الدرر المرصعة في أخبار صلحاء درعة** لمحمد المكي بن موسى الناصري.

ـ **المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا**، لمحمد بن عبد السلام الناصري في جزءين. وتمتاز هذه المخطوطة بأنها كتبت في حياة المؤلف عام 1230 (ت 239/ 1239) وقد اختصر كتاب **المزايا** أحمد بن خالد الناصري صاحب **الاستقصا** في جزء لطيف.

ـ **الابتسام عن دولة مولانا عبد الرحمن بن هشام، أو ديوان العبر في أخبار أهل القرن الثالث عشر/ لأبي العلاء إدريس**. . . من كتاب الوزير الأديب محمد بن إدريس العمراوي. تنقصه ورقة من الأول، وآخره غير تام، وقد ذكر المرحوم عبد السلام ابن سودة أن به بترا من أصل مؤلفه الموجود بخطه في خزانة خاصة بفاس.

ـ **التنبيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب**، للحسن بن الطيب بوعشرين خط مغربي جميل تحدث فيه عن الحسن الأول، وابنه عبد العزيز وبو حمارة. . . .

ـ **كشف العرين، عن ليوث بني مرين** لأحمد الناصري مؤلف الاستقصا بخطه. والملاحظ أنه يُدخل بني وطاس في دولة بني مرين وينتهي مع ظهور السعديين.

ـ **غاية الأمنية في ذكر الأنساب الصقلية**، لعبد الواحد بن محمد الفاسي، ولعلها بخط المؤلف.

ـ **رسائل الشيخ أبي بكر محمد بناني الفاسي ثم الرباطي**، وهي في التصوف والعقائد والسلوك. مجلد ضخم بخط أحد مريدي المؤلف من المرينيين السلويين.

ـ **رحلة إدريس الجعيدي السلوي**، إلى أوربا أيام الحسن الأول، بخطه الجميل وقد ذكرها الناصري في آخر **الاستقصا**.

ومما يثير الانتباه في باب نفائس مخطوطات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا احتواؤها على مجموعات عديدة من مؤلفات علماء سلا في القرون الأخيرة بخطوط أصحابها، لذلك تعد من نفائس الأصول المعوّل عليها، كما تعتبر من المصادر الموثوق بها في تحقيق تراجم أصحابها مثلما هو الحال بالنسبة للشخصية التي نقدمها كنموذج:

عبد السلام بن عبد الله حركات السلوي، فقيه نوازلي مشارك في التفسير والحديث، قال عنه المؤرخ محمد بن علي الدكالي في **الإتحاف الوجيز**. ـ ص 125 ـ «من أعلام علماء سلا وأعيانها ممن تصدر بها للتدريس والتأليف والإفتاء» وذكر بعد ذلك أنه قرأ بفاس على شيخ الجماعة التاودي بن سودة. وأخذ الطريقة الصوفية عن العارف الشهير مولاي أحمد الصقلي فانتفع بهما أيما انتفاع وأورد من مؤلفاته الطوال شرحه على رجز ابن عاصم في علم القضاء، معارضاً به شرح شيخه ابن سودة ومعترضاً عليه في جملة من المسائل، وكتاب **الفتح الخلاق في صرف الجامعة للأوراق**، شرح به منظومة ابن الآبار. غير أن ابن علي المذكور ترجم في **إتحاف أشراف الملا** لسلوي آخر باسم عبد السلام بن أبي يعزى حركات عاش في نفس المدينة وفي نفس العصر، وأخذ أيضاً عن الشيخ أحمد الصقلي بفاس واشتغل بالإفتاء والتأليف ولم يحدد له كذلك تاريخ الوفاة وإنما قال إن وفاته كانت في صدر المائة الثالثة بعد الألف.

وإذا كان المجال هنا لا يسمح بمقابلة النصوص لرفع الإشكال المتعلق

باسم مؤلفنا الكامل ومميزاته العلمية ووظائفه وتاريخ وفاته، فإني أستطيع أن أقول جازماً ـ اعتماداً على المخطوطات التي سأستعرضها بعد قليل ـ: إن عبد السلام بن عبد الله حركات، الفقيه الصوفي المؤلف النقاد، الباحث المدقق كان يستفتى من مختلف أنحاء المغرب حتى من فاس، ويعارض كبار فقهاء عصره ـ متى ما بدا له الصواب في خلاف ما أفتوا به ـ ويشير على معاصريه قاضي سلا محمد الهاشمي أطوبي وقاضي الرباط أحمد بن أحمد الحكموي في النوازل العويصة التي تعترضهما، بل لا يتردد في نقد أحكامهما أحياناً إسداء للنصح إليهما في رسائل مطولة. وامتدت حياته إلى ما بعد عام 1232/1816.

تبلغ عدد مؤلفات عبد السلام حركات الفقهية المكتوبة بخطه في الخزانة العلمية الصبيحية ثلاثة وعشرين، اثنا عشر منها في مجموع يحمل رقم 93، وسبعة في مجموع آخر يحمل رقم 482، وأربعة في مجموع يحمل رقم 483. يضاف إلى ذلك كتاب منقول من خط المؤلف حركات يحمل رقم 500. بعض هذه الكتب عبارة عن فتاوى أو ردود ومناقشات لكبار المفتين المعاصرين للمؤلف، وبعضها تبحث في مسائل فقهية شائكة وتعمل على التوفيق بين النصوص المذهبية والمقتضيات الظرفية. ونثير الانتباه إلى أن مؤلفات عبد السلام حركات تفيد، إلى جانب الفقه، في التعريف ببعض جوانب التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمدينة سلا في القرن الثاني عشر (18 م) من خلال نوازل تتصل بهذه الميادين. وسنجتزىء هنا بذكر بعضها:

ـ فتح ذي الإكرام والجلال، في الرد على من اعترض فتوى ابن رحال:

يبحث هذا الكتاب في قضايا الصلح ومفاصلة الورثة انطلاقاً من نازلة أفتى فيها فقيه فاس الحسن ابن رحال المعداني، وعارضه مفتون كثيرون أمثال: أحمد بن أحمد الشدادي، ومحمد بن عبد الرفيع ابن صالح، ومحمد بناني، وعلي الشدادي، ومحمد بن عبد السلام بناني. وقد حلل حركات فتاواهم وأبطلها استناداً إلى نصوص الفقهاء المتقدمين والمتأخرين. (الأول في المجموع رقم 93 ـ 18 صفحة).

ـ تعليق على فتوى الشيخ التاودي ابن سودة في فوات البيع الفاسد في الأصول من الدور والأرضين بطول السنين كالعشرين. وقد ناقش شيخه وخالفه فيما ذهب إليه إلاّ أن هذه الرسالة ناقصة لا يوجد منها سوى 11 صفحة (الثانية في المجموع رقم 93 ـ 11 ص).

فرض النفقات:

كتب المؤلف هذه الرسالة بعد أن لاحظ تقصيراً من طرف قضاة عصره بسلا والرباط، وجعلها في مقدمة تشتمل على أربعة مسائل وتسعة فصول.

تكلم على قدر النفقة وقيمتها واختلافها بحسب المقدَّر عليهم من غني ومتوسط ومقل ومعدم..... ولهذه الرسالة أهمية كبرى في التعريف بأسعار ذلك العصر (الثالثة في المجموع رقم 93 ـ 23 صفحة).

ـ مذاكرة الفضلاء المشاهير، في ذكر وجوب تغيير المناكر:

رسالة في أحكام الجلس والأجزية بسلا والرباط، عقب بها على فتوى فقيه الرباط محمد الغربي فيمن اكترى حانوتاً وقفاً وعمل فيها خزانة لوضع السلع على العادة وبقي مدة فأكرى الناظر الحانوت من غيره فلما طالبه بها ادعى أن له فيها جلسة بموضع الخزانة المذكورة. (الرابعة في المجموع رقم 93 ـ 45 صفحة ـ).

ـ تحفة الإخوان، في زجر من يترك الشرع ويرتكب البهتان:

انتقد في هذه الرسالة تساهل القضاة في مخالفات العدول وجهلهم، ورد على بعض المفتين (الخامسة في المجموع رقم 93 ـ 16 صفحة ـ).

ـ الكلام في فتيا الرهوني اللبيب، التي أتى فيها بكلام عجيب، اعترض به على من هو في فتياه مصيب.

يتناول هذا الكتاب موضوع الحضانة انطلاقاً من نازلة عبد الله بن أحمد التطواني السلوي الذي أوصى على بنت له زوجته وشقيقه ثم ذهب إلى الحج ومات بالمشرق، فحضنت الأم البنت ثم تزوجت وطلب عمها الوصي بنقل الحضانة إليه وتطورت النازلة فأفتى فيها كثيرون، ورد عليهم الشيخ الرهوني

الشهير، فخالفه حركات ونقض فتواه بهذا الكتاب (السادس في المجموع رقم 93 ـ 122 صفحة ـ).

ـ **نازلة ورثة محمد بن يعكوب السلاوي:**

هذه الأسرة من الأسر الثرية المشهورة في ميدان الجهاد البحري المعروف بالقرصنة. ووقع اختلاف في قسمة تركة هذا الرجل منهم واشتد الخلاف بين أسرة يعكوب وأسرة زوجته زنيبر. وطالت ذيولها فألف فيها وتشعباتها حركات رسالتين أخريين غير هاته. (الخامس في المجموع رقم 482 ـ 36 صفحة ـ).

ـ **مسألة المركب المفقود في البحر:**

نازلة تتعلق بأناس ركبوا سفينة في البحر ففقدوا هم والمركب واختلفت آراء الفقهاء في الأحكام المتعلقة بهم (السابع في المجموع رقم 482 ـ 15 صفحة ـ).

وبالجملة فإن مخطوطات الخزانة العلمية الصبيحية التي لم تفهرس بعد تشمل مجموعة من الكتب الفقهية الأندلسية والمغربية لابن رشد الجد، والتسولي والرهوني وغيرهم، وأخرى في الفلك والتوقيت، واللغة والأدب وغيرها، مع عدد من المجاميع والرسائل، وكتب مشرقية في مواضيع متنوعة أحدها بخط مشرقي في غاية الحسن والرونق من القرن العاشر. إضافة إلى ما عثر عليه أخيراً من مؤلفات السلويين كأحمد بن عاشر الحافي وعلي زنيبر، وأبي بكر بوشنتوف، وأحمد الصبيحي.

إحياء التراث في المغرب (*)

كلنا يعلم أن عملية إحياء التراث في العصر الحديث ارتبطت بانتشار الطباعة، وأن أوربا سبقت إلى هذا المضمار باعتبارها المخترعة للطباعة منذ منتصف القرن الخامس عشر، فكان إحياء التراث اللاتيني والإغريقي من أقوى الأسباب في خلق النهضة الأوربية وانتشارها في أرجاء القارة، ثم في سائر أنحاء المعمور. وإذا غضضنا الطرف عن دخول الطباعة إلى دار الخلافة العثمانية بكيفية محدودة أوائل القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد، وإلى بلاد الشام قبل ذلك بنفس الكيفية، فإن البلاد العربية لم تتعرف على الطباعة بكيفية جدية وفعالة إلا في مطلع القرن التاسع عشر بعد أن جاء نابليون في حملته الكبرى على مصر بمطبعة عربية، فكان ذلك من بواعث النهضة العربية الحديثة في مصر، ثم في سائر البلاد العربية. ولم تصل المطبعة العربية إلى شمال إفريقيا إلا في أواسط القرن التاسع عشر. وبدأت الطباعة العربية في المغرب حجرية يدوية بسيطة، حين دخلتها أول مطبعة من الشرق عام 1281/ 1864، ومعها طبيع مصري، اشتغل منذ البداية بنشر كتب التراث، وتعلم حرفة الطباعة على يده جماعة من الشبان المغاربة، خاصة آل الأزرق الفاسيين. ثم دخلت مطابع حجرية أخرى. وتأرجحت المطبعة في فتراتها الأولى بين أن تكون رسمية تابعة للدولة باسم «المطبعة السعيدة» أو «المحمدية»، نسبة إلى الملك محمد الرابع، وبين أن تكون حرة ملكاً لأفراد من التجار والعلماء باسم «المطبعة الفاسية»، وهذا ما استقرت عليه أخيراً. كما تضاربت آراء الفقهاء في البداية حول المطبعة بين محبذ ومنفر، إذ رأى بعضهم أنها تمتهن الكتاب

(*) محاضرة ألقيت في مركز رابطة الأدباء بالكويت يوم 2 مارس 1981 بدعوة من المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون بدولة الكويت ونشرت بمجلة المناهل في الرباط.

وتسلبه قداسته، وتعمل على إخماد القرائح وإهمال حفظ العلم في الصدور. وذلك ما يفسر لنا تأخير طبع أول مصحف شريف إلى عام 1296 أي إلى ما بعد مرور خمس عشرة سنة على صدور أول ما طبع في المطبعة الحجرية، وهو كتاب **الشمائل المحمدية** لأبي عيسى الترمذي في 4 صفر عام 1282. ثم توالت طبعات المصحف الشريف في المطبعة الفاسية عام 1309 و 1311 إلخ مجموعاً أو في جزءين أو أجزاء عديدة.

وإذا نظرنا إلى قائمة المطبوعات الفاسية الأولى وجدناها قبل كل شيء كتباً تعليمية تدرس بجامعة القرويين وغيرها من المراكز التعليمية، فبعد **شمائل الترمذي**، طبع مباشرة شرح **المقدمة الأجرومية**، في النحو، لمحمد بن أجروم الجزولي السوسي، و**مختصر الدر الثمين في العقائد والعبادات ومكارم الأخلاق** لمحمد ميارة الفاسي، وشرح **التحفة العاصمية في أحكام القضاء والمعاملات** لمحمد التاودي ابن سودة الفاسي. وفي نطاق الكتب التعليمية نجد من بين المطبوعات الفاسية الأولى كتباً لمؤلفين مشارقة كشرحي **مختصر خليل في الفقه المالكي** الخرشي والزرقاني المصريين، و**الألفية في النحو والصرف** لابن مالك الأندلسي الدمشقي، و**تحرير أصول هندسة إقليدس** لنصير الدين الطوسي. وإلى جانب هذه الكتب التعليمية نشرت المطبعة الفاسية كتباً عامة من التراث لمؤلفين مغاربة وأندلسيين، وبعض المشارقة أيضاً، في مواضيع تتصل بعلوم القرآن والحديث والعقائد، خاصة العقيدة الأشعرية، والفقه أصوله وفروعه المالكية، والتصوف بأوراده وأحزابه ورجاله، والسير والتاريخ والرحلات والتراجم والفهارس أو معاجم الشيوخ، إلى جانب اللغة وقواعدها والأدب والعروض، والرياضيات والفلك والتوقيت.

ويمكن تقسيم مدة إحياء التراث بالمغرب الأقصى إلى ثلاث فترات:

1) فترة ما قبل الحماية 1864 ـ 1911.

2) فترة الحماية 1912 ـ 1956.

3) فترة الاستقلال 1956 إلى الآن.

* * *

اقتصر نشر التراث في الفترة الأولى على المطبعة الحجرية اليدوية البسيطة في مدينة فاس، ومع ذلك فإن تلك الفترة تعتبر من أزهى فترات نشر التراث في بلادنا، حيث طبعت مئات الكتب بعناية جماعة كبيرة من علماء فاس عاصمة المغرب الثقافية والسياسية آنذاك. إلا أن المطبوعات الفاسية للأسف لم تفهرس لحد الآن فهرسة دقيقة شاملة، وقد كانت هناك محاولتان ناقصتان لهذه الفهرسة، نشرت أولاهما في العدد السابع من مجلة الوثائق المغربية الصادرة باللغة الفرنسية في أوائل عهد الحماية، ونشرت الثانية في المجلة الإفريقية الصادرة كذلك عن إدارة الحماية باللغة الفرنسية سنة 1922، بقلم الأستاذين محمد بن شنب وليفي بروفنسال، واشتملت على 356 عنواناً. وطبعت في فصلة مستقلة بعنوان محاولة فهرسة مرتبة ترتيباً زمنياً للمطبوعات الفاسية Essai de Répertoire Chronologique des Editions de Fes ومن الملاحظات التي يحسن ذكرها عن المطبوعات الفاسية:

1 ـ أنها نشرت أمهات من الكتب، مثل:

ـ موطأ الإمام مالك.

ـ بداية المجتهد لأبي الوليد ابن رشد.

ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض.

ـ مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضي عياض أيضاً.

ـ ورسالة ابن أبي زيد القيرواني.

ـ وتسهيل ابن مالك الأندلسي الدمشقي.

ـ والمعيار المعرب، أو المعيار الكبير في اثني عشر مجلداً لأحمد الونشريسي التلمساني الفاسي، أكبر معلمة للفقه المالكي في الغرب الإسلامي كله: الأندلس والمغرب والجزائر وتونس.

ـ والمعيار الجديد في أحد عشر جزءاً للمهدي الوزاني الفاسي، وهو على نسق المعيار الكبير وكأنه ذيل له لاشتماله على فتاوى فقهاء المغرب في القرون الأربعة الأخيرة.

2 ـ أن أعداد النسخ المطبوعة الفاسية كانت قليلة لا تتجاوز أحياناً مائتي نسخة، وذلك ما دفع إلى إعادة طبع بعضها مرات عديدة. في نفس المطبعة الحجرية، وما يفسر ندرة المطبوعات الفاسية اليوم في أسواق الكتب حتى لتعد كالمخطوطات وتباع بأثمان باهظة.

3 ـ أن بعض المغاربة من ذوي اليسار حاولوا في هذه الفترة السابقة لعهد الحماية توسيع نطاق إحياء التراث العربي المغربي بنشر بعض الكتب وطبعها بالحروف الحديثة ـ بالنسبة لذلك الوقت ـ في مطبعة بولاق أو المطبعة البهية أو غيرهما من مطابع مصر منهم المؤرخ السلوي الشهير أحمد بن خالد الناصري الذي طبع في القاهرة كتابه الجامع الاستقصا، في أخبار المغرب الأقصى في أربعة أجزاء والأمير عبد الحفيظ بن السلطان الحسن الأول، وكان عالماً متضلعاً وأديباً شاعراً فنشر في مصر قبل أن يتولى الملك عدداً من مؤلفاته الفقهية والأدبية، ونشر فيها أيضاً من كتب التراث:

ـ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر في أربعة أجزاء.

ـ والاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر القرطبي في أربعة أجزاء أيضاً.

ـ والبحر المحيط في تفسير القرآن الكريم لأبي حيان الجياني الغرناطي ومعه النهر الماد في البحر لأبي حيان أيضاً، والدر اللقيط من البحر المحيط لأحمد بن عبد القادر القيسي، في ثمانية أجزاء.

* * *

واستمر نشر التراث العربي المغربي في فترة الحماية، إلى أنه تشعب وتنوع أنواعاً ثلاثة:

أ ـ تابعت المطبعة الحجرية بفاس عملها ـ ولو بنشاط أقل ـ وأخرجت بالدرجة الأولى طبعات مكررة لكتب نفدت وظل طلبة التعليم الأصيل في القرويين وغيرها يطلبونها، وكتباً قليلة في التصوف والمناقب والتاريخ. مثل: اليواقيت الأحمدية في الطريقة التجانية لأحمد سكيرج والسعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية لابن الموقت المراكشي ولم تتوقف المطبعة الحجرية إلا سنوات معدودات قبيل الحرب العالمية الثانية وقد حطمت سلطات الحماية الفرنسية المبنى القديم للمطبعة الفاسية.

ب ـ دخلت مطابع بالحروف المصففة باليد المستحدثة آنذاك إلى المغرب، جلبها أفراد من أوربا، واستعملوها لأغراض مختلفة من صحافية وتجارية، ونشروا فيها بعض كتب التراث، ومن أهمها:

ـ مطبعة المغرب بمدينة سلا أتى بها سعيد حجي وطبع فيها لمدة سنوات جريدته اليومية السياسية «المغرب» ومجلته الأسبوعية الثقافية المغربية. وقد صدر عن مطبعة المغرب هذه من كتب التراث:

ـ كتاب المعجب بأخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي بتحقيق الأستاذ محمد الفاسي.

ـ وكتاب الأنيس المطرب القرطاس بأخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع الفاسي.

ـ وكتاب شرح بحرق اليمني الكبير للامية الأفعال في التصريف بتحقيق عبد الرحمان حجي.

ودخلت كذلك إلى البلاد:

ـ المطبعة الجديدة بفاس.

ـ المطبعة الاقتصادية بالرباط.

ـ المطبعة المهدية بتطوان.

ـ والمطبعة العربية بالدار البيضاء.

إلى غير ذلك من المطابع، وكلها نشرت كتباً تراثية.

ج ـ تمركز النشر الرسمي للتراث في يد سلطات الحماية الفرنسية بالرباط وسلطات الحماية الإسبانية بتطوان. فاصطبغت منشوراتهم التراثية العربية بصبغة العجمة إذ كان معظم الباحثين من المستشرقين الفرنسيين والإسبان، مع قليل من المغاربة المتخرجين من المدارس الأجنبية. وهيأت سلطات الحمايتين وسائل عمل جديدة قارة لمتابعة البحث في التراث المغربي فأنشأ الفرنسيون بالرباط: معهد الأبحاث العليا المغربية بأقسامه الدراسية المختلفة ومكتبته الغنية وهو الذي أصبح بعد الاستقلال كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، و.ن أوا مجلات الوثائق البربرية، والوثائق المغربية وهسبريس للدراسات المغر بة باللغة الفرنسية وكذلك فعل الإسبانيون أسسوا معهد الجنرال فرانكو للأب اث العربية الإسبانية ومجلة تمودا لنفس الغايات التي رمى إليها الفرنسيون بالمعهد وهيسبريس. وسأقتصر هنا على التذكير بعمل الفرنسيين، لأن الإسبانيين في الواقع ساروا في نفس الاتجاه، واقتفوا خطط الفرنسيين حذو النعل بالنعل.

كان معهد الأبحاث العليا المغربية يعقد مؤتمرات دورية حول مواضيع تتصل بالتراث المغربي يشارك فيها مستشرقون فرنسيون من أمثال ماسنيون، ولاووس، وبيل، وروني باصي، وبرينو، وكولان، وبروفنسال؛ وبعض العلماء المغاربة الموظفين، أمثال محمد الحجوي، ومحمد السايح، وعبد الحميد الرندى، وأحمد بن قاسم المنصوري، وأحمد النميشي. وتنشر الأبحاث باللغات التي ألقيت بها، فرنسية أو عربية، في المجلات، أو في كتب أو فصلات مستقلة. ويمكن إجمال ما نشره الفرنسيون من كتب التراث وردّه إلى صنفين:

أ ـ كتب أو نصوص من كتب عربية نشروها مترجمة باللغة الفرنسية وحدها، وهي أكثر منشوراتهم التراثية، مثل:

ـ **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، لابن القطان.

ـ **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، لمحمد بن الطيب القادري.

ـ الفوائد الجمة بإسناد علوم الأمة، لعبد الرحمان التامنارتي.
ـ رسالة الأنواء، لابن البناء المراكشي.
ـ ممتع الأسماع لمحمد المهدي الفاسي.

ب ـ كتب نشروها بنصها العربي مع مقدمات بالفرنسية أو بدونها، مثل:
ـالحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول.
ـ صلة الصلة لابن الزبير (القسم الأخير).
ـ آداب الحسبة لمحمد السقطي.
ـ مجموع رسائل موحدية لكتاب مختلفين من أدباء القرنين السادس والسابع للهجرة.
ـ درة الحجال في غرة أسماء الرجال، لأحمد ابن القاضي.

وإذا كان لا بد من إبداء ملاحظات عن هذه الفترة فهي:

1) أنَّ فترة الحماية، ولو أنها طالت 44 سنة، فإن ما نشر فيها من التراث العربي المغربي أقل بكثير مما نشر في الفترتين السابقة واللاحقة.

2) أنّ ما نشره المغاربة في هذه الفترة قليل جداً، ومن الطبيعي أن يكون كذلك لضعف الوسائل التي بين أيديهم، وللمضايقات السرية والعلنية التي تنالهم من سلطات الحماية.

3) أن ما نشرته إدارة الحماية أو شجَّعت على نشره لم يكن لذات التراث بقدر ما كان لإفادة المستشرقين الفرنسيين وتسهيل أبحاثهم النظرية والميدانية، لتتعرف الإدارة أكثر فأكثر على ماضي البلاد وتتحكم بالتالي في حاضرها ومستقبلها.

* * *

ولما حصل المغرب على استقلاله سنة 1956 واجه بطبيعة الحال مشاكل أخذت له من الوقت والجهد الشيء الكثير، ومع ذلك تبنت مؤسسات رسمية قضية متابعة إحياء التراث، وفي مقدمتها:

1) ـ وزارة الأوقاف التي فكرت منذ البداية في نشر معلمتين كبيرتين هما:

ـ المدارك للقاضي عياض.

ـ والتمهيد لابن عبد البر.

وإذا كان العمل قد سار ببطء وتعثر في طبع الأجزاء الأولى من هذين الكتابين، فإن الوضع قد تغير في السنتين الأخيرتين فصدرت عدة أجزاء، وينتظر صدور ما تبقى منهما في مستقبل قريب.

وفي نفس الوقت نشرت وزارة الأوقاف كتباً تراثية أخرى. بعضها في حزء أو جزئين، وبعضها في أكثر من ذلك، مثل:

ـ رحلة البلوى تاج المفرق.

ـ التعريف بالقاضي عياض لولده.

ـ وإيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك لأحمد الونشريسي.

وأعادت طبع الأجزاء المنشورة سابقاً بتطوان من كتاب أزهار الرياض في أخبار عياض لأحمد المقري، وأكملت طبع ما تبقى من الكتاب. كما نشرت بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري المعلمة الفقهية الكبرى المعيار المعرب والجامع المغرب، عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب لأحمد الونشريسي.

2) وزارة الثقافة نشرت:

أمثال العوام في الأندلس لأبي يحيى الزجالي، تحقيق الأستاذ محمد بنشريفة.

ـ كشف الصلصلة في أخبار الزلزلة، لجلال الدين السيوطي.

ـ المختار من شعر شعراء الأندلس، لابن الصيرفي.

ـ ديوان العباس بن الأحنف.

3) وزارة الأعلام بدأت بنشر:

ـ **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً**، لأبي القاسم الزياني.

ـ **الأنوار السنية في نسبة من بسجاماسة من الأشراف المحمدية**، لأحمد العلوي.

ثم شغلت بعد ذلك بنشر غير كتب التراث.

4) جامعة محمد الخامس والمعاهد التابعة لها، كالمركز الجامعي للبحث العلمي، ومعهد الأبحاث والدراسات للتعريب، فقد نشرت من كتب التراث:

ـ سلاسل من الرحلات السفارية والزيارية والحجازية لرحالة مغاربة عاشوا في القرون الأربعة الأخيرة، بتحقيق الأستاذ محمد الفاسي الوزير ورئيس الجامعة السابق.

ـ **رسائل ابن عميرة المخزومي** للأستاذ محمد بن شريفة.

ـ **سيرة ابن إسحاق** بتحقيق الدكتور حميد الله.

ـ **حوليات نشر المثاني**، بعناية أحد المستشرقين الإنجليز.

ـ **قبيلة بني زروال** لمحمد البشير الفاسي.

ـ **زهر الأكم في الأمثال والحكم**، للحسن اليوسي الذي حققته أنا والزميل محمد الأخضر.

وإلى جانب هذه المؤسسات الرسمية قامت دور نشر خاصة بإصدار مجموعة لا يستهان بها من كتب التراث والدراسات المتعلقة به. ومن أهمها دار الكتاب بالدار البيضاء، التي يربو عمرها الآن على عشرين سنة، ودار المغرب بالرباط التي لم تعمر أكثر من ثلاث سنوات ونشرت مع ذلك نحو ثلاثين كتاباً، ودار الثقافة بالدار البيضاء.

وتأسست في السنة الماضية الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بمشاركة عشرين أستاذاً جامعياً من مختلف الاختصاصات، وكانت باكورة أعمالها نشر كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان الفاسي الذي قمت مع الزميل

محمد الأخضر بترجمته عن الفرنسية، وكتاب **فتح الشكور في تراجم علماء التكرور، أي علماء بلاد الصحراء**، الذي قمت مع الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني بتحقيقه.

وكما كانت هناك محاولتان لفهرسة المطبوعات الفاسية الخاصة، كانت محاولتان أخريان لفهرسة المطبوعات المغربية عامة. أولاهما للمرحوم الأستاذ إدريس بن الماحي الإدريسي، الذي وضع **معجم المطبوعات المغربية**، مرتبة على أسماء المؤلفين، تضم 1252 عنواناً، وتتوقف قبيل وفاته عام 1971. وهي ـ على أهميتها ـ ناقصة عدداً، وخالية من ذكر اسم الناشر والمطبعة وتاريخ الطبع. والمحاولة الثانية لزوجين عراقيين يدرسان حالياً بجامعة محمد بن عبد الله بفاس ويعدان **معجم المؤلفين المغاربة**.

آفاق المستقبل.

يتوقع المهتمون بإحياء التراث في المغرب أن تكون العشرون سنة المقبلة حاسمة في عملية إحياء التراث العربي المغربي الأندلسي، وينتظر أن تضطلع بهذه المهمة أساساً هيئات رسمية أو حرة مثل:

1) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
2) الجامعات المغربية
3) الأكاديمية الملكية المغربية
4) الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.

كما ينتظر أن تنشط الدراسات المغربية ـ الأندلسية خاصة بين الشباب الجامعي، وأن تتمتن الصلات بين مؤسسات التراث في المغرب ونظيراتها في المشرق.

ويا حبذا لو اجتمع المهتمون بإحياء التراث العربي الإسلامي في صعيد واحد وفي أقرب الآجال:

ـ ليقوموا الحالة الراهنة للتراث في مختلف البلاد العربية والإسلامية.

ـ ويحددوا خططاً جهوية لعمل موقت.

ـ ويكونوا هيئة دائمة للتنسيق والتعاون والتبادل. عسى أن يكون لهذا الرجاء صداه في وسط اللجنة الوطنية الثقافية بالكويت الشقيق، إضافة إلى ما لها من أفضال في ميدان إحياء التراث العربي الإسلامي.

* * *

(3)

في التعليم والتأليف والنشر

- المدرسة النحوية المغربية ـ الأندلسية ودور سبتة فيها
- كتاب سيبويه في المغرب والأندلس
- التعليم في المغرب خلال العصر الحديث
- مراكز التعليم في المغرب أيام السعديين
- الدراسة بالقرويين في القرون الأخيرة
- تجديد الكتابة التاريخية عند الجبرتي والناصري
- الدراسات الإفريقية في مصر والمغرب
- التأليف والترجمة والنشر بين مصر والمغرب
- برامج وكتب التاريخ بالمدارس المغربية
- تطور النشر في المغرب بعد الاستقلال

المدرسة النحوية الأندلسية المغربية ودور سبتة فيها(*)

نعلم جميعاً أن النحو ولد وترعرع في القرنين الأولين للهجرة مع علي ابن أبي طالب وأبي الأسود الدُّؤلي، ثم مع الرؤاسي والكسائي الكوفيين ودخل نحو البصرة إلى المغرب ـ وأقصد بالمغرب الغرب الإسلامي ـ ابتداء من القرن الهجري الثالث مع من هاجر إليه من النحاة، أمثال أبي اليسر إبراهيم بن أحمد الشيباني تلميذ الإمامين البصريين المبرد والجاحظ وصاحب الشاعرين أبي تمام والبحتري. ثم بعد ذلك مع أبي علي القالي. وصاعد البغدادي، وانتشرت تعاليم هؤلاء انطلاقاً من القيروان وقرطبة. وتعرف الغرب الإسلامي على نحو الكوفة أيضاً من خلال أصداء المناظرات الحادة التي جرت بين الإمامين الكبيرين سيبويه والكسائي، وأودت ـ كما قيل ـ بحياة إمام البصرة في المناظرة المشهورة حول المسألة الزنبورية، إذ تواطأ النحاة والرواة وحتى الأعراب ضد سيبويه مشايعة للعباسيين الذين كان هواهم مع الكسائي، وقضى نحبه ذلك العالم الكبير مغموماً مظلوماً.

كانت تلك المناظرات منطلق خلاف كبير بين المدينتين المتنافستين: البصرة والكوفة ونحاتهما استمر فترة غير قصيرة وانجلى غبار ذلك الخلاف عن قيام مدرستين متميزتين:

مدرسة البصرة، تساندها الأصالة والمنطق، إذ وضعت قوانين عامة، وأهملت الشواذ وما خالف الاستعمال المشهور عند جمهور العرب، فحصرت

(*) مختصر محاضرة ألقيت في ندوة سبتة التي أقامتها الجمعية الثقافية الإسلامية بتطوان في 26 ـ 28 أبريل 1979.

بذلك اللغة في قوالب محكمة وصيغ مضبوطة يسهل إدراكها والإحاطة بها.

ومدرسة الكوفة، يساندها الحكم العباسي ويشُدُّ أزرها لأغراض لا علاقة لها بموضوع اللغة وقواعدها. هذه المدرسة الثانية ولو أنها اصطبغت في البداية بصبغة علمية تحولت إلى ما يشبه مسجد الضرار خارقة القوانين اعتماداً على سماعات شاذة أو منحولة. فشعبت إلى حد كبير طرق تحصيل النحو، أو أفسدته على حد تعبير السيوطي.

وبعيداً عن ضجة البصرة والكوفة تدارس نحاة الأمصار في الشرق والغرب ونظروا في ذلك الركام الهائل من الآراء المتضاربة والشواهد المتناقضة الذي أصبح خطراً على عقول المعلمين والمتعلمين وعملوا على تشذيبه وتهذيبه وترتيبه، بعد المقابلة والتنظير، والمقارنة والتحرير، فتكونت مدرستان نحويتان جديدتان أخذتا ما رأتاه صالحاً من آراء البصريين والكوفيين، غير أن المدرسة الشرقية أو مدرسة بغداد كما تسمى بقي الطابع الكوفيّ غالباً عليها بسبب رسوبات الحكم العباسي وذيوله في الإمارات الأعجمية ببلاد المشرق، بينما غلبت صبغة البصرة على المدرسة الأندلسية المغربية التي فصل خصائصها ابن خلدون وتحدث عنها في غير ما موضع من المقدمة.

كانت قرطبة كما قلنا طليعة المراكز النحوية في أقصى الغرب الإسلامي يمتد إشعاعها إلى مدن أندلسية أخرى ومراكز علمية من العدوة الجنوبية من سبتة وفاس وتلمسان، إلى بجاية والقيروان. وظهرت أهمية أشبيلية في الدراسات النحوية منذ أواسط القرن الرابع (10 م) مع الإمامين الزبيديين أبي محمد وأبي بكر، ثم أصبحت أشبيلية تنافس قرطبة في هذا الميدان على عهد ملوك الطوائف إلى أن انفردت بزعامة النحو في الغرب الإسلامي كله بما أنجبته من أعلام اللسان، كان آخرهم أمام النحاة في عصره بدون منازع أبو علي الشلوبين الذي مات قبل بضعة أشهر فقط من سقوط مدينة أشبيلية في يد المسيحيين عام 646 هـ.

نظر علماء أشبيلية ونحاتها بصفة خاصة إلى أين يتوجهون بعد نكبة

الاحتلال، وكان من الأيسر لهم أن يذهبوا إلى غرناطة أو مالقة أو غيرهما من الحواضر الباقية في يد المسلمين بجنوب الأندلس، لكنهم فضلوا العبور والمجيء إلى سبتة أقرب المراكز الزاهرة إليهم بالعدوة القصوى. كان من بين علماء أشبيلية المهاجرين إلى سبتة تلاميذ الإمام الشلوبين، وفي مقدمتهم أبو الحسين عبيد الله بن أحمد بن أبي الربيع الأموي. جاءها ابن أبي الربيع وهو في ريعان الشباب والطلب، فوجد فيها من حيوية العلم والإقبال عليه بسبب الأسرة الحاكمة، أسرة بني العزفي التي كان لها فضل كبير في تنشيط العلم وتكريم العلماء، وجد ابن أبي الربيع في سبتة ما سلاَّهُ عن مسقط رأسه، وعاش فيها زهاء نصف قرن يدرِّس ويناظر ويؤلف حتى عد بحق إمام النحاة السبتيين، بل إمام نحاة الغرب الإسلامي، بل إمام نحاة العالم الإسلامي كله.

حضر مجلس ابن أبي الربيع وتخرج على يده النابغون من طلبة سبتة ممن سيكون لهم شأن أي شأن في ميدان المعرفة عامة والمدرسة النحوية الأندلسية ـ المغربية بصفة خاصة، أمثال ابن رشيد السبتي صاحب الرحلة المشهورة ملء العيبة، وأبي القاسم ابن الشاط الإشبيلي السبتي الفقيه النحوي صاحب التآليف الشهيرة، ومحمد بن علي بن هانىء السبتي شارح **التسهيل**، ومؤلف **إنشاد الضوال، وإرشاد السوال في لحن العامة**.

ألف ابن أبي الربيع في سبتة كتباً عظيمة في النحو أثرت المدرسة المغربية ـ الأندلسية وتخطت الحدود إلى الشرق فأصبحت فيه، مثل ما هي عليه في المغرب، مرجع الدارسين ومعتمد الباحثين، سواء في عصر المؤلف أو في العصور التالية. وإذا كان الزمان لحسن الحظ قد أبقى على معظم كتب ابن أبي الربيع فإنها للأسف ما زالت مخطوطة مبعثرة أجزاؤها في المكتبات العامة والخاصة لم يطبع منها فيما نعرف غير البرنامج الصغير الذي هو بمثابة فهرس لأشياخ ابن أبي الربيع ومقرؤاته، نشره الدكتور عبد العزيز الأهواني في مجلة المخطوطات العربية فيما أعتقد.

مؤلفات ابن أبي الربيع السبتي التي كان لها دوي عظيم في العالم الإسلامي:

1) القوانين النحوية المحفوظ بمكتبة القرويين بفاس
2) المختصر في النحو المخطوط بمكتبة الإيسكوريال
3) الإفصاح في شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي
5) شرح الجُمل لأبي القاسم الزجاجي في عشرة أجزاء

هكذا تزعمت سبتة المدرسة النحوية الأندلسية ـ المغربية واستمرت على ذلك زهاء قرنين من الزمان، فسارت بذكرها الركبان، وكان ذلك آخر إشراقة لهذه المدينة العالمة الوضّاءة قبل أن يطفئها إعصار الاحتلال المسيحي الغادر الجائر، ويحيل علمها جهلاً ونورها ظلاماً. شكر الله سعي الجمعية الثقافية لإسلامية بتطوان في التذكير بأمجاد سبتة، وقوّى العزائم لتحريرها حتى تعود كما كانت دار إسلام وعلم وسلام.

كتاب سيبويه في المغرب والأندلس(*)

يتصل كتاب سيبويه بالدراسات اللغوية والنحوية في المغرب والأندلس اتصالاً وثيقاً عبر العصور. ويرجع احتكاك هذه البلاد باللغة العربية إلى عهد الفاتحين المسلمين في القرن الهجري الأول. وكانت عجمة لسان سكان هذه المناطق مدعاة إلى إقبالهم على تعلم لغة القرآن منذ أن أخذ الإسلام ينتشر بينهم. والعرب يقيمون بين ظهرانيهم. وقد بدأ تعلم اللغة العربية في الغرب الإسلامي بطريق المحاكاة والتعبير الشفوي البسيط وحفظ آيات وسور من القرآن الكريم لأداء الشعائر الدينية. قبل أن يميل إلى استكناه أسرار اللغة والتعرف على قواعدها، حينما رسخت قدم الإسلام في هذه البلاد، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الدولة الإسلامية الكبرى. ولا سيما عندما أخذت تنتشر الحركة الفكرية والدينية واللغوية القائمة في المشرق آنذاك، وتتردد أصداؤها في أرجاء المغرب والأندلس.

كان من الطبيعي أن يحدث مثل هذا في الجناح الشرقي من الامبراطورية الإسلامية، غير أن قيام مدينتي البصرة والكوفة في العراق وإقبال علمائهما من عرب وفرس على جمع اللغة العربية وفلسفتهما بتقعيد القواعد واستنباط الأحكام والضوابط، أسرع الخطى بتلك الأقطار في ميدان العلوم اللسانية، وخولها قصب السبق في هذا المضمار، حتى أنجبت من الأعلام أمثال الخليل ابن أحمد، ويونس بن حبيب، وسيبويه، الذين أصبحوا أئمة العربية في كل زمان ومكان.

(*) من محاضرة ألقيت بالمؤتمر العالمي الذي أقامته جامعة بهلوي بشيراز لتكريم إمام النحاة سيبويه بمناسبة مرور اثني عشر قرناً على وفاته من 27أبريل إلى 2 ماي 1974.

لقد دخل النحو إلى المغرب والأندلس مع تلاميذ هؤلاء الأئمة الذين هاجروا من المشرق فحطوا رحالهم بالقيروان وفاس وقرطبة، وأملوا على المتعلمين في هذه البلاد ما حوته صدورهم وقراطيسهم من علم غزير. ولئن عرفت الأوضاع السياسية بهذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي تقلبات كثيرة خلال القرون الهجرية الأولى، فإن الحركة الثقافية، ومن ضمنها العلوم اللسانية، لم تتثن عن طريقها أو تقف عند الحدود المصطنعة التي كانت تنتصب حاجزاً هنا وهناك وتتقدم تارة وتتراجع أخرى. فتابع العلماء نشاطهم الفكري في هذه البلاد، سواء في العهد الذي كانت فيه سلطة خلفاء دمشق أو بغداد تصل إلى المحيط الأطلنطيقي وجبال البرانس، أو عندما انفصلت المنطقة عن أنظارهم بزعامة الأمويين في الأندلس، والأدارسة في المغرب، والأغالبة ثم الفاطميين بإفريقية.

وابتداء من القرن الهجري الرابع، دخل الغرب الإسلامي مرحلة النضج والتفتح الفكري، حيث أخذت مساجد قرطبة بصفة خاصة، تعج بأعلام العلماء، ومكتباتها تزخر بمختلف المؤلفات اللغوية والنحوية والأدبية، أيام عبد الرحمن الناصر، وابنه الحكم المستنصر. وتأكدت شخصية هذه المنطقة في القرون التالية مع المرابطين والموحدين الذين تمكنوا طوال قرنين ونيف من إقامة امبراطورية انتظمت في سلكها أقطار شمال إفريقيا والأندلس. فكان العلماء ينتقلون في أرجائها الفسيحة، يملون ويؤلفون، وينالون من ضروب الإكرام والتشجيع ألواناً. وفي هذه الفترة بالذات نالت الدراسات اللغوية والنحوية والأدبية أوفى نصيب، وراج كتاب سيبويه أعظم رواج.

ثم كانت زوابع ومحن في الغرب الإسلامي خلال القرن الهجري السابع كادت تعصف بثقافته، لولا جهود المرينيين الضخمة فيما بعد، والمتمثلة في تشيد المساجد والمدارس الفخمة وتشجيع المعلمين والمتعلمين في كل جهات المغرب، وفي تقديم العون المادي والمعنوي لمملكة غرناطة. فكان لذلك الأثر المحمود في إحياء ذماء العلم بالعدوتين، وأعطى الدراسات اللغوية والنحوية فيهما، وبخاصة كتاب سيبويه نفساً جديداً.

ولما حمّ القضاء، وحلت النكبة الكبرى بالمسلمين في الأندلس في نهاية القرن التاسع آوت العدوة الجنوبية مختلف المقومات الحضارية مع آخر المهاجرين الأندلسيين، وأصبحت مدينة فاس دار مقام لعدد عديد من الأسر النبيلة، وفي مقدمتها أسرة أبي عبد الله النصري آخر ملوك بني الأحمر، وعمّر أندلسيون آخرون مدن تطوان والرباط والقصبة، واستوطن غيرهم حتى قمم الجبال وحدور الأودية، وبلغوا بسائط السوس الأقصى. وبذلك امتزجت الحضارة الأندلسية بالحضارة المغربية امتزاجاً نهائياً، ولم تنطفىء ذبالة تلك الثقافة الأصيلة، ومعها الدراسات النحوية وكتاب سيبويه، لم تنظفىء في المغرب إلى أيام الناس هذه.

وقد تلقى الغرب الإسلامي قواعد اللغة العربية بمذاهبها الشرقية الثلاثة، البصرية والكوفية والبغدادية عن طريق النحاة المهاجرين، ومعظمهم جاؤوا من بغداد، فاتخذوا من كتاب سيبويه أساساً للتعليم، لأنهم بدورهم أخذوه عن شيوخ بصريين أو مشايعين لمذهبهم. ولانتشار المدرسة البصرية في المغرب والأندلس، وسيادتها في العهود الأولى على ما عداها من المدارس النحوية أسباب يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً ـ أن المذهب البصري أكثر أصالة ومنطقية، وأقل تشعباً وتمحلاً.

ثانياً ـ وجود كتاب سيبويه بين أيدي الناس، لا يزاحمه كتاب آخر للرؤاسي أو الكسائي أو غيرهما من الكوفيين. والكل يعلم أن هؤلاء لم يؤلفوا ما يمكن أن يضاهي أو يقارب كتاب سيبويه، وإنما هي رسائل وكراريس لا تذكر أمام الكتاب.

ثالثاً ـ مناصرة العباسيين لعلماء الكوفة، وإيثارهم إياهم بتعليم ولاة العهد وأبناء كبار رجال البلاط، جعل الناس في الغرب ينفرون من هذا المذهب بعد أن خاصموا خلافة بغداد وخلعوا طاعتها.

على أن ذلك كله لم يصرف علماء المغرب والأندلس نهائياً عن النظر في مسائل الخلاف، فتعرفوا على آراء مختلف الفرق، ونظروا بخاصة في القضايا

التي أخذت على البصريين، فأثبتوا منها وأبطلوا، وانتقدوا بدورهم بعض آراء البصريين، ومسائل من كتاب سيبويه نفسه، وخرجوا هم أيضاً بمدرسة نحوية جديدة، هي المدرسة المغربية الأندلسية التي تحدث عنها ابن خلدون في غير ما موضع من المقدمة.

وفيما يتعلق بالإقبال على دراسة اللغة العربية وقواعدها في الغرب الإسلامي ـ، نلاحظ وجود نفس الظاهرة الشرقية المتجلية في وفرة العناصر الأعجمية الأصل من بين الدارسين. فكما كان سيبويه ودرستويه الفارسيَّان مثلاً من أعلام النحو العربي في الشرق، كان الجزولي وابن آجروم من برابرة السوس الأقصى من أئمة هذا الفن في الغرب. وظلت كتبهم جميعاً تقرأ أو تشرح على تعاقب الحقب والأجيال. غير أن من المفارقات التي لا ينبغي إغفالها في هذا الباب، أنه إذا كانت العناصر الغير العربية في الشرق، وبخاصة الفارسية قد أخذت تعود إلى لغتها الأصلية منذ زمن غير بعيد عن عصر سيبويه، فإن السوسيين في المغرب ظلوا يتعلمون لغة القرآن ويعلمونها ويؤلفون فيها مئات الكتب إلى اليوم. وقد نشر المرحوم المختار السوسي منذ بضع سنوات تراجم علماء هذا الإقليم المغربي وآثارهم الضخمة في اللغة العربية وغيرها، في كتابين هامين، **سوس العالمة**، **والمعسول**، ويقع هذا الأخير في عشرين مجلداً.

لعل أصدق تعبير عن المكانة المكينة لكتاب سيبويه في نفوس المغاربة والأندلسيين أنه ظل معتمدهم الأساسي في الدراسات العليا لم يستبدلوه بغيره طوال القرون. ولا يفهم من وجود كتب دراسية نحوية في هذه المنطقة أنها حلت محل الكتاب، وإنما هي مقدمات وأراجيز وضعت للمبتدين والقاصرين عن إدراك مسائل الكتاب وذلك كمقدمتي الجزولي وابن آجروم، وألفيتي ابن معطي وابن مالك وما إليها من شروح وحواش. ومع ذلك بقي الكتاب مجال براعة المبرزين من شيوخ النحاة، وملتقى النجباء (الشادين) من الطلاب. هذا بالإضافة إلى وفرة عدد حفاظ الكتاب والمشتغلين بالكتابة عليه شرحاً وتعليقاً واستدراكاً. ومن نماذج حفاظ الكتاب المغاربة أبو عمران الهسكوري، موسى بن يمويمن صاحب كرسي كتاب سيبويه في القرويين. فقد ذكروا في

ترجمته أنه فتح بين يديه يوماً كتاب سيبويه بالقرويين في ثلاثة مواضع، نفراً في كل موضع مقدار ثلاثة أحزاب عرضاً عن ظهر قلب. وكان ذلك بتدبير من منافسيه الذين راموا إعجازه على رؤوس الملأ لما كان في طبعه من حدة وفي لسانه من سلاطة. كما يعتبر الأعلم الشنتمري يوسف بن سليمان الإشبيلي من أبرز نماذج الأندلسيين الذين شرحوا الكتاب وعلقوا عليه. فهو قد ألف كتاب تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب المطبوع مع كتاب سيبويه في طبعة بولاق. شرح فيه شواهد الكتاب الشعرية التي تنيف عن ألف بيت ونسبها إلى أصحابها. وألف أيضاً كتاباً جمع فيه النكت في كتاب سيبويه، ورسالة مطولة في المسألة الزنبورية الشهيرة، أوردها المقري بتمامها في نفح الطيب، الجزء الرابع من طبعة بيروت الأخيرة.

أشهر الدارسين لكتاب سيبويه:

تكاثر عدد الدرسين لكتاب سيبويه في المغرب والأندلس عبر العصور تكاثراً يجعل من العبث محاولة تعدادهم بله الإحاطة بهم ولو اتسع مجال القول، غير أنه لن يكون دون فائدة في ختام هذا العرض الوجيز الإشارة إلى بعض الأعلام البارزين منهم تمثيلاً لما سبق وتوثيقاً.

نذكر في البداية ثلاثة من النحاة المشارقة الذين دخلوا المغرب والأندلس في القرون الإسلامية الأولى وكان لهم فضل السبق في نشر النحو واللغة والأدب وكتاب سيبويه في هذا الديار. وهم:

أبو اليسر الشيباني، إبراهيم بن أحمد البغدادي، تلميذ عالمي البصرة المبرد والجاحظ، وصاحب الشاعرين أبي تمام والبحتري. حمل معه إلى المغرب علماً غزيراً، انصرف جل اهتمامه إلى كتاب سيبويه، حتى إنه كتب منه نسخة في أخريات حياته بقلم واحد ما زال يبريه حتى قصر فأدخله في قلم آخر وكتب به حتى فني بتمام الكتاب. وكانت خاتمة مطاف أبي اليسر مدينة القيروان حيث توفي عام 298.

وأبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم البغدادي، صاحب النوادر

والأمالي، والمقصور والممدود، والبارع، وغيرها من كتب اللغة والنحو والأدب. وفد على عبد الرحمن الناصر الأموي عام 330 وعاش بقرطبة يدرس، في جملة ما يدرس ويملي، كتاب سيبويه، وكان قد أخذه في بغداد عن ابن درستويه عبد الله بن جعفر الفارسي. وعرف القالي بتدقيق النظر في الكتاب والانتصار للبصريين إلى أن توفي عام 356.

وصاعد البغدادي، أبو العلاء بن الحسين. دخل الأندلس أيام المنصور بن أبي عامر، فاهتبل بمقدمه وأراد أن يعفي به على آثار أبي علي القالي الوافد من قبل علي بني أمية. لكن قلة خبرة صاعد بكتاب سيبويه عرضته إلى السخرية والإهمال، ولم يشفع له لدى الأندلسيين ما أملاه عليهم من كتاب الفصوص. فقد ذكروا أن صاعداً دخل يوماً على المنصور في مجلس ضم نحاة الأندلس وأدباءها، فسأله عن أبي سعيد السيرافي، فزعم صاعد أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه، فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتاب فلم يحضره جوابها، واعتذر بأن النحو ليس جل بضاعته، فكان ذلك بداية الشؤم الذي ظل يلاحق صاعداً في جهات الأندلس إلى أن أجلاه عنها أيام الفتن إلى جزيرة صقلية حيث مات مغرباً حوالي عام 410.

أما النحاة الأندلسيون والمغاربة الذين علقوا بكتاب سيبويه وبرعوا في تدريسه والتعليق عليه، فيأتي في طليعتهم ابنا العم الإشبيليان الزبيديان أبو محمد وأبو بكر.

قرأ أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدي النحو بمسقط رأسه في الأندلس ودرس كتاب سيبويه ووضع عليه شرحاً من أحسن ما شرح به الكتاب. ثم تاقت نفسه إلى لقاء كبار النحاة بالمشرق، فرحل إلى بغداد ولازم أبا سعيد السيرافي ثم أبا علي الفارسي. ولما انتقل هذا الأخير إلى فارس سار معه أبو محمد الزبيدي إليها فدعاه الفرس أبا عبد الله الأندلسي. وتضايق أبو علي الفارسي من هذا الإلحاح في الطلب والرغبة في الاستفادة، فكان يقول للزبيدي على رؤوس الملأ: (إنْ والله على وجه الأرض أنحى منك) وأدركت الوفاة أبا محمد الزبيدي ببغداد عام 372.

أما أبو بكر الزبيدي فلم يغادر بلاد الأندلس، وظل يدرس كتاب سيبويه في إشبيلية إلى أن دعاه الحكم المستنصر إلى قرطبة ليؤدب فيها ولي عهده هشام، وكانت له في عاصمة الأمويين مجالس نحوية عالية على غرار مجالس أبي علي القالي السابقة. وألف أبو بكر الزبيدي في جملة ما ألف استدراكاً على كتاب سيبويه، ومات وهو قاض بإشبيلية عام 379.

ونجد في العدوة الأخرى أبا محمد الزقاق، قاسم بن محمد ابن الحاج، شيخ النحاة في المغرب، يدرس كتاب سيبويه في كل من فاس وسبتة وسلا، مكوناً حلقة أولى في سلسلة نحوية ستطول أجيالاً عديدة. وكانت وفاته بمدينة سلا عام 559.

ـ ومحمد بن أحمد ابن طاهر الأنصاري الإشبيلي. قرأ بالأندلس والمغرب، واستوطن مدينة فاس قائماً على تدريس كتاب سيبويه، وله تعليق على الكتاب. وأقسم أن يقرأه في البصرة حيث وضعه سيبويه، وبرّ ابنُ طاهر بقسمه فحج ودرس الكتاب بمصر والبصرة مدة، ومرض في طريق رجوعه، فمات في بجاية بالمغرب الأوسط عام 580.

ومن أبرز تلاميذ الإمامين الزقاق وابن طاهر:

أبو الحسن بن خروف، عليّ بن محمد الحضرمي، وهو أندلسي الأصل قرأ كتاب سيبويه بفاس وإشبيلية ومراكش وغيرها، ووضع عليه شرحاً عجيباً سماه تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب، وله رسائل عديدة في مناظرة كبار نحاة عصره.

وعمر بن عبد الله السلمي الأغماتي (أغمات ـ قريبة من مدينة مراكش) لم يصرفه منصب القضاء الذي أسند إليه في تلمسان وفاس وإشبيلية عن تدريس كتاب سيبويه في هذه المدن كلها، إلى أن أدركته الوفاة فجأة بإشبيلية وهو بها قاض عام 603.

ـ وأبو القاسم بن الملجوم، عبد الرحمن بن عيسى الأزدي. وأسرة ابن الملجوم من أنبل أسر فاس، تسلسل فيها العلم والجاه والثروة نحو عشرة

قرون. وكانت لهم مكتبة من أعظم المكتبات الخاصة في الغرب الإسلامي.
درس أبو القاسم على كبار نحاة عصره في المغرب والأندلس وناظر شيخه ابن طاهر في نحو الثلث من كتاب سيبويه. وأقرأ الكتاب مدة غير قصيرة في جامع القرويين إلى أن توفي بفاس عام 604.

- والإمام الشلوبين، عمر بن محمد، شيخ نحاة إشبيلية قبل أن ينتزعها المسيحيون من يد المسلمين. كان يدرس بها كتاب سيبويه، وكتب عليه تعليقاً مهمّاً طارت شهرته شرقاً وغرباً.

ومن أبرز المتخرجين على يد الإمام الشلوبين.

أبو محمد الأنصاري، عبد الله بن علي. وانتقل بعد سقوط إشبيلية في يد النصارى إلى مدينة سبتة بالعدوة المغربية، فاستوطنها ودرس بها كتاب سيبويه إلى أن توفي عام 647.

عاصر أبا محمد الأنصاري في سبتة نحوي آخر شهير. هو:
أبو الحسن الشاري. علي بن محمد الغافقي، كان الكتاب معتمده في مرحلتي التعلم والتعليم، وتوفي بعد الأنصاري بعامين.

ومن أبرز الشخصيات النحوية في القرنين الهجريين السابع والثامن.

الأمام الصدفي، محمد بن يحيى العبدري، أشهر المتخرجين على ابن خروف والقائم مقامه في تدريس كتاب سيبويه في القرويين بفاس. توفي رحمه الله شهيداً في إحدى المعارك ضد المسيحيين بجبل الفتح المعروف اليوم بجبل طارق عام 651.

وأبو حيان الجياني، أمير المؤمنين في النحو. كان ملتزماً ألا يقرىء غير كتاب سيبويه، أو تسهيل ابن مالك للذين لم يتأهلوا بعد لخوض غمار الكتاب. وكان أبو حيان سلفياً معجباً بآراء ابن تيمية، فشد الرحلة إليه من الأندلس، وأقام معه مدة في دمشق، إلى أن خطّأ ابن تيمية سيبويه وكذّبه، فكان ذلك سبب إعراض أبي حيان عنه وذهابه مغاضباً إلى القاهرة. حيث أدركته الوفاة عام 745.

ومن أشهر السيبويهيين المغاربة في القرون المتأخرة:

أبو زيد المكودي، عبد الرحمن بن صالح، إمام النحاة في عصره، ومؤلف الشرح الشهير على ألفية ابن مالك. كان صاحب كرسي كتاب سيبويه في القرويين إلى أن توفي بفاس عام 807.

وأبو عبد الله البعقيلي، محمد بن إبراهيم، من قرية أيت الطالب في السوس الأقصى بجنوب المغرب، كان يستظهر كتاب سيبويه ويدرسه لنجباء طلبة البادية عقوداً عديدة السنين. وكانت وفاته عام 976.

وأبو العباس الدلائي، أحمد الحارثي بن محمد بن أبي بكر. تخصص من بين قومه العلماء في تدريس كتاب سيبويه بزاويتهم الدلائية في جبال الأطلس المتوسط بالمغرب، إلى أن توفي عام 1051.

وأبو عبد الله الدرعي، مَحمد أبن ناصر، عاش في قرية تامكروت بصحراء المغرب يدرس كتاب سيبويه وتسهيل ابن مالك. إلى أن لقي ربه عام 1085...

وبعد فإن كتاب سيبويه ظل محط عناية النحاة المغاربة والأندلسيين منذ حمله إليهم تلاميذ سيبويه فدرسوه وشرحوه واستدركوا عليه وانتقدوا بعض مسائله، ودافعوا من ينتقصه بغير حق. وما زالت كلية اللغة العربية بمراكش التابعة لجامعة القرويين حتى اليوم تضع كتاب سيبويه في طليعة المواد التي يدرسها طلبة الدراسات العليا بها.

التعليم في المغرب خلال العصر الحديث(*)

التعليم في المغرب خلال العصر الحديث هو من نوع التعليم في العصور السابقة ولو أن الصلات التي تربطه به غير متينة. ذلك أن الحركة العلمية النشيطة التي عرفها المغرب، بل الغرب الإسلامي كله على عهد الموحدين والمرينيين أتى عليها حين من الدهر فأصبحت كأنها لم تكن شيئاً مذكوراً[1] ثم أخذ التعليم ينبعث بفاس في مطلع القرن العاشر على يد قلة من العلماء المغاربة، جاؤوها من مكناس ودكالة، وآخرين أندلسيين مهاجرين فكان ذلك منطلق حركة علمية جديدة ستنمو وتنتشر وتستمر إلى أيامنا هذه.

وقد عرف التعليم في المغرب الأقصى خلال القرون الخمسة الأخيرة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بالعصر الحديث تطورات بارزة تبعاً للتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، يمكن إجمالها في خمس مراحل:

العصر السعدي الأول (915 ـ 1012 هـ / 1509 ـ 1603).

فيه نشأت دولة الشرفاء الزيدانيين الحسنيين المعروفين بالسعديين على يد

(*) نشر في «موسوعة التربية العربية الإسلامية» التي أصدرها المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية ـ مؤسسة آل البيت ـ عمان الأردن. سنة 1990 (3: 765 ـ 804).

(1) عرف المغرب أزمات سياسية حادة طوال القرن التاسع للهجرة (15 م) كان لها أسوأ الأثر على الحياة التعليمية بصفة خاصة، بسبب أنه تعاقب على العرش المغربي بعد مقتل أبي عنان المريني عام 759/ 1358 أربعة عشر ملكاً في وقت وجيز، لم يكن من بينهم من يطمئن على نفسه، أو يستطيع إعادة الطمأنينة إلى البلاد. وبعد مقتل آخرهم عبد الحق، حاول الأدارسة استرجاع ملكهم القديم ففشلوا، ثم استولى الوطاسيون ـ في غمرة الاضطرابات ـ على فاس دون أن تكون لهم القدرة على القضاء على الفتن بله توحيد البلاد. وسهّلت الفتن مهمة البرتغاليين في غزو الشواطىء المغربية، فاستولوا على معظمها، سواء تلك الواقعة على شواطىء البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي.

محمد بن عبد الرحمان (القائم بأمر الله) ونمت وترعرعت مع أبنائه وأحفاده إلى أن بلغت الأوج مع أحمد المنصور الذهبي، وفيه طرد البرتغاليون من معظم الثغور المحتلة، واستعاد المغرب وحدته ونشاطه وعمرانه، فعمرت مدن كانت مخربة أو مهجورة، ونفقت أسواق العلم فيها. وبذلك كان طابع التعليم في هذه الفترة حضرياً، ومركزه في المدن بالدرجة الأولى.

العصر السعدي الثاني (1012 ـ 1079 هـ / 1603 ـ 1669 م):

وفيه انقسم السعديون على أنفسهم بعد موت أحمد المنصور، وزاحمهم في الحكم شيوخ الزوايا في شبه إمارات طوائف، وطال أمد الفتنة عقوداً من السنين، عبثت فيها يد البطش والتخريب في الحواضر، حتى تعطلت صلاة الجمعة والجماعة في القرويين وغيره مراراً، وخلت المدارس من طلابها وعلمائها، حيث التجأ العلماء والطلبة إلى المراكز النائية الآمنة في الجبال والأودية، وبذلك أمسى للتعليم طابع بدوي، واحتلت زاويتا الدلاء وتامكروت في جبال الأطلس المتوسط ووادي درعة مكان الصدارة.

العصر العلوي الأول (1080 ـ 1245 هـ / 1870 ـ 1830 م):

وفيه استعادت السلطة المركزية قوتها وهيبتها، واسترجعت البلاد وحدتها وطمأنينتها، وعادت الأمور إلى نصابها في مختلف الميادين، وحظي التعليم عامة، وجامع القرويين خاصة، بعناية فائقة من مؤسس الدولة الجديدة الرشيد بن الشريف ومن تلاه من الملوك وهي الحظوة التقليدية التي استمرّ جامع القرويين ينالها حتى العهد الحاضر. .

العصر العلوي الثاني (1245 ـ 1329 هـ / 1830 ـ 1911 م):

وفيه احتك المغرب احتكاكاً مباشراً وقسرياً بالحضارة الأوروبية التي طالما حذرها، وأغمض عينيه عنها، وذلك عندما احتل الفرنسيون المغرب الأوسط، وأخذوا يناوشون المغرب الأقصى سياسياً لأسباب يختلقونها، ويهددون حدوده الشرقية عسكرياً، إلى أن فرضوا عليه معركة إسلى (1260 هـ / 1844 م) التي انكشفت فيها حقيقة التفوق العلمي والتقني

الأوروبي، وتأكد ذلك في معركة تطوان ضد الإسبان (1276 هـ / 1860 م). الأمر الذي حمل الملوك العلويين: عبد الرحمن بن هشام، ومحمد الرابع، والحسن الأول، على القيام بمساع جدية لتحديث التعليم بالمغرب على غرار ما هو قائم عند الأوروبيين، فأنشأوا المدارس، واستحضروا المدرسين والمدربين، وأرسلوا البعثات التعليمية إلى أوروبا كما سنرى.

عهد الحماية (1330 ـ 1375 هـ / 1912 ـ 1956 م):

نصت معاهدة الحماية على أن تظل جميع السلطات بيد الحكومة المغربية المسماة «المخزن»، ومنها شؤون التعليم والأوقاف، وأن يقتصر دور رجال الحماية على مساعدة المخزن على حفظ الأمن واقتراح الإصلاحات العصرية الضرورية، لكن المحتلين ما لبثوا أن ضربوا بالمعاهدة عرض الحائط، واستبدلوا بالحماية الحكم المباشر والاستعمار المكشوف، وبذلك أصبحت مقاليد التعليم بأيديهم، فجمدوا القرويين وضايقوا التعليم الأصيل عموماً، بما في ذلك الكتاتيب القرآنية، وفتحوا مدارس فرنسية قليلة، وشجعوا الإرساليات التبشيرية الفرنسيسكانية وغيرها، لا سيما في الأرياف، وكان رد الفعل الوطني فيما عرف بحركة التعليم الإسلامي الحر التي أحيت التعليم الأصيل وبخاصة القرويين ودفعت الفرنسيين إلى إعادة النظر في تعليمهم الرسمي وإصلاحه، ولات حين إصلاح.

وسنفصل القول قليلاً في شؤون التعليم بالمغرب على عهد الشرفاء السعديين والعلويين من خلال أربعة محاور هي:

- مميزات التعليم وخصائصه.
- نظريات في التربية والتعليم لمؤلفي هذا العصر.
- المادة التعليمية وطرق التدريس.
- المراكز التعليمية الكبرى.

1 ـ مميزات التعليم وخصائصه:

كان التعليم بالمغرب في عصر السعديين والعلويين، على العموم، تعليماً

تقليدياً لا يكاد يختلف كثيراً عن التعليم السائد في البلاد الإسلامية، ولا عن التعليم في العصور السابقة. فهو يرتكز أساساً على القرآن الكريم حفظاً ورسماً منذ الصغر، ثم على العلوم المتفرعة عنه لغة وأدباً وعقيدة وعبادات ومعاملات، إضافة إلى العلوم العقلية من رياضيات وفلك ومنطق وما إلى ذلك.

على أن للتعليم بالمغرب ـ في هذا العصر ـ خصائص تميزه عن العصور السابقة والأقطار الأخرى؛ أهمها:

أ ـ أن التعليم المغربي، بحكم التطورات السياسية في منطقة الغرب الإسلامي، أصبح في شبه عزلة، مفصولاً عن روافده الطبيعية القديمة. ذلك أن الأندلس التي امتزج المغرب بها سياسياً وثقافياً منذ الفتح الإسلامي، سُدّ بابها بعد سقوط غرناطة ونهاية دولة الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية، وأقطار المغرب الأوسط والأدنى التي ظلت تكوّن مع المغرب طوال العهد الإسلامي بلداً واحداً ـ سياسياً في معظم العصور، وثقافياً في كل العصور ـ لا تفصلها عن بعضها حواجز ولا حدود، أصبحت هي الأخرى في مطلع القرن الهجري العاشر (16 م)، مقفلة موصدة بسبب وجود الأتراك فيها، وأطماعهم التي لم تقف عند تخوم تلمسان إلا بمعارك طاحنة خاضها كل من السعديين والعلويين. وازدادت كثافة الحدود الشرقية بعد أن احتل الفرنسيون الجزائر (1245 هـ / 1830 م) ثم تونس، وحلوا فيهما محل الأتراك. وهكذا ضُرب الحصار بإحكام على المغرب الأقصى شمالاً وشرقاً بحيث لم يبقَ له متنفس إلا من ناحيتي الجنوب والغرب، الأمر الذي يفسر أو يبرر سياسة المغرب الإفريقية في منطقة ما وراء الصحراء من بلاد السودان، والأوروبية البحرية عبر موانئه على المحيط الأطلسي.

ب ـ أنه على الرغم من هذه العزلة المفروضة، عرف المغرب وفادات علمية متقطعة طوال العصر الحديث، وبخاصة في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (16 و17 م)، إذ دخل إليه علماء من الأندلس، والجزائر، وتونس، بل ومن مصر والشام، والحجاز، إضافة إلى من دخله من السودان ومن مختلف الأقطار الأوروبية.

وقد ظل الأندلسيون، منذ سقوط غرناطة، يهاجرون إلى بلاد الإسلام في العدوة الجنوبية، وبخاصة المغرب الأقصى الأقرب إليهم، حتى قرر الملك الكاثوليكي فيليب الثالث طرد آخر المورسكيين من شبه جزيرة إيبيريا عام 1018 هـ / 1609 م فخرج منهم آلاف وآلاف ـ على حد تعبير أحمد المقري ـ وانتشروا في أرجاء المغرب، وعمروا مدن تطوان والرباط وقصبته الموحدية.

ولما تدخل الأتراك في شمالي إفريقيا في مطلع القرن العاشر هـ (16 م)، وبسطوا نفوذهم على الجزائر وتونس، مضيقين الخناق على كل من يعارض سياستهم المتصلبة وبخاصة العلماء، دخل جماعة من هؤلاء إلى المغرب، من تلمسان، ووهران والجزائر العاصمة، وقسنطينة، وعنابة، وتونس، واستقر معظمهم في فاس، وسكن بعضهم مراكز علمية أخرى في تطوان ومكناس ومراكش، وقطع بعضهم جبال الأطلس فذهب إلى المحمدية بالسوس الأقصى أو تَاكْمَدَّارْت بدرعة. وقد لقي هؤلاء وأولئك جميعاً من رحابة صدر إخوانهم المغاربة وكرم عشرتهم، وعناية الملوك الشرفاء بهم وسخي عطاياهم، ما سلاهم عن الاغتراب، ودفع بهم إلى الانكباب على التدريس والتأليف.

ج ـ أن النهضة التعليمية التي واكبت التطورات السياسية السعيدة في المغرب المحرر الموحد على يد دولة الشرفاء الناشئة، اتصلت حلقاتها أجيالاً متعاقبة، وصهرت في بوتقتها العناصر العلمية الوطنية والوافدة مكونة مدارس محلية متميزة في مختلف ميادين المعرفة، ظلت قائمة إلى يومنا هذا، منها:

1 ـ مدرسة القراءات:

قامت على يد تلاميذ محمد بن غازي (ت 919 هـ / 1513 م)[1] صاحب الأرجوزة الشهيرة في قراءة نافع، وإنشاد الشريد من ضوالّ القصيد في القراءات، ومحمد الهبطي السماتي (ت 930 هـ / 1524 م)[2] مؤلف كتاب

(1) ترجمته في الحركة الفكرية بالمغرب: 346:2، ومصادر ترجمته في الهامش 6.
(2) المرجع نفسه: 347:2، والهامش 11.

وقف القرآن الذي ما يزال معتمداً عليه في المصاحف المخطوطة والمطبوعة والقراءات الجماعية في المساجد، من عهد المؤلف حتى اليوم، ومحمد بن علي العدّي الأندلسي (ت 975 هـ / 1556 م)[1] الذي خرج من مسقط رأسه غرناطة المحتلة والتحق بفاس طالباً ثم أستاذاً «وكان مضرب المثل في حفظ القراءات السبع والمنظومات المتعلقة بعلوم القرآن، مع الضبط والإتقان وجودة الخط، وجوّد عليه القرآن من الطلبة عدد لا يحصى»[2].

وهكذا امتزجت في مدرسة القراءات الجديدة خصائص القراءات عند المغاربة والأندلسيين، ولو أن قراءتهم جميعاً هي قراءة نافع بن عبد الرحمن المدني بروايتي ورش وقالون، لكن طرقهم المتعددة ترجع إلى عدد كثير من تلاميذهما. وانتقلت هذه المدرسة رواية ودراية وتأليفاً بين القراء جيلاً بعد جيل دون انقطاع[3].

2 ـ مدرسة الحديث:

تبتدىء بعبد الرحمن سقين السفياني (ت 956 هـ / 1549 م)[4]، الذي كانت له رحلة طويلة إلى الشرق في بداية القرن، تخصص فيها في الحديث وتوسع فيه سنداً ومتناً وضبطاً، ثم رجع إلى فاس بعلم غزير ورواية واسعة لم تتأتّ لغيره من أهل عصره. فأقام يدرس بجامع الأندلس بفاس لا يكاد يفارقه حتى بعد انتهاء دروسه اليومية العديدة في انتظار مستفيد أو آخذ برواية الحديث.

وتخرج على يد سقين محدثون كثيرون، كان من تلاميذهم الشيوخ

(1) المرجع نفسه: 353:2 ـ 354، والهامش 30.
(2) أحمد المنجور، فهرس: 67.
(3) فصل سعيد أعراب التطواني في كتابه المدرسة القرآنية القول في علم القراءات بالمغرب وجعله مدارس متسلسلة من الفتح الإسلامي إلى عصر السعديين والعلويين. وما زال الكتاب مخطوطاً، إلا أن كثيراً من فصوله نشرت بجريدة «الميثاق» لسان حال رابطة علماء المغرب.
(4) ترجمته في الحركة الفكرية بالمغرب، 349:2، ومصادر الترجمة في الهامش 17.

المعروفون في كتب التراجم بحفاظ المغرب الثلاثة: عبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي[1]، ومحمد بن أبي بكر الدلائي[2]، وأحمد المقري التلمساني الفاسي[3]، وظلت السلسلة متصلة إلى المحدثين المعاصرين المشهورين أمثال الشيخ أبي شعيب الدكالي، والمدني بن الحسني الرباطي، وعبد الله كنون الطنجي.

3 ـ مدرسة الفقه:

يعتبر الفقه أهم مادة شغف بها المغاربة والأندلسيون منذ عصر الإمام مالك بن أنس، وألفوا فيه من الكتب ـ انطلاقاً من مدونة سحنون ـ ما لا يكاد يدخل في نطاق حصر. وامتازت المدرسة الفقهية في العصر الحديث بما عرف بالعمل الفاسي ثم بالعمل المطلق.

والعمل عند الفقهاء يعني العدول عن القول المشهور أو الراجح في بعض المسائل المذهبية إلى القول الضعيف فيها، مراعاة لمصلحة الأمة وما تقتضي حالتها الاجتماعية، استناداً إلى قول عمر بن عبد العزيز «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور».

وأول ما بدأ العمل بالأندلس في القرن الرابع الهجري (10 م)، وانتقل إلى المغرب بسبب الامتزاج السياسي والثقافي بين العدوتين منذ عهد المرابطين إلا أنه ظل ـ مع ذلك ـ محدوداً جداً، بحيث لم يتجاوز عدد المسائل التي جرى العمل بها في فاس حتى القرن التاسع الهجري ثماني عشرة مسألة[4].

وكثرت اجتهادات فقهاء فاس مع انبعاث الفقه في عهد الشرفاء، وتكون مع تعاقب الأجيال ما عرف بالعمل الفاسي، فجمع عبد الرحمن بن عبد القادر

---

(1) الحركة الفكرية: 522:2، والهامش 8.
(2) المرجع نفسه: 511:2، والهامش 11.
(3) المرجع نفسه: 367:2، والهامش 63.
(4) ذكر هذا الإمام علي بن قاسم الزقاق التجيبي الفاسي (ت 912 هـ / 1506 م) في لاميته الفقهية المشهورة بلامية الزقاق، طبعت مراراً، مجردة ومع شروحها، على الحجر بفاس، وعلى الحروف.

الفاسي (ت 1096 هـ / 1685 م)[1] قضاياه الكثيرة في كتابه الشهير بالعمل الفاسي[2] ثم تكاثرت اجتهادات الفقهاء خارج فاس، فألّف فيها محمد بن أبي القاسم السجلماسي الرباطي (ت 1214 هـ / 1799 م)[3] كتابه العمل المطلق[4]، وقد أصبح «العمل» السمة البارزة التي تميز المدرسة الفقهية الجديدة، لا من الناحية النظرية التعليمية وحسب، ولكن أيضاً في ميدان التطبيق والحياة العملية، إذ صار القضاة مطالبين، في ظهائر تعيينهم، بالحكم بما جرى به العمل، إلى جانب المشهور والراجح من مذهب مالك.

4 ـ مدرسة الأدب:

اصطبغت المدرسة الأدبية الجديدة في المغرب بصبغتين بارزتين:

أولاهما: الحفاظ على الأسلوب العربي الأصيل لغة وتركيباً وطريقة، في حين زاحمت لغة الأتراك الحاكمين لغة الضاد في سائر البلاد العربية، حيث طغت العجمة على ألسنة الكتاب وأقلامهم.

والثانية: غلبة الطابع الأندلسي على أدبيات هذه المدرسة شعراً ونثراً. فالصلات الأدبية المغربية الأندلسية مع أنها قديمة، إلا أنها امتزجت في العصر الحديث امتزاجاً كاملاً وإلى الأبد، بعد أن غدا المغرب دار مقام للمهاجرين بدلاً من الفردوس المفقود.

وقد انتشر الأدب العربي الرفيع في البوادي انتشاره في الحواضر، وبخاصة في المناطق الجبلية التي اشتهر سكانها عادة بالعجمة، كالدلاء، وأيت عياش في الأطلس المتوسط، وسوس ودرعة فيما وراء الأطلس. والعجيب أن معظم أدباء هذه المناطق، تكوّنوا في مساقط رؤوسهم، ولم يرحلوا إلى الحواضر العلمية إلا بعد أن استد ساعدهم، أو استدعوا للعمل في البلاط أو

(1) ترجمته عند محمد الأخضر، الحياة الأدبية بالمغرب: 114، ومصادرها في الهامش 1.

(2) طبع مراراً على الحجر بفاس، وعلى الحروف بالمغرب ومصر.

(3) محمد بو جندار، الاغتباط بتراجم أعيان الرباط: 138:1.

(4) طبع بشرح الناظم في مصر.

غيره من أجهزة الدولة، ومعظمهم مكثرون طويلو النفس في الشعر والكتابة.

5 ـ مدرسة التاريخ والتراجم والرحلات:

تبتدىء هذه المدرسة بأربع شخصيات بارزة عاشت أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الهجري (16 ـ 17 م).. اثنان مغربيان صميمان، هما علي بن محمد التامكروتي، وأحمد بن القاضي المكناسي، وسوداني مهاجر إلى مراكش هو أحمد باب التنبكتي، وتلمساني مهاجر إلى فاس هو أحمد المقري. وقد خلفوا مؤلفات كثيرة في التاريخ والتراجم والرحلات[1] واستمرت هذه السلاسل متواصلة حتى أيامنا هذه، ومن أشهرها سلسلة كتب التراجم التي ذيّل بها ابن القاضي ما كتبه ابن قنفذ وابن خلكان، وكتب محمد بن الطيب القادري المذيلة لمؤلفات ابن القاضي، ثم كتب عبد السلام ابن سودة المكملة لمؤلفات القادري حتى عام 1400 هـ / 1981 م.

6 ـ مدرسة الرياضيات والفلك والطب والموسيقى:

انبعثت هذه العلوم ـ أول ما انبعثت ـ في العصر الحديث بمدينة مراكش، مدينة ابن البناء وابن الياسمين وغيرهما من الرياضيين والفلكيين، ولعل ذلك آتٍ من طبيعة أحمد المنصور الذهبي الذي كان رياضياً موهوباً حريصاً على أن يضم إلى حاضرته أعلام المعقولات. وتحدثنا كتب التاريخ أنه كان يعقد على الدوام مجلساً في قصره لدراسة أمهات المؤلفات الرياضية العربية والإغريقية، يحضره شيوخ هذا الفن. وتزاحم طلبة مراكش على مجالس الرياضيين والفلكيين، وانتشرت هذه العلوم في حواضر المغرب وبواديه، وهي متداولة بينهم حتى الآن.

وتكونت في مراكش أيضاً، بعد تجديد المارستان الموحدي العظيم، مجموعة وافرة من الأطباء والصيادلة، على يد شيوخ هذا الفن من مغاربة

---

(1) منها النفحة المسكية في السفارة التركية، للتامكروتي، وجذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس، لابن القاضي، ونيل الابتهاج، لأحمد بابا، وروضة الآس فيمن لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، للمقري.

وأندلسيين، حتى كان لهم نقيب، هو أبو القاسم الوزير الغساني، لا يُسمح لأحد بمزاولة عملية التطبيب إلا بعد أن يختبره ويجيزه. وألف الغساني، كغيره من معاصريه، كتباً كثيرة في الطب والأعشاب، وتلتها مؤلفات أساتذة الطب والنبات، خاصة في فاس، دون انقطاع حتى العصر الحاضر[1].

كما تكونت في مراكش أيضاً مجموعة موسيقية مغربية ـ أندلسية، بتشجيع من أحمد المنصور، المشهور بحفلاته الرائعة في قصر البديع، خاصة بمناسبة المولد النبوي. وبرز آنذاك الموسيقي الفاسي مخترع نوبة الاستهلال[2] الذي لم تحفظ كتب التاريخ غير اسمه، وهو علال البطلة، كما ابتدع غيره ميزان الدرج، وبذلك أخذت الموسيقى المغربية ـ الأندلسية طابعها النهائي، باستثناء ما حدث في العصر العلوي الثاني، من إعادة ترتيب صنائع ميزان كل نوبة، فنقح وهذب باقتراح الوزير محمد بن العربي الجامعي، ووضع على أساسه مختصر مجموعة الحايك، وهو ممارس يدرس حتى اليوم[3].

2 ـ نظريات في التربية والتعليم لمؤلفي هذا العصر:

تعددت كتب التربية والتعليم المؤلفة في القرون الأخيرة، ويتحدث بعض

(1) معظم مؤلفات أطباء هذا العصر ما تزال مخطوطة محفوظة. وطبع من كتب الغساني أخيراً ببيروت سنة 1980 م: حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار. بتحقيق محمد العربي الخطابي. وترجمة الغساني (ت 1019 هـ / 1610 م) وردت في الحركة الفكرية بالمغرب: 381:2، والهامش 20.

(2) نوبات الآلة الباقية حتى الآن 11: وهي: رمل الماية، الأصبهان، الماية، رصد الذيل، الرصد، غريبة الحسين، الحجاز الكبير، الحجاز المشرقي، عراق العجم، العشاق، إضافة إلى الاستهلال.

(3) الحائك اسم موسيقي من أهل تطوان، ومخطوطات مجموعة الحائك مختلفة متفرقة في خزائن المغرب. وقد طبع مختصر الحائك بالدار البيضاء سنة 1984 م في طبعة أنيقة. وذكر إبراهيم التادلي الرباطي (ت 1311 هـ / 1894 م) في كتابه أغاني السيقا ومغاني الموسيقى (مخطوط خاص) شيوخه الذين أخذ عنهم الموسيقى الأندلسية بفاس، وهم خمسة. ويعرف من شيوخ الموسيقى المتأخرين بفاس غير الذين ذكرهم التادلي: محمد النيراري (ت 1329 هـ / 1911 م) الذي كان يدرس أصول قواعد الموسيقى بظهر صومعة القرويين. محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، 1: 141 ـ 143.

هذه الكتب عن تربية الأطفال وتعليمهم من وجهة تكاليف الأسرة وأحقية الأزواج في ذلك وعلاقاتهم بالمعلمين[1]، وبعضها الآخر يتحدث عن طبيعة المادة التعليمية وطرق التلقين والتحصيل. وسنقتصر على ذكر أربعة من هذا الصنف الآخير:

أ ـ الأقنوم في مبادىء العلوم، لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت 1096 هـ / 1685 م). وهو موسوعة علمية، منظومة من بحر الرجز في عدة آلاف من الأبيات[2]. تعرض فيه المؤلف لجميع العلوم المعروفة في عصره على التفصيل لا على الإجمال، وهي عدة مئات[3]. وقد ابتدأ بالعلوم الشرعية من عقائد وتفسير وحديث وأصول الفقه والفرائض، وبعدها النحو والتصريف والخط والبلاغة، ثم التشريح والطب، فالتصوف، فالقراءات... فالحساب... ثم التعليم والتربية.

وعقد صاحب الأقنوم فصلاً لآداب القراءة وطرق التربية والتعليم، بدأه بآداب تعليم الصغار القرآن في الكتّاب، وما يجب على المعلم من العدل والتسوية بين المتعلمين في الكتابة، والمحو (محو اللوح) والعرض (قراءة المتعلم ما كتب في اللوح دون النظر إليه أمام المعلم). وشرح بعد ذلك طريقة

(1) من ذلك كتاب: مقنع المحتاج في آداب الأزواج، ومختصره: آداب الأزواج وتربية الولدان، وكلاهما لأحمد بن عرضون الزجلي الشفشاوني (ت 992 هـ / 1584 م) وقد طبع المختصر على الحجر بفاس عام (1319 هـ / 1901 م).

(2) يقع الأقنوم في جزأين، ويبدو أن الناظم مات قبل إتمامه، لأن النسخة الوحيدة المعروفة منه (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 15 ك) ناقصة في الأخير، وفيها بياض كثير في عدد من الفصول خاصة في الجزء الثاني.

(3) ففي اللغة مثلاً يعقد فصولاً لأصول اللغة وقواعدها، فضلاً عن النحو: أصوله وفروعه، والتصريف، والجمل كذلك. وفي الرياضيات: الحساب، والعدد، والجبر، والمقابلة، والتكسير، والارتماطيقي، والهندسة، والمجيسطي، والجوميطريقي.. ولا يكتفي بتعريف العلم، بل يذكر أهم مبادئه وقواعده. وتختلف أبواب الأقنوم وفصوله طولاً وقصراً، حيث يطول بعضها فيصل إلى مائة بيت أو مئات، ولا يتجاوز بعضها بضعة أبيات. وأكثر ما يطيل في العلوم العقلية، الرياضية والفلكية والفلسفية بفروعها حتى السحر والخط والرمل والكف والأوفاق...

التعليم في هذه المرحلة، ف
الجمل على التلاميذ بالتناو
عليه، فإذا أخطأ كرر المعلم
التحريف (لعله يقصد تخطي
تصحيح المعلم بيده ما أملاه
ألا يشتغل عن المتعلمين حتى.

وعن تربية المتعلمين و
صرفهم عن قرناء السوء، والتع
على الحياء، والشجاعة، والسم
والشح... وبسط القول في
والمتساهلين في ذلك، ميالاً
عشر ضربات أو عشرين، تحـ
بالسوط اللين العريض الرطب
لا ضمان على المعلم فيما يع
إلى ضرورة اعتبار أصناف ا
الصغار، والتفريق بين الذكو
البنات في مدينة فاس كن يتع

وتحدث بعد ذلك عر
باستثناء يوم الخميس وصباح
بعد محو الألواح، وللغذاء ب
في عيد الفطر، وخمسة أيام

وعقد بعد ذلك فصلاً
مع شيخه ورفاقه، وفي أ
للدرس والاستذكار.

---

(1) عندما يحذق طفل جزءاً مع

بذاته كسائر العلوم، وعرفه

ـؤدى لمـدارك الفهـوم
جحة دون تقيد بالشكل، إذا
ْن الشرط الأساسي في الما رس
ـرسها، جيّد الفهم فيها، ، عن
معنى وما ينبني عليه، و مد ذلك
عنها، ليتمرن ذهن ا طالب على

هـ / 1690 م)، وهو كتاب
م، ويعد من أحسن ما كتب
: العلم والعقل، وأقسامهما،
الثلاثة: الإحساس، والخبرة
ـات النفس الثلاث الداخلة في

في الذهن فقط: الهندسة،

المادي، وهو المحسوس:
ـنجوم، وسحر، وطلمسات،
باعتباره معياراً للعلوم كلها.

٨، والمواريث، والتصوف.
التوقيت.

* وسيلة الوسيلة: القراءات، والرسم، والعربية، والمنطق.

وبعد أن بيّن أن هذه العلوم كلها إسلامية، ولو أن بعضها كالحساب والمنطق من علم الأوائل، باعتبار أنها تُتعاطى في ملة الإسلام أو ينتفع بها في دين الإسلام مباشرة أو بواسطة، أتى بفروع العلوم الإسلامية الكثيرة، وذكر أن الشرعية منها هي المقصودة لذاتها وما قرب منها، وميز منها ستة، ومن العلوم المستعان بها ثمانية لأهميتها البالغة، وفصّل القول في هذه العلوم الأربعة عشر تفصيلاً[1].

وخصص الباب الثاني لأحكام العالِم، بادئاً بآدابه في نفسه، ثم بآدابه في التدريس، والإفتاء، والتصنيف.

وفيما يتعلق بالمدرس، أتى بجملة من المبادىء التربوية الأساسية، التي أكدت جدواها - بل ضرورتها - القوانين البيداغوجية الحديثة، منها: حسن المظهر، وأن يسوي بين المتعلمين في الانتفاع منه، وزأن يرفع صوته بقدر الإسماع دون زيادة ولا نقص ولا عجلة ولا إبطاء، مراعياً حال المبتدئين والمنتهين، وأن ينصف ولا يتعصب لرأيه، وأن يقول لا أدري فيما لا يدري، وأن يتأكد قبل تعاطيه التدريس إتقان صنعة التدريس...

وذكر من طرق التدريس طريقتين:

- الانتقال من الجزئي إلى الكلي، وبيّن أنها أنسب للمبتدئين.

- والجمع بين الجزئي والكلي، وخلط ذلك كله «وضربه ضربة» بالنسبة للمنتهين، محذراً على أي حال من القفز على البحث دون تمهيد ولا شرح، ملحاً على ضرورة الترتيب، بحيث يكون كلام المدرس لو سطّر لكان تصنيفاً حسن الرصف مقبولاً... وحاضّاً على التنزل مع المبتدئين إلى عبارات يفهمونها ولو لم تكن بليغة.

---

(1) خصص الفصل الحادي عشر للرد على تقسيم ابن جزي في كتابه القوانين الفقهية العلوم إلى ثلاثة: شرعية، وآلات شرعية، وأخرى ليست شرعية ولا آلات لها، وبرهن على عدم انضباط هذا التقسيم بالقياس إلى تقسيمه هو.

وشرح في الفصل الأخير طريقته المفضلة في التدريس، المتمثلة في أن «حدّ الإقراء تصحيح المتن وحل المشكل، والزيادة على هذا ضررها بالمتعلم أكثر من نفعها» مبيناً أنه يدخل في ذلك التنبيه على النقص والحشو، وتوجيه ما يحتاج إلى التوجيه والتحقيق، تاركاً للباقة المدرس أن يعامل كلاً بما يليق به، وقال بأن المدرس إذا لم يكن طبيباً كان ما يفسده أكثر مما يصلحه.

وتحدث في الباب الثالث عن أحكام المتعلم، وآدابه في نفسه من قناعة، وقطع عوائق العلم ـ وعدّ منها ستة ـ وأن يشتغل في كل وقت بما يناسبه، فأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل، وتناول آدابه مع شيخه، من التعظيم، والانقياد، والطاعة، والشكر، والصبر على الجفوة، والتأدب في الجلوس بين يديه، والمناولة، والمماشاة.

وعقد في هذا الباب فصلاً فيما يبدأ به في التعلم، وهو حفظ القرآن، ثم الحديث، لكنه ذكر أن ذلك غير متيسر في زمنه، فاختار أن يبدأ المتعلم بكتاب الله دون تغلغل في علومه، ثم القواعد اللغوية والعقلية حتى التضلع، ثم العلوم الشرعية أصلاً وفرعاً، وإنما قدم العلوم اللغوية والعقلية على الشرعية، لأن هذه لا تدرك إدراكاً سليماً إلا بتلك، وختم بالكلام على الرحلة في طلب العلم وفوائدها، والحرص على التعلم في الصغر، والمثابرة في طلب العلم، وكتابته وتخليده في المصحف.

جـ ـ **الابتهاج بنور السراج**[1]، لأحمد بن المأمون البلغيثي (ت 1348 هـ / 1929 م) شرح به أرجوزة سراج طلاب العلوم للعربي بن عبد الله المساري (ت حوالي 1240 هـ / 1824 م).

خاطب القاضي المساري بأرجوزته هذه ابنه اليافع الذي كان يتأهب للذهاب إلى القرويين، بعد أن حفظ القرآن الكريم والمتون الصغيرة في قريته الجبلية بني مسارة، شمال فاس، راسماً له معالم طرق التعلّم التي عليه أن

(1) طبع بالقاهرة عام 1319 هـ في مجلد ضخم.

يسلكها، حتى لا يفاجأ في الحاضرة الإدريسية بما لا عهد له به من قبل، فيتيه ويضلّ السبيل. ويغلب على هذا الكتاب، إضافة إلى الطابع الأدبي، طابع التجربة والخبرة الشخصية، فكل من الناظم والشارح عاشا في القرويين يطلبان العلم سنين عديدة، الأول كطالب قروي ساكن في إحدى المدارس، والثاني كطالب فاسي مقيم في منزله بين أهله.

وأول ما أمر به المساري ابنه الطالب أن يحفظ ويستقصي في الحفظ:

واعـن بحفـظ الأمهـات جملـةْ ولتهجـر المنـام واصـرم حبلـةْ

ثم بين له العلوم التي يجب عليه أن يدرسها ورتبها له ترتيباً: التوحيد ثم العبادات والمعاملات ـ حاضاً على مختصر خليل ـ بكيفية خاصة ثم النحو. . والبيان. . والأصول، والمنطق، والحديث، والتفسير، والتصوف، وذلك في المرحلة الأولى التي لا غني عنها، وتليها مرحلة المشاركة في سائر العلوم:

«وكـن مشـاركـاً بكـل علـم من غير ما ذكرت يا ذا الفهم»

وهي اللغة، والعروض، والقوافي، والحساب، والتجويد، والرسم والوضع، والجدل، وآداب المحادثة، والأمثال، والفلك، والميقات، والهندسة والتشريح، والطب، والتاريخ، وفن الحرف (الجدول) والسياسة، والفراسة وقد أثار الناظم ملاحظة تربوية مهمة حين نبه ابنه إلى أن علوم المشاركة تؤخذ كلها أو بعضها بحسب ذوق المتعلم وطاقته، وأنه لا فائدة في التكلف إذا لم يسعف استعداد طبعي وقابلية فطرية، كالشعر الذي لا يجدي فيه مجرد اتقان العروض والقوافي:

«والشعر لا تدنيه خزرجيّه[1] منـك ولكنّـه بـالسجيّـةْ»

وفي الكتاب أبواب كثيرة أخرى تتعلق بحياة الطالب في المدرسة والجامع، مع رفاقه وأساتذته، أيام العمل وأيام الاستراحة، ومنها باب خاص بالنساخة واستعمال الكتب وإعارتها. إذ من المعروف أن الطلبة المغاربة ظلوا

(1) الخزرجية: مقصورة شهيرة في العروض والقوافي لمحمد الخزرجي الأندلسي ت 610 هـ.

يعتمدون على الكتب المنسوخة باليد حتى أواخر القرن الثالث عشر الهجري (19 م). لتأخر دخول الطباعة إلى المغرب. فالناظم المساري يأمر ولده الطالب بأن يعنى بالنساخة عناية خاصة:

وجـــوِّد المــــداد إن نسخـــتَ وحسّن الحروف ما استطعتَ

ويذكر له آداب تناول الكتاب ووضعه، وتقليب أوراقه، والعناية به، وقواعد إعارته. . .

د ـ **نصائح وإرشادات في التربية والتعليم**[1] لمفتشي التعليم العربي بالمدارس الابتدائية الإسلامية (الفرنسية) عبد المالك السليماني، ومحيي الدين المشرفي، والعربي المسعودي.

يختلف هذا الكتاب اختلافاً جوهرياً عن الكتب السابقة، إذ لا يرجع إطلاقاً إلى آراء المربين المسلمين القدامى ولا المحدثين، ولا يناقش مفهوم المواد الدراسية، ولا ما يستحق التقديم أو التأخير منها، بسبب أن المؤلفين ينطلقون من برنامج مقرر لا يمكن الزيغ عنه بحال، ويخاطبون معلمين بسطاء مكلفين بتلقين مبادىء القراءة والكتابة لأطفال صغار لا تتجاوز أعمارهم اثنتي عشرة سنة.

يهتم الكتاب ـ أول ما يهتم ـ بكيفية اتصال المعلم برؤسائه من مدير (فرنسي في الغالب) ومفتش عربي، ومفتش جهوري (فرنسي)، في إدارة مركزية فرنسية، ويقدم إرشادات عملية تتعلق بتسجيل أسماء التلاميذ، وحفظ النظام في القسم، وكيفية تحضير الدروس وإلقائهامع نماذج لاستعمال الزمن. . . ثم يأتي على المواد الدراسية وتقسيطها على السنوات حسب البرنامج المقرر، وطرق تدريسها مع تقديم نماذج لإعداد الدروس كذلك، وهذا الكتيب أقوى برهان على مدى الهزال الذي أصاب التعليم العربي بالمدارس العصرية التي استحدثها الفرنسيون في عهد الحماية، لا سيما أنه الكتاب التربوي الوحيد الذي ألف في

(1) طبع هذا الكتاب أولاً في أواسط عهد الحماية بتقديم مدير المعارف العمومية الفرنسية ر. طابو، ثم أعيد طبعه عام 1371 هـ / 1952 م.

ذلك العهد البغيض، بحيث لا تشملُ قائمة الكتب التي ينصح مؤلفوه المدرسين بالرجوع إليها (ص 114) كتاباً مغربياً واحداً.

3 ـ المادة التعليمية وطرق التدريس:

ظلت المادة التعليمية بالمغرب في العصر الحديث هي مادة العصر الوسيط نفسها، بحيث تعتمد أساساً على الحفظ، فيبدأ الأطفال في سن مبكرة بحفظ الحروف الهجائية، قبل التعرف إلى أشكالها في الألواح، ثم يحفظون فاتحة الكتاب فسورة الناس، فالفلق، فالإخلاص، ولا يزالون يوالون حفظ سور القرآن من أواخر سوره إلى أوائلها، حتى يحفظوه كله عن ظهر قلب، وتتكرر الختمات إلى عشر أو أكثر، يحفظ المؤهلون من الأطفال أثناءها: الروايات المختلفة في قراءة نافع وغيرها، ومجموعة من النصوص القصيرة المنظومة والمنثورة المسماة «الكراريس»[1] وتتعلق برسم القرآن وتجويده وقراءاته، ومبادىء العقيدة والعبادات وقواعد اللغة العربية.

ثم لا ينقطع الحفظ في مرحلة التعليم المتوسطة، حيث يكون على المراهق أن يحفظ «الأمهات» مثل ألفية ابن مالك، ولاميته في النحو والصرف، ومختصر خليل في الفقه... بالإضافة إلى حفظ «الشواهد»، وهي الأبيات والفقرات التي يمثل بها في كتب اللغة والنحو والصرف والبلاغة وغيرها، حيث كان على الطالب أن ينقش في ذاكرته عن كل مسألة تعلمها نصاً وشاهداً يؤيّدانها، حتى لا يتعرض لسخط شيخه وسخرية رفاقه، إذ «من لا يحفظ النص، فهو لص».

ويستمر الحفظ في المرحلة النهائية من الدراسة، فنجد بعضهم يحفظ تسهيل ابن مالك، وديوان المتنبي، وتوضيح خليل، بل نجد من المدرسين من يستظهر صحيحي البخاري ومسلم، وموطأ مالك، ومدونة سحنون، وغيرها من المؤلفات الطوال.

والمواد الدراسية في العصر السعدي ـ العلوي مفصلة ـ بكثير من الدقة ـ

---

(1) محمد العربي الفاسي، مرآة المحاسن: 148 ـ 160.

في المجموعة الصخمة من الفهارس[1] (معاجم الشيوخ) والإجازات، التي سجل فيها علماء الحواضر والبوادي مقروءاتهم ومروياتهم وأسانيدهم، وهي ـ على العموم ـ لا تخرج عن نطاق العلوم المتعارف عليها في العصور السابقة، على نحو ما رأيناه مفصلاً في الأقنوم والقانون والابتهاج، إلا ما كان من إحياء بعض الكتب الأصيلة التي طال عهد المغرب بها، ككتاب سيبويه، وكشاف الزمخشري، وكتب إقليدس، وابن سينا، وابن الياسمين وغيرهم، في الرياضيات والطب والموسيقى، وما كان من محاولات جدية في تطوير التعليم وتحديثه، على يد محمد الرابع وابنه الحسن الأول، وما حدث من تطور في مؤسسات التعليم بالمغرب في عهد الحماية كما سنرى.

ولم تكن هناك قبل عهد الحماية، من الناحية العملية التطبيقية، أسبقيات ولا مقاييس مضبوطة صارمة لتوزيع المادة التعليمة على مراحل، وإنما كان الطلبة أحراراً يختارون ما يلائم أذواقهم ويساير درجة إدراكهم، فيحضرون هذه المجالس أو تلك، إلا قلة منهم كانت تحظى بتوجيه أب أو أخ أو قريب عالم، فتأمن العثرات التي قد يقع فيها غيرها.

أ ـ المادة التعليمية:

يمكن تصنيف المواد الدراسية في ثلاثة أنواع رئيسية:

1 ـ علوم شرعية، وتدعى أيضاً علوماً نقلية ووضعية، لأنها مسندة إلى خبر واضعها الشرعي، دون أن يكون للعقل دخل فيها، ما عدا إلحاق الفروع بالأصول. وتشمل اثني عشر علماً، هي: علوم القرآن من تفسير وقراءات، وتجويد، ورسم، وضبط. وعلوم الحديث من السنة المتضمنة أقوال النبي عليه السلام وأفعاله وتقاريره، ومصطلح الحديث الذي يبحث في مراتب التعديل والتجريح وطبقات الرواة وما إلى ذلك، وأصول الدين المسماة أيضاً علم التوحيد، والكلام، والعقائد، والإلهيات. وأصول الفقه ويبحث في أدلة الفقه

(1) هناك رسالة في الدراسات العليا(ماجستير) نوقشت أخيراً بكلية الآداب بفاس عنوانها فهارس علماء المغرب أناف عدد فهارس العصر السعدي ـ العلوي فيها على مائة.

الإجمالية، وأسس المذاهب الفقهية المختلفة، ووجهات نظر الأئمة في مسائل الخلاف، كل ذلك في نطاق التشبث بالمذهب المالكي وتأييده.

أما الفقه ـ ويبحث في الأدلة التفصيلية بقسميه: العبادات، والمعاملات ـ فلم يدرس في المغرب طوال هذه الفترة، باستثناء فروع الفقه المالكي، مما جعل فقهاء الشافعية والحنفية الذين انتقلوا من المشرق إلى المغرب، خاصة أيام السعديين، ولم يجدوا سوقاً يروجون فيها بضاعتهم، يشتغلون بعلوم أخرى، أو يتحولون إلى المذهب المالكي. والفرائض المسماة أيضاً علم الإرث والميراث، بمباحثه الفقهية والحسابية، والتصوف السني على طريقة الجنيد، وما نشأ عنه من شاذلية وجزولية[1]؛ والتوقيت أو علم الوقت الذي يحدد أوقات الصلاة والصيام والإفطار وجهة القبلة بواسطة العمليات الحسابية والآلات الهندسية؛ واللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والحديث، إذ لا غنى عنها لمن يريد معرفة الأحكام الشرعية من ينابيعها الأولى؛ وقواعد اللغة أو علم الإعراب، بشقيه النحو والصرف والبلاغة بما فيها من بيان، ومعان، وبديع؛ والتاريخ أو علم السير، سواء ما يتعلق منه بالسيرة والمغازي والشمائل أو بالتراجم وأخبار الزمن.

2 ـ وعلوم أدبية تشمل أربعة أنواع:

ـ العروض بما فيه علم الميزان، والقافية.

الشعر الفصيح من معلقات الجاهليين إلى دواوين الإسلاميين والعباسيين والأندلسيين وغيرهم، إضافة إلى الشواهد الشعرية المبثوثة في كتب اللغة وقواعدها، وقد أفردها بعضهم بالتأليف.

ـ الإنشاء أو علم الكتابة، وقد درسوه في إعجاز القرآن وخطب الرسول وجوامع كلمه، وآثار الصحابة وكتب المقامات والنوادر.

ـ الخط الذي أصبح له، منذ العصر السعدي الأول، كرسي في جامع

---

(1) نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي تلميذ عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم شمالي المغرب، ومحمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات دفين مراكش.

الأشراف بمدينة مراكش، لتلقين أصول الخط العربي وتدريب المتعلمين على الخطوط المغربية والأندلسية والمشرقية.

3 ـ وعلوم عقلية، بما فيها العلوم البحتة كالحساب والهندسة، والتجريبية كالطب والصيدلة. وأخرى غيرها كالمنطق والبحث والمناظرة.

ونجد معظم الكتب التعليمية بالمغرب ـ في العصر الذي ندرسه ـ يتألف من مختصرات ومنظومات وشروح وحواش، ألّفها فيما بين القرنين السادس والتاسع للهجرة، أندلسيون ومغاربة، أمثال أبي محمد الشاطبي، والكلاعي البلنسي، وابن عاصم الغرناطي، وابن عرفة التونسي، ومحمد السنوسي التلمساني، وابن بري التازي، وابن آجروم السوسي، وابن البناء المراكشي، وابن غازي المكناسي الفاسي، إضافة إلى ما دخل إلى الغرب الإسلامي من مؤلفات الشرقيين، أمثال ابن الحاجب الإسكندري، وابن مالك الدمشقي، وابن هشام المصري، وخليل بن إسحاق الجندي، وابن حجر العسقلاني، وجلال الدين السيوطي. وانضاف إلى ذلك مؤلفات المغاربة المتأخرين أمثال عبد الواحد بن عاشر، ومحمد ميارة والتاودي بن سودة والطيب بن كيران، ومحمد الرهوني، وعبد السلام العلمي..

ب ـ طرق التدريس:

تنوعت طرق التدريس بتنوع بيئة المعلمين والمتعلمين لا سيما في الحاضرة والبادية. ولكنها ترجع في مجملها إلى طريقة المدرسة المغربية ـ الأندلسية التي سلكت منذ العصور الوسطى سبيلاً وسطاً بين أسلوبي العراق والقيروان، وعنيت بالموضوع ـ أصوله وفروعه ـ عنايتها بالألفاظ والروايات ووجوه الاحتمال فيها[1]. وبرزت من بين النماذج العديدة لمدرسي هذا العصر طريقتان مختلفتان:

الأولى: طريقة التبسيط التي يعبر عنها في بعض الفهارس (برامج الشيوخ) بطريقة حل المتن، ويقتصر فيها المدرسون على شرح النص المدروس بعبارتهم

(1) المقري، أزهار الرياض: 22:3 ـ 23.

الخاصة، دون الرجوع إلى كلام الشراح والمحشين، بحيث يأتون بخلاصة ما عند أولئك دون حشو ولا إلحاح في الافتراض والاعتراض. ولم تستعمل هذه الطريقة بنجاح مع المبتدئين من الطلبة فحسب، وإنما طبقت أيضاً ببراعة في الدروس العليا، حيث ظهرت مقدرة المدرسين وإحاطتهم الشاملة بالموضوع، وكان لهذه الطريقة مدرستان في الشمال والجنوب.

وقد ابتدأت مدرسة الشمال مع آل إبراهيم الدكاليين المَشْنزائيِّين[1] الذين تسلسل فيهم العلم بفاس أجيالاً عديدة، فكانت دروسهم الفقهية العالية ملتقى الطلبة والمدرسين على السواء، واختلفت آراء علماء القرويين في هذه الطريقة الميسرة، فناصرها المتفتحون المنصفون ولو لم يطبقوها، وفي مقدمتهم مفتي فاس وكبير مدرسيها عبد الواحد الونشريسي، الذي كان يحضر مجالس أحد هؤلاء المشنزائيين، ويعجب من فصاحته ورشاقته، ويقول في تدريسه: «ذلك هو السهل الممتنع»[2]، وذمها آخرون كقاضي الجماعة بفاس عبد الواحد الحميدي، الذي لم يتورع عن وصف معاصر له منهم بأنه أحمرهم (أقربهم للحمير). وتخرج على يد آل إبراهيم عدد غير ضئيل من الفقهاء نشروا طريقتهم التعليمية على مرّ الأجيال في فاس وضواحيها إلى بلاد الريف. وتزعم الطريقة المبسطة في الجنوب كبير علماء درعة وشيخ الجماعة بها، محمد بن مهدي الجراري الذي كان يقول: «حقيقة الإقراء تصحيح المتن وحل المشكل وإيضاح المقفل، وزيادة أخرى غير ذلك، ضررها بالمتعلم أكثر من نفعها»[3] وانتشرت طريقته مع المتخرجين عليه، وهم كثير، وتمسك بها مدرسو درعة، وتافيلالت، والأطلس، والسوس الأقصى، ومراكش نفسها. وأشهر المحافظين عليها حتى الفترة المعاصرة، الناصريون الدرعيون وتلاميذهم الذين لا تكاد تخلو منهم جهة من جهات المغرب.

---

(1) يدعون أيضاً المشترائيين ـ بالتاء والراء ـ وهو تصحيف ناشىء عن ضم نقطة الزاي للنون فتصير تاء. ومَشْنَزَايَة مكان شهير وسط بلاد دكالة.

(2) أحمد المنجور، فهرس: 31.

(3) عبد الواحد السجلماسي، فهرس: 85، وتقدمت هذه العبارة عند الحسن اليوسي في القانون، إذ هو من تلاميذ هذه المدرسة.

والثانية: طريقة التعقيد والتحليل المعبر عنها في بعض الفهارس بطريقة حك المسائل، وهي الطريقة الغالبة السائدة، ويهتم أصحابها بالإلحاح في بحث المسائل وتقليب أوجه النظر فيها، وإيراد المشكلات أو افتراضها، وجلب النقول المتناقضة ومناقشتها، لتتكون ملكة البحث عند المتعلمين. وأخطر عيوب هذه الطريقة هو البطء، وشغل الطلبة بالقشور عن اللب، وتفويت فرص التحصيل على غير الأذكياء منهم. وقد أحسن أحد طلبة العصر السعدي الأخير التعبير عن صعوبة طريقة حك المسائل ومقارنتها بغيرها، إذ قال: «كنت أجلس بمجلس أحمد المقري فأجد العلم كله واضحاً، فإذا جلست بمجلس الشيخ ابن عاشر كان كله مشكلاً»[1] وعلق المؤرخ محمد الإفراني على هذا بقوله: «يشير إلى أن المقري كان حافظاً لا بتعقب المسائل، وابن عاشر كان نقاداً يحك المسائل حتى يستنبط منها أموراً تنشط الأنظار، وتحيّر الأفكار»[2].

محاولات إصلاح التعليم:

تدخلت الدولة رسمياً في أواخر القرن الهجري الثاني عشر (18 م) لصرف المدرسين عن الطرق البطيئة والعقيمة، وحملهم على اتباع السبل الميسرة في التعليم، مع حظر دراسة عدد من الكتب الموغلة في التعقيد أو التطويل، أو المليئة بما لا طائل تحته مما يتعلق بالعقيدة أو الأخلاق، فقد نص الفصل الثالث من منشور[3] أصدره السلطان محمد بن عبد الله إلى قاضي فاس وشيخ الجماعة بها التاودي ابن سودة، يدعوه ليأمر المدرسين في المساجد بألا يدرسوا إلا كتاب الله تعالى بتفسيره، ودلائل الخيرات، وكتب الحديث المسانيد والصحاح، ومن كتب الفقه المدونة، والبيان والتحصيل والمقدمات لابن رشد.. وغير ذلك من كتب الأقدمين «وانتقد المنشور الملكي مختصر خليل انتقاداً مراً، فلم يبح «لمن أراد قراءته» إلا خمسة شروح سماها، هي من أخصر شروحه، ونص على

(1) محمد ميارة، نظم اللآلي والدرر، (مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 3702 ز): 333.

(2) الإفراني، صفوة من انتشر: 140.

(3) يوجد نص المنشور كاملاً عند ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس: 3:211 وما بعدها.

منع الاشتغال بشرح الزرقاني وأمثاله من المطولات، ومنع قراءة مقاطع معينة من المختصر منعاً باتاً، ولا يمكن أن ندرك مدى أهمية هذا المنشور إلاّ إذا عرفنا أن مختصر خليل بشرح الزرقاني وذيوله كان قد ملك على الفقهاء العقول والأفئدة، وأن الطلبة الوافدين على فاس أصبحوا يشيبون فيها دون أن يحصلوا الفرضيات والخلافات والاستشكالات التي لا تنتهي في هذا الكتاب المطلسم.

وحدد المنشور لقراءة السيرة النبوية كتابي الكلاعي وابن سيد الناس اليعمري، وللنحو التسهيل والألفية لابن مالك، وللبلاغة الإيضاح والمطول.. وللأدب واللغة المعلقات، ومقامات الحريري، والقاموس، ولسان العرب، ولعلم الكلام عقيدة رسالة ابن أبي زيد القيرواني دون غيرها من كتب العقائد الجدلية المنطقية المنتشرة آنذاك كعقائد السنوسي الكبرى، والوسطى والصغرى وصغرى الصغرى... وحض ـ بعكس ذلك ـ على تدريس الحساب والفلك بالأسطرلاب، وأمر القاضي بأن يعطي الذين يدرسون هذه المواد «حظهم من الأحباس لما في ذلك من المنفعة العظيمة». ونهى المنشور نهياً قاطعاً عن قراءة أصول الفقه «لأنه أمر قد فرغ منه، ودواوين الفقه قد دونت ولم يبق اجتهاد» كما أنه نهى عن جملة علوم أخرى لا طائل وراءها، وهدد بمعاقبة من يتدارسها في المساجد «ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص فليتعاط ذلك في داره مع أصحابه الذين لا يدرون أنهم لا يدرون. ومن تعاطى ما ذكرنا في المساجد ونالته عقوبة فلا يلوم إلا نفسه».

هكذا تتجلى الروح الإصلاحية لهذا المنشور الذي كان يهدف إلى تصحيح كثير من الأوضاع الفاسدة في التعليم مادة وتلقينا، وحماية جمهور الطلبة ـ الواردين على فاس من مختلف الآفاق ـ لتحصيل ما ينفعهم في دنياهم وأخراهم، فيفوت عليهم مقصودهم أولئك المدرسون المتحذلقون الذين يقضي بعضهم عشر سنوات أو أكثر لختم مختصر خليل،

وسنوات طوالاً أخر لختم الألفية وما شاكلها، دون أن يمنع المنشور الراغبين في تلك العلوم النظرية من تدارسها في بيوتهم مع أندادهم.

وللسلطان العالم محمد بن عبد الله مواقف إصلاحية أخرى في ميدان التعليم والتربية، منها «نصيحة عامة»[1] بعث بهاإلى جميع القبائل يحثهم فيها على تعليم أبنائهم عن طريق «المشارطة» التقليدية في البادية بعد أن ظهر بعض الفتور فيهم: «ويلزم كل دوار وجماعة مشارطة طالب علم يرجعون إليه في أمر دينهم وتعليم صبيانهم وجُهَّالهم، ويقوم بالأذان والصلوات الخمس في أوقاتها. والجماعة التي لم تفعل ذلك يزجرهم ويعاقبهم».

وكذلك كان لولده السلطان سليمان محاولات إصلاحية أخرى نبهت ـ كسابقاتها ـ المشتغلين بالتدريس إلى كثير من العيوب والأخطاء، دون أن تستطيع إدخال تغيير جذري على التعليم. إلى أن أتى محمد الرابع (1276 ـ 1290 هـ / 1859 ـ 1873 م) «فأحيا ما اندثر بالمغرب من العلوم، كالحساب، والتعديل، والهندسة، والنجوم»[2].

فقد كان هذا السلطان رياضياً درس على شيوخ هذا الفن بمراكش، فلما ولي الملك اهتم بالدرجة الأولى بإشاعة تعليم الحساب وعهد إلى عمال المدن الكبرى، كفاس، ومكناس، ومراكش، وطنجة وتطوان، وسلا والرباط باختيار عشرة من طلبة الجيش أو من نجباء الطلبة المدنيين في كل مدينة، وعين لهم أساتذة مغاربة كان معظمهم من الموقتين «القائمين بضبط أوقات الصلوات في المساجد الجامعة» إذ كانوا حاسبين بطبيعة عملهم. ونظم دروساً حربية في بعض الثغور، واستجلب لها بعض المدربين من تونس وانجلترا.

وأنشأ، بالإضافة إلى ذلك، مدرسة المهندسين بفاس، في موقع المدرسة المرينية المجاورة للقصر الملكي. وابتدأت الدراسة فيها عام (1259 هـ /

(1) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس 223:3.
(2) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث: 1: 136.

1844 م)، وكان أساتذتها مغاربة، إلا واحداً فرنسياً، اعتنق الإسلام ودعي عبد الرحمن العلج[1].

واستمرت العناية بالهندسة وما إليها، وبالعلوم الحربية أيام السلطان الحسن الأول (1290 ـ 1311 هـ / 1873 ـ 1894 م) سواء في الدروس المنظمة في جوامع الحواضر، أو في المراكز العسكرية بالثغور، أو في مدرسة الهندسة بفاس، وكان عدد طلبة مدرسة الهندسة فيما بين أعوام (1284 ـ 1287 هـ / 1867 ـ 1870 م) يتراوح بين 44 و 58 طالباً تجري عليهم مرتبات يومية[2]، ولهم رئيس هو أحمد الصويري[3] وكان المتخرجون منها صنفين، يحملون ـ حسب نوعية دراستهم ـ لقب مهندس أو موقت.

وأسس الحسن الأول عام (1292 هـ / 1875 م) مدرسة ثانية بطنجة اهتمت ـ بالإضافة إلى الهندسة والحساب ـ باللغات الأجنبية، إذ أصبحت الحاجة ماسة إليها لنجاح البعثات التعليمية الموجهة إلى الخارج، وأوروبا بصفة خاصة. وكان طلبة مدرسة طنجة يختارون من بين نجباء التلاميذ من سائر أنحاء المغرب، وتتراوح أعمارهم بين 15 و18 سنة، ويقيمون بها من ثلاث إلى ست سنوات، كما أسس بمدينة الجديدة، في تاريخ غير محدد، مدرسة للمدفعية.

البعثات التعليمية إلى الخارج:

أ ـ إلى مصر:

بلغ عدد البعثات التعليمية المغربية إلى مصر ست بعثات، أرسل أولاها محمد الرابع باتفاق مع الخديوي محمد سعيد باشا فيما بين أعوام (1267 ـ 1280 هـ / 1859 ـ 1863 م) مؤلفة من طالبين تخصصا في الجغرافية والفلك. تلتها بعثتان أخريان، من بين أعضائها طالب درس فن الطباعة، وثلاثة

---

(1) سيطول مقامه في المغرب وينتفع به كثيرون في العلوم الرياضية والعسكرية إلى أن يموت بمراكش عام (1296 هـ / 1879 م).

(2) سجل «نفقات مخزنية» بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 295.

(3) توفي عام (1320 هـ / 1902 م) المراكشي، الأعلام: 2:166 ـ 168.

درسوا الفنون العسكرية. وضمت البعثة الرابعة عام 1283 هـ ثلاثين طالباً من أبناء العسكريين وغيرهم، طلب منهم أن يتعلموا الفنون البحرية والمدفعية. وتوجهت البعثة الخامسة إلى مصر في أوائل عهد الحسن الأول، وكان أفرادها كثيرين على ما يبدو، إذ قسموا ـ بالنسبة للمنحة ـ ثلاث رتب، تلتها البعثة السادسة عام (1291 هـ / 1874 م) وفيها ذهب عبد السلام العلمي الذي تخرج طبيباً من قصر العيني بالقاهرة[1].

ب ـ إلى أوروبا:

ابتدأت البعثات التعليمية إلى أوروبا قبل البعثات إلى مصر، حين أرسل كل من السلطان عبد الرحمن بن هشام وولده محمد الرابع بعثات إلى أوروبا، إلا أنها كانت محدودة ولغاية عسكرية أولاً «مع ما يحتاج إليه من علم الهندسة». وتوسعت هذه البعثات وتعددت في أيام الحسن الأول، بعد أن هيأت مدرسة طنجة أفراد هذه البعثات بما يلزم من مبادىء العلوم واللغات الأجنبية.

وقد أرسل الحسن الأول عام (1291 هـ / 1874 م) خمسة عشر مهندساً مغربياً إلى أوروبا ليتعلموا الفنون الحربية والمدنية، ويتقنوا اللغات الأجنبية، ثلاثة منهم إلى انجلترا، ومثلهم إلى كل من إيطاليا، واسبانيا، وفرنسا، وبروسيا (ألمانيا)، فمكث طلبة انجلترا فيها خمس سنوات، رجعوا بعدها واشتغل منهم محمد الجباص بخدمة المخزن فأصبح مندوباً سلطانياً بطنجة، وإدريس بن عبد الواحد رئيس طبجية طنجة (رجال المدفعية) والزبير سكيرج مسؤولاً عن تركيب الموازين بالمراسي المغربية. ومكث الطلبة الموفدون إلى بروسيا (ألمانيا) 12 سنة، والباقون تسع سنوات وكلفوا بعد رجوعهم إلى الوطن بمهام سامية مدنية وعسكرية، ومنها الترجمة عن الأساتذة والمدربين العسكريين الأجانب الذين استجلبهم السلطان إلى المغرب.

وتوالت البعثات بعد ذلك، فتوجهت بعثة ثانية مؤلفة من 25 شاباً عام (1293 هـ / 1876 م) إلى جبل طارق لتعلم الفنون العسكرية باللغة

---

(1) محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث: 1:156 ـ 166.

الإنجليزية. . ثم ثالثة مكونة من 12 طالباً و 15 عسكرياً عام (1301 هـ / 1884 م) إلى بروسيا (ألمانيا)، ثم أربعة في السنة نفسها وللغاية نفسها، ثم خامسة مكونة من خمسة طلاب و 7 صناع إلى فرنسا لتعلم تقنيات مختلفة. ثم سادسة مكونة من 24 طالباً تتراوح أعمارهم بين 13 و 16 سنة، توجهوا إلى إيطاليا، كان من بينهم الحسين الزعري السلوي الذي تخصص في دراسة اللغات الإيطالية والإسبانية، والفرنسية والإنجليزية والألمانية، وكتب مذكرة مفيدة أشبه ما تكون برحلة عن هذه البعثة[1].

وهناك بعثات تعليمية عديدة أخرى إلى أوروبا لم تضبط الوثائق المعروفة إلى الآن تواريخها ولا عدد طلبتها وتخصصاتهم[2]. وإنما تعرف في الوثائق المخزنية تقاييد بأسماء بعض المتعلمين الواردين من بلاد أوروبية غير المذكورة تبين ما تعلموه والوظائف العسكرية أو المدنية المسندة إليهم.

وقد أنتج المتخرجون من مصر وأوروبا بعد رجوعهم إلى المغرب، عدداً من الكتب والآلات الهندسية والفلكية والعسكرية، ألّفوها أو اخترعوها أو ترجموها عن اللغات الأجنبية، وساعدت على تطوير التعليم في البلاد إذ هيأت تقدماً علمياً وتقنياً جديداً ولو إلى حين.

ويقارن بعض المؤرخين بين العملية التي قام بها الحسن الأول بالمغرب في أواخر القرن الثالث عشر (19 م) عن طريق إصلاح التعليم، وإرسال البعثات إلى الخارج، بالعملية المماثلة التي قام بها في أوائل القرن نفسه محمد علي بمصر، ويجدون في ذلك تقارباً كبيراً حتى في عدد طلاب البعثات والأقطار الأوروبية التي درسوا فيها، لكن الذي جعل هذه العملية تنجح والأخرى تخفق

---

(1) توجد مخطوطة عند ولده الدكتور إدريس الزعري، ونشر ملخصها الحاج أحمد معنينو بمجلة دعوة الحق، السنة 12، العدد الأول، 19- 143 ـ 148.

(2) ذكر أبو بكر زنيبر في كتابه الحالة العلمية بالمغرب: ص 5 ـ 6، نقلاً عن المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان أن الحسن الأول وجه ثماني بعثات لدول مختلفة تشتمل على 333 شخصاً. وانتقد هذا العدد بأنه ناقص، وذكر أسماء أفراد من بعثات أغفلهم ابن زيدان سهواً أو عدم علم منه بهم.

ما منح محمد علي من طول العمر وكبر الأولاد ونجابتهم، وما مُني به الحسن الأول من قصر العمر وحداثة سن الأولاد[1].

ومن المفارقات التاريخية العجيبة أيضاً، اتفاق المغرب واليابان في تاريخ انبعاثهما عن طريق إرسال البعثات إلى أوروبا، بحيث كان الطلبة المغاربة واليابانيون يلتقون في بعض الجامعات الأوروبية، واختلاف نتائجهما تماماً، وقد كان بسبب اختلاف سياسة الدول الأوروبية تجاههما نظراً لاختلاف موقعهما الجغرافي. فالمغرب القريب من أوروبا كان محط أنظار وأطماع الدول الاستعمارية، التي ما فتئت دسائسها ومكائدها تعمل على صرفه عن الارتواء من حياض معارفها، حتى أوقعته في شبكة الحماية، واليابان البعيد عن أوروبا وعن أطماعها سلم من هذه المضايقة، وكان من حسن حظه مساندة انجلترا له في نهضته ليكون حليفاً لها في المستقبل ضد روسيا[2].

التعليم في عهد الحماية:

بدأ التعليم الفرنسي بالمغرب قبل إبرام معاهدة الحماية بسنوات، حين تأكد للفرنسيين تخلي منافسيهم الاستعماريين الغربيين، وبدأوا يفكرون في خلق وسيلة التفاهم اللغوي مع المغاربة، فأخذ قناصل فرنسا المقيمون في المدن المغربية المفتوحة آنذاك لسكنى الأوروبيين، ينشئون فيها مدارس فرنسية بواسطة الاتحاد الإسرائيلي[3]، ففتحت مدارس بفاس ووجده وتطوان وطنجة والعرائش والرباط والدار البيضاء، ثم استقلت المدارس الفرنسية بالمغرب عن الاتحاد الإسرائيلي بعد فرض الحماية، وأضيفت إليها مدارس ابتدائية في مدن أخرى.

---

(1) تعرض لهذا الموضوع بتفصيل أبو بكر زنيبر، في كتابه: الحالة العلمية في المغرب، ص 14 ـ 16.

(2) أبو بكر زنيبر، الحالة العلمية في المغرب: ص 6 ـ 11، وفيه تحليل مستفيض.

(3) منح السلطان محمد الرابع سنة 1804 م ظهير الحرية لليهود على أثر أحداث أدت إلى إعدام يهوديين، فأنشأ يهود المغرب، بتعاون مع الرابطة اليهودية العالمية، مدارس عصرية تلقن الدروس فيها باللغة الفرنسية والعبرية بطنجة والعرائش والقصر الكبير وفاس، والبيضاء، والرباط وأسفي، والصويرة وازيلال.

وأنشئت مدرستان ثانويتان، ثانوية مولاي إدريس بفاس، وثانوية مولاي يوسف بالرباط، ثم أضيف إليهما ثانوية ثالثة بأزرو سموها الثانوية البربرية، جرياً على عادتهم ضمن إطار سياستهم التبشيرية التنصيرية الشهيرة. ثم ثانوية رابعة بمراكش.

وجد الفرنسيون التعليم الإسلامي قائماً بالمغرب في القرويين وفروعها بمختلف جهات المغرب، لكنه كان تعليماً تقليدياً متدهوراً جامداً بسبب الأوضاع السياسية المتردية التي عرفتها البلاد بعد موت الحسن الأول. فاغتنمها الفرنسيون فرصة و «حافظوا عليه بحالتي التدهور والجمود» بل حاولوا القضاء عليه عن طريق إغراء الأهالي بالمدارس الفرنسية الحديثة الأنيقة المجهزة أحسن تجهيز، والدعاية لها، وتوظيف المتعلمين فيها بمختلف المصالح الحكومية.

وقد روج الفرنسيون في أوائل عهد الحماية فكرة إصلاح القرويين بعد أن تكونت مندوبية المعارف[1] فتكون «مجلس العلماء التحسيني للقرويين» ودرس في جلسات عديدة مائة مادة ومادتين (102)، إلاَّ أن الفرنسيين جمدوا ذلك ولم تسفر عملية «التحسين» إلا عن صدور أمر بتخصيص راتب سنوي لعلماء القرويين، قدره (1200) فرنك لعلماء الرتبة الأولى، و (720) فرنكاً لعلماء الرتبة الثاينة، و (480) فرنكاً لعلماء الرتبة الثالثة، و(360) فرنكاً لعلماء الرتبة الرابعة، أي مائة فرنك في الشهر لعلماء الرتبة الأولى، وأقل من ذلك لأصحاب الرتب الأخرى، ومعلوم أن من يتناول راتباً شهرياً زهيداً بهذا القدر لا يستطيع ـ عادة ـ أن يقوم بأي عمل مجد[2] فكان ذلك من أهم أسباب ضعف إنتاج

---

(1) أول مندوب للمعارف في عهد الحماية هو الحجوي، محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي، وقد تحدث بإسهاب عن فكرة إصلاح القرويين هذه باعتباره المباشر لها، في كتابه الفكر السامي: 4/30 وما بعدها.

(2) أبو بكر زنيبر، الحالة العلمية في المغرب: ص 18 وما بعدها، وفيه ينتقد انتقاداً مراً هذه الوضعية المزرية للعلماء في عهد الحماية، ويبين بالأرقام ضآلتها وسخرية المسؤولين من هذا الصنف من قادة الأمة، فكيلو القمح كان يساوي آنذاك نحو الفرنكين، وكيلو اللحم 8 فرنكات إلخ والأجرة الشهرية لأبسط الكتاب في المصالح العمومية 500 فرنك فأعلى، وللمخازنية «الخدم المنظفين والمناولين» 300 فرنك، أي أن عالم الدرجة =

العلوم الإسلامية الأصيلة في عهد الحماية، بالإضافة إلى عملية الإغراء، ومزاحمة المدارس الحديثة، وإسناد رئاسة القرويين إلى عالم بلغ من الكبر عتياً، ومن المحافظة على القديم إلى حد الجمود[1]. وبعد مرور أكثر من 21 عاماً على الحماية، فشا التذمُّر في أوساط المفكرين من الأساتذة والطلبة وغيرهم من الأوضاع المزرية التي أصبح يعيشها التعليم الإسلامي وبخاصة القرويين، وصدر ظهيران ينظمان التعليم الأصيل بتاريخ 15 محرم عام 1352 / 10 ماي 1933 م[2].

وقد قسم الظهير الأول التعليم بجامعة القرويين إلى ثلاثة أقسام: ابتدائي وثانوي، ونهائي، وحدد مواد كل قسم، وهي ـ على العموم ـ لا تخرج عن المواد التقليدية المعروفة في العهود السابقة، وعين للقيام بدروس الأقسام الثلاثة 32 مدرساً، وأحدثت وظيفة مراقب الدروس، ونظام الامتحانات.

ومنع الظهير الثاني على أساتذة جامعة القرويين وغيرهم ممن يدرسون للطلبة أن يلقوا دروساً أو خطباً أو يحرروا مقالات أو يوزعوا منشورات سياسية وإلا تعرضوا لعقوبات تبتدىء بالإنذار وتوقيف الراتب وتنتهي بالعزل. كما منع على الطلبة ذلك وأن ينخرطوا في أي حزب سياسي، . . وإلا طردوا.

وقد ألحق التعليم الأصيل بوزارة العدلية، وكلف به كاتب عادي فيها دون أن يقتصر عمله على هذا التعليم، وإنما كان يتناوله كما يتناول باقي أعمال الوزارة، وبذلك لم تكن مسائل التعليم تحظى بأي اعتبار وتضيع بين الأعمال الأخرى. على أن أوضح ما يتجلى فيه إهمال المسؤولين للتعليم الإسلامي أنهم لم يخصصوا له أية ميزانية باستثناء مبلغ بسيط من الأوقاف هو (700,000) فرنك في السنة، مع العلم أن الميزانية العامة للمغرب خصصت سنة (1933 م)

= العليا يؤجر خمس مرات أقل من أبسط الكتاب، وثلاث مرات أقل من الخدم.

(1) هو الشيخ أحمد بن الخياط، وبعد موته خلفه الشيخ أحمد بن الجيلالي الأمغاري الذي لا يختلف عن سلفه هذا جموداً.

(2) صدر الظهيران في الجريدة الرسمية بهذا التاريخ ويوجد نصهما كذلك عند أبي بكر زنيبر، الحالة العلمية في المغرب: 20 ـ 23.

لمعارف الفرنسية مبلغ (100,203,710) فرنكات معظمها لأبناء الفرنسيين المقيمين بالمغرب، وقليلها لأبناء المغاربة الذين يتعلمون في المدارس الحديثة الأهلية أو مع أبناء الفرنسيين، وهم معدودون على أصابع اليد[1].

وإلى جانب التعليم الإسلامي المجمد المحاصر، أنشأ الفرنسيون أنواعاً متعددة من التعليم العصري المفرنس على أساس عنصري طبقي: تعليم فرنسي مخصص لأبناء الجاليات الأوروبية، وتعليم يهودي منبثق عن الاتحاد الإسرائيلي، وتعليم أهلي ـ خاص بالمغاربة المسلمين ـ مقسم إلى مدارس للذكور، ومدارس البنات. ومدارس الذكور أربعة أصناف: مدارس أبناء الأعيان في المدن الكبرى، ومدارس حضرية في المدن الأخرى. ومدارس صناعية بمختلف المدن، ومدارس قروية مبعثرة هنا وهناك.

وحتى سنة 1940 م لم يكن هناك سوى عشرات من المدارس الأهلية الابتدائية، وأربع ثانويات بفاس والرباط ومراكش وأزرو.

وكان أساس التعليم في المدارس الأهلية هو اللغة الفرنسية[2]، وسمح في المرحلة الابتدائية ـ في غير المناطق البربرية ـ بحصص قليلة جداً للقرآن واللغة العربية، كانت في الأول نحو نصف ساعة في اليوم، ثم زيد فيها تحت ضغوط الانتقادات حتى صارت في نهاية المطاف ساعتين مقابل أربع ساعات للفرنسية. كما سمح بحصص يسيرة أيضاً للعربية والفقه في المرحلة الثانوية التي تنتهي بدبلوم ـ بدل البكالوريا، معظم مواده فرنسية، مع قليل من التربية والفقه ـ في غير الثانوية البربرية ـ وكان هذا الدبلوم يعتبر شهادة محلية لا تخول الحاصلين عليه متابعة دراستهم العليا بفرنسا. فكثر انتقاده ونفر الأهالي منه وصاروا يعملون على إلحاق أبنائهم بالثانوية الفرنسية، فاضطر المسؤولون الفرنسيون إلى

---

(1) انتقاد سياسة سلطات الحماية حيال التعليم الإسلامي مبسوط عند أبي بكر زنيبر، الحالة العلمية في المغرب: ص 23 ـ 26.

(2) نقصر حديثنا عما كان يجري بمنطقة الحماية الفرنسية لأنها المهمة ولأن الإسبانيين في الشمال كانوا يقلدون تقليداً حرفياً تقريباً السياسة التعليمية للفرنسيين، مع شيء من التسامح مع الأهالي في التعليم الحر والدراسة بالشرق العربي.

إحداث نظام مزدوج للثانويات الأهلية أحدهما ينتهي بالبكالوريا، والثاني بدبلوم فرنسي ـ عربي. ولكن ماذا كانت حصيلة التعليم العصري بالمغرب؟ لقد أجاب عن هذا السؤال الشيخ أبو بكر زنيبر عام (1359 هـ / 1940 م)، وكان قد مضى على إحداث البكالوريا بالمدارس الأهلية نحو عشرة أعوام، ومدة أطول من هذه على إقبال الناس على الانخراط في المدارس الفرنسية: «ومع ذلك فلا يوجد إلى الآن غير ثلاثين أو أربعين تلميذاً أهلياً حصلوا على شهادة البكالوريا في طول المنطقة الفرنسية وعرضها، كما أنه لا يوجد إلاّ عشرة من التلاميذ الأهالي حصلوا على شهادة الليسانس»[1].

من أهم أسباب ضعف نتائج المدارس العصرية عدم انتشارها بالحواضر والبوادي انتشاراً يناسب عدد السكان وثروة البلاد واتساع رقعتها، وما يخصص من ميزانيتها العامة للتعليم. فقد كان عدد التلاميذ سنة (1920 م) وهي السنة التي أنشئت فيها إدارة المعارف (2,887) تلميذاً و (450) تلميذة، وازداد العدد مع مرور الأعوام فصار سنة (1936 م) (17,863) تلميذاً و (3,525) تلميذة[2]. أي أن عدد التلاميذ بالمدارس أصبح بعد تطور دام 16 سنة يمثل واحداً من المائتين.

وفي سنة (1945 م) بلغ عدد التلاميذ المسلمين بالمدارس الابتدائية (41,490) وبالثانويات (1,003) وعدد المتخرجين من الجامعات الفرنسية خمسة عشر خريجاً 3 منهم أطباء، و 6 محامون، و 6مهندسون زراعيون.

وعرفت الفترة الأخيرة للحماية (1945 ـ 1955 م) تطوراً ملموساً نسبياً بسبب تزايد الوعي السياسي عند الوطنيين، وتأثير المدارس الحرة التي سنتحدث عنها فيما بعد، فأصبحت سلطات الحماية تخطط لقبول (10,000) تلميذ جديد كل سنة، وبذلك ارتفع عدد المسجلين في المدارس الابتدائية الأهلية سنة

(1) أبو بكر زنيبر، الحالة العلمية في المغرب: ص 28.

(2) توجد جداول تطور عدد التلاميذ والتلميذات بالمدارس في المنطقة الفرنسية متسلسلة من سنة 1920 حتى 1932 م مع بيان نسبة الزيادة كل سنة عند أبي بكر زنيبر، الحالة العلمية في المغرب: ص 32 ـ 33.

(1954 م) إلى (210,018)، وفي المدارس الثانوية إلى (3,839) إضافة إلى الأطفال المغاربة المسجلين آنذاك في التعليم الأوروبي، وهم (4600) في الابتدائي و (1560) في الثانوي[1].

أما التعليم الحر فقد تكوّن نتيجة رد فعل وطني ضد سياسة الفرنسة والتجهيل والتنصير، بدأ ضعيفاً في أوائل الثلاثينات، إذ كان يعمل أساساً على تلقين القرآن والعربية والديانة وتاريخ المغرب والإسلام، ثم توسع التعليم الحر بعد تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال سنة 1944 م، فأنشئت المدارس الابتدائية والثانوية في مختلف الأقاليم، بتمويل من تبرعات الشعب المغربي وتحت إشراف رجال الحركة الوطنية ورعاية محمد الخامس، وأصبحت اللغة العربية هي السائدة في المدارس الحرة، مع مسايرة التعليم العصري وتلقين الفرنسية باعتبارها لغة أجنبية، حتى أصبح عدد تلاميذ هذه المدارس غداة الاستقلال يزيد على 20,000 تلميذ[2]. غير أن التعليم الحر بقي مبتوراً للحاجة إلى تعليم عال يستوعب الحاصلين على البكالوريا، باستثناء القرويين التي ظلت ـ رغم انتعاشها ـ جامعة تقليدية مقتصرة على فرعي الشريعة والأدب، وباستثناء الجامعات العربية التي تمكن بعض الطلبة من الالتحاق بها في القاهرة ودمشق وبغداد، رغم الحصار لمضروب عليهم من السلطات الفرنسية.

وهكذا وجد المغرب المستقل أمامه تعليماً متنوعاً متنافراً مزقته الحماية كل ممزق، فكان عليه أن ينظر بجد في مشكل التعليم خلال السنوات الأولى للاستقلال، وأسفرت الندوات والمؤتمرات التي عقدت، عن الاتفاق على أربعة مبادىء بالإجماع، وهي التعميم، والتوحيد، والتعريب، ومغربة الأطر، وقد تحقق بعض هذه المبادىء، ولكن بقيت جذور تباين التكوين وتنافره راسخة، وخاصة تكوين الثقافة الاستعمارية الغربية، والثقافة العربية الإسلامية الشرقية، وما يزال مشكل التعريب قائماً حتى اليوم، وقد مضى على استقلال المغرب نيفٌ وثلاثون سنة.

---

(1) محمد عابد الجابري، أضواء على مشكل التعليم بالمغرب: ص 38 ـ 40.

(2) المصدر السابق، ص 40 ـ 41.

المراكز التعليمية الكبرى:

كادت المراكز التعليمية بالمغرب ـ قبل الشرفاء ـ تقتصر على المدن التي أسس بها المرينيون مدارسهم الشهيرة، سواء بحاضرتهم فاس، أو بمدن وجدة، وتازا، وطنجة، ومكناس، وسلا، ومراكش[1]، غير أن مراكز التعليم تكاثرت مع مجيء الشرفاء، خاصة في الجنوب والأرياف.

وسوف لا نتحدث هنا عن الكتاتيب[2] القرآنية التي تكاد لا تخلو منها حاضرة أو بادية في المغرب، كما لا نتحدث عن المراكز التعليمية القروية لكثرتها وتعذر استيفائها[3] وإنما سنقتصر على ذكر ستة مراكز حضرية تعتبر نماذج لأماكن الدراسة النشيطة بالمغرب في العصر الحديث[4].

فاس:

أقدم حاضرة إسلامية بالمغرب، وجامع القرويين فيها أقدم جامعة في

(1) من المعلوم أن المدارس المرينية في معظم المدن المذكورة، وأنهم أسسوا مدارس كذلك في أهم مدن المغربين الأوسط والأدنى لامتداد نفوذهم على شمال إفريقيا كله. وفصل القول في هذا محمد بن مرزوق في كتابه: المسند الصحيح الحسن، المطبوع أخيراً بتحقيق الأستاذة فيكيرا الإسبانية.

(2) يسمى الكتاب القرآني في المدن المغربية «مسيد» وهو تحريف لكلمة مسجد، ويسمى في البادية «جامع» لأن تعليم الأطفال القرآن كان يقع عادة في المسجد أو في قاعة متصلة به، وقد وجد الفرنسيون بمدينة فاس وحدها في أول عهد الحماية 120 كتاباً قرآنياً للأولاد، 96 بعدوة القرويين و24 بعدوة الأندلس، و15 مدرسة للبنات (تسمى دار فقهية) إضافة إلى دور كثيرة تتعلم فيها بنات فاس التطريز: لوطورنو، فاس قبل الحماية: (الترجمة العربية) 768 و771.

(3) ألف محمد المختار السوسي (ت 1383 هـ / 1963 م) كتاباً جمع فيه نحو 200 مدرسة علمية موزعة في مراكز قروية بإقليم السوس الأقصى وحده، وذكر منها في كتابه سوس العالمة: (ص 154 ـ 167) خمسين مدرسة لامعة، فما بالك بالمغرب كله.

(4) خصصت الجزء الثاني من كتابي: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، للمراكز الثقافية التي تعدد فيها المشتغلون بالتدريس في تلك الفترة أو تعاقبوا عليه فيها أجيالاً عديدة فذكرت عشر مدن وما ينيف عن خمسين قرية. إضافة إلى ما ذكر المختار السوسي من مآت المراكز والمدارس العلمية بسوس التي ظل بعضها قائماً إلى عهد الحماية.

العالم الإسلامي، بل في العالم كله[1]. تخلى السعديون عن فاس كعاصمة سياسية، واستبدلوا بها مدينة مراكش. وكذلك فعل العلويون خاصة مولاي إسماعيل الذي اتخذ مدينة مكناس عاصمة له، وسار خلفه على نهجه. ولو أن بعضهم كان يتنقل بين فاس ومكناس ومراكش وغيرها من الحواضر، إلى أن دخل عهد الحماية، فأصبحت الرباط العاصمة الرسمية للدولة، ومع ذلك لم تفقد فاس قيمتها العلمية، وظلت تنافس الحواضر الجديدة وتكاثرها بالعلماء الذين تشبثوا بها وأقاموا فيها، يعلمون الطلبة الوافدين عليهم من جميع أنحاء البلاد. وحظيت فاس، كحاضرة علمية، برعاية فائقة من الملوك الشرفاء: فأحمد المنصور الذهبي جدد جامع القرويين، وشيد القبة الفاخرة بالركن الأيسر من صحن القرويين، على نموذج قبه ساحة الأسود بحمراء غرناطة، وجلب خصة الرخام العظيمة القائمة بوسط الصحن، في حين شيد حفيده عبد الله القبة المماثلة المقابلة للأولى في الركن الأيمن. وبنى المنصور أيضاً مكتبة جديدة[2] بالقرويين من ناحية القبلة، ملأها بالكتب العلمية النفيسة وهي المكتبة القائمة حتى اليوم.

واهتم الرشيد بن الشريف ـ مؤسس الدولة العلوية ـ اهتماماً كبيراً بالمرافق العلمية بفاس، فأسس فيها مدرسة الشراطين من ثلاث طبقات، تحتوي على مائة وثلاثين بيتاً لسكنى الطلبة، وأصلح المدارس القديمة والزوايا العلمية، ومنها الزاوية الفاسية بحي القلقليين من عدوة الأندلس.

وأقام الرشيد معظم مدة ملكه بفاس يحضر مجالس العلماء بالقرويين، ويشجعهم بمساجلاته وعطاياه[3]. ولما تغلب على أمراء الدلاء وهدم زاويتهم،

(1) وزارة التربية الوطنية، جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف، ص 245.

(2) في القرويين مكتبة أخرى مرينية من تأسيس أبي عنان، تقع في الركن الشرقي من الجامع، ويدخل إليها من أعلى المستودع، الحركة الفكرية بالمغرب: 184:1، والهامشين 7 و8.

(3) رسالة الحسن اليوسي الكبرى إلى السلطان مولاي إسماعيل، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط (رقم 849 ج): 16.

نقل جميع من كان فيها من العلماء إلى فاس، فكان في ذلك وما نشأ عنه من منافسة قوية بين علماء المدينة وعلماء البادية الوافدين، خير وبركة على الحركة التعليمية بالمدينة الإدريسية[1].

ولم يشذ ملك من الملوك العلويين بعده، خاصة مولاي إسماعيل، وسيدي محمد بن عبد الله، ومولاي سليمان، ومحمد الخامس، عن الاهتمام بالمنشآت العلمية بفاس، تشييداً وإصلاحاً وتوسيعاً وتنميقاً، وتنمية لأرزاق الأساتذة والطلبة[2].

ومن أهم المنجزات الحديثة بفاس ـ وقد كان لها أثر طيب على التعليم بهذه المدينة وبالمغرب عموماً ـ وصول مطبعة حجرية إليها عام (1282 هـ / 1865 م) أيام محمد الرابع، تلتها مطابع حجرية أخرى[3] فقامت كلها أساساً بطبع كتب دراسية عربية إسلامية، واستمرت على ذلك نحو قرن من الزمن، رغم مضايقة المطابع السلكية الجديدة، إلى أن حطم الفرنسيون آخر مطبعة حجرية بفاس، وكان ذلك سنة 1944 م[4].

وبالرغم من عمليات الضغط والتثبيط في عهد الحماية، كان المتخرجون من القرويين العتيقة وثانوية مولاي إدريس العصرية في طليعة الشباب الوطني المتنور الذي لعب دوراً حاسماً في تحرير البلاد من الاستعمار وإقامة أسس النهضة الحديثة.

وبعد الاستقلال استرجعت جامعة القرويين سابق اعتبارها وامتد إشعاعها عبر أرجاء المغرب، فأصبحت مركزاً لكلية الشريعة، تتبعها كليات أخرى في كل من مراكش وتطوان وأكدير كما سنرى. وفتح بفاس فرع لجامعة محمد

(1) الزاوية الدلائية: ص 240 ـ 248.
(2) الحياة الأدبية بالمغرب: ص 73 ـ 74 و 271 ـ 277.
(3) مظاهر يقظة المغرب الحديث: 1:261 ـ 294.
(4) للمطبوعات الحجرية الفاسية فهرسان، أولهما لمحمد بن شنب وليفي بروفنسال (الجزائر 1922 م) والثاني لإدريس بن الماحي الإدريسي (تحت الطبع).

الخامس، فنما وتوسع وأصبح جامعة مستقلة تحمل اسم جامعة سيدي محمد بن عبد الله بكلياتها المختلفة في الآداب والعلوم الإنسانية والقانونية والاجتماعية والتجريبية.

مراكش

بقيت مدينة مراكش مهملة منذ انصرف عنها المرينيون كعاصمة سياسية واستبدلوا بها مدينة فاس[1] إلى أن أحياها السعديون حين اتخذوها حاضرة لدولتهم الناشئة. ويرجع الفضل الأكبر في إعادة بناء هذه المدينة إلى الملكين عبد الله الغالب، وأحمد المنصور الذهبي (980 ـ 1012 هـ / 1603 م) وكان في جملة ما جدد أو أنشىء فيها مدرسة ابن يوسف العظيمة بجوار الجامع الأعظم، وهما من تأسيس علي بن يوسف بن تاشفين عام 514 هـ وحطمهما الموحدون في نطاق محاربتهم العقيدة المرابطية التي وسموها بالتجسيم، والقضاء على مواطن تعليمها، وقد بلغ من تغيير معالم المدرسة القديمة عند تجديدها والمبالغة في تنميقها وتزويقها بالفسيفساء والجبس والخشب المنقوش أن نسبت مدة إلى مجددها عبد الله الغالب ولو أن اسم ابن يوسف بقي هو الشائع على الألسنة. وجامع الكتبيين العظيم ذو المنارة الشاهقة حتى الآن، وجامع الشرفاء المستحدث بحي المواسين، وجامع باب دكالة المعروف بجامع الحرة، وهو جامع شيدته مسعودة الوزكتية والدة أحمد المنصور[2]. وقد حرص السعديون ثم العلويون على أن يكون لكل مسجد يجدد أو يؤسس مكتبة علمية كان من أشهرها مكتبة ابن يوسف المتصلة بالجامع، وهي أم المكتبات المراكشية، وما تزال حتى الآن غنية بالمخطوطات النادرة. وهناك مكتبة جامع الشرفاء، ومكتبة الحرم العباسي، ومكتبة جامع الحرة، إضافة إلى مكتبة أحمد المنصور السعدي، وقد كانت مضرب الأمثال في ضم النفائس، وألفت لها كتب

---

(1) وقف الحسن الوزان في كتابه: وصف إفريقيا: 1/134 ـ 135 طويلاً عند مراكش متفجعاً لما أصابها من إهمال وخراب، حتى أصبح من المتعذر السير في معظم أحيائها لتراكم الأنقاض.

(2) المراكشي، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، المقدمة: (1:57 ـ 146).

عديدة من علماء المغرب والمشرق، وآل قسم منها إلى مكتبة الأسكوريال، وتبعثر قسم آخر في مكتبات المغرب العامة والخاصة[1]. هذا بالإضافة إلى المارستان الموحدي العظيم، وقصر البديع[2] الذي أجمع المؤرخون على أنه لم يبن من قبل مثله في المغرب كله، وكانت رحابه ملتقى العلماء والأدباء والخطاطين والموسيقيين وغيرهم من الفنانين من شرقي بلاد الإسلام وغربيها[3].

واحتفظت مراكش بطابعها العمراني السعدي إلى الآن، واتخذها كعاصمة عدد من الملوك العلويين إلى ما قبيل الحماية، ولما جدد السلطان مولاي سليمان جامع ابن يوسف نشطت الحركة التعليمية فيه وامتلأت مدرسته الكبرى بالطلبة الأفاقيين وغدا ينافس القرويين.

وبلغت المنافسة أشدها في عهدالحماية، حيث اتخذ المراكشيون لجامعتهم اسم «الجامعة اليوسفية»[4] وسعوا إلى أن يولّي طلبة الجنوب قاطبة وجوههم شطرها. وشجعت سلطات الحماية هذا التنافس لأغراض بعيدة عن العلم والتعليم، وشيدت ـ للأغراض نفسها ـ ثانوية محمد الخامس بمراكش، لتضاهي ثانوية مولاي إدريس بفاس، لكن روح الحكمة الوطنية التي تحلى بها الطلبة المراكشيون فوتت الفرصة على الاستعمار، وتخرج في كل من الجامعة العتيقة والثانوية الحديثة طلبة نابهون، احتلوا مكانتهم في صفوف الشبيبة المغربية المتحدة لمحاربة المستعمر وبناء صرح المغرب الجديد.

وشمل إصلاح ما بعد الاستقلال المؤسسات التعليمية بمراكش على كل

---

(1) الحركة الفكرية بالمغرب: 185:1، 190.

(2) وصف هذا القصر، عبد العزيز القشتالي، في كتابه: مناهل الصفا.

(3) تراجم أهم المدرسين بمراكش في العصر السعدي في الحركة الفكرية بالمغرب: 375:2 ـ 404 وفي العصر العلوي عند المراكشي، الإعلام: مثبوتة هنا وهناك.

(4) في إطار التنافس بين جامعتي مراكش وفاس ألّف محمد بن عثمان المراكشي كتاب الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمائة سنة (الرباط، 1356 هـ / 1937 م).

المستويات، ففتحت مدارس عديدة، وأضيف إلى ثانوية محمد الخامس ثانويات كثيرة، وأصبح جامع ابن يوسف «كلية اللغة العربية» على غرار كلية الشريعة بالقرويين. وأنشئت جامعة القاضي عياض فتأسست فيها كليات الآداب، والحقوق، والعلوم.

المحمدية أو تارودانت

تارودانت[1] إحدى المدن العتيقة المهمة في الجنوب، لوقوعها في بسيط خصيب على مقربة من وادي سوس، بين سلسلتي الأطلس الكبير والصغير، إلا أنها أهملت ـ كمراكش ـ أيام المرينيين، وأصابها الخراب، إلى أن جددها محمد المهدي الشيخ السعدي، وشيد جامعها الكبير والمدرسة القريبة منه، وبنى القصبة السلطانية داخلها، فنسبت المدينة إليه وسميت المحمدية. وبقيت عاصمة للسعديين زهاء ثلث قرن قبل أن ينتقلوا إلى مراكش. إلا أنها مع ذلك ظلت ثالثة المدن العلمية الكبرى ـ بعد مراكش وفاس ـ طوال العهد السعدي، وصدر الدولة العلوية، إذ كان فيها دار المخزن مقر خليفة السلطان من بين أبنائه، وفيها قاضي الجماعة ومفتي الديار السوسية، وتسكنها جاليات متحضرة من الأندلسيين والبرتغاليين الذين اعتنقوا الإسلام، ونفر غير قليل من العلماء السوسيين والمهاجرين حتى من تلمسان.

وكان بالمحمدية ـ إلى جانب المدرسة والمساجد الصغرى ـ ثلاثة جوامع كبرى للتدريس: جامع القصبة السلطانية وجامع سيدي أُسيدي، والجامع الكبير الذي يشبه القرويين في سعته وبلاطاته وصحنه وزخارفه. وأغلب ما كان يدرس بالمحمدية اللغة وقواعدها والفقه وأصوله وفروعه، والقراءات والتجويد، في

---

(1) تارودانت، صيغة شلحية تُعرّب فتكتب رودانة، وإليها ينسب فيقال روداني. وقد ترك هذا الاسم في عهد السعديين، ثم تنوسي اسم المحمدية بعد ذلك ورجعوا يدعونها تارودانت. وأصبح اسم المحمدية يطلق في العصر العلوي الثاني على مدينة فضالة القريبة من الدار البيضاء، نسبة لمجددها الملك محمد بن عبدالله (1204 هـ / 1790 م).

حين يلاحظ نقص في علوم الحساب والهندسة والفلك والطب[1] وازدهر الأدب بالمحمدية في العصر العلوي الأول[2] ثم طرأ فتور على التعليم بهذه المدينة إلى عهد الحماية، فأحيا السوسيون المدرسة السعدية، وأضافوا إليها مرافق جديدة، فقصدها الطلبة من مختلف جهات سوس، وغدت في نطاق التعليم العربي الحر ـ مركزاً حيوياً ورافداً من أهم روافد القرويين.

وبعد الاستقلال اتسع التعليم بمدينة ترودانت، سواء الأصيل أو الحديث، إلا أنها تخلت عن الزعامة العلمية لجارتها اكدير، التي أصبحت لأهميتها الاقتصادية والسياحية المدينة العلمية الأولى بسوس، فأسس فيها كلية تابعة لجامعة القرويين، وكليتان عصريتان للآداب وللعلوم.

مكناس

تأثرت مكناس ـ في ميدان التعليم ـ منذ القديم بقربها من فاس، وكانت في مطلع القرن العاشر الهجري ما تزال تتمتع بمدارسها المرينية الثلاث، وخزائنها العلمية، ولو أن السياسة التعسفية لبعض الأمراء الوطاسيين أبعدت عن مكناس عالمها الكبير محمد بن غازي وجماعة من طلبته العلماء، فانتقلوا إلى فاس. وبذلك ضعفت الحركة التعليمية بهذه المدينة إلى أن حل بها الأمير العالم زيدان بن أحمد المنصور فأحيا معاهدها العلمية وشحن مكتباتها بنفائس المؤلفات[3]. وكان ذلك انعكاساً للحظ العظيم الذي ينتظر هذه المدينة عندما تصبح عاصمة لمولاي إسماعيل[4].

---

(1) وردت تراجم أشهر المدرسين بالمحدية في العصر السعدي في الحركة الفكرية بالمغرب: 2:406 ـ 413، وفي العصر العلوي عند محمد المختار السوسي، سوس العالمة: ص 121 ـ 153، 181 ـ 209.

(2) محمد المختار السوسي، سوس العالمة: ص 64 وما بعدها.

(3) الحركة الفكرية بالمغرب: 2:437 ـ 442.

(4) خص عبد الرحمن بن زيدان العلوي مسقط رأسه مكناس بكتابه الضخم: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، وطبعت منه خمسة أجزاء.

اشتهر مولاي إسماعيل بمبانيه العظيمة، سواء الأسوار والأبراج والقصور، والقصبات العسكرية أو المساجد والمدارس العلمية، في المغرب عموماً وحاضرته مكناس بصفة خاصة. ومن المعاهد الدينية ـ العلمية التي أنشأها أو جددها بمدينة مكناس، مسجد للاعودة، ومسجد بريمة، ومسجد الصهريج، ومدرسة الشهود[1].

واستوطن مدينة مكناس في عهد مولاي إسماعيل عدد كثير من العلماء، جاؤوها من مختلف أنحاء البلاد، حتى من جبال الريف والسوس الأقصى، لشغل مناصب القضاء والوزارة والكتابة، أو للقرب من البلاط لأغراض مختلفة، واشتغل كثير من هؤلاء ـ إلى جانب المكناسيين ـ بالتدريس في المساجد القديمة والمستحدثة، أو في المجالس العلمية التي كان يعقدها السلطان في قصره[2].

وتأثرت مكناس أكثر من المدن الأخرى بفترة الاضطرابات التي أعقبت وفاة مولاي إسماعيل ودامت زهاء ثلث قرن (1139 ـ 1171 هـ / 1727 ـ 1757 م) ولم تسترجع من نشاطها العلمي، بعد أن عاد إليها الاستقرار السياسي إلا قسطاً يسيراً، وعرفت في فترة الحماية حركة نشيطة في التعليم الحر قامت نتيجة رد فعل لتهاون السلطات الفرنسية إزاء تعليم الأهالي، واهتمامها بتشييد المعاهد الضخمة لتعليم أبناء المستعمرين الفرنسيين المستحوذين على السهول الخصبة الشاسعة المحيطة بمدينة مكناس.

وبعد الاستقلال نالت العاصمة الإسماعيلية حظها الوافر من المجهود الوطني في التعليم، وصارت مدينة جامعية بكلياتها الأدبية والعلمية التابعة لجامعة سيدي محمد بن عبد الله[3].

---

(1) هذه إحدى المدارس المرينية الثلاث بمكناس، وكانت تدعى من قبل مدرسة الخضارين لوقوعها في طرف سوق الخضر القديم، ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس: 1:117؛ محمد حجي، الحركة الفكرية في المغرب: 2:437، والهامش 1.

(2) المصدر نفسه في التراجم المرتبة على حروف الهجاء في كل الأجزاء.

(3) أصبح لمكناس جامعة مستقلة تسمى جامعة مولاي إسماعيل.

تطـــوان

جدد الأندلسيون المهاجرون من غرناطة ـ قبيل سقوطها ـ مدينة تطوان[1] وعمروها بالتعاون مع من انضم إليهم من أهل جبال الريف، وغلب عليها الطابع العسكري في الفترة الأولى، ثم أخذ التعليم فيها طريقه بعد أن هاجر إليها عدد من العلماء الفاسيين وغيرهم[2].

وتعددت المساجد والزوايا داخل تطوان في القرن الحادي عشر (17 م). ومنها «الزاوية الفاسية» بحي العيون، وقد أسسها الشيخ أبو المحاسن الفاسي[3] (ت. 1013 هـ / 1604 م) ودرس بها وكان من أول المدرسين ابنه المؤلف الشهير محمد العربي الفاسي[4](ت 1052 هـ / 1642 م). وفي العصر العلوي تكونت أجيال من العلماء التطوانيين حيث أصبحوا القائمين على التدريس بمدينتهم[5]، دون أن تختلف المادة التعليمية عندهم عما كانت عليه بالقرويين، إلا ما بقي بارزاً من غلبة الطابع الأندلسي في القراءات والطب الموسيقى.

وقد اضطربت أحوال التعليم بتطوان، في جملة ما اضطرب فيها، على إثر معركة إسلي (1260 هـ / 1844 م) التي أدت إلى احتلال الإسبانيين المدينة، ونزوح أسر تطوانية كثيرة إلى الجبال المجاورة. وظلت حالة التعليم بتطوان قلقة حتى بعد خروج الإسبانيين منها. الأمر الذي يفسر ضعف مشاركة التطوانيين في حركة تحديث التعليم أيام محمد الرابع والحسن الأول، رغم قربهم من طنجة

---

(1) تدعى أيضاً تطاوين، وهو الصحيح، والكلمة بربرية جمع (تيط) بمعنى عين جارية. وهي قديمة وجدت قبل الإسلام وبقيت عامرة إلى أن خربها الغزاة الإسبان في نهاية القرن الهجري الثامن (14 م). وظلت مهجورة قرناً من الزمان قبل أن يجددها الأندلسيون عام 888 هـ / 1483 م. وألف محمد داود التطواني: تاريخ تطوان في عشرة أجزاء ضخام، طبع منها سبعة أجزاء (1379 ـ 1390 هـ / 1959 ـ 1970 م).

(2) وردت تراجم بعض المدرسين بتطوان في العهد السعدي في الحركة الفكرية في المغرب: 2:417 ـ 421.

(3) المرجع نفسه: 2:364، والهامش 57، حيث ترجمته.

(4) المرجع نفسه: 2:240، والهامش 12، حيث ترجمته.

(5) محمد داود، تاريخ تطوان: هنا وهناك.

مكان تجمع الشبان المغاربة، ومنطلق البعثات التعليمية إلى الخارج.

ولما فرض الإسبانيون حمايتهم على المنطقة الشمالية بالمغرب (1330 هـ / 1912 م)، اتخذوا من تطوان عاصمة لمنطقة نفوذهم، وراحوا يضاهون بها مضاهاة باهتة مدينة الرباط في كل المظاهر السياسية والإدارية والعلمية، ولم تختلف السياسة الإسبانية في مبدأ الهيمنة والحكم المباشر عن السياسة الفرنسية، إلا أن الإسبانيين جنحوا إلى شيء من التساهل والتزلف للأهالي في ميدان التعليم، فلم يضايقوا المدارس العربية الحرة التي كانت تفتح إلى جانب المدارس الإسبانية، وسمحوا باستقدام أساتذة من الشرق العربي للتدريس بها، كما سمحوا ـ بل شجعوا ـ على إرسال بعثات طلابية إلى مصر، وفتح «دار المغرب» بها للعناية بشؤون الطلاب..

وأسس الإسبانيون بتطوان معهد الجنرال فرانكو للأبحاث الإسبانية العربية على غرار معهد الفرنسيين بالرباط، فقام مثله بأبحاث وندوات لم تخل من مسحة استعمارية، ونشر عدداً من الكتب الإسبانية والعربية.

وبعد تحرر المنطقة الشمالية من الحماية الإسبانية، وتوحيد شطري المغرب في الشمال والجنوب أسست بتطوان مدارس وثانويات ومعاهد على نحو ما أسس بمدن الجنوب، كالمعهد الأصلي الذي تطور فأصبح كلية لأصول الدين تابعة لجامعة القرويين، وكليتي العلوم والآداب التابعتين لجامعة سيدي محمد بن عبد الله. وينتظر فتح كليات أخرى بتطوان لتكون نواة إنشاء جامعة مستقلة فيها(*).

سلا والرباط

يرجع تأسيس مدينة سلا إلى عهد الرومان، فهي مدينة عتيقة، أما الرباط وقصبتها فحديثتان، وهما من تأسيس يعقوب المنصور الموحدي أواخر القرن السادس (12 م). وقد خلت الرباط والقصبة منذ عهد تأسيسهما إلى أن عمرهما الأندلسيون المهاجرون في أوائل القرن الحادي عشر (17 م). لذلك فإن الحركة التعليمية في العصر السعدي لم تكن قائمة إلا في سلا، بجامعها الأعظم الذي

(*) تم بالفعل إنشاء جامعة عبدالملك السعدي بتطوان.

تفوق مساحته مساحة القرويين، والمدرسة المرينية المجاورة له من جهة القبلة[1].

اشتغل بالتدريس في سلا في العصر السعدي سلويون أقحاح كآل ابن سعيد وابن عطية، والشماخ، ومهاجرون جاؤوا من سلاس، والقصر الكبير، والعونات بدكالة، وأبي الجعد بتادلا[2]. واتسع النشاط التعليمي بسلا والرباط معاً في العهد العلوي، بعد أن هاجر إليهما بعض علماء زاوية الدلاء[3]، وكثر الطلبة من أبناء الجالية الأندلسية بصفة خاصة، فلم يمض جيلا ـ أو ثلاثة حتى غدا العلماء والمدرسون والمؤلفون في العدوتين[4] يعدون بالعشرات[5].

واهتم الملوك العلويون بالمرافق التعليمية بالعدوتين، منذ مولاي إسماعيل الذي أنشأ مدرسة درب والزهرا لسكنى طلبة العلم بالرباط[6]. وسيدي محمد بن عبد الله مؤسس جامع السنة بالرباط أيضاً، ومولاي سليمان باني جامع السويقة بالرباط وجامع الحدادين بسلا.

وتغيرت أحوال المدينتين في عهد الحماية، فأصبحت الرباط عاصمة

---

(1) في سلا مدرستان أخريان، إحداهما موحدية من بناء السلطان يعقوب المنصور، غربي الجامع الأعظم وتعرف بالمدرسة الجوفية، والثانية مرينية أنشأها السلطان أبو عنان لتكون مدرسة طبية، وتعرف بالمارستان، وبعد إهمالها صارت فندقاً يدعى «أسكور» ثم أصبحت اليوم محكمة شرعية. أما المدرسة الموحدية فقد جددت في عهد الحماية كمدرسة حرة للتعليم العربي بأمر من محمد الخامس، وسميت لذلك المدرسة المحمدية.

(2) وردت تراجم رجال التعليم بسلا في العهد السعدي في الحركة الفكرية في المغرب: 443:2 ـ 449.

(3) الزاوية الدلائية: 114 ـ 121.

(4) المراد بالعدوتين سلا والرباط.

(5) محمد بوجندار، مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح، ومحمد بن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز، مخطوط في (الخزانة العامة بالرباط). وعبد الله السويسي، تاريخ رباط الفتح.

(6) صارت اليوم زاوية للطائفة الحراقية، وبالرباط مدرسة قديمة للملاحة بناها الموحدون بجوار القصبة تعرف حتى اليوم بالمدرسة، ومدرسة الجامع الكبير التي أصبحت مارستانا للمرضى، عبد الله السويسي، تاريخ رباط الفتح: ص 138 ـ 139.

البلاد، وأسس بها الفرنسيون ثانوية مولاي يوسف إلى جانب عدد من المدارس الابتدائية فيها وفي سلا للبنين والبنات. كما أسسوا بالرباط معهد الدراسات العليا المغربية، والخزانة العامة سنة 1926م. فاصطبغت دراسات المعهد ومنشوراته ومقتنياته بصبغة استعمارية حيث كان الاهتمام منصباً على دراسة اللهجات العربية العامية والبربرية، وتاريخ المغرب وجغرافيته، من أجل تمكين السلطة الفرنسية في البلاد، وتشويه الحضارة المغربية الإسلامية لتحل الحضارة الفرنسية المسيحية محلها.

وبعد الاستقلال أنشئت جامعة محمد الخامس بالرباط، أول جامعة مغربية عصرية (27 دجنبر 1957 م) وفتحت كلية الآداب في مقر معهد الدراسات العليا المغربية، إضافة إلى كليات العلوم، والحقوق، والطب. وتوالى فتح الكليات والمعاهد العلمية والتقنية والإدارية بالرباط وسلا فأصبحتا المركز العلمي الأول بالمغرب.

وهكذا تطورت الحركة التعليمية بالمغرب خلال القرون الخمسة الأخيرة انبعاثاً وانتشاراً مع السعديين، وتمكناً واستقراراً مع العلويين، ثم إقلاعاً في فضاء العلم الفسيح بعد التخلص من نير الاستعمار.

ثبت المصادر والمراجع

أ ـ العربية:

1 ـ أبو بكر زنيبر بن الطاهر السلوي:

الحالة العلمية في المغرب قبل الحماية وبعدها. (مخطوطة المؤلف بسلا).

2 ـ أحمد المنجور:

فهرس.

3 ـ الإفراني، محمد السوسي المراكشي:

أ ـ صفوة من انتشر. المطبعة الحجرية بفاس، د.ت.

ب ـ نزهة الحادي في أخبار القرن الحادي. المطبعة الحجرية بفاس، د.ت.

4 ـ الحجوي، محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي:

الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، 4 أجزاء، مطبعة إدارة المعارف بالرباط والبلدية بفاس، 1345 ـ 1349 هـ ـ 1926 ـ 1930 م).

5 ـ ابن زيدان، عبد الرحمن العلوي:

إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، خمسة أجزاء، المطبعة الوطنية بالرباط، 1348 ـ 1352 هـ ـ 1930 ـ 1933 م.

6 ـ السجلماسي، عبد الواحد الحسني:

فهرس، (مخطوطة خاصة بالرباط).

7 ـ عبد الله السويسي:

تاريخ رباط الفتح، الرباط، 1979 م.

8 ـ ابن غازي، محمد بن أحمد المكناسي:

فهرس: التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد، تحقيق: محمد الزاهي، مطبعة دار المغرب ـ الدار البيضاء، 1979 م.

9 ـ الفشتالي، عبد العزيز:

مناهل الصفا، تحقيق: عبد الله كنون، المطبعة المهدية، تطوان، 1384 هـ ـ 1964 م.

10 ـ محمد بوجندار:
أ ـ الاغتباط بتراجم أعيان الرباط، مخطوطة رقم 1887 بالخزانة العامة، الرباط.
ب ـ مقدمة الفتح في تاريخ رباط الفتح، الرباط، 1345 هـ.
11 ـ محمد حجي:
أ ـ الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، جزآن، مطبعة فضالة، المحمدية، 1977 ـ 1978 م.
ب ـ الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، الرباط، 1384 هـ ـ 1964 م.
12 ـ محمد داود التطواني:
تاريخ تطوان، عشرة أجزاء طبع منها سبعة، د. م. 1379 ـ 1390 هـ ـ 1959 ـ 1970 م.
13 ـ محمد عابد الجابري:
أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د. ت.
14 ـ محمد بن عثمان المراكشي:
الجامعة اليوسفية بمراكش في تسعمئة سنة، الرباط، 1356 هـ ـ 1937 م.
15 ـ محمد العربي الفاسي:
مرآة المحاسن.
16 ـ محمد بن محمد الأخضر:
الحياة الأدبية بالمغرب على عهد الدولة العلوية، الدار البيضاء، 1977 م.
17 ـ محمد المختار السوسي:
سوس العالمة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1380 هـ ـ 1960 م.
18 ـ محمد بن مرزوق:
المسند الصحيح الحسن، مدريد، د. ت.
19 ـ محمد المنوني:
مظاهر يقظة المغرب الحديث. ط، بيروت، 1985.
20 ـ محمد ميارة:
نظم اللآلي والدرر، مخطوط رقم 3702 ر، الخزانة الحسنية بالرباط.
21 ـ المراكشي، عباس بن إبراهيم:
الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، عشرة أجزاء، المطبعة الملكية، الرباط، 1974 ـ 1983 م.

22 ـ المقّري، أحمد:
أزهار الرياض.
23 ـ وزارة التربية الوطنية، المغرب:
جامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف، الكتاب الذهبي، مطبعة فضالة، المحمدية، 1379 هـ ـ 1960 م.

ب ـ الأجنبية:

- JACQUES CAILLE, **La Petire Histoire du Maroc** (E. Atlantique, Casablanca, 1954).
- PAUL MARTY, **Le Maroc de demain** (Paris, 1925).
- PIERRE DE CENIVAL, MAROC: Vie intellectuel in **ENCYCLO-PEDIE DE L'ISLAM** (LEYDE «Paris», 1913 - 1942) 3:340 et suiv.

مراكز التعليم في المغرب
أيام السعديين(*)

اتخذ السعديون مدينة مراكش عاصمة لهم لقربها من منبت دولتهم في بلاد سوس ودرعة، لكن مضى نحو نصف قرن على التفاف أهل الجنوب على محمد القائم السعدي ومبايعته على الجهاد قبل أن يخضع المغرب كله للدولة الجديدة. وظلت البلاد خلال هذه الفترة الطويلة موزعة بين السعديين في مراكش العاملين على بسط نفوذهم في كل البلاد الواقعة جنوبي نهر أم الربيع، وبين الوطاسيين أمراء فاس الذين أخذت رقعة نفوذهم تضيق باستمرار حتى اقتحم عليهم محمد الشيخ السعدي حاضرتهم الإدريسية وأخرجهم منها مكبلين في الأصفاد (956 هـ / 1549 م) وخلص المغرب كله للسعديين بعد ذلك بعامين حينما قضوا على محاولة أبي حسون الوطاسي عميل أتراك الجزائر. وقد عرفت مراكش ازدهاراً كبيراً في هذا العهد لا سيما بعد أن صارت عاصمة امبراطورية أحمد المنصور العظيمة الممتدة إلى ما وراء نهر النيجر جنوباً، ومن شواطىء السودان الغربية إلى حدود بلاد النوبة المصرية شرقاً. غير أن هذه الدولة التي بلغت قمة المجد بعد كد ومعاناة، ما لبثت أن تردت بسرعة في مهواة الفوضى والانحلال على إثر وفاة المنصور، فتوزع أمراء البيت المالك - بعد وقائع دامية - مناطق النفوذ في مراكش وفاس، ونبذ طاعتهم أرباب الزوايا وغيرهم في سلا، والدلاء، وايليغ، وتارودانت، وسجلماسة. وكثرت حواضر (أمراء الطوائف) فبقيت البلاد فريسة اضطرابات خطيرة أزيد من نصف قرن أيضاً قبل ن يقبض الرشيد بن الشريف العلوي على الأمر بيد من حديد ليجتث جذور الانحلال عام 1081/ 1670.

(*) نشر في مجلة البحث العلمي بالرباط، العدد 6 والعدد 7 (1965 - 1966).

ويمكن تقسيم العصر السعدي إلى عهدين متميزين يمثل أولهما طور النشوء والإقبال (915 ـ 1012 ـ 1509 ـ 1603) أو القرن الهجر العاشر. والثاني طور الانحلال والإدبار (1012 ـ 1081/ 1603 ـ 1670). أو القرن الهجري الحادي عشر.

وسأتحدث أولاً عن مراكز الثقافة في العصر السعدي الأول، ثم عن مراكز العصر الثاني، مشيراً إلى أهمية كل مركز وبعض من اشتغل فيه بالتدريس سواء من العلماء المحليين أو من الطارئين عليه من مدن أو أقطار أخرى، خصوصاً المغربين الأوسط والأدنى قبل أن أذكر باقتضاب المواد المدروسة، والكتب المقروءة في كل فن، وأشير إلى أماكن الدراسة من مساجد ومدارس ودور خاصة، لا سيما الكراسي العلمية في القرويين وغيرها بفاس، وأختم العرض بذكر نبذة من فصول الدراسة وأيامها وأوقاتها، وطرق معيشة العلماء والطلبة، والمساعدة التي كانوا يلقونها من عامة الناس وخاصتهم.

1مراكز الثقافة في العصر السعدي الأول:

لقد تأثرت الثقافة المغربية ومراكزها المختلفة خلال القرن الهجري العاشر (16 م) تأثراً كبيراً بالتطورات السياسية في الداخل وفي الأقطار المجاورة، فعلاوة على نكبة المسلمين في الأندلس وما أعقبها من هجرات متوالية إلى بلاد المغرب، الأمر الذي أحدث تغييراً في خريطة هذه البلاد بإحياء مدن مندثرة وتعمير أخرى أو توسيعها كتطوان والرباط والقصبة، كانت هناك عوامل أخرى قد أثرت في هذه المراكز، أهمها احتلال البرتغاليين لكثير من الثغور المغربية، واستيلاء الإسبانيين على بعض الشواطىء الجزائرية ـ التونسية، ونزول الأتراك في القطرين المجاورين. نتج عن العامل الأول اختفاء مراكز ثقافية قديمة كان لها شأن كبير في المغرب مثل سبتة وطنجة المحتلتين منذ القرن السابق، وأزمور وأسفي اللتين لم تسترجعا نشاطهما العلمي بالرغم من تمكن السعديين من استردادهما من يد الغاصبين. وكان هجوم الإسبانيين في أوائل هذا القرن على شواطىء الجزائر وتونس سبباً في نزوح طائفة مهمة من علماء وهران وتونس

وانتشارهم في المدن المغربية التي اطمأنت فيها نفوسهم وراجت بضاعتهم. أما تسلط الأتراك على القطرين المجاورين فكان مثار ردود فعل قوية في بعض الجهات خصوصاً عند التلمسانيين الذين قادهم علماؤهم لاستنكار الاحتلال ومقاومته، فجرت مذابح رهيبة على يد خير الدين عروج التركماني، غادر على أثرها عدد وافر من علماء تلمسان مدينتهم ليستقروا نهائياً في فاس ومراكش وتارودانت وغيرها من المراكز الثقافية المغربية.

أحدثت هذه الهجرات المتلاحقة تغييرات مهمة سواء في الهيئة التعليمية بالمغرب أو في المواد المدروسة وأساليب التعليم، فعدنا لا نكاد نجد مركزاً علمياً في حواضر المغرب وبواديه إلا وبه من الطارئين عليه من الأندلس أو وهران أو تونس أو تلمسان. ولم يستأثر هؤلاء الوافدون باهتمام الطلبة والمتعلمين فحسب، بل جلبوا إليهم أنظار زملائهم في التدريس، وأرباب السلطة من ملوك وأمراء وكبار رجال الدولة، فدرسوا في القصر والمسجد والمدرسة، وعكف بعضهم على تعليم مواد فلسفية ورياضية انتشرت عنهم في المغرب بعد أن كان حظها فيه ضعيفاً، بينما استقر آخرون منهم في مناطق بربرية استهووا أفئدة طلبتها وعامتها بفصاحة عباراتهم وغزارة مادتهم ونشروا فيهم اللسان العربي المبين.

على أن أهم الأحداث الداخلية في هذا العصر هو انتقال السلطة إلى أيدي السعديين الدرعيين. فبعد أن ظلت فاس نحو ثلاثة قرون مركز النشاط السياسي والعلمي على عهد المرينيين والوطاسيين، صرف عنها السعديون وجههم إلى الجنوب، فاحتلت مراكش بذلك الصدارة في جميع الميادين، وقصدها العلماء حتى من المدينة الإدريسية نفسها، وغدت في النصف الثاني من القرن الهجري العاشر المركز الثقافي الأول في المغرب، تليها فاس، ثم المراكز الصغيرة التقليدية كمكناس وسجلماسة ودرعة وسوس، وتادلا وسلا، وبلاد غمارة والهبط.

مراكش:

قلنا إن مراكش قد بذت فاساً في هذا العصر من الوجهة العلمية بعد أن

أصبحت حاضرة السعديين ودار ملكهم، غير أن هذا التفوق لم يكن أصيلاً ولا دائماً، فأكثر العلماء والأدباء الذين زخرت بهم مراكش إذ ذاك إنما كانوا غرباء نزحوا إليها من فاس أو من مراكز علمية أخرى داخلية، أو جاءوها من الأندلس أو الجزائر أو السودان أو الشرق العربي، على أن بعض هؤلاء الطارئين قد استوطنوا عاصمة الجنوب مدى الحياة حتى ضمت تربتها أعظمهم ودرج على أديمها من بعدهم أبناؤهم وأحفادهم.

ومن أشهر العلماء[1] المراكشيين في هذا العصر الذين اشتغلوا بتدريس العلوم الدينية من تفسير وحديث وعقائد:

علي السكتاني[2] الذي تولى الإفتاء والتدريس بمراكش طيلة عهد محمد الشيخ المهدي إلى أن قتل معه في حادثة الاغتيال التي قام بها جنود اليكشارية الأتراك عام 964/ 1556 م.

وأبو عبد الله الحساني[3] الدرعي النشأة الذي خلف السكتاني في خطتي الفتوى والتدريس بمراكش، وكان قوي الذاكرة، بحاثاً عن المشاكل العلمية، مطلعاً على غريب الكتب. لقيه ابن عسكر فأعجب به وقال عنه في الدوحة ـ ص 70 ـ «. . . شاركته في مسائل عدة فرأيت من حفظه وكثرة اطلاعه على مظان المسائل في الدواوين العجب».

وعبد الواحد الحسني[4] السجلماسي الذي كثر الآخذون عنه في مراكش حتى عد شيخ الجماعة بها. وهو وإن لم يعرف عنه أنه درس غير المواد الدينية واللسانية فإنه أديب جيد النثر طويل النفس في الشعر، أورد له الفشتالي في مناهل الصفا، والمقري في روضة الآس قصائد في أغراض شتى وقطعاً نثرية

---

(1) لن أتعرض لتراجم العلماء الذين ترد أسماؤهم في هذا البحث إيثاراً للاختصار مكتفياً بالإشارة إلى بعض مصادر تراجمهم لمن يريد مزيد التوسع.

(2) ترجم له ابن عسكر في دوحة الناشر ص 77.

(3) ترجمته في المصدر السابق ص 70.

(4) ترجم له العربي الفاسي في مرآة المحاسن ص 186، والقادري في نشر المثاني، 1:14 ـ 16.

رصينة. وتدل الفهرست التي ذكر فيها أشياخه وما قرأ عليهم وإجازتهم له على مدى تضلعه العلمي ومشاركته الواسعة.

ومحمد المربي الشريف[1] صاحب المجالس العلمية في مختصر ابن الحاجب، وأصول الدين والمنطق وغير ذلك.

ومحمد بن أبي عبد الله الرجراجي[2] قاضي الجماعة بمراكش وفارس التدريس بها الذي تخرج على يده أكابر علماء الجنوب، وكان أحمد المنصور يحضره في المجالس التي يدعو إليها العلماء للمناظرة فيبدو تفوقه عليهم، وقد «ورد به المنصور مدينة فاس فقدمه لإقراء التفسير فعجب منه علماؤه»[3].

وعبد الواحد الرجراجي[4] أستاذ العلوم العقلية والنقلية وأحد أعلام علماء مراكش ونبهائها الذين لقيهم المقري في رحلته فأطنب في التنويه به ووصفه بحدة الفهم وقوة الإدراك، وذكر له بعض التآليف في التوحيد وقواعد اللغة التي أنشأها لخزانة الملك المنصور. وقد اطلع المقري في مكتبة هذا العالم المراكشي على كتب نادرة لم يسبق له ولا لبلدييه التلمسانيين العثور عليها، كحواشي الإمام اللقاني على توضيح خليل، فأهداه الرجراجي نسخاً منها انقلب بها المقري إلى أهله مسروراً وكانت محط استغراب علماء تلمسان قاطبة.

وقد اشتهرت مراكش ـ مدينة ابن البناء ـ منذ القدم بالبراعة في الرياضيات، وفي العصر الذي نتحدث عنه نجد طائفة من الحيسوبيين والمهندسين والمنجمين منتشرين في مساجد مراكش يثقفون عقول الطلبة بما لديهم من قواعد، ويشحذون أذهانهم بمختلف الأشكال والعمليات، ومن أشهرهم:

أحمد بن حميدة المطرفي[5] الذي درس الحساب والتنجيم في المغرب

---

(1) ذكره المقري في روضة الآس، ص 173.

(2) ترجم له ابن القاضي في درة الحجال، وعباس بن إبراهيم في الإعلام، 4: 263 ـ 266.

(3) عبد الرحمن التامنارتي، الفوائد الجمة، 1:50.

(4) ترجم لع المقري في روضة الآس، 315 ـ 316.

(5) ترجم له ابن القاضي في جذوة الاقتباس، ص 83. والقادري في نشر المثاني، 1:22. =

والمشرق قبل أن يتصدر للتدريس بمراكش، ويؤلف الشرح الهام لروضة الأزهار في التوقيت. ذكره ابن القاضي في الجذوة ـ ص 83 ـ في باب الغرباء الداخلين إلى فاس وقال: «لقيته وأجاز لي عن أشياخه كل ما يحمله عنهم».

وأحمد بن التقليتي[1] الرياضي الكبير قضى حياته في تدريس الحساب والتعديل والمساحات والهندسة حتى عده المؤرخون شيخ الجماعة بمراكش في تلك الفنون. على أن الملك أحمد المنصور الذهبي نفسه كان رياضياً موهوباً شغوفاً بدراسة الكتب الأصيلة لا سيما المترجمة عن اليونانية، وقد جمع حوله طائفة من الرياضيين ليدرسوا معه تلك الكتب، مثل أحمد بن القاضي[2] والحسن المسفيوي[3] فكان هذا الأخير يقرأ بين يديه كتاب أقليدس، بينما يقوم الأول بالشرح والحل، غير أن ابن القاضي اعترف ـ في أكثر كتبه ـ بتقصيره وحرج موقفه أمام حدة ذهن المنصور وسبقه في حل تلك الأشكال المعقدة. وعقد ابن القاضي مجالس خارج القصر، درس فيها للطلبة فروع الرياضيات وما يتصل بها من فرائض، وأخذ عنه هذا العلم الذي يعتبر مادة اختصاصه شيوخ مراكش واستجازوه الكتب العديدة التي ألفها في الحساب والجبر والهندسة[4].

وإلى جانب هؤلاء الرياضيين وأولئك الفقهاء واللغويين وجد أدباء مراكشيون عنوا في هذا العصر بدراسة الأدب وأصوله من لغة، وبلاغة، وعروض، وتاريخ، ومقامات، وقصائد شعرية جاهلية وإسلامية عرفت بالجزالة ومتانة الأسلوب. وبلغت مراكش شأواً بعيداً في هذا الميدان، فعجت جنباتها الفسيحة بنبهاء الكتاب ونبغاء الشعراء. ونحن وإن لم يكن باستطاعتنا ولا من حقنا أن نقوّم ذلك الأدب فإننا لا نتردد في أن نقول على وجه الإجمال أنه كان

= وابن إبراهيم في الإعلام، 42:2.

(1) ترجم له ابن القاضي في درة الحجال، وعباس بن إبراهيم في الإعلام، 37:2.

(2) أتى المقري بترجمة مطولة لشيخه ابن القاضي في روضة الآس، ص 239 ـ 299. كما ترجم له القادري في نشر المثاني، 128:1 ـ 130.

(3) ترجم له المقري في روضة الآس، ص 163 ـ 173.

(4) انظر أسماء هذه الكتب وأخبارها في جدول مؤلفات ابن القاضي من كتابي الزاوية الدلائية ص 93.

يمثل أرقى وأمتن وأخصب ما وصل إليه الأدب العربي في ذلك العصر. ومن كبار الأدباء الذين تصدروا للتدريس والتأليف بمراكش:

سعيد الماغوسي[1] أبو جمعة الذي لم يكتف بما درس على علماء قومه وأدبائهم فرحل إلى الشرق العربي حيث بقي عشر سنوات (974 ـ 983) يأخذ عن أعلامه، ثم قام برحلة علمية أخرى إلى القسطنطينية حاضرة الخلافة العثمانية يستقصي ما فيها من المعارف والآداب ليرجع إلى بلدته مراكش عالماً واسع الاطلاع، أديباً غزير المادة، يروي غلة الطلبة المتعطشين للآداب، ويمدهم بكتبه الفريدة التي ألفها لخزانة الملك المنصور فأجيز عليها بآلاف الأوقيات الذهبية. وقد لقي المقري هذا الأديب بمراكش وحلاه بألقاب عالية: «بديع العرب بل الدنيا، وحائز قصب السبق في العلم والتأليف بلاتنيا». وقال عن تآليفه الكثيرة إنها كلها في غاية الإجادة، وذكر منها نظم الفوائد الغرر، في سلك فصول الدرر. وهو شرح لدرر السمط لابن الأبار. وشرح مقصورة عبد الرحمن المكودي. وإيضاح المبهم من لامية العجم. وإتحاف ذوي الأرب، بمقاصد لامية العرب. ولم يذكر له المقري ضمن مؤلفاته الأدبية ترتيب ديوان المتنبي[2] مع أنه من جملة الكتب التي ألفها لخزانة المنصور. وقد ذكر الماغوسي في مقدمة شرح لامية العرب أن الذي دعاه إلى ذلك التأليف غرضان، أحدهما حض عمر بن الخطاب على تعليم قصيدة الشنفري وتحصيلها، والثاني إسعاف الطلبة الراغبين في دراستها بما ينير لهم سبيل فهمها. وأعجب المشارقة بشرح الماغوسي للامية العجم، على كثرة شراحها منهم، وقرظة من شيوخ الأزهر العالمان بدر الدين القرافي المالكي، وناصر الدين الطبلاوي الشافعي[3]. وأكثر من لقيهم المقري في رحلته إلى مراكش كانوا من الأدباء، وكأنه لم يعن في روضة الآس إلا بهذا الصنف من الناس، فكان كتابه هذا سجلاً لأخبارأدباء ذلك العصر، وديواناً لمختار أشعارهم.

---

(1) ترجم له المقري في روضة الآس، ص 226 ـ 239.

(2) يوجد هذا الكتاب مخطوطاً في مكتبة تطوان العامة.

(3) أورد المقري نص التقريظين في روضة الآس، ص 235 وما بعدها.

وعاش في مراكش لهذا العهد علماء عديدون وفدوا عليها من مختلف الجهات كما ذكر. منهم أندلسيون مثل:

أبي عبد الله الأندلسي[1] الفقيه المعقولي المشارك في الرياضيات والكيمياء والطب والهيئة وغيرها، الذي ثار على الفروع الفقهية وأخذ ينحو منحى ابن حزم في الأخذ بظاهر الكتاب والسنة بدلاً من تقليد الأئمة الذين كانوا محط انتقاداته وتهجماته، يشايعه في ذلك تلاميذه الكثيرون. فكانت ضجة في مراكش أفتى الفقهاء فيها بتضليله فسجن، ثم عاد إلى أكثر مما كان عليه بعد إطلاق سراحه، فسجن ثانياً، وأخيراً كثر أنصاره فسموا أنفسهم بالمومنين، وغيرهم بالمالكيين. وكانت نهايته القتل والصلب على أيدي العامة.

وأحمد الشهاب الحجري[2] وهو من الأدباء الموريسكيين الذين تأخرت هجرتهم من الأندلس، فخرج منها متنكراً في سفينة إسبانية حملت الزرع من ثغر شنتمرين إلى البريجة (الجديدة) في أخبار طويلة فصلها في كتابه رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب. كما أتى فيه بأوصاف مدققة عن جيش المنصور وخيله، ولباس الجند في الأعياد وطريقة مراقبتهم وإثباتهم في الديوان، وطغت عليه فكرة استرداد الأندلس لما رأى من قوة جند المغرب ووفرة عدده وعدده فرددها كثيراً. وقد اعتمد الإفراني رحلة الشهاب كمصدر لكتابه صفوة من انتشر.

وأحمد بن القاسم[3] ابن معيوب الأندلسي أستاذ الرياضيات والتوقيت ومؤلف كتاب تقويم السيارة، وكتاب السر المكتوم في مخاطبة النجوم. وكانت له حظوة في البلاط السعدي معدوداً من منجمي القصر. فهلك على يد زيدان ابن المنصور حين أخبره بأنه سينهزم انهزاماً شنيعاً في حركة كان يتهيأ للخروج إليها.

وانتقل إلى مراكش عدد وافر من العلماء الفاسيين استهوتهم (بهجة)

---

(1) لقيه ابن عسكر وذكر أخباره في دوحة الناشر، ص 80 ـ 81.
(2) ترجم له عباس بن إبراهيم في الإعلام، 69:2 ـ 72.
(3) ترجم له عباس بن إبراهيم في الإعلام: 82:2.

الحاضرة فهجروا مدينتهم الإدريسية. ويكاد يكون جميع أعلام فاس قد ذهبوا إلى مراكش وأقاموا فيها مدداً قد تطول وقد تقصر، حتى القضاة الرسميون منهم كانوا يستنيبون في وظائفهم ليتمكنوا من المقام في مراكش أطول ما يمكن، فيدرسون ويناظرون ويؤلفون. ولن نورد هنا إلا أمثلة لتلك الطائفة التي سكنت مراكش بكيفية نهائية، مثل **محمد بن أحمد السالمي**[1] العالم المشارك الذي اشتغل بتدريس الفقه والفرائض والحساب. و**محمد بن يوسف الترغي**[2] أستاذ القراءات والحديث الذي تكون تكويناً عالياً في المغرب والمشرق، واختص أولاً بتعليم أمراء البيت المالك، ثم شرح الله صدره فلم يعد يبخل بعلمه على من يرغب في الأخذ عنه، وهم كثيرون، فيهم طلبة مراكش وغيرها من البلاد القريبة والبعيدة. و**عبد العزيز الفشتالي**[3] شيخ الكتاب وإمام الأدباء، الذي كان يملأ أرجاء مراكش وأغمات مساجلات أدبية، ومناظرات علمية.

ووفد على مراكش من وهران:

محمد شقرون[4] بن هبة الله، وهو عالم كبير نال حظوة عظمى عند عبد الله الغالب السعدي فنصب له كرسياً للتدريس داخل قصره «وقلده الفتوى ورئاسة العلم بحضرة مراكش وسائر أقطار المغرب»[5]. ودرس الإمام شقرون خارج القصر مختصر ابن الحاجب الفرعي، والأصليين، والبلاغة، والمنطق، والفرائض والحساب، فأخذ الطلبة بذلاقة لسانه وسلاسة عباراته ومتانة مادته. وشاركهم في الأخذ عند كثير من العلماء، مثل ابن عسكر مؤلف الدوحة، وابن القاضي، وأحمد المنجور وغيرهم. ومن تلمسان:

---

(1) ترجم له القادري في نشر المثاني، 1:25.

(2) ترجمته في المصدر السابق، 1:56 وفي الإعلام لابن إبراهيم: 4:209.

(3) ترجم له القادري في نشر المثاني، 1:140 ـ 142. والمقري في روضة الآس، ص 112 ـ 163.

(4) ترجم له القادري في نشر المثاني، 1:60 وابن عسكر في دوحة الناشر ص 86.

(5) ابن عسكر، الدوحة، ص 86.

محمد الحاج المري[1] الذي ولاه المنصور الإفتاء والتدريس بمراكش فعكف على إفادة الطلبة في العلوم الدينية والفقهية بالخصوص، وتخرج على يده نخبة من أبناء الوزراء والكتاب وغيرهم، كمحمد بن عبد العزيز الفشتالي. كما وردت على مراكش من السودان أسرة آقيت العالمة، وفي مقدمتها:

أحمد بابا السوداني[2]، الذي حمل من تنبكتو أسيراً على إثر فتح بلاد السودان، ثم أطلق سراحه وأذن له في التدريس، فأقام يدرس في مراكش عشر سنين (1004 ـ 1014) أفاد منه جم غفير من الطلبة والعلماء على لكنة في لسانه، وطارت له شهرة في شمال إفريقية وقصده المتعلمون من كل جهاتها. وكانت دروسه عالية تتسم بالدقة والتحقيق والبحث، متنوعة تشمل الفقه والأصول، والحديث وقواعد اللغة. وقد أقرأ خلال هذه المدة كتباً كثيرة ختم بعضها عشر مرات، وألف عدداً وافراً من الكتب أنافت على أربعين في مختلف المناحي العلمية، لا سيما تراجم أعيان المذهب المالكي في كتابه نيل الابتهاج بالذيل على الديباج. ومن بلاد توات:

محمد بن محمد بن أبي بكر التواتي[3] شيخ الحديث الذي تتلمذ له كبار علماء البلاط السعدي وأجاز منهم أحمد بن القاضي بعد أن قرأ عليه بعض صحيح البخاري[4]. وحضر التواتي بدوره دروس ابن القاضي في الحساب والفرائض وأجازه هو أيضاً فتدبجا[5] ومن بيت المقدس **إمام الدين الخليلي**[6] الأديب الفقيه المحدث الذي شد الرحلة إلى مراكش مرات عديدة، ثالثتها عام 998/1589 حيث سكن منزلاً بحي أسبست (أزبزط اليوم) وأقبل على التعليم

---

(1) ترجم له عباس بن إبراهيم في الإعلام، 234:4.

(2) عرف بنفسه في آخر كتابه كفاية المحتاج. وترجم له القادري في النشر، 151:1. وابن إبراهيم في الإعلام، 99:2.

(3) ترجم له عباس بن إبراهيم في الإعلام، 198:4.

(4) توجد هذه الإجازة بخط ابن القاضي وعليها توقيع التواتي في مجموع إجازات ابن القاضي بمكتبة خاصة بالرباط.

(5) تدبج العالمان ـ في الإصطلاح ـ بمعنى أخذ كل منهما عن الآخر وأجازه.

(6) ذكره ابن القاضي في مجموع إجازاته السابق.

والإفادة، فكان ممن أخذ عنه أيضاً أحمد بن القاضي الذي نال منه هو وبعض زملائه إجازة عامة[1]. وحكاية اجتماع الخليلي هذا مع أديبين آخرين من مكة والمدينة في مجلس أحمد المنصور بمراكش وما قيل في ذلك مشهور في كتب الأدب.

ونجتزيء بمن ذكر من العلماء والأدباء لنكون لأنفسنا فكرة ولو مصغرة عن ذلك الخضم العلمي المتنوع الذي كانت تزخر به مراكش في عصرها السعدي الزاهر.

فاس:

أول ما نلاحظ في فاس خلال القرن الهجري العاشر وجود ثلاث طبقات متميزة من العلماء، أولاها طبقة ابن غازي، أو العلماء المخضرمون الذين عاشوا أكثر حياتهم في القرن التاسع وأدركوا العقود الأولى من القرن العاشر، والثانية طبقة سقين، أو تلاميذ الطبقة الأولى ممن عاشوا في أواسط القرن العاشر، والثالثة طبقة القصار التي عاشت الثلث الأخير من القرن العاشر وأدرك بعضهم صدر المائة التالية. ومن المعلوم أن فاس ظلت حتى أواسط القرن العاشر المدينة العلمية الأولى بالمغرب، فابن غازي وسقين وطبقتهما يعتبرون بحق أساتذة المغرب كله، ولا نجد إذ ذاك في مراكش ولا في غيرها ما نجد في فاس من فطاحل العلماء المتفرغين للتدريس، ولولا السياسة التي قضت بتحويل حاضرة البلاد إلى الجنوب في النصف الثاني من هذا القرن، وما نتج عن ذلك من انصراف رجال العلم والأدب عن مدينتهم الإدريسية إلى مراكش ابتغاء الرزق والحظوة والجاه لما نزلت فاس إلى الدرجة الثانية.

وتمثل طبقة ابن غازي نقطة البداية في سلسلة علمية جديدة لا بالنسبة للعصر الذي نتحدث عنه، ولكن بالنسبة للتطور العلمي بفاس على وجه العموم، تضافرت على تكوين ذلك عوامل متعددة، مثل انتهاء الدولة الإسلامية

(1) توجد الإجازة بخط الخليلي المشرقي في بضع صفحات في نفس المجموع المخطوط السابق.

في الأندلس، والتهجم الأسباني ثم الاحتلال التركي لبلاد الجزائر وتونس، الأمر الذي جعل من مدينة فاس الآمنة محطة أنظار علماء تلك الأقطار المنكوبة. وقد استطاعت فاس أن تصهر تلك العناصر المتباينة التي حلت بها في بوتقة العلم وتكوّن منها حلقة أولى في سلسلة طويلة ستتصل عبر القرون التالية. واحتفظت فاس في خضم هذا الانقلاب بمميزاتها القديمة المرتكزة على التعمق في دراسة الفقه المالكي، والعناية البالغة بعلوم القرآن دون أن تغض الطرف عما حمل إليها من معقول ومنقول. لذلك كان علماء هذه الطبقة فقهاء ومقرئين بالدرجة الأولى، فيهم أمثال أحمد الونشريسي مؤلف المعيار أكبر موسوعة فقهية، ومحمد الهبطي السماتي صاحب وقف القرآن المعمول به حتى اليوم. ونجد أمثال هذين العالمين كثيرين في الطبقتين الأخريين.

وإذا بحثنا عما جد من أنواع المعرفة في فاس خلال هذه الفترة، أو بالأحرى ما عرف منها تطوراً وتجديداً وانتشاراً فلن نلفي غير الإلهيات والفلسفيات والحديث. ذلك أن التوحيد بعد أن عرف توسعاً كبيراً على يد محمد بن يوسف السنوسي إمام هذا الفن في الشمال الإفريقي، انتشر على يد تلاميذه الذين دخل بعضهم إلى فاس، فتدارس الناس كتبه لا سيما العقيدة الكبرى. وقامت في هذا العصر مناظرة حادة[1] حول كلمة الإخلاص أثارها أحد علماء الجزائر وشارك فيها كثير من علماء المغرب كعبد الله الهبطي ومحمد اليسيتني مفتي فاس، وألف كل واحد في الانتصار لرأيه والرد على خصومه، واستمر النقاش والتأليف في الموضوع زهاء قرنين إلى أن أتى اليوسي بالقول الفصل في كتابه مشرب العام والخاص، من كلمة الأخلاص. كما انتشرت الفلسفة والمنطق بالخصوص في فاس على يد أحد المهاجرين التونسيين، محمد بن خروف الذي قل الإقبال عليه في بداية الأمر لصعوبة المادة وغرابتها، لكنه ثابر فتمكن من إفادة الطلاب الفاسيين، وتحبيب المعقولات إليهم بما سلك معهم من طريقة عملية إلى أن تخرج على يده مناطقة تصدوا بدورهم للتدريس. أما الحديث فقد كان الناس حتى هذا العصر إنما يعنون في الغالب

(1) انظر بعض أخبار هذه المناظرة عند ابن عسكر في دوحة الناشر، ص 8 وما بعدها.

بحفظه والبحث في ألفاظه لتفهم معانيه على العموم، فقام عبد الرحمن سقين ـ بعد أن مكث في الشرق طويلاً يأخذ عن أعلام المحدثين ـ ينشر في فاس علماً جديداً يقوم على نقد الحديث والتوسع فيه وفي سنده وضبط ألفاظه، ومعرفة طرق الرواية ورجالها، واتسعت بذلك دائرة الحديث ونمت رواياته بواسطة تلاميذ سقين فمن بعدهم.

وسنذكر هنا بعض رجال التدريس كما فعلنا في مراكش مبتدئين بالطبقة الأولى. وأكثر أفرادها كما قلنا ليسوا فاسيي المحتد، وإنما جاءوا من الأندلس أو الجزائر أو تونس، أو من بعض المدن المغربية، فاستوطنوا فاساً وأحدثوا فيها حركة علمية نشيطة. فمحمد بن غازي[1] المكناسي أكب منذ الأيام الأولى لدخوله إلى فاس على التدريس، وبدأ يعلم في مسجد صغير بجوار الدار التي سكنها في البليدة من حومة الأصدع، ولما كثر طلابه وعرف تقدمه أسندت إليه الكراسي العلمية في القرويين وغيرها كما سنرى. وظل ابن غازي يدرس في فاس زهاء ثلث قرن أخذ عنه خلق كثير حتى لا تكاد تجد عالماً عاصره إلا وقد تتلمذ له. وجمع ابن غازي مقروءاته وأسانيده في فهرست تعتبر من أشهر الفهارس المغربية وأحسنها. وسنرى لدى كلامنا على مواد الدراسة مدى تنوع دروس هذا الإمام وشمولها للقراءات والتفسير، والحديث، والفقه، وقواعد اللغة والحساب وغيرها. واختص أحمد الونشريسي[2] بتدريس الفقه وأصوله، وأخذ هو أيضاً يعلم فور مجيئه من تلمسان في المسجد المعلق بالشراطين قبل أن تسند إليه الكراسي الوقفية في أهم مساجد ومدارس فاس. وكان ابن غازي يعترف للونشريسي بالتفوق في الفقهيات، وقد مر به يوماً في مجلسه بالقرويين، فقال ابن غازي لمن حوله من الفقهاء: «لو أن رجلاً حلف بطلاق زوجته أن أبا العباس الونشريسي أحاط بمذهب مالك أصوله وفروعه لكان باراً في

(1) ترجم له ابن عسكر في الدوحة، ص 36 ـ 37. وابن القاضي في الجذوة، ص 203 ـ 204.

(2) ترجم له ابن عسكر في الدوحة، ص 37 ـ 38. وابن القاضي في الجذوة ص 80 ـ 81.

يمينه»[1]. وللو نشريسي كتب عديدة من أحسن ما ألف المغاربة في الفقه، أشهرها المعيار المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب في اثني عشر مجلداً. ونالت دروس أحمد بن بوجمعة شقرون[2] الوهراني إقبالاً عظيماً في فاس، وعجب الناس من سعة علمه عجبهم من غرابة خلقته. فقد كان أشقر اللون أحمر العينين جهير الصوت، كما كان سلس العبارة قوي الذاكرة والاستحضار، أسهم إلى جانب الإمامين المتقدمين في نشر العلم بفاس، وكثر الآخذون عنه في مختلف العلوم الدينية واللسانية. كما اشتغل بتدريس الفقه في فاس. أحمد الدقون[3] وكان قرأ بغرناطة على الإمام العبدري وغيره من الأندلسيين. واهتم محمد الهبطي السماتي[4] بتعليم القراءات بعد أن أخذها عن ابن غازي، ووضع الوقف لآيات القرآن الكريم.

وخلف من بعد هؤلاء الأعلام خلف كثير أقاموا للعلم في فاس سوقاً رائجة تجلت بها مرة أخرى تلك الظاهرة الغريبة التي لم تحلل بعد، من ازدهار المعرفة زمن إفلاس السياسة، والإقبال على العلم مع انحلال السلطة. منهم عبد الرحمن سقين[5] هذا العالم الذي تم تكوينه في الشرق على يد أكابر المحدثين من تلاميذ الإمام ابن حجر: «وأقام هنالك ـ بمصر ـ وبالحرمين مدة طويلة لأخذ الحديث والتوسع فيه وفي سنده وضبط ألفاظه ومشايخ السند حتى حصل له من ذلك علم كثير ورواية واسعة لم تحصل لغيره من أهل عصره من علماء فاس»[6]. وبعد أن قضى سقين بضع سنوات في السودان متمتعاً بحظوة الملك

(1) ابن عسكر، الدوحة، ص 37.

(2) ترجم له ابن عسكر في الدوحة، ص 92 وسماه أحمد. بينما سماه ابن القاضي في الجذوة، ص 204 محمداً. وتبعه في ذلك الكتاني في السلوة، 3:280. وقد اعتمدت ما في الدوحة لأن صاحبها أقرب زمناً إلى شقرون. وأخذ عنه بواسطة ولقي من لقيه.

(3) ترجم له القادري في نشر المثاني، 1:50.

(4) ترجم له ابن القاضي في الجذوة، ص 204.

(5) ترجم له تلميذه المنجور في فهرسته المخطوطة، ورقة 33. وابن القاضي في الجذوة، ص 261.

(6) فهرس أحمد المنجور المخطوطة، ص 33.

وعلية القوم هناك، استغنى فيها بعد إملاق، وتمتع بعد حرمان، رجع إلى فاس ممتلىء العقل واليد، فأقام بعدوة الأندلس يدرس بجامعها لا يكاد يفارقه حتى بعد انتهاء دروسه اليومية العديدة، في انتظار مستفسر أو مستفيد أو راغب في الأخذ برواية الحديث. وعلي بن هرون[1] أستاذ القراءات والفقه. كان دأبه أن يبتدىء العمل عند الفجر بالتجويد وتلقين القراءات السبع للطلاب، وبعد صلاة الصبح يصعد إلى الكرسي ليلقي درس الرسالة فيتبسط فيه ليفيد عامة الحاضرين، وبعد ذلك ينتقل لمدرسة العطارين حيث يلقي درسه الفقهي العالي في المدونة يحضره إلى جانب الطلبة علماء المدينة على اختلاف حيثياتهم. وكان المنجور من الملازمين لهذا المجلس فوصف في الفهرست كيف كان الأستاذ يفسح المجال لطلابه ـ لا سيما الفقهاء منهم ـ للسؤال والاعتراض، وإن لم يسلم ذلك النقاش أحياناً من حدة قد تؤدي إلى مشاتمة ومخاصمة وتعطيل للمجلس.

وينهي ابن هرون عمله اليومي بإلقاء درس في الحديث بين العشاءين، ثم هو لا ينقطع عن التدريس خلال عطلة الصيف، بل يستمر في العمل مع من يبقى في المدينة من الطلبة فيقرءو. عليه كتب الفقه والحديث والأدب. وعبد الواحد الونشريسي[2] ابن مؤلف المعيار. كان يظهر عليه في حياة والده شبه فتور في التحصيل، غير أنه قام مقامه بعد موته فأجاد وأفاد، وأسندت إليه الكراسي العلمية التي كانت لأبيه فتوسع في التدريس ولم يقتصر على الفقه، بل عني أيضاً بالتفسير والحديث وقواعد اللغة والأدب. وكان عظيم النشاط دؤوباً على الدرس، ينتقل من القرويين إلى مسجد العقبة الزرقاء، إلى المدرسة المصباحية، إلى غيرها مما سيذكر في كلامنا على أماكن الدراسة. ويمتاز هذا العالم بالتضلع في الأدب ورقة الطبع، يهتز للجمال ويطرب للموسيقى، ويجيد

---

(1) ترجم له المنجور في فهرسته، ص 21 وما بعدها. وابن عسكر في الدوحة، ص 40 ـ 41.

(2) ترجم له المنجور أيضاً في الفهرست، ص 26 وما بعدها، وابن عسكر في الدوحة، ص 41 ـ 43.

الكتابة ويحسن الشعر الموزون والملحون. غير أن المصادر لم تجد علينا ـ للأسف ـ بأسماء الكتب الأدبية التي كان يدرسها للطلاب. ومحمد اليسيتني[1] أستاذ التفسير والإلهيات الذي يجمع في شخصه المتناقضات. فهو مقبل على العلم متفان فيه أحياناً، معرض عنه زاهد فيه أخرى. متواضع يحضر مجالس غيره من العلماء، معاند متعصب لدرجة الجنون. لازم المنجور دروسه إحدى عشرة سنة ووصفها بالطول والمتعة. وسنذكر الكتب التي أقرأها اليسيتني، وهي كثيرة متنوعة. ولما دخل السعديون إلى فاس (عام 954/ 1547) وأقاموا فيه بضع سنين لتصفية حساب الوطاسيين وأنصارهم أتراك الجزائر كان محمد الشيخ المهدي يحضر مجلس اليسيتني في التفسير. وقد ذكر المنجور في الفهرست ـ وهو الذي كان يقرأ بين يدي الأستاذ ـ عظيم تقدير الملك السعدي لليسيتني، وشديد جزعه حين بلغه خبر موته، حتى إنه «خرج وهو يبكي بصوت عال يفجع من سمعه...»[2] وهناك أسر اشتهرت بالفقه وتعدد العلماء منها في هذا العصر، كآل الزقاق والمشنزائيين.

ومن أشهر الأولين عبد الوهاب الزقاق[3] حفيد أبي الحسن صاحب اللامية المشهورة في الفقه. كان لا يجارى في حفظ خليل وفهمه، صاحب كرسي في القرويين يلقي عليه صباح كل يوم ثلاثة دروس متوالية في التفسير والفقه والتصوف. وله غيرها دروس في المساء والليل. ومن المشنزائيين الدكاليين عبد الرحمن بن إبراهيم[4] الملقب بأبي الرسالة لتبريزه في فهمها والاطلاع على خفاياها. كان يتخذ رسالة بن أبي زيد نقطة انطلاق في دروسه، فيستحضر ما في كتب الفروع ويستقصي مسائل المذهب المالكي. ولا يترك الرسالة إلا ليدرس المدونة فتنحط دروسه حينئذ بعكس الحال عند غيره.

---

(1) ابتدأ المنجور بترجمته في الفهرست، ص 14 وما بعدها. وترجمه ابن عسكر في الدوحة، ص 45.

(2) أحمد المنجور، الفهرست، ص 19.

(3) أخباره في فهرست المنجور، ص 31 وما بعدها. وفي الدوحة، ص 43.

(4) توجد ترجمته في المصدرين السابقين: الفهرست ص 36. والدوحة، ص 44.

ومن العلماء الذين وفدوا على فاس خلال هذه الفترة واستوطنوها نهائياً محمد بن عدة[1] الأندلسي المولد والنشأة. أتم دراسته في فاس على طبقة ابن غازي، وأخذ عن هذا الأخير علوم القرآن وتوسع فيها ثم التزم تعليم التجويد والقراءات حتى صار في هذه الطبقة شيخ المقرئين. ومحمد بن خروف[2] التونسي وكان الإسبان قد أسروه وملكه منهم قسيس أخذ يدرس عليه كتاب المفصل للزمخشري، وهو الذي جاء به إلى فاس فافتداه منه أميرُها الوطاسي. وذكر المنجور في فهرسه ـ ص 39 ـ أن معظم الطلبة تجنبوا في البداية دروس ابن خروف «لوقفة كانت في لسانه شبه العجمة وما زال البعض منها إلا بعد مدة ولأنهم ما ألفوا تلك الفنون ولا عرفوا قدرها». وظل ابن خروف في فاس أزيد من عشرين سنة يدرس المنطق والكلام والأصول والبلاغة، وتكاثر طلابه بمرور الزمن وألفوا مواده العقلية التي كان يبسطها لهم بطرق عملية حتى عد شيخ الجماعة بفاس في المعقولات. وأحمد بن جيدة[3] الوهراني تلميذ الإمام السنوسي صاحب العقائد الشهيرة. وقد التزم ابن جيدة عندما حل بفاس تدريس الإلهيات وبالأخص كتب أستاذه السنوسي، ثم أسند إليه كرسي ابن غازي في القرويين بعد وفاة تلميذه أبي عبد الله الغزال. ومحمد بن جلال[4] التلمساني المبرز في العلوم الدينية والأدبية. نال حظوة كبرى عند السعديين فولوه خطط الفتوى والإمامة والخطابة والتدريس بجامع القرويين، وكانوا يستدعونه في جملة أعيان العلماء إلى مراكش، ويستصحبونه معهم في بعض أسفارهم. وقد أورد عبد الرحمن التامنارتي في الفوائد الجمة ـ ج 1. ورقة 21 ـ أن ابن جلال قدم إلى سوس صحبة السلطان عبد الله الغالب السعدي عام 980 فأقام بها معه

---

(1) ترجم له تلميذه المنجور في الفهرس، ص 14 وما بعدها. وابن القاضي في الجذوة، ص 206.

(2) ذكره المنجور في جملة أشياخه في الفهرس، ص 38وما بعدها، وابن القاضي في الجذوة، ص 205.

(3) ترجم له ابن عسكر في الدوحة، ص 99. وابن القاضي في الجذوة، ص 81.

(4) ذكر أخباره التامنارتي في الفوائد الجمة، ج 1. ورقة 21. وابن القاضي في الجذوة، ص 206.

سنة قدمه خلالها للإقراء بالجامع الكبير بتارودانت فأخذ عنه فقهاؤها. «وطالت أيام رياسته - العلمية - بفاس حتى أسن وأثقله الهرم وانتفع الناس به»[1].
وعلي بن عيسى الراشدي[2] التلمساني أستاذ القراءات وقواعد اللغة والأدب. استهل عمله في فاس بتدريس الكراريس، وهي المنظومات الأولية المتعلقة بضبط القرآن ورسمه وتجويده. ثم أسند إليه كرسي الشاطبية الكبرى بمسجد الشرفاء.

وكان الذي أحدث هذا الكرسي أبو القاسم الدرعي[3]. فبعد أن درس القراءات بفاس وبرع فيها رجع إلى مسقط رأسه بالصحراء، واستطاع أن يجمع من الشرط[4] الذي تقاضاه خلال سنين من قومه - على فقره وشظف عيشهم - بعض دنانير بعث بها إلى أستاذه الونشريسي بفاس ليشتري عقاراً يوقف وتصرف غلته على من يقرىء حرز الأماني في علوم القرآن للشاطبي ففعل. وقد بقي الراشدي يدرس الشاطبية زمناً طويلاً ويختمها مرات وكرات، واستعمل من شروحها عدداً ذكره المنجور في الفهرست وقال إنه قرأها عليه في جماعة من الطلبة قبل الوقف، كما كانوا يحضرون مجالسه في بردة البوصيري يومي الخميس والجمعة من كل أسبوع.

أما الطبقة الثالثة من علماء القرن العاشر بفاس فهي في الحقيقة امتداد للطبقتين السابقتين، ومجموعة مهمة من العلماء المشاركين أو المختصين في بعض الفروع العلمية، لكن «عيب» هؤلاء أنهم عاشوا في عصر فقدت فيه فاس مكانتها كعاصمة للبلاد، فأعشاهم بريق مراكش الساحر وراحوا يتسللون إليها لواذاً. وحتى الذين لم يغادروا فاساً بصفة نهائية كانوا كثيراً ما يترددون على

(1) القادري، نشر المثاني، 1:91.
(2) عدة المنجور في جملة أساتذته في الفهرس، ص 37. وترجم له ابن القاضي في الجذوة، ص 311.
(3) أخباره عند التامنارتي في الفوائد الجمة، ج 1، ورقة 29. ويدعوه أبا القاسم الشيخ.
(4) الشرط في اصطلاح أهل البادية بالمغرب عبارة عن مال معين وكمية من الطعام يدفعها أهل القرية أو المدشر للفقيه الذي ينقطع لتعليم أبنائهم والإمامة بهم في الصلاة.

حاضرة السعديين ويقيمون فيها شهوراً وأعواماً، فحدث ما أشرنا إليه من ضعف الحركة العلمية وفتورها بالمدينة الإدريسية في الوقت الذي كانت مراكش تزدهر وتتقدم باستمرار. وسنقتصر على ذكر أربعة من أعلام هذه الطبقة المشهورين في مختلف المناحي العلمية، ونبتدىء بمحمد القصار[1] الذي انتهت إليه رياسة العلم بفاس بلا منازع، وصارت إليه كراسي التفسير والحديث والفقه في القرويين. وقد اشتهر القصار بدقة التفكير والتعمق في البحث إلا أن عبارته لم تكن تسعفه فتحاماه عامة الطلبة ولم يكن يحضر مجلسه إلا اثنان أو ثلاثة من نجبائهم. وهو شيخ المحدثين في هذا العصر يروى عن الإمام سقين بواسطة كما يروى عن مشارقة. وأحمد المنجور[2] أستاذ الإلهيات والمنطق والأدب والتاريخ. كانت مجالسه العلمية بالقرويين غاصة بالطلاب ـ بعكس مجالس القصار ـ لفصاحة عبارته وذلاقة لسانه وطرافة نكتته. ولما طارت شهرته بالمغرب استدعاه أحمد المنصور ليكون أستاذه الخاص، فقضى شطراً مهماً من حياته بمراكش، ثم كانت له دروس أخرى خارج القصبة السلطانية حضرها إمام الجنوب عبد الواحد السجلماسي وقال في فهرسته ـ ص 90 ـ «فلقد أفادنا ـ المنجور ـ أبقاه الله فوائد جمة وفتح بصائرنا وسمعنا منه علماً غزيراً في التاريخ والأدب والعروض وغير ذلك وطالت ملازمتنا له بمدينة فاس وبمدينة مراكش». وعبد الواحد الحميدي[3] حامل لواء المذهب المالكي ومرجع النوازل من جميع أنحاء المغرب. انقطع للتدريس بفاس في مستهل حياته العلمية فكان لا ينزل من منبر إلا ليرتقي آخر، سواء أيام الدراسة أو العطل. يلقي كل يوم ستة دروس، ثلاثة في الصباح بالقرويين في التفسير والفقه والتصوف، وثلاثة بعد الزوال بالمدرسة المصباحية في تهذيب البرادعي ومختصر خليل ومغني ابن هشام. ثم تولى قضاء فاس واختاره أحمد المنصور ليكون أستاذاً له ـ كالمنجور ـ فصارت

(1) ترجم له القادري في نشر المثاني، 1: 62 ـ 69.
(2) أحسن مرجع لترجمة المنجور فهرسته المخطوطة. وأخباره عند ابن القاضي في الجذوة، ص 67.
(3) ترجم له القادري في نشر المثاني، 27:1 وما بعدها.

أيامه موزعة بين فاس ومراكش. وأحمد بن علي الزموري[1] أستاذ القراءات والتفسير. كانت له كراسي في القرويين وجامع الأندلس وغيرها من مدارس فاس. وامتازت دروسه العالية في التفسير بما كان ينقل فيها من أقوال المفسرين وتأويلاتهم، وما يورد عليهم من الاعتراضات والاستشكالات فيناقش ويحلل ويأتي من عنده بما يرفع الإبهام ويزيل الإشكال[2] وكان الزموري يقضي شهر رمضان في مراكش ليؤم بأحمد المنصور في صلاة التراويح لحسن قراءته وتجويده.

ولم تخل فاس في هذا العصر من متخصصين في الرياضيات والفلك والتوقيت فكان أحمد المواسي[3] يدرس كتب ابن البنا في الحساب، ورسالة الأسطرلاب، وروضة الجادري في التوقيت. كما كان معاصره محمد الصغير الزجني[4] يسايره في تدريس نفس المواد. وإلى جانبهما موقت منار القرويين محمد القلصادي[5] (وهو غير المؤلف المشهور) يقوم بتدريس كتاب قريبه القلصادي في الحساب والجبر، ورسائل الأسطرلاب، ومسائل التعديل والفرائض.

أما الأدب فلا نجد من التزم تدريسه في هذا العصر سوى عبد العزيز الفشتالي[6] الذي لم يعرف عنه أنه درس غير مقصورة المكودي، وذلك قبل أن ينقطع لخدمة أحمد المنصور. على أن كثيراً من المتصدرين للتدريس في فاس إذ ذاك كانوا من الأدباء البارعين في النظم والنثر، غير أن المصادر لا تسعف ـ للأسف ـ بغير كلمات مبهمة كقولها عن عبد الواحد الونشريسي وأحمد المنجور وغيرهما إنهم كانوا يدرسون الأدب. لكن أي أدب؟ وفي أي كتاب؟

(1) ترجمته في المصدر السابق، 19:1 وما بعدها.
(2) المصدر السابق، 20:1.
(3) ذكره المنجور في فهرسته ، ص 41.
(4) المصدر السابق ونفس الصحيفة.
(5) المصدر السابق.
(6) ترجم له المقري في روضة الآس، ص 112 ـ 163.

إنك لن تعرف عن هذا العصر زيادة على ما سبق أكثر من أن ابن غازي درس البردة وختمها أكثر من ثلاث مرات، وأن علي الراشدي كان يدرسها أيضاً بمسجد الشرفاء يومي العطلة الأسبوعية، ويتوسع فيها بالاعتماد على الشرح الكبير لابن مرزوق فلا يختمها إلا بعد سنتين، كما أن علي بن هرون أقرأ مقامات الحريري بمسجد الابارين. وقد تدرك سر ندرة الدروس الأدبية وإمساك المصادر عن التحدث عنها مما أورده المنجور في فهرسته عقب كلامه على المقامات (ص 24): «ذكر الإمام أبو عبد الله الأبي أن أئمة تونس كانوا ينزهون المسجد عن قراءتها فيه وكان ابن البراء يقرئها بدويرة الخطبة . . .».

ح ـ تارودانت. من المعلوم أن هذه المدينة كانت العاصمة الأولى للسعديين، انتقل إليها محمد القائم بأمر الله بعد أن بايعه السوسيون في أوائل القرن الهجري العاشر، فأعاد بناءها وحصن أسوارها، ثم صارت حاضرة السوس الأقصى بعد انتقال السعديين إلى مراكش. عرفت تارودانت إذ ذاك حركة علمية نشيطة، واكتظت جنباتها بعلماء سوسيين ودرعيين وتلمسانيين، وقصدها الطلاب من جميع بلاد ما وراء الأطلس، وكان من بينهم طفل بربري ذو ذؤابة جاء يحمل اللوح ليحفظ الكراريس ويتفهمها على القراء المشهورين. ذلك هو عبد الرحمن التامنارتي الذي قضى في هذه المدينة أزيد من خمسين سنة طالباً ثم مدرساً وقاضياً، وسجل كل ما وقع تحت سمعه وبصره في كتابه الفوائد الجمة، في إسناد علوم الأمة[1]. وإن كنا لن نتعرض هنا لنشاط التامنارتي لأن نضجه العلمي إنما كان في العصر السعدي الثاني، فإننا سنستعرض بعض الذين أخذ عنهم ووصف حلقاتهم العلمية، وفيهم مقرئون وفقهاء وموقتون وأدباء وغيرهم، لنتعرف على بعض الجوانب الثقافية في هذه المدينة. فمن رجال القراءات موسى بن أحمد التدماوي[2]، وكان دؤوباً على تجويد القرآن وتلقين الطلاب قواعد الرسم والضبط والقراءات، يبتدىء العمل

(1) يوجد كتاب الفوائد الجمة مخطوطاً مصوراً في قسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط في جزءين تحت عدد 1420 د.

(2) ترجم له التامنارتي في الفوائد الجمة، جزء 1، ورقة 51.

عند الفجر ولا يرجع إلى منزله إلا بعد أن ينصرف ويرتفع النهار. قصده التامنارتي فور دخوله إلى تارودانت وقرأ عليه مورد الظمآن، فخصه الشيخ بمزيد إقبال وعناية وتنبأ له بمستقبل علمي زاهر. وقد سبق لأحمد المنصور أن أخذ في صغره عن التدماوي مبادىء القراءات، فلما وفد عليه بمراكش قام إليه وأجلسه إلى جانبه وكساه وأجرى عليه جراية طول حياته ساعدته على التفرغ للتدريس. والحسن بن إبراهيم الخالدي[1] الذي درس علوم القرآن بفاس على أحمد المنجور وكان منذ أيام طلبه صعب المراس، فاستعمل نفس الصرامة مع تلاميذه وأخذ يعلمهم طول النهار وطرفاً من الليل. ختم عليه التامنارتي القرآن مرات متعددة بقراءتي نافع والمكي، ووصف إخلاصه وتحمله للسهر في التعليم.

ومن رجال الفقه والمعقولات **سعيد بن عبد الله العباسي**[2] تخرج في تارودانت ثم اشتغل فيها بالتدريس، فأقرأ الفقه والأصول والعقائد وقواعد اللغة والبلاغة. وكان في دروسه الفقهية يعتمد على كتب الفروع المتداولة غير أنه كان ذا نزعة إصلاحية يرجع إلى أمهات الكتب كالتبصرة والتنبيهات والمقدمات ويقول: «أخذ الفقه منها أيسر لسلامتها من آفات الاختصار»[3]. لازم التامنارتي دروسه خمس عشرة سنة وأثنى على طريقته المفيدة في التعليم. **ومحمد بن مبارك التيوتي**[4] وهو فقيه استهوى أفئدة الطلبة بسعة علمه ودماثة أخلاقه، وأقرأهم سنوات طويلة علوم القرآن والفقه وأصوله، والمنطق والكلام، وقواعد اللغة، والحساب والفرائض. **ومنصور بن محمد المومني** الذي قرأ بسوس ومراكش وفاس وتخصص في العلوم العقلية. ولما استقر بتارودانت التزم تدريس المنطق والكلام والأصول والبلاغة.

---

(1) ذكره التامنارتي في الفوائد الجمة، ج 1، ورقة 52.

(2) ترجم له التامنارتي في الفوائد الجمة، 1:30.

(3) المصدر السابق في نفس الورقة.

(4) ترجمته في المصدر السابق، 1:37.

وأشهر علماء الهيئة في تارودانت عبد الرحمن البعقيلي[1] أستاذ التوقيت والتنجيم، وشارح روضة الأزهار في علم الليل والنهار. انقطع لتدريس هذا الفن بجامع تارودانت مدة طويلة صنع أثناءها رخامتين نقش عليهما الساعات الزمانية والأصابع المبسوطة والسموت وخط الزوال والظهر والعصر، ونصبهما في منارتي الجامع الكبير ومسجد القصبة، وذلك قبل أن يستدعيه المنصور إلى مراكش[2].

ومن المدرسين الأدباء **سعيد بن عبد الله التملي**[3] صاحب الرسائل البديعة والشعر الجيد، اشتغل بتعليم البيان والمعاني والبديع، وأقرأ أيضاً النحو والعقائد والفقه وأصوله. **وسعيد بن إبراهيم الهلالي**[4] رجل اللغة والأدب الذي تصدى للحميدي قاضي الجماعة بفاس حين زار تارودانت وأبدى بعض الاستخفاف بعلمائها وطلبتها، فكتب إليه الهلالي سؤالاً منظوماً اشتمل على مسائل غريبة في اللغة والنحو والفقه، مطلعه:

إلى علمك العالي مسائل ترتقي　　　تفطن لهن يا حميد وأصدق

فعجز الحميدي عن الجواب واستصحب معه القصيدة إلى فاس فأجاب عنها بعد ذلك أحمد المنجور[5]. **ومحمد بن علي الهوزالي**[6] الأديب البارع الملقب بالنابغة. صحبه التامنارتي وقال عنه إنه كان كثير الميل لذكر أيام العرب وأخبارها، وقد شرح الهوزالي ديوان المتنبي ولازم في الأخير بلاط أحمد المنصور.

وانتقل إلى تارودانت من علماء تلمسان الذين هاجروا من بلادهم على إثر

---

(1) ترجم للبعقيلي التامنارتي في المصدر السابق، 1:34 ـ 35.
(2) انظر تفصيل الأسباب التي دعت المنصور إلى استدعاء البعقيلي إلى مراكش عند التامنارتي في المصدر السابق، 1:35.
(3) ترجم له التامنارتي في المصدر السابق، 1:38.
(4) المصدر السابق، 1:39.
(5) انظر نص سؤال الهلالي وجواب المنجور في المصدر السابق، 1:39.
(6) ترجم له التامنارتي في المصدر السابق، 1:40.

الاحتلال التركي محمد بن الوقاد[1]. وقد اصطدم في بداية الأمر ببعض الصعوبات لاستحكام العجمة في ألسنة السوسيين، واضطر إلى الذهاب إلى سجلماسة فمكناس ففاس، لكنه عاد مرة ثانية إلى تارودانت واتخذها دار مقامه هو وأبناؤه من بعده. وتولى ابن الوقاد زيادة على التدريس الفتوى والإمامة والخطبة بالجامع الكبير. وكان على جانب عظيم من الفصاحة وحسن التعبير، فبهر السوسيين بذلاقة لسانه وسعة معارفه، لا سيما الطلبة ورجال العلم منهم، وظلوا يستمعون إليه ردحاً من الزمن على كرسي التدريس وعلى المنبر أيام الجمع والأعياد، فأثر فيهم أيما تأثير وانطلقت ألسنتهم وتهذبت عبارتهم. ولم تقتصر دروس ابن الوقاد على ما كان يتعاطاه السوسيون من قواعد اللغة والفقه وما إلى ذلك، بل شملت التفسير والحديث والأدب، وهو «أول من قرأ الجامع الصحيح للبخاري بتارودانت قراءة ضبط وإتقان، وخطب فيها ببراعة اللسان، وأول من أحيا بها ليلة المولد باجتماع الناس في منزله وقراءة قصائد مدحه ﷺ »[2]. وخلفه بعد وفاته ابنه عبد الرحمن بن الوقاد[3] في الخطابة والإمامة والتدريس بالجامع الكبير بتارودانت، فأقرأ صحيح البخاري مراراً عديدة، وكان ـ كأبيه ـ فصيح العبارة جيد الشعر بارعاً في تدريس اللغة العربية وقواعدها.

د ـ مكناس:

لقد تأثرت مكناس منذ القديم بقربها من الحاضرة العلمية فاس وأنجبت علماء كثيرين، غير أن سياسة الأمراء الوطاسيين التعسفية أبعدت عنها في أواخر القرن التاسع للهجرة أكبر علمائها محمد بن غازي العثماني الذي استقر بفاس وأحدث فيها نهضة علمية سبقت الإشارة إليها. ولا ريب أن كثيراً من طلبة ابن غازي وأشياعه ساروا على أثره إلى حيث سار، فضعفت الحركة الفكرية بمكناس ولم نعد نجد فيها خلال العصر السعدي الأول إلا بضعة أفراد ممن

---

(1) ترجمته في الفوائد الجمة، وهي مطولة 1:14 – 19

(2) عبد الرحمن التامنارتي، المصدر السابق، 1:14.

(3) المصدر السابق، 1:47.

يشتغلون بالتدريس. منهم **عبد الرحمن الوقاد**[1] الأندلسي الأصل. وكان فقيهاً متخصصاً يدرس كتب الفروع ويشتغل بالإفتاء. وهو من الذين شاركوا في المناظرة الكبرى حول البلديين[2] الفاسيين، وكان يناصر أحقية الإسلاميين في العمل بالأسواق كسائر المسلمين، **وعبد الرحمن أعراب**[3] الذي تخرج في فاس عالماً مشاركاً مبرزاً في النحو وانكب على التدريس في مسقط رأسه مكناس. **والحسن بن أحمد حرزوز**[4] الذي قرأ بالمغرب والمشرق واشتهر بالفصاحة وجودة الإنشاء. قضى حياته التعليمية بمكناس يدرس ويخطب، وفيها لقيه ابن عسكر صاحب دوحة الناشر وأخذ عنه وأثنى عليه كثيراً. **ومحمد الغماري**[5] ألمع شخصية مكناسية في هذا العصر، فقد كان مشاركاً في كثير من العلوم الدينية واللغوية والأدبية، درس علوم القرآن وقواعد اللغة، والحساب والفرائض، والفقه والأصول. ولم تفصح المصادر عما إذا كان درس الأدب أيضاً وهو الأديب البارع في النثر والشعر.

هـ ـ سلا:

لم يكن حظ هذه المدينة العريقة في الثقافة، الغنية بالمدارس الموحدية والمرينية بأحسن من حظ مكناس في العصر السعدي الأول، فالحركة العلمية فيها ضعيفة يضطلع بها علماء طارئون من فاس أو درعة أو غيرها، بعد أن نزح عن سلا عالماها **أحمد بن عطية**[6] **وأخوه محمد**[7]. وكانا قد درسا فيها القرآن

---

(1) ترجم له ابن زيدان في الإتحاف: 278:5.

(2) البلديون هم من تجار اليهود بفاس أسلموا في القرون الوسطى، ومنعوا مراراً من الاشتغال في أسواق المسلمين بتهمة الغش والنفاق، وشغل الفقهاء دهراً طويلاً بالإفتاء في نوازلهم وألفت كتب فيهم لا سيما في العصر السعدي الثاني كما سنرى.

(3) ترجم له القادري في نشر المثاني، 31:1. وابن زيدان في الإتحاف، 279:5.

(4) ترجمته في الاتحاف لابن زيدان، 3: 5 ـ 6. وفي دوحة الناشر لابن عسكر، ص 62 ـ 63.

(5) ترجم له القادري في نشر المثاني، 1: 24. وابن القاضي في جذوة الاقتباس، ص 208.

(6) ترجم له الكتاني في سلوة الأنفاس، 1: 369.

(7) ترجمته في المصدر السابق، 1: 369 ـ 371.

على أبيهما المقرىء، **محمد بن علي بن عطية**[1]، وأخذا الفقه عن الشيخ عبد الله بن حسون، وقرأ محمد (الابن) على أخيه أحمد بن عطية رسالة ابن أبي زيد ومختصر خليل، ثم ارتحل الأخوان إلى فاس لطلب العلم والتوسع فيه، فأدركا مرتبة عليا وأخذ عنهما كثير من الأعلام كعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي وعبد الله بن إبراهيم جد شرفاء وزان. (وكان محمد بن عطية السلوي ـ مجتهداً في تدريس العلوم والقراءة، وانتفع به خلق كثير من الطلبة والعامة، إماماً فقيهاً صوفياً حافظاً مفسراً محدثاً مسنداً راوية ذا فنون وعلوم»[2] ومن العلماء الذين عاشوا في سلا أواخر القرن الهجري العاشر وعملوا على تنشيط الحركة الفكرية فيها **أحمد بن القاضي**[3] المكناسي صاحب التآليف المشهورة في التاريخ والحساب والفرائض، فقد اشتغل قاضياً في سلا أزيد من اثنتي عشرة سنة كانت من أخصب سني حياته العلمية تدريساً وتأليفاً. **وحسين بن أبي القاسم الملوكي**[4] الدرعي. وكان عالماً مشاركاً وأديباً يقرض الشعر على طريقة الفقهاء ويستظهر مختصر خليل ويقوم على تدريسه. ناب عن ابن القاضي في القضاء بسلا، وكانت له معه مراسلات علمية ومساجلات نظمية. **وعبد الله بن حسون**[5] السلاسي تلميذ عبد الواحد الونشريسي وعبد الوهاب الزقاق وطبقتهما. كان فقيهاً مبرزاً لم يصرفه التصوف عن تدريس كتب الفروع ولا سيما مختصر خليل. ومن أشهر تلاميذه المجاهد السلوي مَحمد العياشي.

و ـ الصومعة:

مدينة بجوار بني ملال الحالية (داي القديمة) كانت عاصمة بلاد تادلا قبل أن يبني زيدان بن المنصور الذهبي قصبة تادلا (الزيدانية) عندما كان خليفة لأبيه

---

(1) مذكور في المصدر السابق.

(2) المصدر السابق، 1: 370.

(3) ترجم له القادري في نشر المثاني، 1: 128 ـ 130. والمقري في روضة الآس، 239 ـ 299.

(4) ذكره المقري في روضة الآس، ص 270.

(5) ترجم له القادري في نشر المثاني، 1:94 ـ 96. وابن علي الدكالي في الإتحاف الوجيز، ص 81.

بذلك الإقليم. واشتهر من الصومعيين في العصر السعدي الأول سعيد امسناو[1] صاحب الزاوية الشهيرة بإيواء العدد الكثير من الطلبة وإطعامهم السنين الطوال. وفيها درس التادليون علوم الشريعة والحقيقة[2] وتخرج كثير من أعلامهم، مثل مَحمد الشرقي[3] مؤسس زاوية جعيدان (أبي الجعد) وجد الشرقاويين الذين سيتكاثر علماؤهم ويكون لهم شأن علمي كبير في العصور التالية. وأحمد بن أبي القاسم الصومعي[4] العالم المشارك والمؤلف المكثر، صاحب الزاوية الجديدة في الصومعة التي كانت تعج بالمريدين وطلبة العلم، وتحتوي على خزانة كتب قيمة فيها أزيد من ألف مجلد.

ولما جاء زيدان والياً على تادلا قرب إليه أحمد الصومعي وجعله من جلاسه، فتذاكرا يوماً حول كتاب المعزى في مآثر الشيخ أبي يعزى فأنكر الأمير كلمة (معزى) وقال لا يوجد في العربية إلا عزا الثلاثي، واسم المفعول منه معزو. فأصر الصومعي على رأيه، واحتد زيدان ولطمه بالنعل. ورفعت القضية إلى الملك فاستصوب رأي ابنه ونقل الصومعي إلى مراكش. ولم تتعطل زاوية الصومعة بل ظلت تتابع رسالتها العلمية والروحية تحت إشراف أحد أبناء الشيخ ابن أبي القاسم. وسار الصومعي في مراكش سيرته في تادلا يربي ويدرس، وهناك لقيه أحمد المقري وكتب عنه في روضة الآس ـ ص 300 بتصرف ـ : «أخذت عنه واستفدت منه وهو آية من آيات الله في المجاهدة استغرق نهاره وليله في أنواع الطاعات من الصلاة وإقراء علوم الحقيقة. شاهدته وكثير من

---

(1) ذكر أخباره محمد المهدي الفاسي في ممتع الأسماع، ص 51وما بعدها.

(2) المراد بعلوم الشريعة الفقه وما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية أو ما عبر عنه بالإسلام في حديث عمر بن الخطاب الذي رواه مسلم. وعلوم الحقيقة هي التصوف بما فيه من تطهير القلب والإخلاص في العبادة المعبر عنه في الحديث المذكور بالإحسان. وقديماً قالوا: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق.

(3) أخباره في المصدر السابق، ص 123 وما بعدها.

(4) ترجم له القادري في نشر المثاني، 84:1 ـ 88. والمقري في روضة الآس، ص 300 ـ 303.

تآليفه تقرأ بين يديه. ورأيته يوم الجمعة بجامع الكتبيين والناس يزدحمون على تقبيل يده حتى لا يخلص منهم إلا بعد جهد. ويوم استجزته أخرج لي ستين مجلداً كلها من تصنيفه وأجازنيها...» وعاصر هؤلاء عبد الرحمن الصومعي[1] الفقيه الصوفي المؤرخ، مؤلف كتاب التشوف في معرفة أهل التصوف (وهو غير التشوف الكبير ليوسف بن الزيات التادلي من رجال القرن السابع).

حـ ـ جبال غمارة وبلاد الهبط:

كان لشمال المغرب شأن علمي كبير بحكم موقعه على ضفة المقابلة للأندلس في منطقة تعتبر نقطة اتصال بين الشرق والغرب وملتقى علماء الإسلام. لكن عوادي الزمن أصابته بصروفها قبيل العصر الذي نؤرخه، فاحتلت سبتة وطنجة وكثير من ثغوره الأخرى، وشلت وجدة وتازا بتقليص نفوذ الوطاسيين وعجزهم عن صد هجوم أتراك الجزائر على جبال بني يزناسن وما والاها من البلاد. وكلها كانت مراكز علمية نشيطة زاهية بعلمائها المشهورين آهلة بمئات الطلاب المقيمين في مدارسها المرينية الأنيقة. بل كانت سبتة بلد القاضي عياض المدينة العلمية الأولى الواقفة في وجه الأندلس طوال القرون الذهبية التي اشتد فيها التنافس العلمي بين العدوتين. وفي العصر السعدي الأول نجد في الشمال من المراكز التعليمية غير قليل في بادية الهبط وجبال غمارة أو في بعض القرى والمدن الناشئة الممتدة في شبه قوس بين تطوان والقصر الكبير. وبالرغم من تلقيح هذه المراكز بعناصر طيبة جاءتها من الأندلس أو الثغور المحتلة، ومن تعدد العلماء في بعضها، فإن أياً منها لم يستطع أن يعوض المراكز المفقودة أو يصل إلى درجة الاكتفاء العلمي الذاتي، حتى مدينة القصر الكبير ظل طلبتها يرحلون إلى فاس لإتمام دراستهم العالية. على أنه ينبغي ألا نغفل حالة الاستنفار الدائم في الشمال وعمل رجال العلم في صد غارات

(1) ترجم له الكتاني في سلوة الأنفاس، 357:3. ولم يحدد عصره. ووهم أصحاب فهرس المخطوطات العربية فعدوه من رجال القرن التاسع، 194:2 مع أن الصومعي يتحدث في كتابه عن المنصور الذهبي وعبد الرحمن الفاسي المشهورين في أواخر القرن الهجري العاشر.

العدو وإزعاجه ومضايقته، الأمر الذي جعل مساجدهم ومدارسهم ربطاً ومحارس في نفس الوقت، وأيامهم مقسمة بين العلم والجهاد والسيف والقلم.
وأهم المراكز الحضرية:

القصر الكبير[1] الذي كان في مطلع القرن الهجري العاشر أهم مدينة تجارية في الشمال، يقصده تجار المسلمين من فاس وغيرها، ويؤمه الحربيون من سبتة وطنجة وسائر الثغور المحتلة، فتقوم فيه سوق رابحة تنفق فيها بضائع المسلمين والنصارى على السواء. وعرفت مساجد القصر وزواياه نشاطاً علمياً مماثلاً، فكان من العلماء الذين درسوا بها في أوائل هذا القرن عبد الله الورياغلي[2] الذي قرأ بفاس فلقب بعبد الله العالم، ورحل إلى تلمسان فأذهل أعلامها وتدبج مع الإمام ابن مرزوق شارح البردة ومختصر خليل. «ثم سأل هل ببلاد المشرق واحد ممن تشد إليه الرحال من العلماء ليرحل إليه. فقيل له ليس أمامك أعلم منك فرجع من هنالك»[3]. وقسم الورياغلي سنيه شطرين، يقضي أولهما في الجامع الكبير بالقصر حيث كان له كرسي يدرس عليه العقائد والفقه والحديث والنحو والبيان، ويصرف شطر العطلة في الرباط والجهاد، فلم يستبق بذلك وقتاً للتأليف على رسوخ قدمه وتفوقه العلمي. وجاء من بعده أحمد الجرفطي[4]، وكان متضلعاً في الفقه عارفاً بالنوازل منتصباً للفتوى، يلازم تدريس التفسير والحديث وكتب الفروع، ويحضر مجالسه أعيان الطلبة وفقهاء البلد «وكان أمراء بني عروس ـ حكام القصر ـ يعظمونه غاية التعظيم ويضاهون به مشيخة الفتوى بحضرة فاس»[5]. وبعد وفاة الجرفطي خلفه في الفتوى

(1) يسمى أيضاً قصر كتامة وقصر عبد الكريم، وهي المدينة المشهورة جنوبي العرائش. وهناك القصر الصغير أو قصر مصمودة وقصر المجاز بالقرب من سبتة، خربه البرتغاليون بعد أن استولوا عليه في منتصف القرن التاسع (18م).
(2) ترجم له ابن عسكر في دوحة الناشر، ص 25 ـ 27.
(3) المصدر السابق، ص 25.
(4) ترجمته في المصدر السابق، ص 31.
(5) المصدر السابق في نفس الصفحة.

والتدريس علي اللخمي[1] وهو من المتخرجين بفاس، تخصص في العقائد والكلام وأخذهما عن ابن أبي جيدة تلميذ الإمام السنوسي. وقضى في مدينة القصر زهاء ربع قرن يدرس العلوم الدينية واللغوية. كما كان عبد الرحمن الخباز[2] يعلم القراءات وقواعد اللغة والعقائد ويؤلف في ذلك. وأبو المحاسن الفاسي[3] يقرىء العلوم الدينية واللغوية خصوصاً الحديث والتصوف أزيد من عشرين سنة لم يتخلف خلالها عن معركة وادي المخازن فشهدها وأبلى فيها البلاء الحسن قبل أن ينتقل إلى السكنى بفاس. وآخر من درس بالقصر في هذا العصر محمد بن علي القنطري[4] وهو إلى جانب مشاركته العلمية أديب شاعر اشتهر بحسن المحاضرة وجودة الإلقاء بل درس طول حياته التعليمية بزاوية أبيه في حي الشريعة مختلف المواضيع الدينية واللغوية، ثم تولى أول كرسي للتفسير أحدث في القصر بالجامع الكبير معتمداً على كتاب ابن عطية الشائع إذ ذاك في فاس وسائر المراكز العلمية. ولم يشغله كل ذلك عن تخصيص أوقات للرباط في سبيل الله.

وزان ـ اشتهرت هذه القرية الجبلية بشخصية علمية فذة تعد في طليعة فقهاء ذلك العصر في الشمال، هو موسى بن علي الوزاني[5] المتخرج على يد أكابر علماء غمارة والهبط. غزير العلم عظيم الفهم مشهود له بالتفوق في العلوم الدينية، قال عنه ابن خجو إمام بلاد الهبط: «فقهاء بادية المغرب من كعبة الوزاني إلى أسفل»[6] قضى حياته في التدريس والتأليف وانتساخ الكتب. كتب بيده أزيد من ثلاثمائة مجلد ضخم، وألف كثيراً ـ نظماً ونثراً ـ في العقائد وغيرها. وشارك في المناظرة التوحيدية الكبرى التي سبقت الإشارة إليها بكتاب رد فيه على محمد اليسيتني وعلى الأغصاوي منتصراً لشيخه عبد الله الهبطي،

(1) نفس المصدر، ص 32.
(2) ترجم له العربي الفاسي في مرآة المحاسن، ص 9.
(3) ألف العربي الفاسي مرآة المحاسن للتعريف بوالده أبي المحاسن.
(4) ترجم له العربي الفاسي في مرآة المحاسن، ص 232وما بعدها.
(5) ذكر أخباره ابن عسكر في دوحة الناشر، ص 32.
(6) المصدر السابق ونفس الصفحة.

ولعل الخزانة الوزانية تحتفظ حتى اليوم ببعض هذه الكتب.

شفشاون هو رباط حديث اختطه علي بن موسى بن راشد الإدريسي في أواخر المائة التاسعة. وعاش فيه في القرن الهجري العاشر علماء أكثرهم من شرفاء جبل العلم[1] أشهرهم **محمد بن عسكر**[2] مؤلف دوحة الناشر، لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر. قرأ في مدينة القصر الكبير وفي بعض المراكز البدوية القريبة منها فتخرج عالماً متضلعاً في الفقه والأدب والتاريخ. وحظي لدى السعديين فولوه قضاء شفشاون حيث بقي عشرات السنين يدرس ويرشد ويؤلف. وكانت زيارته للبلاط السعدي في مراكش وفاس فرصة تتيح له ملاقاة فطاحل العلماء ومناظراتهم فاتسعت معارفه وغدا شخصية مرموقة في عصره، لكن أدركه شؤم السياسة فانحاز لمحمد المتوكل المخلوع وهلك معه في معركة وادي المخازن. وتولى القضاء والتدريس في شفشاون بعد ابن عسكر **محمد بن عرضون**[3] الغماري وهو فقيه نحوي يقوم على الألفية أحسن قيام. وله معرفة بالعروض والأصول والمنطق والبيان»[4]. وقد امتدت رياسة ابن عرضون العلمية في شفشاون إلى نهاية العصر السعدي الأول أخذ عنه أثناءها عدد كثير من الطلبة والعلماء. وله مقطعات شعرية طريفة تدل على تمكنه في الأدب إلا أن المصادر لم تتحدث عما إذا كانت له دروس أدبية في غير العروض والبلاغة.

تطوان مدينة قديمة خربت في أواخر الدولة المرينية وجدد بناءها أندلسيون هاجروا إلى المغرب قبيل سقوط مملكة غرناطة. لذلك لا نجد من العلم في تطوان خلال القرن الهجري العاشر غير ذبالة ضعيفة سيزداد نورها في العصور التالية. وعلماء هذه الفترة هم بالطبع من الطارئين الذين جاءوا من الأندلس أو

(1) جبل العلم في بلاد غمارة بين شفشاون وتطوان فيه ضريح عبد السلام ابن مشيش شيخ أبي الحسن الشاذلي وجد الشرفاء العلميين.

(2) ترجم له ابن إبراهيم في الإعلام، 4:174 ـ 175.

(3) ترجم له القادري في نشر المثاني، 1: 69 ـ 71.

(4) المصدر السابق، ص 71.

من الجزائر، كمحمد الكراسي[1] الغرناطي صاحب أرجوزة تاريخ الوطاسيين. وهو فقيه مؤرخ أديب تولى القضاء في تطوان وعمر فيها طويلاً. وأبي القاسم ابن سلطان[2] القسنطيني أستاذ الفقه والمعقولات ومؤلف كتاب الانتصار للسنة والرد على الطائفة الأندلسية في مجلدين. وأحمد بن يوسف الزياتي[3] سليل بني عبد الواد أمراء تلمسان. وأحد أفراد الأسرة الزياتية التي تفرعت في جبال غمارة وأنجبت عدداً من العلماء. وقد تخرج ابن يوسف في فاس عالماً مشاركاً، ممتازاً في النحو والفقه، ثم انتقل إلى تطوان، وفيها نشر علمه طوال عقود من السنين.

ومن المراكز العلمية في البادية بالشمال:

الجبل الأشهب من الهبط. اشتهر في هذا العصر بزاوية الإمام عبد الله الهبطي[4] الذي قضى عمره الطويل يدرس الإلهيات والفقه والتصوف وكان حريصاً على إفادة الطلبة داعياً كل من يتصل به من بني قومه إلى تعليم الأهل والأبناء والخدم، وتخرج على يده كثير من أعلام تلك الناحية كمحمد بن عسكر الذي أثنى عليه كثيراً في الدوحة وعده في طليعة شيوخه. ولعبد الله الهبطي تآليف عديدة في التوحيد والتاريخ. وهو من أول المثيرين للمناظرة الكبرى حول كلمة الإخلاص، وله فيها علاوة على مراسلات مطولة مع بعض علماء المغرب والجزائر كتاب الإشادة لمعرفة مدلول كلمة الشهادة وألفية مفيدة في نقد المجتمع وإصلاحه.

جبل بني حسان من بلاد غمارة. وفيه كان أبو القاسم بن خجو[5] أستاذ

(1) ترجم له ابن عسكر في دوحة الناشر، ص 17. ومحمد داود في تاريخ تطوان، 146:1 وما بعدها.

(2) ذكر أخباره ابن القاضي في درة الحجال، 465:2. ومحمد داود في تاريخ تطوان، 1)157.

(3) ترجم له العربي الفاسي في مرآة المحاسن، ص 227، والقادري في نشر المثاني، 25:1.

(4) ترجم له ابن عسكر في دوحة الناشر، 7 وما بعدها. والعربي الفاسي في مرآة المحاسن، ص 15.

(5) أخباره عند ابن عسكر في دوحة الناشر، ص 13 ـ 14.

العقائد والفقهيات يدرس للطلبة ويمدهم بتآليفه الكثيرة في مختلف المواضيع الدينية. وقد شد إليه الرحلة محمد ابن عسكر للأخذ عنه، ووصف في الدوحة لقاءه الأول ـ ص 13 ـ : «وامتحنني بمسألة من العلم في صغري وقال لمن حضر إن هذا الفتى قوي الإدراك لا يرضى بحرفة التقليد في دينه». ومن تآليف ابن خجو الإصلاحية كتاب الغنيمة وضياء النهار والنصائح. وله غير ذلك شروح فقهية متعددة.

بني يلصوت ـ من قبائل غمارة بلد **عبد الوارث اليلصوتي**[1] تلميذ الإمامين محمد بن غازي وأحمد الونشريسي وطبقتهما. قضى عبد الوارث حياته التعليمية في قريته الجبلية يرشد أبناء جلدته ويعلمهم الكتاب والعقائد والفقه والتصوف. وكانت له مشاركة في العلوم التجريبية فدرس رجز ابن سينا الطبي، وأخذه عنه فيمن أخذه صاحب دوحة الناشر وقال إنه لازم دروسه سبع سنين ونيفاً، وعدد الكتب التي قرأها عليه وستأتي في كلامنا على المواد الدراسي. ولم يغتر اليلصوتي بالمناصب العالية التي عرضها عليه السعديون عندما سيطروا على شمال البلاد، وظل منعزلاً في مدشره مخلصاً للعلم والتدريس حتى نيف على التسعين وقضى نحبه بين طلابه قرير العين ظاهر الذيل.

أغصاوة أو غزاوة من قبائل غمارة أنجبت كثيراً من الفقهاء وتسلسل العلم في أسر عديدة منها في هذا العصر. منهم **موسى بن العقدة**[2] الأغصاوي الفقيه الفرضي الحيسوبي «... يدعى بفحل المدونة لأنه كان فقيهاً وكان المذهب نصب عينيه»[3]. و**محمد بن أحمد الأغصاوي**[4] أعرف الناس بمذهب مالك وأقدرهم على تفهم النوازل وتطبيق النصوص الفقهية عليها. ثم كان حفيده **علي الحاج**[5] الذي درس في الشرق ست عشرة سنة عالماً كبيراً وأديباً منطلق اللسان

---

(1) المصدر السابق، ص 5 ـ 6.
(2) ترجم له ابن عسكر في الدوحة، ص 27، والكتاني في سلوة الأنفاس، 88:3.
(3) الدوحة في نفس الصفحة السابقة.
(4) المصدر السابق، ص 100.
(5) نفس المصدر، ص 32.

والقلم أدهش قومه بفصاحته وتكاثر الطلبة بزاويته، ثم لاحظته عناية عبد الله الغالب السعدي، فأكرم وفادته في فاس مرتين وأغدق عليه من العطايا ما زاد في اتساع الزاوية الأغصاوية ورغد عيش طلبتها، الأمر الذي أثار غيرة علماء قومه ودفع بعضهم إلى أن يقول عنه: «. . . كثر أتباعه وفتحت أبواب الدنيا عليه من كل جانب فتنزل منزلة الأمراء في الأمر والنهي ونفوذ الإرادة، وشمخت به نفسه عن الإنصاف. . .»[1]. ولعلي الحاج مساجلات ومناظرات مع علماء شفشاون ووزان في مواضيع فقهية متعددة.

بني زروال: قبائل متعددة على ضفاف نهر ورغة نبغ في كثير منها علماء في العصر السعدي الأول. منهم في تالا وغراس **محمد بن علي الزروالي**[2] الشهير بالنيجي. وهو عالم كبير متضلع في الحديث والفقه واللغة والأدب. قرأ بفاس ودرس بالمدرسة العنانية حيث أخذ عنه محمد العربي الفاسي وآخرون قبل أن يرجع إلى مدشره ليلازم التدريس والتهذيب وتأليف الكتب في العقائد والتصوف «كان مشاركاً كثير الحفظ للغة حسن الشعر. . . ممتع الحديث كثير الفوائد من أعرف الناس بعلوم القوم واصطلاحاتهم»[3]. **ومحمد الحاج الشطيبي**[4] وهو أندلسي الأصل درس في الشرق قبل أن يستقر في مدشر تازغدرة من بلاد بني زروال. ولم يقتصر تدريسه على الفقهيات واللغويات، بل شمل التفسير والحديث والتاريخ أيضاً، وألف في ذلك كله وفي الكيميا وسر الحرف. ومن تآليفه كتاب اللباب من آية الكتاب. وشرح المباحث الأصلية لابن البنا السرقسطي.

وهناك علماء آخرون كثيرون في هذا العصر موزعون في مداشر تلك السهول والجبال يصعب تقصيهم، **كأحمد الشاعر اليجمي**[5] في مدشر بوخلاد

(1) نفس المصدر ونفس الصفحة.
(2) ترجم له العربي الفاسي في مرآة المحاسن، ص 210 ـ 214.
(3) المصدر السابق، 210.
(4) أخباره في دوحة الناشر. 14. وفي مرآة المحاسن 209.
(5) ترجم له ابن عسكر في دوحة الناشر، 17.

من قبيلة بني يجم بالقرب من تطوان، وهو أستاذ ابن عسكر في التاريخ. وعبد الله القسطلي[1] في أحد مداشر بني أبي شداد بغمارة. وهو إمام تشد إليه الرحال في علوم التفسير وأصول الدين حسب عبارة صاحب الدوحة. ومحمد المسفر[2] في ديار بني نال من غمارة، وهو فقيه كبير نقل الونشريسي في المعيار كثيراً من فتاويه.

ط ـ ما وراء الأطلس:

توجد وراء الأطلس ثلاث مناطق ذات شأن في احتضان الثقافة الإسلامية سواء في العصر الذي نتحدث عنه أو قبله، وهي تافيلالت، ودرعة، وسوس. ويصعب استقصاء جميع المراكز التعليمية في تلك النجود والأودية والفيافي التي امتدت أيام السعديين إلى ما وراء نهر النيجر. وقد عرفت البادية المغربية منذ القديم بمزيد الاعتناء بالقرآن الكريم حتى لا تكاد تخلو قرية أو مدشر من مسجد أو كتّاب يحفظ فيه الصغار كلام الله. وقلما تعدم قرية من أبنائها من يميل إلى العلم فيهاجر في طلبه إلى المراكز القريبة أو البعيدة، وإلى الشرق العربي أحياناً، ثم يرجع إلى مسقط رأسه عالماً قنوعاً «بالشرط» البسيط الذي يقدمه له قومه ليتفرغ إلى تعليم أبناء جلدته ويكون «مدرسة» قد يقتصر فيها التلاميذ على تعلم القرآن والكراريس المعينة على تجويده وضبطه واتقان رسمه، وقد يتعلمون فيها أيضاً مبادىء النحو والصرف والعقائد والعبادات، وقد يتلقون دروساً عالية متى توفرت فيهم شروط التحصيل. ولن نتعرض هنا ـ كما فعلنا في الشمال ـ إلا للمراكز التي يتلقى فيها الطلبة تعليماً عالياً على أساتذة شهد بكفاءتهم ثقات المؤرخين أو عرفوا بمؤلفاتهم الخالدة. ولا ندعي الاستقصاء والإحاطة في هذه العجالة لأننا وإن كنا قد اطلعنا على بعض المصادر فقد فاتتنا أخرى كثيرة وما لا يدرك كله لا يترك كله.

سجلماسة كانت هذه المدينة ذات أهمية سياسية وعلمية طوال قرون

---

(1) المصدر السابق، 23.

(2) نفس المصدر، 28.

عديدة بعد أن أسسها الخوارج من بني مدرار في منتصف القرن الهجري الثاني واتخذوها عاصمة لإمارتهم الجنوبية[1]، لكنها فقدت مكانتها السياسية مع المرابطين فمن جاء بعدهم من الدول وضعفت الحركة العلمية فيها تبعاً لذلك حتى إننا لا نجد فيها خلال القرن الهجري العاشر غير عالمين هما علي بن عبد العزيز السجلماسي[2] وكان قد درس في بلاده ثم رحل إلى الشرق فأتم تكوينه العلمي قبل أن يتصدر في سجلماسة لتدريس العلوم الدينية واللغوية ولا سيما القراءات. وعبد الواحد الحسني[3] وهو عالم كبير وأديب ممتاز قرأ بدرعة ومراكش وفاس، وطارت له في البلاد شهرة واسعة جنت على سجلماسة فحرمتها من عالمها الفذ ليكون شيخ الجماعة في مراكش حاضرة السعديين.

مضغرة[4] من أعمال سجلماسة اشتهرت في العصر السعدي الأول بزاوية الشيخ عبد الله بن عمر[5] من تلاميذ الإمامين أحمد زروق ومحمد بن غازي. وقد ملأ ابن عمر أرجاء مضغرة علماً وحكمة وصلاحاً، وتكاثر عدد الطلاب في زاويته وكان من بينهم الأميران أحمد الأعرج ومحمد الشيخ ابنا محمد القائم السعدي، وظل الأستاذ يواصلهما ويناصرهما بعد أن تسلما العرش، وبقيا يراسلانه ويعظمانه ويتتلمذان له. ولما غدرت قبيلة المنابهة السوسية بمحمد الشيخ كتب إلى أستاذه ابن عمر يشكو له الحال فأجابه: أين أنت من قول أبي الطيب المتنبي:

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة وأعوز الصدق في الأخبار والقسم

«فعكف السلطان على ديوان المتنبي حتى علق بحفظه كله ولم يعزب عنه

---

(1) ارجع في هذا الموضوع إلى ابن خلدون، العبر، 267:6 وما بعدها.

(2) ترجم له ابن عسكر في دوحة الناشر، ص 68.

(3) أحسن مرجع لمعرفة حياة عبد الواحد العلمية فهرسته. وترجمه أيضاً القادري في أول نشر المثاني.

(4) هناك مضغرة المغربية بالقرب من سجلماسة، ومطغرة الجزائرية بأحواز تلمسان، وكثيراً ما تلتبس النسبة إليهما خصوصاً وقد أنجبت كلتاهما علماء في هذا العصر وغيره.

(5) ترجم له ابن عسكر في دوحة الناشر، 65 ـ 66. وابن إبراهيم في الإعلام، 170:4.

بيت واحد»[1]. ويعد وفاة الشيخ ابن عمر خلفه في التعليم والإرشاد بالزاوية ابناه محمد[2] وكان فقيهاً ورعاً غلب عليه التصوف والزهد، وعبد الرحمن[3] أستاذ القراءات والفقه واللغة لقيه ابن عسكر صاحب الدوحة وأثنى عليه وأشار إلى بعض مناظراته اللغوية والفقهية. ومن أهم المراكز التعليمية في هذا العصر ببلاد درعة:

زاوية ابن مهدي التي قرأ فيها عبد الواحد الحسني وتحدث عنها كثيراً في فهرسته. وحجر الزاوية في هذا المركز بالطبع هو محمد بن مهدي[4] الدرعي العالم الصالح الذي انصرف عن زخرف الدنيا وأعرض بشمم عن المناصب العالية التي اقترحها عليه السعديون غير حافل بهداياهم السخية على قلة ذات يده وخصاصته الفادحة. «أفنى عمره في تعلم العلم وتعليمه وكانت له نية صالحة في إيصاله إلى متعلميه صبوراً على أخلاق الطلبة غاضاً الطرف عن هناتهم... لا يضجر من تعليم مبتدىء ولا متوسط ولا منتهى، ويخاطب كلاً بقدر حاله ويعامله بمقتضى طبعه»[5]. وكان ابن مهدي مشاركاً درس في زاويته النحو والصرف والعروض والعقائد والحديث وغير ذلك. وإلى جانبه كان تلميذه سعيد بن علي الأوزالي[6] يلقي دروساً عديدة في الزاوية على صغار الطلبة والمتوسطين منهم «وكانت معه في أوقات التعليم حدة في خلقه، نتيجة أنتجتها مقدمات نيته الصالحة، وحالة أثمرتها مساعيه الرابحة، فلا تسأل عن تغير حاله واستشاطة طبعه عندما تتمنع علينا بعض المسائل العلمية ويتعسر علينا فهمها حتى يؤديه ذلك في بعض أوقاته إلى هجر المأكول فتراه كأنه قريب عهد بمصيبة»[7].

تامكروت. عاش في هذه القرية الواقعة على ضفاف وادي درعة خلال

---

(1) الدوحة، 66.
(2) المصدر السابق في نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، 67.
(4) ذكر أخباره عبد الواحد الحسني في الفهرست، ص 85 ـ 87. وابن عسكر في الدوحة، 70.
(5) فهرست عبد الواحد الحسني، 85.
(6) المصدر السابق، 88 وما بعدها.
(7) نفس المصدر ونفس الصفحة.

القرن الهجري العاشر علماء متعددون تردد صدى دروسهم في تلك الواحات، وحظي المتأخرون منهم بالمنزلة الرفيعة عند السعديين فكانوا سفراءهم عند الخلفاء العثمانيين. كل ذلك قبل أن تؤسس فيها الزاوية الناصرية التي سنتحدث عنها في العصر السعدي الثاني. وأشهر هؤلاء التامكروتيين أبو القاسم الدرعي[1] الملقب بالشيخ لكثرة من تخرج على يده من علماء درعة وسوس. وكان قد قرأ بفاس على أحمد الونشريسي وطبقته، وبرع في القراءات والفقه والعربية والحساب والفرائض، وتعلم كثيراً من الصناعات اليدوية، ثم رجع إلى قريته (يشارط) وينفع قومه بعلمه وعمله. وكان أفق تفكير هذا العالم فسيحاً كالصحراء نقياً كأديمها الصافي، فهو صاحب الوقف على كرسي القراءات بمسجد الشرفاء كما سبقت الإشارة إلى ذلك لدى كلامنا على فاس. وما بالك بعالم يحبس نفسه في قرية ضائعة بين الرمال يعلم أهلها ليل نهار بعد أن عاش سنين في الحاضرة، ثم لا يرضيه ذلك فيقتر على نفسه ويحرمها من أكبر قسط من (الشرط) الزهيد ليوفر في بضع سنوات مبلغاً يشتري به عقاراً يوقف على نشر العلم في العاصمة ليعم النفع المغرب كله. وممن تخرج على أبي القاسم الشيخ وتأهل للتدريس والقضاء في درعة أحمد البوسعيدي[2] المعروف بآكحيل، وكان فقيهاً ممتازاً بذ جميع أقرانه في معرفة فروع المذهب. وعاصر هؤلاء محمد بن علي[3] الدرعي الذي درس بالمغرب والجزائر ثم أقام في تامكروت ينشر العلم بين بنيه وتلاميذه، وكانت له مراسلات علمية مع أستاذه عبد العزيز القسنطيني. وخلفه في التدريس بعد وفاته ولداه العالمان محمد[4] كان فقيهاً نابهاً كأبيه، ذاع صيته وعرف فضله فاستدعاه عبد الله الغالب السعدي يبعث به سفيراً إلى القسطنطينية عام 980/ 1572. وعلي[5] اللغوي الأديب الذي ظل يعلم ويرشد في تامكروت، لم يغادرها إلا عام 997/ 1588 عندما

(1) ترجم له التامنارتي في الفوائد الجمة، 29.
(2) ترجم له ابن إبراهيم في الإعلام، 38:2 وما بعدها.
(3) ذكره ابن عسكر في دوحة الناشر، 69.
(4) المصدر السابق في نفس الصفحة.
(5) ترجم له القادري في نشر المثاني، 31:1 ـ 32.

جاءه أمر أحمد المنصور الذهبي بالقدوم عليه في المدينة البيضاء (فاس الجديد) حيث كان رسل الأتراك قد حملوا هدية ملكهم العظيمة. فأرسله المنصور مع الوزير محمد بن علي الفشتالي سفيرين إلى الخليفة العثماني مراد الثالث. وقد تغيب عليّ الدرعي عن تامكروت سنتين سجل أحداثهما بتفصيل في كتابه النفحة المسكية في السفارة التركية.

اكتاوة بالرغم من بعد هذه القرية ووقوعها في أسفل درعة فإنها حظيت بمزايا سياسية وعلمية في العصر السعدي، فضربت فيها السكة، وعرفت حركة عملية مزدهرة مع **أحمد أدفال**[1] الذي قرأ في تافيلالت وسوس وفاس ثم رحل إلى الشرق فأخذ عن علماء مصر والحجاز ونال إجازتهم. وألقى عصا التسيار في اكتاوة ينشر فيها علمه الغزيز ويفيد الطلاب الذين يفدون عليه من أعماق الصحراء. وقد اشتهر أدفال بالتضلع في علوم الشريعة والحقيقة، وله مراسلات ومناظرات مع أشياخه وغيرهم من كبار العلماء. وألف غير ذلك في التصوف والتراجم.

ومن أشهر المراكز الثقافية السوسية في العصر السعدي الأول:

تازروالت في شرقي تيزنيت دار شيخ جزولة الشهير أحمد بن موسى[2] السملالي الذي ربى المريدين وعلم الطلاب عشرات السنين. وهو وإن غلب عليه التصوف وتربية الأذواق فإن كثيراً من مريديه الذين لازموا زاويته السنوات ذوات العدد لم ينقطعوا عن حلقات التدريس. وبعد وفاة الشيخ ابن موسى سار أبناؤه في زاوية تازروالت سيرته في التربية والإرشاد وإيواء العلماء والمتعلمين والحدب عليهم، وأسس بعضهم بجوارها مدينة ايليغ التي ستصبح عاصمة العلم والسياسة في سوس خلال العصر السعدي الثاني.

تامنارت تقع في واد خصيب استهوى أحد علماء قرية (فم الحصن) من

---

(1) المصدر السابق، 126:1 + الإعلام، 91:2.

(2) ألف أحمد أدفال كتاباً في ترجمة أحمد موسى. وترجم له ابن عسكر في الدوحة، 83.

بلاد تاهلة القاحلة هو محمد بن إبراهيم الشيخ[1] فارتحل إليها بأهله في أوائل القرن الهجري العاشر وأخذ يدرس في أحد مساجدها الفقه وقواعد اللغة. «واجتهد في الإقراء ونشر العلم سنين عديدة فانتفع به خلق كثير من طلبة العلم وغيرهم حتى استنارت بهم بلاد جزولة». ولما تكاثر عدد الطلاب الواردين علي تامنارت بنى لهم الشيخ ابن إبراهيم مساكن يأوون إليها. وكان فضلاً عن إمامته في الفقه وقواعد العربية لغوياً أديباً يحفظ قصائد الجاهليين ويحسن الاستشهاد بها، وإن كنا لا نعرف عن دروسه الأدبية إلا ما ذكره التامنارتي في الفوائد الجمة ـ ورقة 72 ـ «أنه كان يقرىء الطلبة مقامات الحريري وقد ناف على الثمانين سنة لما رأى من استيلاء العجمة على أهل هذه البلاد». وقد شارك الشيخ ابن إبراهيم في حملة الجهاد التي نظمها السعديون ضد البريجة (مدينة الجديدة) فلم تفتح لهم. ودخل مع أعيان المجاهدين على الملك عبد الله الغالب وكان مغتماً من نتيجة الحملة السلبية، فأنشده ابن إبراهيم قول امرىء القيس:

وما جبنت خيلي ولكن تذكرت   مرابطها من بربعيص وميسرا

فسري على الغالب. وقد تعاقب على التدريس في تامنارت بعد وفاة الشيخ أبناؤه وأحفاده.

وهناك من علماء تامنارت في هذا العصر غير آل ابن إبراهيم محمد بن أحمد الرسموكي[2] الذي تخرج على علماء مراكش ثم انقطع للتدريس بمسجد عنق تاسكدلت بتامنارت، فأقرأ العقائد والفقه وقواعد اللغة والحساب. وكان عبد الرحمن التامنارتي يقرأ عليه تلك المواد عندما يرجع من تارودانت لزيارة أهله، وأثنى على كفاءته وقال إنه يعز مثله في مراكز التعليم بالبادية.

تغاتين اشتهرت المدرسة التغاتينية في أول دولة السعديين بفقيه كبير قضى حياته في تلك القرية النائية يدرس ويؤلف. هو حسين بن داوود التغاتيني[3] الرسموكي، وقد اشتغل بقواعد اللغة كسائر علماء سوس إلا أن أكثر اهتمامه

(1) ترجم له المختار السوسي في المعسول، 7:10وما بعدها.

(2) المصدر السابق، 7 نقلاً عن طبقات الحضيكي.

(3) ذكر أخباره التامنارتي في الفوائد الجمة، 44 وما بعدها.

كان منصباً على الفقه والتبحر فيه، فشرح رسالة ابن أبي زيد، ومختصر ابن الحاجب الفرعي، وتوشيح خالد الكرسيفي... وتسلسل العلم في الأسرة التغاتينية إلا أن مدرستهم هدمت بسبب الحروب التي قامت بينهم فانتقل علماؤهم إلى مدرسة رسموكية أخرى تابعوا فيها رسالتهم الثقافية.

تيبوت بضواحي تارودانت. كانت مدرسة الحسن بن عثمان التملي[1] مركزاً علمياً متألقاً في أوائل القرن الهجري العاشر قبل أن تكسفه المحمدية حاضرة السوس. وقد تخرج التملي في فاس على الإمامين محمد بن غازي وأحمد الونشريسي وطبقتهما، وجاء إلى تيبوت القرية الجبلية المتواضعة ينشر فيها علمه الغزير وعاش هنالك فترة قيام الدولة السعدية فأسهم في تكوينها ومعاضدتها، إذ كان محمد الشيخ بن محمد القائم من أخص تلاميذه وأكرمهم عنده. «كان ـ التملي ـ صاحب جد في العلم والعمل مجانباً للراحة كثير السهر للدرس والتدريس والعبادة. وكان إذا غلب عليه النوم يضع رأسه على حجر لتوقظه قسوة الحجر ولا يستغرقه النوم. ويطول في مجلس تدريسه حتى كان قد يقرأ عليه في المجلس الواحد أربع عشرة دولة[2] وكان حافظاً لتوضيح خليل لكثرة ملازمته بالنسخ والتدريس»[3].

سكتانة في قمة جبل درن قامت زاوية محمد بن ويسعدن[4] السوسي أستاذ علوم الشريعة والحقيقة. وكان كريماً ينفق عن سعة على كل من يقصد زاويته، فاجتمع لديه مئات الطلاب وعاشوا في كنفه زهاء أربعين سنة. وكان القيم عليهم والد التامنارتي صاحب الفوائد الجمة وفيها يقول ـ ص ١١[5] ـ : «... وكانت تكون في زاويته سبعمائة طالب. قال والدي: وعهد إلي في توفير طعامهم ومراقبته حرصاً عليهم وعناية بهم، وكان يفرق فيهم وفي غيرهم أنواعاً من الثياب وأموالاً جزيلة». وقد قضت السياسة على هذا المركز العلمي بعد أن

---

(1) ذكره المختار السوسي في سوس العالمة، 179.
(2) ترجم له المختار السوسي في المعسول، 269.13.
(3) الدولة القدر الذي يقرأ من الكتاب في مجلس واحد.
(4) أحمد المنجور، الفهرست، 27.
(5) أتى بأخبار ابن ويسعدن ابن عسكر في الدوحة، 83. والتامنارتي في الفوائد الجمة، 11.

التجأ إليه محمد المتوكل المخلوع فناصره ابن ويسعدن ووعده برد الملك إليه لكنهما فشلا وطوحت العاصفة بالزاوية الويسعدانية معهما.

زداغة ثاني مركز علمي بجبل درن على (أسيف نتامنت) أو وادي العسل شمالي ترودانت، أسسه سعيد بن عبد المنعم الحاحي[1] في مستهل القرن الهجري العاشر ليعلم فيه أصول العقائد وأحكام الدين. وازدهرت زاوية تافيلالت[2] على عهد عبد الله بن سعيد[3] الذي قرأ في فاس وبلاد الهبط فظهرت كفاءته ونباهته هناك، ولقيه ابن عسكر فكتب عنه في الدوحة ـ ص 76 ـ : «... فرأيت عقلاً وافراً وعلماً بارعاً وزهداً بالغاً. وكان الشيخ ـ عبد الله الهبطي ـ يعظمه ويثني عليه ويقول ما رأى قط مثل فهم هذا الرجل وإصابة رأيه في العلم». وقضى عبد الله حياته التعليمية في زاوية تافيلالت بزداغة ينشر العلم بين قومه ويؤلف في العقائد والفقه.

وبالجملة فإن العصر السعدي الأول تميز في الناحية التعليمية بظاهرتين:

1 ـ اختفاء مراكز ثقافية مهمة قديمة نتيجة الاحتلال الأجنبي واضطراب الأحوال في الحدود، مثل سبتة وطنجة ووجدة وتازا وآزمور وآسفى.

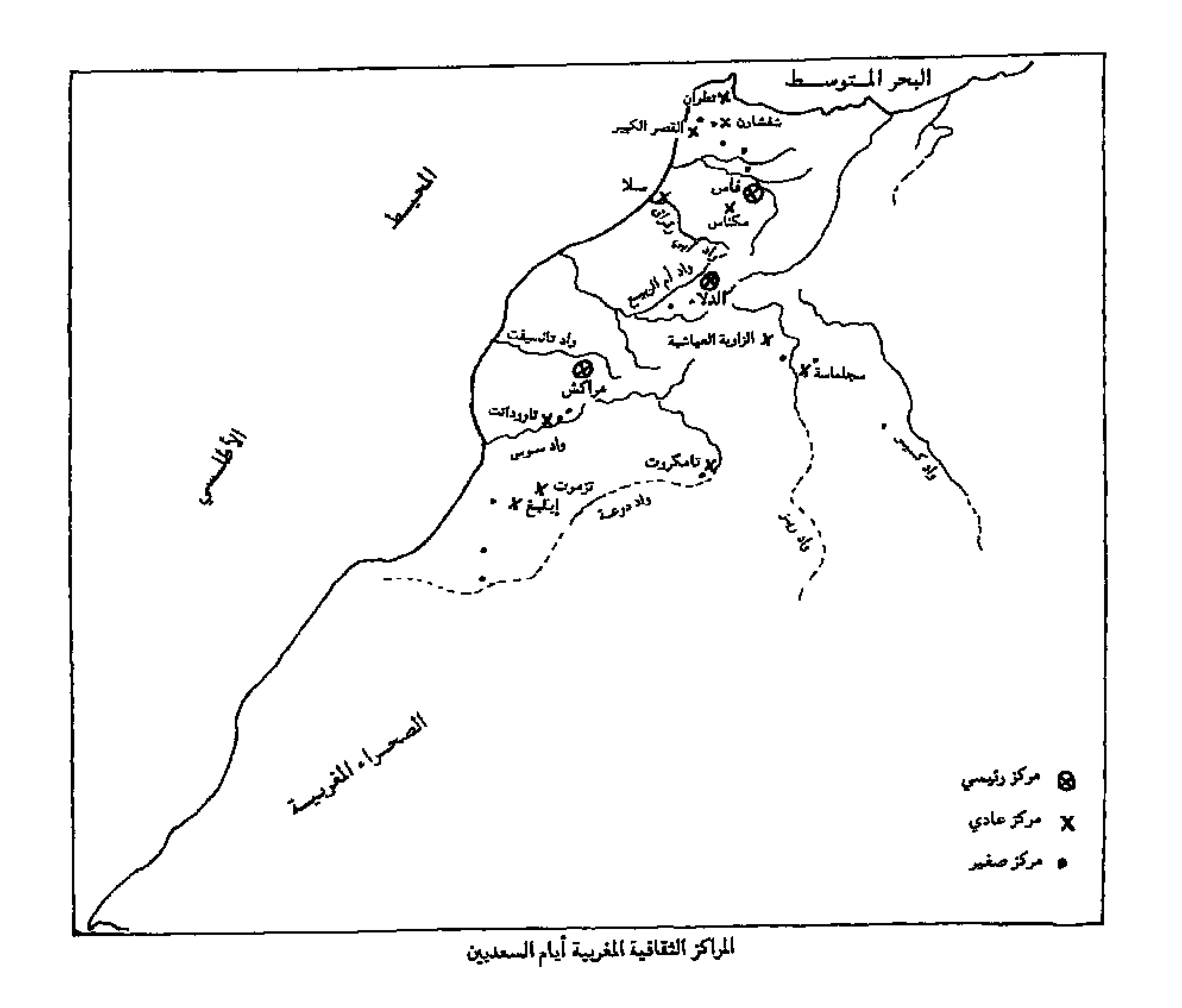
2 ـ تحول الصدارة العلمية إلى مراكش، تليها فاس وتارودانت فالحواضر الصغيرة مكناس وسلا والصومعة، فالمراكز البدوية الكثيرة المنتشرة حول بعض القرى والمدن والتي تكون مجموعتين، جبال غمارة وبلاد الهبط في الشمال، وما وراء الأطلس من بلاد تافيلالت ودرعة وسوس. وفي جميع هذه المراكز كانت تلقى دروس في العقائد والفقه والتصوف والحساب والفرائض والتوقيت والتنجيم، وفي قواعد اللغة من نحو وصرف وبلاغة وعروض إلا الأدب فإن حظه كان ضعيفاً بالرغم من وجود طائفة من الأدباء من بين أساتذة التدريس.

---

(1) ترجم له ابن عسكر في الدوحة، 76.

(2) تسمى تلك القرية في زداغة تافيلالت. وهناك في سوس قريتان أخريان تسمى كل منهما تافيلالت. انظر كتاب سوس العالمة، هامش صفحة 182.

(3) ترجمته عند ابن عسكر في الدوحة، 76. وفي سوس العالمة، 182.



المراكز الثقافية المغربية أيام السعديين

يبتدىء العصر السعدي الثاني بموت أحمد المنصور الذهبي (1012 ـ 1603) ويستمر طوال عهد تقهقر هذه الدولة وإدبارها حتى فنائها، أو كما عبرنا عنه ـ تجوزاً ـ بالقرن الهجري الحادي عشر (17م). ذلك أن الفتن التي شبت بين أبناء المنصور الثلاثة: زيدان، وأبي فارس، والمأمون، قضت على كثير من معالم الازدهار المادي والفكري في البلاد، وحطمت بالخصوص المعالم الحضارية في العاصمتين التقليديتين مراكش وفاس. نتج عن ذلك تغيير في خريطة المراكز الثقافية، وتحول التعليم بصفة عامة من الحاضرة المضطربة إلى البادية الهادئة. لا سيما القرى النائية كالزاوية الدلائية، وايليغ، وتامگروت. وقبل أن نستعرض هذه المراكز نشير بإيجاز إلى الاضطرابات الخطيرة التي كانت كل من مراكش وفاس مسرحاً لها، وأدت إلى تأخيرهما عن الصدارة العلمية في هذا العصر.

ففي مراكش لم تكد تهدأ عاصفة الشقاق ومؤامرات الإخوة وأشياعهم من قواد الجند، حتى ذر قرن فتنة ابن أبي محلي مدعي المهدوية، الذي تمكن من السيطرة على عاصمة الجنوب وازعاج زيدان عنها، فعرف (البديع) محنته الأولى، إذ لم يكتف ذلك المتصوف الموسوس بالعبث وحده بذخائر القصر وهتك أستار ربات خدوره، حتى أباح لأتباعه المتفقرة من شذاذ الصحراء أن يعيثوا فساداً في تلك القباب الفاخرة والصروح الممردة والبساتين الغناء. ثم انطلقت أيدي أولئك الرعاع الهمل في أنحاء الحمراء تنهب وتسلب وتقتل. ولم يكن تخليص المدينة بعد سنوات ـ لسوء حظها ـ إلا على يد متزعم طماع لا يقل هوساً وغروراً عن سابقه. فبعد أن سقط ابن أبي محلي مع مئات القتلى في بسيط گيليز، دخل إلى مراكش أبو زكريا الحاحي، وفعلت فيها جموعه الحاشدة من صعاليك الجبل ما فعله الصحراويون من قبل. وظلت الفتنة تلاحق زيدان وتطوح بالأمراء الأربعة الذين تعاقبوا بعده على العرش إلى مهالك الاغتيال فانتهت معهم الدولة السعدية ولم تنته الزوبعة بعد.

أما فاس فإن أكثر الشرور التي أصابتها في هذه الفترة كانت بسبب المأمون الذي لم يكتف بترويع السكان وإتلاف أرواحهم وأموالهم في سبيل تحقيق

أطماعه السافلة، حتى عمد إلى مدينة العرائش وسلمها للإسبان رغبة في أن يساعدوه ضد إخوته، ولم يجد لتبرير فعلته إلا الضغط على العلماء ليفتوا بصواب تصرفه الأخرق. فأخذ هؤلاء يهاجرون من المدينة الإدريسية فراراً بدينهم حتى لا يمالئوا الأمير الخائن الظالم، وظل أكثرهم مشرداً حتى مات، كالحافظ أحمد بن يوسف الفاسي[1] وأبي الطيب الزياتي[2]، والعربي الفاسي[3]. ويشير هذا الأخير في كتابه مرآة المحاسن - ص 155 - إلى بعض الأحداث بقوله: «وبعد خروجنا من فاس بقريب وهو يوم الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الأول - 1020 هـ - ثار بفاس أبو الربيع سليمان بن محمد الزرهوني، وعضده محمد المربوع اللمطي، وتبعهما أهل فاس بأجمعهم، وأخرجوا من كان من جيش السلطان - المأمون - وقتلوا كثيراً منهم، وجرت في ذلك خطوب آلت بعد سنين إلى انقطاع الملك بفاس، وبقي الناس فوضى إلى الآن - حوالي 1050 هـ - . . .» وحتى العلماء الذين لم يغادروا فاساً ظل أكثرهم في بيوتهم متسترين عن أعين الرقباء، وأصاب بعضهم شرر الفتنة وشرها وهم برآء، فمنهم من قتل كأبي القاسم بن أبي النعيم[4]، ومنهم من أكره على الخروج من داره كأحمد المقري[5]، ولم يسلم الذين باعوا دينهم بدنياهم من غضب الشعب ومقته، فمنهم من أهمل واعتزل فصار كالجمل الأجرب، ومنهم من قتل

---

(1) مات أحمد الفاسي في بوزيري من بلاد مصمودة - ناحية وزان - عام 1021 - 1612 ارجع في ترجمته إلى مرآة المحاسن للعربي الفاسي. ص 151 - 159.

(2) مات أبو الطيب الزياتي في جبل كرت (حد كرت؟) من بلاد الغرب عام 1023/ 1614. انظر نشر المثاني للقادري. 126:1.

(3) مات العربي الفاسي بتطوان عام 1052/ 1642. وسنشير إلى بعض مراجع ترجمته لدى كلامنا على تطوان.

(4) قتل اللمطيون ابن أبي النعيم بالزربطانة في فاس عام 1032/ 1623 وقام الأندلسيون للأخذ بثأره فظل القتال مستعراً داخل المدينة 11 شهراً. انظر نشر المثاني للقادري، 147:1.

(5) رحل المقري إلى الشرق عام 1027/ 1618 لاتهامه بالميل إلى شراكة. وستأتي بعض مراجع ترجمته لدى كلامنا على التعليم بفاس.

كمحمد بن قاسم ابن القاضي[1]. ثم جاء زلزال سنة 1033/ 1623 الذي وصفه معاصره عبد القادر الفاسي بقوله: «تصدعت الجدرات بفاس وسقطت الديار ومات تحت الردم خلق كثير لا يحصى عددهم ولم يسلم من الديار إلا القليل. . . والحاصل أن هذه البلاد خربت ديارها وانقطعت طرقاتها بالهدم فمن الناس من مات هو وأولاده وأهل داره ولم يسلم منهم أحد، ومنهم من خرج من تحت الردم جريحاً أو كسيراً إلى ذلك من الآفات التي لم نشاهد مثلها وكادت الأرض أن تنقلب. . .»[2]. وبقيت الفتن[3] تترى بفاس تعطلت صلاة الجماعة غير ما مرة في القرويين وغيرها فضلاً عن حلقات التدريس.

أ ـ الزاوية الدلائية:

هناك عوامل جغرافية وسياسية واقتصادية جعلت من الزاوية الدلائية المركز العلمي الأول في هذا العصر. فموقعها في الحدود الغربية للأطلس المتوسط المطلة على بسائط تادلا، في نقطة بعيدة عن مناطق الاضطرابات في الشمال والجنوب، كون منها منطقة آمنة يجد فيها المشتغلون بالعلم ما يتطلبونه من الطمأنينة وراحة البال. والعصبية الصنهاجية جعلت قبائل البربر في بلاد ملوية العليا وما والاها حتى الدير يخضعون لهيمنة مَحمد بن أبي بكر الدلائي الروحية، ثم للسلطة الزمنية لابنه محمد الحاج. فإذا كانت السلطة المركزية قد انقسمت على نفسها فتمزقت وضعفت حتى انعدمت أو كادت، وعمت الفوضى وانتشر النهب والخوف والقتل داخل الحواضر وحواليها وبالأحرى فيما بعد عنها، فإن الأمر بخلاف ذلك في الأطلس المتوسط حيث كانت كتائب

---

(1) قتل محمد ابن القاضي بالقرويين عند صلاة العشاء. 1040/ 1631. انظر نشر المثاني للقادري، 1:156.

(2) نقل ذلك من خط عبد القادر الفاسي محمد بن الطيب القادري في كتابه نشر المثاني، 1:149.

(3) لمعرفة أخبار الفتن بفاس ارجع إلى: مرآة المحاسن للعربي الفاسي، ونزهة الحادي، وصفوة من انتشر لمحمد الأفراني في أماكن متفرقة. وبخاصة الصفحات: 128 ـ 137 ـ 147 ـ 149 ـ 150 ـ 156 ـ 157 ـ 170 ـ 173 ـ 177 ـ 179... من الجزء الأول من نشر المثاني للقادري.

المتطوعين الصنهاجيين تخترق الجبال وتسلك منها سبلاً فجاجاً لنشر الأمن وقمع البغي تحت قيادة فرسان الدلاء أمثال المسناوي بن محمد بن أبي بكر، وأخويه عبد الخالق ومحمد الحاج، ثم تحت إمرة رؤوساء مجاط، وأيت يمور، وبني مطير، وكـروان، وأيت إسحاق وغيرها من قبائل زيان التي ساندت شيخ زاوية الدلاء حينما نزع إلى الحكم وأدلى بدوله في السياسة.

يضاف إلى ذلك ما عرفت به هذه الزاوية من رخاء شامل وثروة طائلة، وما اشتهر به أهلها من كرم مفرط يكاد يعد من ضرب الخيال. فقد كانت للدلائيين إقطاعات واسعة في الدلا وتافيلالت يتطوع للعمل فيها مئات الأنصار والمريدين، وتمدهم بمحصولات زراعية وافرة. كما كانت لهم قطعان كثيرة من الماشية يتضاعف نتاجها بمرور الزمن ولا ينقص منها شيئاً ما كان يذبح ـ يومياً ـ للزوار والطلبة وأبناء السبيل، أو يوزع على الفقراء والعلماء والشرفاء في جميع أنحاء المغرب بمناسبة عيد الأضحى كل سنة. ولما بويع محمد الحاج الدلائي بالإمارة أخذت القبائل تحمل إليه أعشارها وزكواتها، ثم استغنت الخزينة الدلائية بالضرائب الجمركية المرتفعة التي فرضت على الصدرات والواردات بمرسى العدوتين سلا والرباط، وبالأرباح الوفيرة التي بدأت تدرها على الدلائيين تجارتهم البحرية النشيطة، وأخماس الغنائم القرصنية، وفديات الأسرى الأوروبيين.

أوليس من الطبيعي إذن أن تجتذب زاوية الدلاء في جملة من اجتذبت إلى رحابها جموع العلماء الذين لم يجدوا فيها الأمن والطمأنينة فحسب، ولكن أيضاً مظاهر الإجلال والتقدير، وإمكانيات الشهرة والثروة والجاه؟ على أننا نكرر هنا ما سبق أن قلناه عن مراكش في العصر الأول، من أن التفوق العلمي للدلا في القرن الهجري الحادي عشر (17م) لم يكن أصيلاً ولا دائماً، وإنما كان نتيجة ظروف مؤاتية عابرة. فبالرغم من وجود طائفة مهمة من العلماء الدلائيين، فإن الفضل في ذلك الازدهار الثقافي العظيم لزاويتهم يرجع إلى عشرات العلماء الوافدين عليها من فاس ومراكش وسجلماسة ودرعة وسوس وغيرها. وخلافاً لما توهمه بعض المؤرخين فإن الدراسة في الدلاء لم تقتصر

على المواعظ الدينية والإشارات الصوفية، وإنما شملت كل المواد التي كانت تدرس في فاس وسواها من المراكز العلمية، من قراءات، وتفسير، وحديث، وتوحيد، وفقه، وأصول، ومنطق، وحساب، وتوقيت، ونحو، وبلاغة، وأدب. . . [1].

من أشهر العلماء الدلائيين الذين اشتغلوا بالتدريس في زاويتهم:

محمد بن أبي بكر[2]. وهو كما قال عنه تلميذه العربي الفاسي في مرآة المحاسن ـ ص 225 ـ: «خاتمة مشايخ المغرب، انتهت إليه رئاسة الدين والدنيا، واستقل بسياسة الأمور الجليلة والرتب العليا. عالم حافظ دراك متوسع في علم التفسير ومعاني الحديث وعلم الكلام. . .». يروى بالسند المتسلسل إلى المؤلفين أحد عشر تفسيراً للقرآن الكريم، وصحيحي البخاري ومسلم وكتب السنن وغيرها، ويعرف الروايات المختلفة ورجال الإسناد مع كثير من الضبط والصدق والتحري. يمتاز مَحمد بن أبي بكر الدلائي بفصاحة العبارة وسلاسة الأسلوب والقدرة على الانطلاق في الحديث، والاستمرار في الإملاء والتقرير، حتى كان درسه أحياناً يستغرق نصف يوم دون أن يشعر المستمعون إليه بسأم أو ملل. ويمكننا أن ندرك مدى أهمية هذه الدروس وسموها إذا عرفنا أن ممن كان يحضرها ويستفيد منها أحمد المقري، والعربي الفاسي، وعبد الواحد بن عاشر، ومحمد البوعناني، وعلي بن عبد الواحد الأنصاري السلوي وغيرهم من أعلام العلماء وأكابر المؤلفين.

ومحمد المرابط الدلائي[3]. أحد علماء هذه الأسرة الذين طارت شهرتهم بالمغرب والمشرق، وتخطف الناس مؤلفاته باذلين فيها الأثمان الباهظة. وقد تولى الإمامة والخطابة والتدريس في المسجد الأعظم بالزاوية الدلائية، وكانت مجالسه النحوية العالية متلقى نجباء الطلاب أمثال الحسن اليوسي وأضرابه. وألف في النحو والصرف والأصول والأدب.

---

(1) انظر تفصيل ذلك في كتابي الزاوية الدلائية. ص 72 ـ 75.

(2) المصدر السابق، ص 76 ـ 81.

(3) لمعرفة مصادر ترجمة المرابط الدلائي ارجع إلى كتاب الزاوية الدلائية ص 82.

وأحمد الحارثي الدلائي[1]. أعلم قومه باللغة وقواعدها، وأنحى أهل عصره على الإطلاق، مع مشاركة حسنة في التاريخ والحساب والأصول والفقه والحديث. كان يمثل الجانب اللغوي الذي امتاز به الدلائيون، ويشتغل طوال عمره بتدريس كتاب سيبويه، مع العلم بأن هذا الكتاب لم يدرس في فاس منذ عهد عبد الرحمن المكودي أواخر القرن الثامن الهجري.

والشاذلي الدلائي[2] اللغوي الأديب الذي كرس حياته لتدريس ألفية ابن مالك، ومقامات الحريري، حتى قيل إنه أقرأ الأولى مائة مرة، والثانية ثلاثين مرة. وهناك غير هؤلاء كثير من الدلائيين الذين درسوا في زاويتهم[3].

أما العلماء غير الدلائيين الذين درسوا في هذه الزاوية فهم أصناف ثلاثة، صنف جاءوها وهم مكتملو الثقافة فراراً من الفتنة أو العسرة، فلم يشتغلوا فيها بغير التدريس، وصنف وردوها محصلين أيضاً لكن غايتهم كانت مزدوجة: حضور المجالس الحديثية العالية لشيخ الدلاء، والتدريس بمساجد الزاوية ومدارسها، وصنف ثالث كانوا ما يزالون في طور الطلب، فارتووا من معين الدلاء، حتى إذا نهلوا وعلوا اشتغلوا بالتدريس هناك. وأكثر هؤلاء استوطنوا الزاوية الدلائية ولم يغادروها إلا عندما أخذت معاول الرشيد بن الشريف تهدها. ومن أشهر الصنف الأول:

أحمد بن القاضي[4] أستاذ الحساب والأدب والتاريخ، ومؤلف درة الحجال وجذوة الاقتباس والمنتقى المقصور وغيرها من المؤلفات المهمة المشهورة. وهو من أول الملتحقين بالزاوية الدلائية، قرأ عليه فيها مَحمد بن أبي بكر الدلائي وإخوته وأبناؤه وغيرهم من الطلبة الغرباء كثيراً من

---

(1) المصدر السابق، ص 83.
(2) نفس المصدر، ص 85 ـ 86.
(3) لاستقصاء العلماء الدلائيين ارجع إلى كتاب البدور الضاوية مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 261 د. ورقات 25 ـ 230.
(4) للتوسع في ترجمة ابن القاضي والاطلاع على جدول مؤلفاته ومعرفة بعض مصادر ترجمته، ارجع إلى كتاب الزاوية الدلائية ص 86 ـ 93.

الكتب التي سترد في الفصل التالي لدى كلامنا على مواد الدراسة، في النحو، واللغة، والأدب، والسير، والحساب والعقائد والأصول. . .

وأحمد بن عمران السلاسي[1] مفتي فاس والمدرس بجامع القرويين. هاجر إلى الدلاء وأقام فيها سنوات عديدة يدرس ويناظر، ويسامر الشيخ ابن أبي بكر في مجالسه الخاصة. وأخذ عنه هنالك الأخوان الدلائيان محمد المرابط وأبو عمرو، والحسن اليوسي وغيرهم.

ومحمد ابن سودة[2] حفيد أبي القاسم شيخ الجماعة بفاس. أقام مدة في الزاوية الدلائية يدرس للطلبة المتوافرين بها، وكافأه محمد الحاج الدلائي عندما آلت إليه إمارة المغرب فجعله قاضياً بفاس.

ومحمد بن سعيد المرغيتي السوسي[3]. إمام الحساب والتعديل، ومؤلف المقنع وشرحيه الكبير والصغير في التوقيت. درس في الزاوية الدلائية علومه العقلية وتتلمذ له فيها اليوسي وكثير من الدلائيين وغيرهم.

ومن الصنف الثاني تلاميذ مَحمد بن أبي بكر الدلائي:

أحمد المقري[4] أستاذ تلمسان وفاس، ثم دمشق والقاهرة، صاحب نفح الطيب وأزهار الرياض. عرفته الزاوية الدلائية طالباً متواضعاً يحضر مجالس التفسير والحديث للشيخ محمد بن أبي بكر، وأستاذاً مرموقاً يزدحم الطلبة في حلقات دروسه الدينية والأدبية. وظل المقري يتودد إلى شيخ الدلاء وبنيه ويراسلهم حتى آخر أيام حياته، وهم بدورهم يواصلونه ويزورونه في القاهرة، ويتولون عنه العناية بالأسرة والمكتبة اللتين تركهما بفاس[5].

---

(1) المصدر السابق. ص 94.

(2) نفس المصدر. ص 96.

(3) نفس المصدر في نفس الصفحة.

(4) المصدر السابق. ص 108 ـ 113.

(5) انظر تفصيل ذلك في آخر رسالة كتبها المقري لشيخ الدلاء. الملحق رقم 8 من كتاب الزاوية الدلائية.

العربي الفاسي[1]. عالم مشارك امتاز بالجرأة النادرة في الحق، وساند بقلمه المجاهد العياشي السلوي في الدفاع عن حوزة الوطن. خرج من فاس على إثر حادثة تسليم المأمون السعدي مدينة العرائش إلى الإسبان، وظل مشرداً نحو ثلث قرن تردد خلاله على الزاوية الدلائية، حيث أخذ عن الشيخ مَحمد بن أبي بكر الدلائي وسمع منه صحيح البخاري، وتصدر للتدريس فتتلمذ له أكثر علماء الدلاء. وأجاز منهم الشرقي بن أبي بكر وأخاه أحمد الحارثي.

أما الصنف الثالث الذين تعلموا في الزاوية الدلائية وعلموا فيها فمن أنبههم:

الحسن اليوسي[2] أشهر من أنجبته هذه الزاوية من العلماء حتى ارتبط اسمه باسمها وظن البعض أنه من أبنائها. تتلمذ اليوسي للأخوين الدلائيين محمد المرابط، وأبي عمر، وابن عمهما محمد بن عبد الرحمن آخذاً عنهم التفسير والحديث والبلاغة والنحو[3]. ومكث هنالك نحو عشرين سنة طالباً وأستاذاً. وامتاز هذا العالم الكبير بقوة العارضة، وشدة التحصيل، وجدة الأسلوب في التدريس والتأليف. كان له تجاوب كبير مع تلاميذه الكثيرين، يستهويهم علمه وخلقه فيهجرون الأهل والبلد ليقيموا بجانبه السنين العديدة، وهو يبادلهم نفس الشعور ويستغرق في تعليمهم كل اليوم وطرفاً من الليل، حتى إذا اضطر بعضهم إلى الانقطاع اغتم الأستاذ لذلك لا سيما إذا كان المنقطع من النجباء[4]. أما الكتب التي درسها اليوسي في الزاوية الدلائية فكثيرة جداً ذكر بعضها في فهارس تلاميذه. وتشمل الفقه، والأصول، والعقائد، والنحو، والبلاغة، والأدب، والمنطق، والتصوف. وأغلب تلك الكتب أقرأها مرات وكرات ووضع لها شروحاً وحواشي انتسخها الطلبة وأخذوها عنه رواية ودراية.

---

(1) الزاوية الدلائية ص 113 ـ 114.

(2) نفس المصدر، ص 97 ـ 108.

(3) فهرست اليوسي، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 1234 ك. ورقة 66/أ.

(4) أحمد بن يعقوب الولالي، مباحث الأنوار. مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 2305 ك. في ترجمة عبد الرحمن الصومعي.

أحمد الهشتوكي[1] صاحب الفهرست قرى العجلان. وفيها يتحدث عن ملازمته للحسن اليوسي في الزاوية الدلائية ما ينيف على عشرين سنة يأخذ عنه العلوم اللسانية والعقلية. «وأذن لي ـ اليوسي ـ في جميع تواليفه، كما أذن لي بالزاوية البكرية ـ الدلائية ـ بالتدريس والأجوبة والتصنيف، وأغرى الطلبة علي فتوجهوا في التعليم إلي فطلبت منه الإجازة..[2]» وأورد نص إجازة اليوسي له وهي عامة.

أحمد القادري[3] مؤلف الرحلة نسمة الآس ورفيق اليوسي في الحضر والسفر. استوطن الزاوية الدلائية طالباً وأستاذاً، وأصهر إلى الدلائيين فتزوج بنت الشاذلي أخي الرئيس محمد الحاج الدلائي. وإن كان القادري مشاركاً في جميع المناحي العلمية المعروفة في زاوية الدلاء فإنه غلب عليه الطابع الأدبي والميل إلى الشعر بصفة أخص.

وهناك غير هؤلاء كثير ممن تعلم أو علم في الزاوية الدلائية أشرت إلى بعضهم ـ بشيء من التفصيل ـ في الفصول الثلاثة الأخيرة من الباب الثالث من كتاب الزاوية الدلائية.

ب ـ فاس:

إن ما قدمناه من انتشار الفتن بفاس خلال القرن الهجري الحادي عشر (17م) وهجرة طائفة من أعلامها، لا يعني إقفار هذه المدينة العريقة في الحضارة والعلم، إذ لا يمكن أن تقضي هذه المحنة ـ مهما طالت وقست ـ على تراث القرون الإسلامية السابقة كلها. وما سبق مراكش لفاس في العصر السعدي الأول وتقدم الزاوية الدلائية عليها في العصر الثاني إلا أزمة عابرة ستعرف فاس كيف تتغلب عليها لتسترجع اعتبارها الأصيل مع قيام الدولة العلوية، وتستعيد

---

(1) المكي الناصري، الدرر المرصعة، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 265 ك. ص 24 ـ 40.

(2) نقله عن قرى العجلان للهشتوكي، المكي الناصري في الدرر المرصعة، ص 38.

(3) الزاوية الدلائية ص 124 ـ 125.

نشاطها العلمي بكيفية أقوى وأوسع، لا سيما بعد أن تؤوي عشرات العلماء من الدلاء وسائر المراكز المنحلة في الجنوب.

وفي هذا العصر الذي امتاز بقيام زوايا صوفية ـ علمية، عرفت فاس ثالثة الزوايا الشهيرة في المغرب، أعني الزاوية الفاسية بحي القلقليين[1]قامت فيها حلقات العلم بجانب حلقات الأذكار وكثر الطلبة كثرة المريدين. «ومن المقرر عند الأشياخ أن العلم إنما أحياه بالمغرب ثلاثة من الشيوخ سيدي محمد ابن أبي بكر الدلائي، وسيدي محمد ابن ناصر في درعة، وسيدي عبد القادر الفاسي»[2]. أسس زاوية القلقليين عبد الرحمن الفاسي[3] العارف. وكان عالماً مشاركاً وحيداً في فهم الكتاب والسنة، كثر الآخذون عنه من أفراد أسرته وغيرهم، كالعربي الفاسي، وعبد القادر الفاسي، ومحمد ميارة... وقرأوا عليه كل ما كان يقرأ بفاس من فقه وعقائد وأصول ونحو وبيان ومنطق ولغة وتصوف، على أن أسمى دروسه كانت في التفسير والحديث. وبعد وفاة العارف الفاسي تصدر للتدريس في زاويته تلميذه عبد القادر الفاسي[4] وطالت مدة إقرائه أزيد من نصف قرن أخذ عنه أثناء ذلك عدد وافر من الطلبة

---

(1) توجد زاويتان فاسيتان متعاصرتان، أسس أولاهما الشيخ أبو المحاسن الفاسي بحي المخفية ويغلب عليها الطابع الصوفي، وأسس الثانية أخوه عبد الرحمن العارف بحي القلقليين، وقد غلب عليها الطابع العلمي لا سيما بعد أن آل أمرها إلى الشيخ عبد القادر الفاسي.

(2) محمد بن أحمد الفاسي، المورد الهني، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 1234 ك. ورقة 2/ ب.

(3) ارجع في ترجمة العارف الفاسي إلى: مرآة المحاسن للعربي الفاسي، ص 147. ونشر المثاني للقادري، 1:150. وقد خصه قريبه الحافظ عبد الرحمن الفاسي بكتاب أزهار البستان في مناقب الشيخ أبي محمد عبد الرحمن.

(4) ارجع في ترجمة عبد القادر الفاسي إلى سلوة الأنفاس للكتاني، 1:309 ـ 314. وبخاصة إلى الكتب الثلاثة التي وضعها في ترجمته ابنه الحافظ عبد الرحمن الفاسي: بستان الأزاهر في أخبار الشيخ عبد القادر؛ وتحفة الأكابر في مناقب الشيخ عبد القادر؛ وابتهاج البصائر فيمن قرأ على الشيخ عبد القادر.

والعلماء «فلا تجد عالماً أو متعلماً بإفريقية والمغرب إلا وهو من تلاميذه أو تلامذتهم»[1].

ومن أبرز الشخصيات العلمية الأخرى بفاس في هذا العصر أبو القاسم بن أبي النعيم[2]، وأحمد المقري[3]. أما ابن أبي النعيم فقد تولى القضاء غير ما مرة وكانت له جولات علمية شهيرة على عهد المنصور في كل من مراكش وفاس، وظل في صولته صدر هذا العصر غير متحرز من الفتن والتحيز للأحزاب إلى أن لقي حتفه كما سبق، وأما المقري التلمساني فإنه زار المغرب للمرة الأولى أواخر عهد المنصور وألف رحلته روضة الآس، ثم رجع إليه ثانياً بعد وفاة المنصور وأقام في فاس نحو أربع عشرة سنة (1013 ـ 1027/ 1604 ـ 1617) اشتغل فيها بالإمامة والخطابة والتدريس بالقرويين. وقد جمعت بين هذين الشيخين لطريقتهما الطريفة في التدريس، حيث كانا يعقدان مجلساً موحداً عظيماً بالقرويين، يحضره زيادة على نبهاء الطلبة علماء المدينة وعدولها وعامتها، وتحمل إليه كثير من المراجع المهمة المختارة من خزانة الجامعة، فيتناوب الشيخان في التقرير بينما يشارك الحاضرون في القراءة والتعليق والمقارنة. وقد احتفظ لنا أحد الطلبة الذين كانوا يحضرون هذا المجلس العلمي العالي بوصف شيق له فقال: «سمعت عليهما معاً صحيح البخاري نحو ست ختمات، كانا يجلسان بمجلس واحد بجامع القرويين، ويحضر مجلسهما جميع أعيان طلبة فاس وغيرهم من العدول والعامة، ويحضرون شروحاً وحواشي عديدة جلها من خزانة السلطان مولانا أحمد رحمه الله التي أنشأ تحبيسها على الجامع المذكور، فاستفادوا وأفادوا، إلى أن فرقهم الزمان وبادوا... وذلك كله بقراءة شيخنا محمد بن محمد البوعناني...»[4].

(1) الكتاني، سلوة الأنفاس، 1:310.

(2) القادري، نشر المثاني، 1:147.

(3) سبق الحديث عنه في كلامنا على الزاوية الدلائية.

(4) محمد ميارة، نظم اللآلي والدرر، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم ٩٣١ ك، صفحاتها غير مرقمة.

وعبد الواحد بن عاشر[1] صاحب النظم المعروف المرشد المعين وشرح مختصر خليل. اشتغل هذا العالم بالتدريس والتأليف والجهاد في سبيل الله. «وكان له معرفة تامة بالقراءات وتوجيهها، وبالنحو والتفسير والرسم والضبط والأصلين والمنطق والبيان والعروض والطب والتوقيت والهيئة...»[2]. ومن أكبر تلاميذه محمد ميارة[3] شارح المرشد المعين بشرحين صغير وكبير ومؤلف كثير من الكتب الفقهية. اشترك في المناظرة الكبرى حول البلديين ـ اليهود الذين أسلموا بفاس ـ بكتابه نصيحة المغترين في الرد على ذوي التفرقة بين المسلمين، ونشط في التدريس نشاطه في التأليف، بل كان من أولئك العلماء الذين يؤلفون الكتب الدراسية المفيدة فيأخذها عنهم الطلبة دراية ورواية. وعلي البطوئي[4] من أساتذة ميارة المتقدم، بل عده هذا في طليعة أشياخه، قرأ عليه مع جموع الطلبة الحديث ومصطلحه، والفقه وأصوله، والعقائد. وامتازت طريقة البطوئي التعليمية بالفعالية ومراعاة حال المتعلمين، فبينما كان يتبسط في العبارة ويقتصر على ما لا بد منه من المعلومات مع المبتدئين والقاصرين من الطلبة، نجده يتوسع ويسمو مع الشادين منهم، فيحضر في درس البخاري جملة من الشروح والحواشي، وفي درس مسلم شرح الأبي وإكمال الإكمال للسنوسي، وفي مختصر ابن الحاجب الفرعي يأتي بشرح التوضيح، وحاشيتي اللقاني والمشدالي، فيدرسها مع الطلب دراسة مقارنة ويهتمون خاصة بأبحاث ابن عرفة واعتراضاته على ابن الحاجب. «وكان حسن النية حسن الخلق ينتفع عليه بالقراءة في الأيام اليسيرة ما لا ينتفع على غيره في أضعاف ذلك مع سهولة تعبير وعدم تكلف»[5].

ولم تخل المدينة الإدريسية في هذه الفترة من رياضيين وموقتين ومنجمين

(1) محمد القادري، نشر المثاني، 1:154 ـ 156.
(2) المصدر السابق، ص 154.
(3) نفس المصدر، 1:135 ـ 137.
(4) محمد ميارة، نظم اللآلي والدرر، الصفحات الأولى منه.
(5) محمد القادري، نشر المثاني، 1:154.

وأطباء وأدباء، منهم أحد أفراد البيت القلصادي الذي أنجب رياضيين في أجيال متعددة، وهو أحمد بن محمد القلصادي[1] الذي درس الحساب والفرائض، والتعديل والتوقيت وطرق استعمال الأسطرلاب. وعبد القادر الطليط[2] الأندلسي الأصل أستاذ الحساب والتوقيت والربع المجيب. وعبد الوهاب القاصي[3] مدرس نفس المواد الحسابية والتوقيتية. وأبو القاسم الفشتالي[4] المعروف بالغول. زواج بين التعليم والتأليف في المواد الرياضية والطبية. ومن أشهر مؤلفاته غاية الإكسير في الحساب، ورسالة في الهندسة، وحافظ المزاج ولافظ الأمشاج، ورسالتان أخريان في الطب والطاعون. أما محمد المكلاتي[5] ـ الأكبر ـ صاحب المقامة الزهرية والشعر الرائق، فكان أستاذ اللغة والأدب الرفيع. ومثله عبد الرحمن بن إبراهيم المشنزائي[6] خطيب مسجد باب الجيسة وصاحب المجالس العالية في جميع المناحي العلمية لا سيما اللغة والأدب. وقد عجب المقري من تمكنه في الأدب وإجادته في الشعر على إكثاره منه وطول نفسه فيه. لكن جائحة الفتن عصفت بهذا الأديب أيضاً وألقت به في بلاد السودان حيث انقطع خبره. وقد عرضنا لبعض أمثاله ممن خرجوا من فاس إلى الدلاء كأحمد بن عمران السلاسي، وحمدون الأبار، ومحمد بن سودة، ومحمد البوعناني. وفي هذا العصر غير من ذكر من العلماء الفاسيين المغتربين والمقيمين كثير.

ج ـ مراكش:

تأثرت مراكش بالغ التأثر بالأحداث المؤلمة التي سبقت الإشارة إليها، فتفرق جمع علمائها في أمد قصير، راجعين إلى مساقط رؤوسهم أو باحثين عن

---

(1) المصدر السابق، 1:206 ـ 207.
(2) نفس المصدر، 1:265.
(3) الكتاني، سلوة الأنفاس، 2:324.
(4) محمد القادري، نشر المثاني، 1:195.
(5) محمد الأفراني، صفوة من انتشر. وأحمد المقري، فتح المتعال، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط. رقم 565 ج، ورقة 133.
(6) أحمد المقري، روضة الآس، ص 336 ـ 338.

مناطق هادئة تساعدهم على متابعة نشاطهم العلمي. ولم يبق في مراكش في هذا العصر إلا طائفة قليلة من السوسيين أو الأندلسيين الذين لم يجدوا مفراً منها، أو كانت تربطهم ببقايا السعديين مصالح الوظيفة. على أن أخطر حادث ثقافي وقع في مراكش لهذا العهد هو تضييع المكتبة السعدية التي طالما نماها المنصور واستنسخ لها الكتب النفيسة أو استجلبها من الشرق، علاوة على المؤلفات الخاصة التي أنشئت لها في جميع المناحي العلمية والأدبية والتاريخية. ففي خلال سنة 1020/ 1612 عمد زيدان ابن المنصور ـ في غمرة هلعه من ثورة ابن أبي محلي ـ إلى تهريب هذه المكتبة العظيمة إلى مأمنه في سوس، ووكل أمر نقلها من مرسى آسفي إلى سفن فرنسية لقاء أجر معين، لكن البحارة استغلوا فرصة الفوضى والضعف فحولوا قلاع سفنهم شطر الشمال ليتحفوا بحمولتهم الثمينة بلاطهم المتعطش إلى أمثالها. لكن النحس الزيداني لاحقهم هم أيضاً فوقعوا في أسر القراصنة الإسبان، وانتهى الأمر بالمكتبة إلى أن تلقى في دهاليز دير الأسكوريال بالقرب من مدريد. ونحن وإن لم نعثر على نص يحدد عدد الكتب الضائعة، فإننا متأكدون من وفرتها إذا عرفنا أن الصاعقة التي نزلت بالدير سنة 1081/ 1671 أحرقت فيه أكثر من ألفي مجلد، وأن الفهارس التي وضعت بعد ذلك لمكتبة الأسكوريال ـ على نقصانها وعدم استيفائها ـ احتوت على أسماء آلاف الكتب العربية!.

وقد حاول زيدان بعد ذلك ـ عبثاً ـ استرداد المكتبة من إسبانيا بوساطة الهولنديين والفرنسيين والإنجليز، كما حاول استجلاب العلماء من جديد إلى مراكش، فاستقدم من فاس محمد البوعناني وولده عبد الخالق وأنزلهما بدار الحرة المعروفة بدار الخطيب في حي جامع بن يوسف، وأجرى عليهما يومياً خمسة أواق[1] من بيت المال. فكان الشيخ البوعناني يقوم في جموع الطلبة المراكشيين بإلقاء خمسة دروس في اليوم، اثنان في الفقه، وآخران في النحو،

(1) اختلفت قيمة الأوقية باختلاف العصور. وآخر ما كانت تساوي في المغرب عشر المثقال أي درهمين. ـ 20 درهماً ـ . وفي سنة 1913 قدر المثقال بعشر فرنكات والدرهم بخمسين سنتيما.

وخامس في التوحيد. وزار بعد ذلك الحسن اليوسي مراكش ـ وهو ما يزال في طور الطلب ـ فأخذ عن ثلاثة من علمائها: **عيسى السكتاني**[1] فقيه سوس وصاحب التآليف الفقهية والكلامية المشهورة. انتقل إلى مراكش على أثر قيام فتنة أبي زكرياء الحاحي واستيلائه على تارودانت فجعله زيدان قاضي الجماعة في حاضرته. أخذ عنه اليوسي مختصر السنوسي في المنطق، ومحصل المقاصد في التوحيد لابن زكري[2]. ودرس السكتاني في مراكش غير ذلك كتب التفسير والحديث والفقه. **ومحمد المزوار**[3] من قبيلة المزورات الرسموكية السوسية. تولى قضاء مراكش وأرسله الوليد بن زيدان وسيطاً لدى الدلائيين عندما نزع محمد الحاج إلى الحكم. وكان يدرس الفقه والتوحيد والمنطق، وأخذ عنه اليوسي مختصر السنوسي[4]. **ومحمد بن إبراهيم الهشتوكي**[5]. تولى هو أيضاً القضاء بمراكش وقرأ عليه اليوسي مورد الظمآن في القراآت، وألفية ابن مالك في النحو، وتنقيح القرافي في الأصول، ومختصر خليل في الفقه، وكتاب القلصادي في الحساب[6].

وهناك عالمان سوسيان آخران لازما في هذا العصر التدريس بمسجد المواسين هما: محمد بن عبد الله السوسي[7]. وهو فقيه متصوف كان يربي المريدين ويعقد للطلبة مجالس في الفقه والعقائد واللغة والمنطق. ومحمد بن سعيد المرغيتي[8] أستاذ الزاويتين الدلائية والناصري، العارف بالحساب

---

(1) محمد القادري، نشر المثاني، 1:201.

(2) الحسن اليوسي، الفهرست، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 234/كـ، ص 133.

(3) عباس ابن إبراهيم، الإعلام، 4:306.

(4) الحسن اليوسي، الفهرست، ص 134.

(5) عباس ابن إبراهيم، الإعلام، 4:360 وما بعدها.

(6) الحسن اليوسي، الفهرست، ص 134.

(7) محمد القادري، نشر المثاني، 1:269. وقد خص أحمد الولالي ترجمة الشيخ السوسي بكتاب مباحث الأنوار في أخبار الأخبار مخطوطة الخزانة العامة بالرباط. رقم 2305 كـ.

(8) محمد الأفراني، صفوة من انتشر، 77 ـ 179. وعباس بن إبراهيم، الإعلام، 4:319 ـ 328.

والتوقيت والطب العملي، انتهى به المطاب إلى مراكش حيث انكب ـ في آخر حياته ـ على تدريس الحديث والفقه والعقائد زيادة على العلوم الرياضية والفلكية والروحانية. وألف في تلك الموضوعات كلها، وجمع في فهرسته العوائد المزرية بالموائد[1]. مقروءاته وأسانيده وكثيراً من الفوائد في مختلف الفنون. وقد عاصر المرغيتي في مراكش فلكي ماهر هو أحمد بن محمد الولتي[2] موقت جامع الحرة و «إمام أهل التعديل والميقات في وقته. وكانت له اليد الطولى في علم الأزياج والحدثان. . .»[3] وطبيب صيدلي هو علي بن إبراهيم [4] الأندلسي الذي نظم للوليد بن زيدان قصيدتين طبيتين، اشتملت الأولى على خواص الخضر والفواكه، والثانية على طبائع الأعشاب ومفعولها في مداواة الأمراض[5]. وخلف علي بن إبراهيم ولدين طبيبين، عبد الملك وإبراهيم، وسيكون لهذا الأخير شأن في البلاط الإسماعيلي.

أما علوم القرآن فكان من أعلامها بمراكش محمد الرحماني[6] المتخرج على أشهر القراء المعاصرين له، وبخاصة محمد الشرقي الدلائي عمدته في هذا الفن. وقد وقف عباس بن إبراهيم في مكتبة أسفى الحبسية على المجموعة الأصلية لإجازات هذا المقرىء ولخصها في ترجمته. وللرحماني غير ما كتاب في القراآت، مثل الهداية المرضية، لطالب القراآت المكية يعني قراءة ابن كثير، و تكميل المنافع، في قراءة الطرق العشرة المروية عن نافع. ومحمد بن يوسف التملي[7] الذي ارتحل إلى فاس، بعد أن درس في مراكش قواعد الرسم والضبط والتجويد، من أجل التوسع في المادة والأخذ عن مشيخة المدينة الإدريسية،

(1) مخطوطة الخزانة العامة بالرباط. رقم 285 د.
(2) محمد الأفراني، صفوة من انتشر، ص 162.
(3) المصدر السابق في نفس الصفحة.
(4) عباس بن إبراهيم، الإعلام، مخطوطة المؤلف. ج 7. ص 123 وما بعدها.
(5) انظر مقتطفات من القصيدتين في المصدر السابق.
(6) عباس بن إبراهيم، الإعلام، 308:4 وما بعدها.
(7) المصدر السابق، 280:4. ومحمد الأفراني، الصفوة، ص 136.

وبخاصة الإمامين محمد بن يوسف الترغي وأحمد المقري. وأورد هذا الأخير في كتابه فتح المتعال رسالة بعث بها إليه التملي إثر رجوعه إلى مراكش، تدل على وفرة طلبة القراآت في الحمراء. منها: «. . . ولا زائد على ما نعرفكم به سوى ما ألهم الله بفضله من معاطاة كؤوس القراآت مع طلبة هذه الحضرة. ولقد خرجوا للقائي متعطشين لمرحلة عن مراكش في جمع كثير أزيد من ثلاثمائة طالب. وقد بدأت مع الطلبة بالمدرسة الغالبية[1]، الشاطبية ولامية الأفعال بعد العصر، والكراريس[2] بعد العشاء، ووقت التجويد من طلوع الشمس إلى العصر. . .»[3].

د ـ مكناس:

لم تتقدم الحالة العلمية بمكناس خلال هذا العصر، وأغلب من ترد أسماؤهم في كتب التراجم من علماء هذه المدينة إما أن يكتفي بذكر ألقابهم دون أية معلومات أخرى عن إسنادهم أو نشاطهم في ميدان التدريس والتأليف كالفقيهين محمد بن عزون[4]، وعبد الرحمن بن عزون، وإما أن يشتبه أمرهم فلا يعرف لهم بالتأكيد نشاط علمي في مدينتهم. مثل محمد بن أحمد الصباغ[5] وهو مكناسي درس في فاس وامتاز في الرياضيات وعلوم الهيئة «وتصدى لتعليمها فانتفع به قوم»[6]. وألف إدراك البغية، لحل ألفاظ المنية أي منية الحساب لابن غازي المكناسي. واليواقيت، في الحساب والفرائض والمواقيت، غير

(1) المدرسة الغالبية هي مدرسة ابن يوسف الشهيرة بمراكش. أنشأها أبو الحسن المريني، وجدد بناءها عبد الله الغالب السعدي فنسبت إليه. يقال إنه محا من الجدران اسم المريني وكتب اسمه بدلاً منه. انظر الاستقصا للناصري، 39:5.

(2) الكراريس عبارة عن المتون الصغرى المتعلقة برسم القرآن وضبطه. انظر مرآة المحاسن للعربي الفاسي. ص 148.

(3) أحمد المقري، فتح المتعال، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم 565 ج، ورقة 153 / ا.

(4) محمد القادري، نشر المثاني، 190:1.

(5) محمد الكتاني، سلوة الأنفاس، 239:1.

(6) المصدر السابق في نفس الصفحة.

أن وفاته في فاس وعدم العثور على نص يثبت رجوعه إلى مسقط رأسه أيام تصديه للتدريس جعلنا نفترض أنه استوطن نهائياً المدينة الإدريسية شأن كثير من العلماء المكناسيين منذ أن هاجر إليها الإمام ابن غازي. وعبد الله بن عبد الرزاق **العثماني**[1] وهو مكناسي من قبيلة ابن غازي العثمانية غلب على تأليفه الطابع الصوفي، مثل بداية السلوك، إلى بساط مالك الملوك والأشباه، في هدى عبودية العبد إلى مولاه. وسلاح أهل الإيمان. غير أنه لا يعرف له نشاط تعليمي في بلدته.

وقد اشتغل فعلاً بالتدريس في مكناس عالمان، هما: أحمد الغماري[2] وهو من أسرة مكناسية عرفنا منها عالماً في العصر السعدي الأول. أخذ عنه فيمن أخذ المهدي الفاسي وقال فيه: «كان فقيهاً مدرساً ولي قضاء مكناسة فحمدت سيرته... قرأت عليه الرسالة، ومختصر خليل، فكان ينقل على الرسالة شرح ابن عمر وابن ناجي، وعلى المختصر شرح بهرام الأوسط وشفاء الغليل لابن غازي»[3]. وأحمد **الفاسي**[4] وهو قصري درس بفاس على أعمامه وغيرهم قبل أن يستوطن مدينة مكناس وينقطع فيها للتدريس.

هـ ـ سلا:

عرفت سلا أحداثاً سياسية خطيرة خلال العصر السعدي الثاني، فقامت فيها إمارة المجاهد العياشي الذي كاد يستولي على المغرب كله، وقويت في مرافئها حركة سفن الجهاد، الأمر الذي أدى إلى قيام جمهوريات مدن أبي رقراق (الرباط والقصبة وسلا) وسيطرة الدلائيين عليها جميعاً في الأخير. ويمكن أن نتصور مدى الثراء الضخم في هذه المنطقة إذا عرفنا أن المجاهدين البحريين أو القراصنة السلويين كما يسميهم الأوربيون، غنموا في ظرف عامين فقط أربعين

---

(1) إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، 1:474.

(2) ابن زيدان. الإتحاف، 1:339.

(3) نقل ذلك عن كتاب الإعلام بمن مضى وغبر لمحمد الفاسي. ابن زيدان، الإتحاف، 1:339.

(4) محمد القادري، نشر المثاني، 1:200 ـ 201.

سفينة، واستولوا فيما بين سنتي 1618 ـ 1626 على ستة آلاف أسير من الإفرنج، وخمسة عشر مليون ليبرة[1]. غير أن هذا الازدهار الاقتصادي الهائل لم يواكبه ازدهار علمي مناسب، وربما كان من أهم الأسباب تلك الاضطرابات والمشاكل الداخلية التي كان المغرب يتخبط فيها، وبخاصة احتلال الشواطىء الذي جعل السلويين ينصرفون إلى مقاومة العدو في المعمورة والجديدة فضلاً عن العمل في الجهاد البحري.

يعتبر المجاهد مَحمد العياشي[2] نفسه من العلماء السلويين، فقد عرفناه تلميذاً للشيخ عبد الله بن حسون يلازم دروسه في مختصر خليل، وتحدثت كتب التراجم عن إسهامه في تعليم ابنه عبد الله العياشي[3] الذي اكتملت ثقافته في فاس وأجازه من أعلامها عبد الواحد بن عاشر، والعارف عبد الرحمن الفاسي، ومحمد البوعناني[4]، كما أجازه عالم الجزائر عيسى الثعالبي[5] بإجازة عامة جاء فيها: «. . . نخبة الفضلاء، وجذوة اقتباس النبلاء، وواسطة قلادة الأذكياء، ونتيجة دوحة الكرام أسلافه الأسرياء، العلامة الألمعي، والفهامة اللوذعي. . .»[6]. وأثنى عليه محمد ميارة في خطبة شرح المرشد المعين ذاكراً أنه الذي أشار عليه باختصار الشرح الكبير ليناسب المتعلمين ويعم النفع به. ولم تصرف الكتب والمجالس العلمية عبد الله العياشي عن خوض الغمرات الجهادية بجانب أبيه إلى أن شرد مع الخضر

---

(1) نقله عن مصادر غير منشورة لتاريخ المغرب لدوكاستر. محمد بوجندار، مقدمة الفتح، ص 54.

(2) الأفراني، نزهة الحادي، ص 232 ـ 245. وخص عبد القاهر أملاق ترجمة العياشي بكتاب الخبر عن ظهور العياشي بهذه البلاد، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط. رقم 91 د.

(3) محمد الأفراني، الصفوة، ص 160. ومحمد القادري، نشر المثاني، 1:245.

(4) أجاز البوعناني عبد الله العياشي بثلاث إجازات: في الحديث، والقراآت، والمصافحة. وهي كلها مؤرخة في أواسط صفر 1048. أنظرها في مخطوطة الخزانة العامة بالرباط. رقم 1427 ك.

(5) محمد الحجوي، الفكر السامي، 4:113.

(6) مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 3283 ك.

غيلان وفلول الأنصار في بلاد الهبط حينما استولى الدلائيون على السواحل الاطلنطيقية.

على أن أهم شخصية علمية تفرغت للتدريس والتأليف بسلا في هذا العصرهو علي بن عبد الواحد الأنصاري[1] وهو سجلماسي درس في الدلاء وفاس ومصر، ثم «استوطن بسلا وبها نشر علمه وألف تآليف»[2]. منها تفسير القرآن، وشروح على تحفة ابن عاصم الغرناطي، ومنهج الزقاق الفاسي، وأراجيز في السيرة والأصول والطب والتشريح. ولما جاء عبد الله الدلائي أميراً على مدن أبي رقراق وبلاد الغرب استصحب معه كاتبه الخاص عبد الملك التاجموعتي[3] السجلماسي. وهو عالم مشارك درس بالمغرب والمشرق وتفوق في الحديث والأدب. له مناظرات ومساجلات مع علماء عصره، لا سيما الحسن اليوسي. وقد ألف كل منهما في الرد على صاحبه. ومن أحسن ما كتب التاجموعتي في ذلك خلع الأطمار البوسية، بدفع الأسطار اليوسية. وهو في نحو ثلاث كراريس، قلمه فيه سيال وحجته صائبة[4]. ويذكر لهذا العالم خلال مقامه بسلا نشاط علمي أدبي إلى جانب عمله الإداري. وعاش بسلا في أواخر العصر السعدي عالمان بالقراآت هما: محمد مفضل الشرقي[5] وتلميذه عبد الله العوني[6]، وآخر مفسر متصوف هو أحمد الطالب[7] كان له باع كبير في التصوف، يقرىء المباحث الأصلية لابن البنافياتي بالعجب العجاب، ويتكلم على آيات القرآن بمنزع صوفي...»[8].

---

(1) محمد الأفراني، الصفوة، ص 135. والمحبي، خلاصة الأثر، 173:3.
(2) محمد الحجوي، الفكر السامي، 111:4.
(3) الكتاني، فهرس الفهارس، 148:1 ـ 185.
(4) المصدر السابق، ص 185.
(5) محمد بن علي الدكالي السلوي، الإتحاف الوجيز، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم 42 د. ص 83.
(6) المصدر السابق، ص 85. وأحمد الناصري، الاستقصاء 108:7.
(7) المصدر السابق، ص 84.
(8) نفس المصدر في نفس الصفحة.

و ـ تادلا:

ضعفت الحركة العلمية في إقليم تادلا خلال هذا العصر نتيجة انتشار نفوذ المركز الجبلي الهام بجواره، فقد اجتذبت الزاوية الدلائية إلى رحابها علماء وطلبة السهل التادلي بما أفسحت لهم من مجالات للتوسع في التعليم والتعلم.

ـ فالصومعة وزاويتاها القديمة والحديثة لم تعد تعرف غير طوائف المتصوفة بعد أن غادرها في جملة من غادرها من أهل العلم **محمد بن عبد الرحمن الصومعي**[1]. ولن يعود إليها إلا بعد إخلاء الزاوية الدلائية.

ـ **وأبو الجعد** الذي عرف في العصر السابق اتساعاً وشهرة بتأسيس الزاوية الشرقاوية لم يتجه بعد اتجاهاً علمياً. **فعبد السلام بن محمد الشرقي**[2]. وإن تفرغ للتربية، تلاميذه الكثيرون صوفية خلص. **والمعطي بن عبد الخالق الشرقي**[3] صاحب المساجلات الشهيرة مع الشيخ مَحمد بن ناصر لم يخض في غير تلك المجالات الروحية، وأُلّفت كتب في تلك القرية التادلية وأهلها، مثل المرسي في مناقب محمد الشرقي لعبد الخالق العروسي الشرقاوي، والروض الفائح للحسن المعداني فلن تجد بخصوص العصر غير المناقب والكرامات والإشارات والأزجال الصوفية.

ز ـ جبال غمارة وبلاد الهبط:

سارت هذه المنطقة في الميدان العلمي سيرتها الأولى بالرغم من تجدد القلاقل في ربوعها بسبب حادثة تسليم العرائش إلى الإسبان، وقيام الثورة ضد المأمون السعدي وقتله بضواحي تطوان، ثم بالتجاء أنصار المجاهد العياشي وتشغيبهم المستمر على الدلائيين وولاتهم وشيعتهم إلى أن أعلن الثورة منهم الخضر غيلان ودخل إلى القصر الكبير بعد معارك هلك فيها كثير من سراة المدينة وغادرها آخرون. إلى غير ذلك من الفتن التي كان يغذيها الأجانب في الثغور المحتلة المحيطة بهذا الإقليم.

(1) ترجمت له في: الزاوية الدلائية، ص 121 ـ 122.
(2) محمد الأفراني، الصفوة، 157.
(3) أحمد الناصري، طلعة المشتري، 1:265.

ـ القصر الكبير:

بقي في القصر من الأسرة الفهرية المنتقلة إلى فاس في أواخر العصر السعدي الأول أحد أبناء الشيخ أبي المحاسن: **علي الفاسي**[1]. ولما استوى عالماً بعد أن درس في مسقط رأسه وفي المدينة الإدريسية على أشهر الأعلام وحصل على إجازاتهم، انقطع للتدريس في مدينة القصر حيث كانت له مجالس علمية مفيدة في الثلث الأول من القرن الهجري الحادي عشر، حضرها فيمن حضر ابنه عبد القادر الفاسي الذي صار فيما بعد إمام فاس وشيخ الجماعة بالمغرب وإفريقية. اشتملت تلك الدروس على القراءات والحديث والعقائد والفقه واللغة وقواعدها. وعمل في الميدان العلمي إلى جانب علي الفاسي أستاذان من الأسرة القنطرية، هما **محمد بن علي القنطري** الذي رأيناه يبتدىء التدريس في أواخر العصر الأول، وامتد به العمر فتابع نشاطه الثقافي في مستهل هذا العصر أيضاً. وهو «عالم فاضل متفنن متوسع في فنون الأدب، شاعر مجيد، حسن المحاضرة كثير الحفظ. كان مدرساً للعلوم بالقصر منفرداً بالتفسير، محسناً للفروسية يحضر الجهاد ويبلى البلاء الحسن...»[2]. ولما توفي تصدر للتدريس ابنه **محمد القنطري**[3]. وهو رفيق العربي الفاسي في الطلب، أثنى عليه في مرآة المحاسن ونقل عنه بعض أخبار والده في التدريس ـ ص 335 ـ كما ذكره صاحب أزهار البستان في جملة المتخرجين على يد العارف عبد الرحمن الفاسي. وانتهى النشاط الثقافي للأسرة القنطرية بموت هذا العالم وأجليت عن القصر عندما سقط في يد غيلان. بينما ظل هنالك علماء آخرون يشتغلون بالتدريس حتى نهاية العهد السعدي. منهم **إبراهيم السريفي**[4] أستاذ التجويد واللغة والأدب. والمؤلف في القراءات العشر. ومحمد بن عبد الرحمن

---

(1) العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص 150 ـ 151.
(2) المصدر السابق، ص 332.
(3) محمد القادري، نشر المثاني، 1:205.
(4) المصدر السابق، 1:226.

القصري[1] المشهور بالزامر. قرأ عليه فيمن قرأ عبد الرحمن الفاسي وقال: «. . . ختمت عليه القرآن الختمة الأولى مع الكراريس والآجرومية، ثم أخذت في قراءة الألفية والرسالة والمختصر وما يتبع ذلك من التآليف التي لا تنحصر»[2].

ـ تطوان:

تقدمت تطوان خطوات في ميدان الثقافة تمهيداً للوثبة الكبرى التي ستثبها في مطلع العصر العلوي، فكثر عدد العلماء فيها وإن بقي أكثرهم طارئاً غير أصيل أو عابراً غير مقيم. واتسع ميدان التعليم فشمل ـ تقريباً ـ كل ما كان يدرس في المراكز الثقافية الأخرى حتى أخذ الهبطيون والغماريون يحاولون الاستغناء بها عن فاس.

من أشهر المدرسين بتطوان في هذا العصر **علي السجلماسي**[3] من أكبر مشايخ المغرب في اللغة والأدب. لقيه المقري في رحلته الأولى إلى فاس حوالي 1010/ 1601 فأطنب في الثناء على علمه ومهارته وسعة أفقه، وأسف للمحنة التي أصابته بعد أن أقيل من كتابة الأمير زيدان: «. . . لقيته بفاس أخره الدهر وحقه أن يقدم، وهدم بناء علمه وحقه ألا يهدم، شغل نفسه مدة بالتدريس في البيان والعربية، ولم تكن نفسه عن إدراك غايتهما بأبية. . .»[4]. ولعل لتلك المحنة دخلا في انتقال السجلماسي إلى تطوان ليتابع نشاطه التعليمي، لكن النحس لاحقه حتى في بلاد الغربة فأهين ولطخ الكرسي الذي يجلس عليه للتدريس. وربما كان ذلك لانحرافه الخلقي وغزله المذكر المتهتك. **ومحمد مخشان**[5] الشفشاوني الأصل. استوطن تطوان ودرس فيها التفسير والنحو

(1) نفس المصدر، 1:261.
(2) نفس المصدر في نفس الصفحة.
(3) أحمد المقري، روضة الآس، ص 340 ـ 341، محمد القادري، نشر المثاني، 1:149 ـ 150 محمد اود، تاريخ تطوان، 3:338 ـ 339.
(4) المقري، روضة الآس، ص 340.
(5) محمد الأفراني، الصفوة، 152.

والبيان والمنطق. **والعربي الفاسي** فارس التدريس بفاس والزاوية الدلائية، الذي ظل مشرداً عن مسقط رأسه زهاء ثلث قرن في سبيل عقيدته، وانتهى به المطاف إلى تطوان حيث زاويتهم الفاسية بحي العيون[1] فنشر بها علمه الغزير إلى أن أدركته الوفاة. **وعبد العزيز الزياتي**[2] الذي أخذ بنصيب من جميع المعارف المتداولة في عصره وتخصص في القراءات. درسها في مراكش على شيخ قراء المغرب محمد بن يوسف التملي، وفي مصر على إمام قراء المشرق الشيخ سلطان[3] قبل أن يتصدر في تطوان للتدريس والتأليف. وأهم آثاره العلمية كتاب الجواهر المختارة، فيما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة[4] في مجلدين. وهو عبارة عن مجموعة قيمة من الفتاوى المتعلقة بالأحداث الاجتماعية والسياسية والدينية التي استأثرت باهتمام فقهاء ذلك العصر، يفيد منها دارسو التاريخ والاجتماع والفقه على السواء.

وأقام بتطوان إقامة عابرة في أواخر العهد السعدي عالمان كبيران هما: عبد الوهاب الفاسي الذي تولى قضاء هذه المدينة، وقد عرفناه رياضياً ميقاتياً **ومحمد بن يحيى العالم**[5] المعروف بالمذبوحي. جاء تطوان من بلده الجزائر بعد أن درس في الشرق، حاملاً معه جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني شيخ المالكية بمصر، فعرفها المغاربة لأول مرة واهتبلوا بدراستها وشرحها. ولما زار الحسن اليوسي تطوان في نهاية هذا العصر افتقد فيها تلك المجالس العلمية العالية التي عهدها في الدلا وفاس وأنشد:

... وشجا الحشا أن لم أجد من عالم ... يهدي الورى فيها ولا متعلما

إلا يسير صبابة من ذي حجا ... لصبابة بالعلم أضحى مغرما...[6]

---

(1) الزاوية الفاسية بتطوان أسسها الشيخ أبو المحاسن في أواخر القرن الهجري العاشر، انظر كتابي الزاوية الدلائية، ص 61.

(2) محمد الأفراني، الصفوة، 81. ومحمد القادري، نشر المثاني، 1:185.

(3) المصدر الأخير، 1:254.

(4) مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم 66 ج.

(5) محمد داود، تاريخ تطوان، 3:345.

(6) انظر تمام القصيدة في ديوان اليوسي.

ـ شفشاون:

نجد هنا في هذا العصر عالمين لا يقلان أهمية وشهرة عن عالمي العصر الأول. هما: أحمد بن علي العلمي[1]. تخرج على مشيخة فاس ونال إجازة الإمام القصار ثم رجع إلى مسقط رأسه شفشاون حيث قضى حياته العلمية في ثلاث مراحل، اشتغل في أولاها بالخطابة والتدريس في الجامع الأعظم وولي القضاء بعد ذلك. وأخيراً تخلى عن تلك المهمة لينقطع إلى إفادة الطلبة وإرشاد عامة المستفتين. وقد زاوج بين التعليم والتأليف في الفقه والأصول والتاريخ والطب واللغة وقواعدها[2]. واحتفظ لنا العربي الفاسي برسالة عجيبة بعث بها الشيخ القصار إلى تلميذه أحمد العلمي بعد أن رجع من فاس إلى شفشاون تعتبر نموذجاً عالياً لسهر الأستاذ الواعي المتتبع لخطى تلاميذه الحريص على إرشادهم في فجر حياتهم العلمية ليقوى الأساس وتستقيم البداية التي هي عنوان النهاية. فالقصار يبدي نظره في الكتب التي أخذ العلمي في تدريسها فيستحسن بعضها ويغريه بأخرى، ويحذره من الاعتماد على بعض المراجع المشكوك في ثقة مؤلفيها، ويدله على الطريقة المثلى في التدريس، ويضع نفسه رهن إشارته ليرشده دائماً عند الحاجة: «. . . وفرحت غاية بختمك الصغرى فشد روحك وطالع كتب الشيخ السنوسي السبعة[3] حتى تحفظها. وبالك[4] تخالف السنوسي في شيء إلا بعد مشاورة غير واحد. . . وأعجبني إقراؤك الرسالة وفرحت به لا سيما إذا اقتصرت على المحتاج إليه وختمتها سريعاً. وكذلك إقراؤك الخراز [5] أعجبني. واعتمد على ابن آجطا فإن نقله صحيح جداً، وكثير من شروح

---

(1) العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص 167 ـ 189.

(2) لمعرفة مؤلفات أحمد العلمي ارجع إلى المصدر السابق، ص 170.

(3) لعله يقصد بكتب السنوسي السبعة تآليفه في العقائد: الكبرى، والوسطى، والصغرى، وصغرى الصغرى، وشروحها له.

(4) (بالك) تعبير شائع يقصد به التنبيه. وكذلك عبارة (شد روحك) السابقة يستحث بها على الثبات والصمود.

(5) يريد أرجوزة مورد الظمآن في رسم القرآن لمحمد الشريشي الأموي المعروف بالخراز المتوفي عام 718 هـ .

الخراز فيه تحريف ـ نفعك الله ونفع بك ـ . وإذا رأيت تأليفاً لا تتحقق أني رأيته فأعلمني به. . »[1]. وعلي الزرهوني[2] من المتخرجين في فاس أيضاً. كان «نفاعاً للطلبة محققاً في النحو والتصريف والعروض مع المشاركة في غيرها من الفنون، دؤوباً على إقراء الألفية. تخرج به جماعة من الأعلام. . . »[3].

ـ وزان:

إذا كانت وزان قد اتسع عمرانها وذاع صيتها خلال العصر السعدي الثاني بسبب المسجد والزاوية والمباني الأخرى التي أنشأها عبد الله الشريف[4] العلمي فإن الدراسات العلمية فيها لم تتقدم عما كانت عليه في العصر الأول، بل افتقد فيها نظير لموسى بن علي الوزاني. ذلك أن عبد الله الشريف وإن أخذ بحظ وافر من العلوم اللسانية والقرآنية والحديثية والفقهية، بعد دراسة جدية في كل من تطوان وفاس، وحصوله على إجازة عامة من شيخه أحمد بن عطية السلوي، فإنه انصرف عن تربية العقول إلى تربية الأذواق، ولم يعقد حلقات للتدريس باستثناء كتب الحديث والتصوف. وكذلك ابنه محمد الوزاني[5] سار على نهجه في تربية المريدين، والاقتصار على تعليم الحديث والأحزاب والأوراد والأذكار.

وإلى هذه المدن والقرى الشمالية وجدت مراكز بدوية متعددة في بلاد الهبط وجبال غمارة شبيهة بما كان في العصر الأول، عاش فيها علماء مكتملو الثقافة منقطعون للتدريس والتأليف. من أشهرهم محمد بن ريسون[6] في

(1) انظر الرسالة تامة في مرآة المحاسن للعربي الفاسي، ص 171.
(2) محمد القادري، نشر المثاني، 1:238.
(3) المصدر السابق في نفس الصفحة.
(4) محمد الكتاني، السلوة، 1:103. وهناك كتابان خاصان بعبد الله الشريف وأسرته الوزانية. هما تحفة الأخوان ببعض مناقب شرفاء وزان لحمدون الطاهري. مطبوع على الحجر بفاس. والتحفة القادرية لعبد السلام القادري. مخطوطة الخزانة العامة بالرباط. 2321 ك.
(5) محمد الكتاني، السلوة، 1:104. والكتابان الأخيران.
(6) العربي الفاسي، مرآة المحاسن، ص 205 ـ 208.

تاصروت قرب جبل العلم بين شفشاون وتطوان. درس هو والشيخ أبو المحاسن في فاس إلى أن تخرجا عالمين كبيرين وصوفيين أصيلين. انزوى ابن ريسون في مسقط رأسه يربي ويدرس فكثر تلاميذه وعظم النفع به. عده العربي الفاسي ثاني شيوخه قائلاً: «زرته بتصروت مرات وانتفعت به كثيراً. وربما أفرد لي مجلساً من الظهر إلى المغرب أو إلى العشاء، وربما قرأت عليه شيئاً من كتب التصوف»[1]. وإبراهيم الكلالي[2] في بني ورياكل شمالي فاس. وهو عالم مشارك ومؤرخ دقيق الملاحظة قضى سنين عديدة أيام الطلب بفاس وأخذ عن علماء جبلين متميزين، حتى إذا رجع إلى دشرته الجبلية وأخذ يحدث تلاميذه عن مشيخته ومقروءاته، أو يسند في كتاباته بعض المعلومات مباشرة إلى أحد الشيوخ الكبار ضج منافسوه بالتشنيع عليه ورموه بالحذلقة والتزوير. فكان ذلك سبب تأليفه تنبيه الصغير من الولدان، على ما وقع في مسألة الهارب مع الهاربة من الهذيان، لمدعي استحقاق الفتوى آجليان. وهي رسالة صغيرة رد فيها على خصمه عبد الله آجليان الزجني في نازلة عادية حول الزواج بالإكراه أصدرا في شأنها فتويين متعارضين، وأباح آجليان لنفسه أثناء الرد على مخالفه النيل من رواياته وأسانيده التي كانت تعد مثل الشهادات الجامعية الحالية. ولكي يثبت الكلالي صحة انتسابه وصدق دعواه أتى في غضون رسالته بصفحات رائعة عن أحوال الدراسة بفاس أيام السعديين لا نكاد نجد لها مثيلاً حتى في الكتب التاريخية المتخصصة الضخمة، فعرض في أسلوب مشرق إلى المجالس العلمية في القرويين وغيرها من مساجد فاس ومدارسها، وإلى المواد الدراسية وأوقات التدريس والطرق المتبعة فيه مع ملاحظات دقيقة عن لهجة الأساتذة وزيهم وحركاتهم ونكاتهم وإنشاداتهم، وموقف الطلبة في حلقات التدريس وما يجري فيها من نقاش أو تنافس أو تناصف إلى غير ذلك مما سنتعرض له في فصل آت.

---

(1) المصدر السابق، ص ٢٠٦.

(2) محمد القادري، نشر المثاني، 1:173 ـ 177.

حـ ـ تافيلالت:

ـ سجلماسة ومطغرة:

ازدهر التعليم في هذين المركزين طوال العصر السعدي الثاني بفضل أسرة آل طاهر. فعبد الله بن علي بن طاهر[1] الحسني أحد حفاظ المغرب الثلاثة وأشهر علماء تافيلالت قضى حياته التعليمية في مسقط رأسه، إلا سنوات قليلة أمضاها في مراكش، فأخذ عنه أكثر طلبة الجنوب الذين عاصروه حتى عد شيخ الجماعة. وامتاز هذا العالم بأمور ثلاثة: القدرة الفائقة على التدريس وجودة الإملاء والتعبير لا سيما في تفسير القرآن حيث يمزجه بأسباب النزول وأحوال النبوة وقواعد اللغة والبلاغة. والمعرفة الواسعة لأيام العرب وأنسابها وسيرة الرسول والخلفاء الراشدين وتاريخ المسلمين عامة والفرق الدينية من سنية ومبتدعة خاصة. والفهم الخالص للإسلام المصفى والإنكار على أهل البدع، فكان (سلفي) عصره يشنع على المزيفين من المتصوفة وغيرهم ويرد عليهم في دروسه العامة إلى أن لحقه منهم أذى عظيم بمؤازرة بعض الظلمة من الولاة. ومن آثاره العلمية كتاب الدر الأزهر الذي حذا به حذو الاتقان للسيوطي، وديوان شعر في الأمداح النبوية. **ومحمد بن عبد الله بن علي بن طاهر**[2] المعروف في سجلماسة بمولاي ابن علي. درس على والده ثم ارتحل إلى فاس ومصر للتوسع في العلم قبل أن يشتغل بالتدريس والقضاء في سجلماسة، وكان ممن أخذ عنه هناك الحسن اليوسي. قرأ عليه الرسالة وصغرى السنوسي وكتاب القلصادي في الحساب[3]. **وعبد الهادي بن عبد الله بن علي بن طاهر**[4] من المتخرجين في المغرب والمشرق أيضاً المجتهدين في التدريس والتأليف. وهو صاحب كتاب فلك السعادة في فضل الجهاد والشهادة. **ومحمد بن عبد**

---

(1) محمد الأفراني، الصفوة، أول ترجمة في الكتاب.
(2) المصدر السابق، ص 203.
(3) الحسن اليوسي، الفهرست، ص 133.
(4) محمد الأفراني، الصفوة، 130.

الهادي[1] من أكابر علماء آل طاهر أواخر العهد السعدي.

وقد درس في سجلماسة علماء آخرون قرأ عليهم اليوسي في أواسط القرن الهجري الحادي عشر وتحدث عنهم في فهرسته. منهم **أبو بكر التطافي**[2]. قرأ عليه رسالة ابن أبي زيد ومختصر خليل وجمع الجوامع لابن السبكي وألفية ابن مالك. **وعبد العزيز الفيلالي**[3] درس عليه الألفية واللامية لابن مالك، والخزرجية في العروض. وكانت «له طريقة في التدريس وتدريج المبتدئين سهلة حسنة فانتفع الناس به كثيراً»[4]. **ومحمد التاجموعتي**[5] أستاذه في تجويد القرآن، وفي النحو والصرف. **وأحمد التاجموعتي**[6] جود عليه القرآن، ودرس بعض مورد الظمآن للخراز ومختصر خليل، وأثنى على تحقيقه وفصاحته.

ـ الزاوية العياشية:

الزاوية العياشية أو زاوية سيدي حمزة كما تسمى اليوم تقع في حدور جبل العياشي على ضفة أحد روافد وادي زيز بعيدة عن ميدلت بنحو 60 كلم جنوباً. أسسها في النصف الأول من القرن الهجري الحادي عشر (17م) **محمد بن أبي بكر العياشي**[7] وعمرها بتلاوة القرآن وقراءة الأجزاب الشاذلية وتدريس مبادىء العلوم. أخذ ذلك عنه ولده أبو سالم وعده في فهرسته أول شيوخه قائلاً: «رباني فأحسن تربيتي. وغذاني بنفائس علومه فأحسن تغذيتي»[8]. ولما استقر

---

(1) محمد القادري، نشر المثاني، 185:1.

(2) محمد الأفراني، الصفوة، ص 117. والحسن اليوسي، الفهرست، ص 132.

(3) المصدر الأخير، ص 133.

(4) نفس المصدر في نفس الصفحة.

(5) المصدر السابق أيضاً.

(6) نفس المصدر. ومحمد القادري، نشر المثاني، 274:1.

(7) محمد الأفراني، الصفوة، 134 ـ 135. ومحمد القادري، نشر المثاني، 216:1. وهناك كتاب خاص يتحدث عن الزاوية العياشية وعلمائها هو الإحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية آيت عياش لعبد الله العياشي مخطوطة مصورة في الخزانة العامة بالرباط، رقم 1433 د.

(8) أبو سالم العياشي، اقتفاء الأثر، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم 1427 كـ . ص 28.

أبو سالم العياشي[1] في زاوية أبيه، بعد أن اغترب طويلاً في طلب العلم في بلاد درعة وفاس وفي المشرق، أخذ جانب العلم يتغلب على التصوف في هذه الزاوية، وغصت رحابها بصنوف الطلبة من مبتدئين ومحصلين، وتخرج بعضهم فيها وبدأ يشتغل بالتدريس، مثل أحمد الهشتوكي[2] الذي فصل في فهرسته قرى العجلان الكتب التي كانت تدرس في الزاوية العياشية. واشتغل بالتدريس هنالك أيضاً من الأسرة العياشية عبد الكريم العياشي[3] أخذ عنه أخوه أبو سالم واستجاز له في رحلته الحجازية الثانية عام 1064/ 1654 علماء المدينة معبراً عنه «بأخيه الأكبر ومعلمه الأبر». ومحمد بن محمد بن عبد الجبار العياشي[4] من أنبه تلاميذ أبي سالم وأشهر العلماء العياشيين بعده، تتلمذ له حتى أعلام فاس في الحديث والنحو والبلاغة وغيرها، واستجازوه في ذلك كله. وهو الذي كتب عام 1071/ 1661 إلى خاله أبي سالم، وكان يومئذ بالمشرق، يصف له المسغبة العامة بالمغرب وآثارها المهولة في ضواحي الزاوية العياشية «وفي قرية الدلاء التي فيها قبور أولئك الملوك»[5]. فكانت هذه الرسالة النص المعاصر الوحيد ـ فيما نعلم ـ الذي تحدث عن الزاوية الدلائية القديمة وإهمالها بعد قيام مدينة محمد الحاج الدلائي.

ط ـ درعة:

ـ الزاوية الناصرية بتامكروت:

عرفنا تامكروت في العصر السعدي الأول تنجب علماء يصل بعضهم إلى رتبة السفارة. وتطور أمر هذه القرية في العصر الثاني بقدوم الشيخ محمد بن ناصر[6] إذ لم يلبث أن آل إليه أمر زاوية تامكروت فنسبت إليه، وأقبل فيها على

---

(1) عبد الله العياشي، الإحيا والانتعاش، في أماكن متفرقة. ومحمد الإفراني، الصفوة، ص 191 ـ 196. وخص ترجمة أبي سالم حفيده محمد بن حمزة بكتاب الزهر الباسم.

(2) الكتاني، فهرس الفهارس، 2:423 ـ 424.

(3) عبد الله العياشي، الإحيا والانتعاش، وأبو سالم العياشي، إتحاف الأخلا، ص 4.

(4) المصدر الأول، ورقة 229. ومحمد الفاسي، المنح البادية، ص 5.

(5) المصدر الأول في نفس الصفحة.

(6) محمد الأفراني، الصفوة، ص 173 ـ 177. وأحمد الناصري، طلعة المشتري، =

التدريس حتى نهاية العهد السعدي وقصده الطلاب من جميع جهات الصحراء وسوس. كان ابن ناصر يراعي أحوال المتعلمين فلا يميل عن البساطة مع المبتدئين منهم مقتصراً على حل مشاكل المتون وتقريبها إلى أذهانهم مجتنباً كثرة النقول والخلافات المتشعبة، في حين يحلق مع الشادين ويفيض عليهم من معارفه الواسعة. كما كان يعنى طول حياته العلمية بإقراء كتاب التسهيل لابن مالك ويحفظه عن ظهر قلب عناية الدلائيين بكتاب سيبويه.

وإذا كانت تفاصيل المواد الدراسية من نصيب الفصل التالي فإننا سنورد هنا نصين صغيرين لأشهر تلاميذ الشيخ ابن ناصر لنكون لأنفسنا فكرة إجمالية عجلى عن نشاط هذا المركز الهام. يقول اليوسي: «قرأت عليه ـ الشيخ ابن ناصر ـ التسهيل وجملة من مختصر خليل، والتفسير، والمدخل لابن الحاج، والإحياء للغزالي، وجزءاً من البخاري، والشفا، وطبقات الشعراني...»[1]. وأبو سالم العياشي يقول: «حضرت مجالسه في كثير من العلوم فقهاً وتفسيراً ونحواً وحديثاً وتصوفاً. عديم النظير في العربية يحفظ التسهيل عن ظهر قلب...»[2]. أما الحسين ابن ناصر فقد اشتملت فهرسته على أضعاف ذلك من الكتب التي قرأها على أخيه الشيخ مَحمد ابن ناصر لملازمته له حضراً وسفراً مدة طويلة.

وقد اشتغل بالتدريس في الزاوية الناصرية إلى جانب الشيخ نجباء الآخذين عنه أمثال أبي سالم العياشي، والحسن اليوسي، وعبد الملك التاجموعتي. وأستاذاه علي بن يوسف الدرعي[3] المتخرج في الزاوية الدلائية على الشيخ مَحمد ابن أبي بكر. كان يعلم أولاً في دشرة تسرجت حيث أخذ عنه محمد بن ناصر ولازمه سنين عديدة. ولما اشتهر أمر الزاوية الناصرية لحق بها الأستاذ

=1:127 وما بعدها.

وألف أحمد الهشتوكي في ترجمته شيخه محمد بن ناصر كتاب إنارة البصائر.

(1) الحسن اليوسي، الفهرست، ص 135.

(2) أبو سالم العياشي، اقتفاء الأثر، ص 55.

(3) محمد المكي الناصري، الدرر المرصعة، ص 253.

المتواضع ليعلم بجانب تلميذه القديم. ومحمد بن سعيد المرغيتي الذي عرفناه أستاذاً في مراكش والدلاء. أقام مدة أخرى في الزاوية الناصرية يدرس الحديث والفقه والعقائد والحساب والتوقيت.

ـ أغلان:

قرية درعية غير بعيدة عن تامگروت هي دار الناصرين الأولى. قرأ فيها مَحمد ابن ناصر وإخوته القرآن والمبادىء التعليمية على والدهم محمد بن أحمد بن ناصر[1] ولما أنهى محمد بن ناصر ـ الابن ـ رحلته العلمية أخذ يدرس في أغلان، وأقرأ فيها الكراريس والرسالة والألفية قبل أن ينتقل إلى تامگروت، فخلفه في التدريس أخوه الحسين بن ناصر[2] وهو عالم مشارك لم يفتر عن القراءة والإفادة طول عمره. لكن الزاوية الناصرية استهوت أفئدة أغلب الطلبة فانصرفوا عن أغلان وتبعهم بعد ذلك الحسين ابن ناصر إلى تامگروت.

ي ـ سوس:

عرف هذا الإقليم من الأحداث الخطيرة في العصر السعدي الثاني ما عرفته الأقاليم الشمالية، وقامت فيه إمارة أبي حسون السملالي (بودميعة) فانقطع عن نظر السعديين بمراكش. وإذا كانت عاصمة ايليغ قد أدركت بعض الازدهار الاقتصادي لاستحواذ الرئيس السملالي على حقول قصب السكر ومعاصره في سوس، وبالاتجار مع البحارة الأوربيين المترددين على مرسي أكدير أو (سانتاكروزا) كما يسمونها، فإن حظها من العلم كان ضئيلاً. إذ أن الرئيس الإيليغي لم يتوفر له قسط من الثقافة يحمله على رعاية المعرفة وتنميتها. فهو وإن جمع حوله بعض رجال العلم والأدب لم يكن يهمه منهم إلا أن يتحملوا معه أوزار الإمارة الجديدة كقضاة وكتاب ومنافحين. وذلك ما يفسر لنا انصراف الحسن اليوسي عن ايليغ، وكان قد جاءها أيام عزها بطلب العلم، وانحياشه إلى

(1) أحمد الناصري، طلعة المشتري، ص 119 ـ 126.

(2) محمد المكي الناصري، الدرر المرصعة، 242. على أن أهم مرجع لترجمة الحسين ابن ناصر هي فهرسته، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم 506 ج.

تارودانت على ما أصابها من خلل وخمول. فالعلم لم يضعف في سوس خلال هذا العصر إن لم يتقدم. لكنه ظل بدوياً موزعاً في أخصاص وأكواخ بسيطة سميت مدارس، لم يتركز في مدينة أو قرية جديدة، بل لم يحافظ حتى على تارودانت التي كان ازدهارها العلمي في العصر الأول يبشر ـ لو استمر ـ بقيام مركز ثقافي سوسي هام يمكن أن يضاهي الحواضر الثقافية الأخرى.

ـ ايليغ:

ايليغ مدينة حصينة أسسها أبو حسون السملالي في أوائل القرن الهجري الحادي عشر (17م). بالقرب من تازروالت مدفن جده الشيخ أحمد بن موسى، شرقي تيزنيت. فكانت عاصمة الإمارة السملالية إلى أن دكتها مدافع الرشيد بن الشريف عام 1081/ 1670. عاش في ايليغ خلال تلك الفترة بعض العلماء الذين لم تصرفهم وظائفهم عن التدريس والتأليف، مثل عبد العزيز الرسموكي[1] قاضي ايليغ وعالمها الكبير. كان «نحوياً لغوياً أديباً حسابياً علامة دراكة، له تآليف عديدة مفيدة وقصائد ومقطعات عجيبة...»[2] أخذ عنه اليوسي الفقه والتصريف وأثنى على طريقته التعليمية وتحقيقه وتوسعه. وقد ألف الرسموكي كتباً كثيرة[3] في اللغة وقواعدها والعروض والحساب والتوحيد والفقه والتصوف. وأهمها حاشية على معجم الجوهري الصحاح. ومحمد بن سعيد العباسي[4] وهو محدث أديب مشارك ولي القضاء والإفتاء في ايليغ فلم يبعده ذلك عن حلقات التعليم في المساجد وتأليف الكتب للطلبة أراجيز سهلة، من أحسنها نظم المغني لابن هشام، ونخبة الأفكار لابن حجر[5].

وتتلمذ الحسن اليوسي لعالم سوسي آخر سماه في الفهرست أحمد بن

(1) المختار السوسي، المعسول، 5:21 ـ 25.
(2) نقله عن طبقات الحضيكي، المختار السوسي، المعسول، 5:21.
(3) لمعرفة قائمة كتب الرسموكي ارجع إلى كتاب سوس العالمة للمختار السوسي، ص 185.
(4) المختار السوسي، المعسول، 18: 405 ـ 409.
(5) انظر قائمة هذه الكتب في سوس العالمة، ص 181.

سعيد[1] وذكر أنه تولى القضاء. لعله عباسي من إخوة القاضي محمد بن سعيد. قرأ عليه اليوسي رسالة الأسطرلاب، ومختصر خليل، وشيئاً من الحباكية والقلصادي «. . . وكانت له ممارسة لمختصر خليل واستحضار للنوازل الفقهية ومخالطة تامة لعلم السير. . . »[2].

وهناك أدباء عاشوا في بلاط أبي حسون عرفوا بمساجلاتهم العلمية ونقائضهم الأدبية، منهم **سعيد العباسي**[3] ابن قاضي ايليغ وأحد نبغاء شعراء سوس، دخل ميدان الأدب وهو ما يزال حدثاً صغيراً، وأنشد بين يدي الرئيس الإيليغي قصيدة طويلة في عيد مولد قال في آخرها:

سمـوت إليهـا والـزمـان يقـول لـي   ومـا مثـل أذنـي مـن تصيـغ لأزمـان

أتدخل في الميدان ذا صغر، وهل   ستطمع أن ترنو لمثلك عينان؟. . [4]

و**محمد أمحاولو الآيسي**[5] كاتب أبي حسون الخاص وشاعره المنافح عنه ضد خصومه السياسيين، لا سيما أبا زكريا الحاحي الذي كانت له نقائض كثيرة معه[6].

ـ تارودانت:

لم يعرف في هذا العصر لتارودانت التي كانت إلى عهد قريب حاضرة سوس وقلبها النابض سوى ثلاثة من قضاتها العلماء. وهم: **عيسى السكتاني** الذي رأيناه ينتقل إلى مراكش ويستوطنها فراراً من فتنة يحيى الحاحي المستبد بشمال سوس. (1023/ 1615). وكان السكتاني قبل ذلك يلازم التدريس بالجامع الأعظم في تارودانت حيث أخذ عنه كثير من الطلبة مختلف العلوم العقلية والنقلية. و**عبد الرحمن التامنارتي**[7] الذي جاء تارودانت يافعاً واتخذها

---

(1) الحسن اليوسي، الفهرست، ص 185.
(2) المصدر السابق في نفس الصفحة.
(3) المختار السوسي، المعسول، 409:18 وما بعدها.
(4) المصدر السابق.
(5) المختار السوسي، سوس العالمة، ص 78 ـ 79 ـ 187.
(6) المصدر السابق، ص 187.
(7) محمد الأفراني، الصفوة، ص 155 ـ 157. وأهم مرجع لترجمة التامنارتي كتابه =

دار مقام طالباً ثم أستاذاً وقاضياً، وسجل صفحة رائعة من تاريخها العلمي ـ قبل أن يخنى عليها الدهر ـ في كتابه الفوائد الجمة، بإسناد علوم الأمة وألف غير ذلك شروحاً على عادة معاصريه، وديوانين لأشعاره وأجوبته الفقهية. ومنصور الهزالي[1] وكان متضلعاً في الفقه، خلف التامنارتي في القضاء والتدريس في تارودانت.

ـ تازموت:

تازموت قرية في شرقي إيليغ عريقة في العلم، درس فيها في القرن الهجري التاسع سعيد بن سليمان الكرامي آخر من قرأ في الأندلس من السوسيين، وتعاقب أبناؤه من بعده على التعليم فيها إلى أن آل أمرها في مطلع القرن الهجري الحادي عشر إلى آل يعقوب السملاليين. وأولهم عبد الله بن يعقوب[2] الذي قضى في تارودانت سبع عشرة سنة يطلب العلم قبل أن يستوطن تازموت حيث «بنى زاوية ومدرسة في سنة 1017 هـ فامتلأتا معاً في سنة واحدة بسرعة»[3]. ودرس ابن يعقوب التفسير والحديث والفقه واللغة وقواعدها وتخرج عليه كثير من علماء سوس[4]. ولعل أوجز وأصدق ما يصف حال هذا الشيخ قول تلميذه الرسموكي: «. . . خاتمة المدرسين بجزولة. واظب على التدريس ـ رحمه الله ـ من غير فتور ما يناهز خمساً وثلاثين سنة بمسجد تازموت، واشتهر صيته وارتفع ذكره ورحل الناس إليه من الآفاق للأخذ عنه. وكان ذا أذكار وحالة جميلة ودين متين وسيرة حسنة إلى أدب وظرف وبراعة. . درس وأفاد، وصنف فأجاد، ونفع الله به البلاد والعباد. وشارك فيه ـ أي في الأخذ عنه ـ الأبناء والآباء. . .»[5]. ألف ابن يعقوب في القراآت، والفقه،

=الفوائد الجمة المخطوطة المصورة في الخزانة العامة بالرباط رقم 1420 د. في جزءين.

(1) المختار السوسي، المعسول، 405.18.

(2) المختار السوسي، المعسول، به بدىء الجزء الخامس.

(3) المصدر السابق، ص 12.

(4) انظر قائمة تلاميذ ابن يعقوب ـ نقلاً عن طبقات الحضيكي ـ في المصدر السابق، ص 12.

(5) المصدر السابق، ص 10. نقلاً عن وفيات الرسموكي.

والعقائد، والتاريخ[1]، وأنجب أربعة من الأبناء العلماء ساروا على نهجه في تنشيط الحركة العلمية في زاويتهم: **يبورك بن عبد الله بن يعقوب**[2] خريج تازموت ونابغة قومه. لم يعمر سوى إحدى وثلاثين سنة، ومع ذلك خلف أباه في التدريس مدة وألف كتباً تجاوزت 22 في مختلف الفنون من لغة ونحو وصرف وأدب وتاريخ وتوحيد وفقه ووثائق وقراآت وتصوف[3]. وصار بعض هذه الكتب متداولاً عند الطلبة يتدارسونه في سوس كلها. بل إن أكثر مؤلفاته اختصارات لكتب قديمة هامة لتناسب أحوال المتعلمين ويقبلوا عليها، مثل اختصار محاضرات السيوطي، والمستطرف للابشيهي. وربما كان من أهم تآليف يبورك وأكثرها فائدة لدى قومه شرحاه لعقيدتي المهدي بن تومرت، وسعيد بن عبد المنعم الحاحي. **ومحمد بن عبد الله بن يعقوب**[4] تولى التدريس في زاوية تازموت بعد وفاة أخيه يبورك، ثم أسند إليه قضاء جزولة كلها. وله تآليف في المنطق والفقه وغيرهما[5]. **وأحمد بن عبد الله بن يعقوب**[6] أسهم كسائر أخوته في التدريس بتازموت، وألف في القراءات والعقائد والطب[7].

وهناك مراكز علمية صغيرة منتشرة في سوس خلال هذا العصر، اشتهر من علمائها **علي الرسموكي**[8] في (تاركيني من بلاد بعقيلة وسط جبال جزولة. وهو من المتخرجين في تارودانت. أخذ بطرف من كل المعلومات التي كانت تدرس هناك وتخصص في النحو، فكانت أكثر دروسه وتآليفه فيه. واشتهر شرحه على لامية المجراد السلوى فاعتمده الطلاب حتى الأيام الأخيرة ولذلك طبع في فاس

---

(1) انظر قائمة مؤلفات عبد الله بن يعقوب في سوس العالمة، ص 183.
(2) المختار السوسي، المعسول، 5:45 ـ 48.
(3) لمعرفة قائمة مؤلفات يبروك ارجع إلى سوس العالمة، ص 183 ـ 184.
(4) المختار السوسي، المعسول، 5:48.
(5) انظر مؤلفات محمد ابن يعقوب في سوس العالمة، ص 184.
(6) المختار السوسي، المعسول، 5:49.
(7) سوس العالمة، ص 184.
(8) محمد الأفراني، الصفوة، ص 125.

وتونس. ومحمد بن أبراهيم[1] حفيد الشيخ ابن إبراهيم وأحد أفراد تلك الأسرة العالمة التي أزهت تامنارت بدروسها وتآليفها طوال العهد السعدي. ويحيى بن عبد الله الحاحي[2] في زاوية تافيلالت بزداغة شمالي تارودانت. وقد رأينا ما كان لتلك الزاوية من نشاط علمي في العصر الأول، ثم سار فيها يحيى سيرة أبيه وجده، فأقبل عليه الطلبة من أرجاء جبل درن وبلاد سوس إلى أن أصابت يحيى نعرة السياسة، فخسر العلم والرياسة. وخلفه ابن أخيه أحمد الحاحي[3] صاحب تخميس البردة وشرح الأرجوزة الهبطية، لكنه لم يمض في الزاوية خمسة عشر يوماً حتى أصابه مس السلطة وجنون الجاه «وبويع له بالإمارة» فكانت له أكبر خسارة، وتعطلت بذلك الدراسة في زداغة.

وبعد. فهذا مجمل المراكز الثقافية المغربية أيام الدولة السعدية، لكن. ما تفاصيل المواد الدراسية والكتب المقروءة وما قيمتها؟ وما مدى اتساع تلك الدراسة وشمولها وفعاليتها؟ وعلام يدل تعدد المراكز الثقافية وتغيرها؟ وما أهمية إنتاجها من حيث الأصالة والتقليد؟ ثم ما دور السعديين ـ كملوك مسؤولين ـ في تنشيط الحركة الثقافية؟

هذه الأسئلة وغيرها سنحاول الإجابة عنها ـ بإيجاز ـ في الفصل التالي، مع تصنيف تلك المراكز والحكم عليها ككل، وإلقاء نظرة خاطفة على بعض المظاهر الثقافية الأخرى في هذا العصر، من مكتبات وكراسي علمية، وأماكن الدراسة وفصولها وأيامها، وإجازات وأسانيد، وزي العلماء وأرزاقهم وسكنى الطلبة ومعاشهم.

---

(1) المختار السوسي، سوس العالمة، ص 1181.
(2) الزاوية اللائية، ص 137.
(3) المرغيثي، العوائد المزرية بالموائد، ص 5.

الدراسة بالقرويين في القرون الأخيرة

أود في البداية أن أحدد موضوع هذا العرض المترامي الأطراف حتى نبقى في الإطار النموذج الذي تخيلته له، فتجديد الدراسة لا يعني قيام دراسة جديدة في هذا العصر مكان القديمة وإنما هو تطوير في نطاق الاستمرارية، لكن بشكل آخر، طعم بعناصر متعددة سواء من حيث المادة المدروسة أو من حيث العناصر البشرية القائمة على التلقين، والطرق المتبعة في ذلك ولا يقتصر مدلول القرويين في هذا العرض على الجامع المعروف بفاس، وإنما يشمل سائر الجوامع والمدارس والزوايا في فاس وخارج فاس، في الحواضر والبوادي. لأن القرويين ـ منذ تأسيسها وبداية التعليم فيها ـ كانت رمزاً ونقطة ارتكاز تتمحور حولها عدد من المراكز التعليمية تستمد منها وتظل على صلة قريبة أو بعيدة بها وما زالت جامعة القرويين حتى اليوم تعنى كل التعليم الأصيل في فاس وتطوان والجديدة ومراكش وأكادير إلخ.

من المعلوم أن القرن التاسع (14 م) في المغرب كان قرن ركود فيما يخص التعليم. فالمرينيون حماة العلم والعلماء انتهى دورهم مع أبي عنان. وهنا أفتح قوساً لأعلق على ما ذكره الزميل المتدخل قبلي من تعميم عملية انتهاب أموال أوقاف جامع القرويين والمدارس المتصلة به من طرف المرينيين، وهو تعميم قد يفهم من ظاهر نص الحسن الوزان، لكنه في الواقع لا ينطبق إلا على المتأخرين منهم وبخاصة الوطاسيين الذين أمست خزينتهم فارغة تبعاً لتقلص نفوذهم وضعف مواردهم فعوضوها بمداخل الأوقاف تحت غطاء الجهاد. أما المرينيون في عهد عزهم ـ من البداية إلى وفاة أبي عنان ـ فكانوا بالعكس معروفين بالإكثار من العقارات الوقفية وتوفير مداخيلها لتشجيع المعلمين والمتعلمين حتى كادت معظم أسواق فاس وأجنتها يكون في عداد الأوقاف.

ولم يقتصر ذلك على فاس بل عرفت نفس الأوقاف مختلف المدن التي أسسوا بها جوامع ومدارس وهي تمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وأضرب مثلاً بالجامع الأعظم بسلا والمدرسة المرينية المتصلة به من عمل أبي الحسن المريني والمارستان أو المدرسة العنانية الطيبة المعروفة اليوم بفندق أسكور كانت كلها تتمتع بريع وفير تشهد به بقايا الحوالات الوقفية.

نسد القوس ونرجع للحديث عن كساد سوق العلم في بلاد المغرب طوال القرن التاسع وأوائل العاشر على نحو ما وصفه بحسرة الحسن الوزان من خراب أملاك الأحباس وبساتينها والسطو على المغلّ منها حتى قال: «ولعل هذا أحد الأسباب التي أدت إلى انخفاض القيمة الفكرية ليس في فاس وحدها ولكن في جميع مدن إفريقيا».

كان ذلك طبعاً نتيجة الاضطرابات السياسية، وتفكك السلطة المركزية إلى إمارات إقليمية متناحرة، فلمّا تمكن السعديون من إعادة الوحدة للبلاد وإقامة حكومة قوية، انعكس ذلك على مختلف مظاهر الحياة الأمنية والمعاشية والفكرية. وقد يكون من حسن طالع التعليم في هذا العهد، أن السعديين أنفسهم كانوا ـ قبل خوضهم في السياسة ـ فقهاء أدباء مدرسين، فأولوا هذا الجانب عناية خاصة.

ففي أول مدينة شيدوها وهي مدينة المحمدية أو تارودانت ـ جددوا بالخصوص مساجدها ومدرستها الكبرى، وشجعوا التعليم فيها. كما أنهم حينما وصلوا إلى مراكش، وهي خراب حسبما صورها الحسن الوزان، جددوها وأسسوا بها مساجد للدراسة: جامع المواسين أو جامع الشرفاء، وجامع باب دكالة، وجامع الحرم العباسي. وفي كل جامع أسسوا خزانة علمية، أوقفوا عليها عدداً كبيراً من الكتب. كما جددوا مدرسة ابن يوسف التي أصبحت تضاهي أو تفوق أفخم المدارس القديمة.

إلى ذلك شغل السعديون بقضايا الزوايا. ومن المعلوم أنهم استغلوها سياسياً في البداية، فوصلوا بواسطتها إلى الحكم، ثم غدت بالنسبة إليهم مصدر

تخوف بسبب تجمع المريدين فيها، إضافة إلى الحرمة والمكانة التي لشيوخها عند عامة الناس فكان السعديون يعملون جاهدين لصرف هؤلاء الشيوخ ـ ومعظمهم كان في نفس الوقت متصوفاً وعالماً ـ عن المشيخة إلى التعليم. أي تحويل الزوايا من مراكز صوفية محضة إلى مراكز علمية. وهذا نجد له أمثلة كثيرة خاصة في سوس.

وقد تدارك السعديون عدداً من الأوقاف التي فوتت في أيام الوطاسيين وأمكنهم استرجاعها فردوها إلى أصلها. كما أنهم أوقفوا عقارات جديدة تغل غلات قيمة من شأنها أن تعمل على أن يعيش الأساتذة في ظروف مريحة، وأن يشتغلوا بمهمتهم التعليمية في راحة واطمئنان. كان عدد من العقارات الجديدة وقفاً على كراسي علمية معينة، أمثال كرسي البخاري، وكرسي العقائد، وكرسي الفقه... إلخ. كانت هذه الكراسي التي يتولاها أساتذة متخصصون طول حياتهم، تكفي مداخيلها ليعيشوا عيشة راضية. ولنأخذ مثلاً واحداً منهم هو أحمد المنجور، شيخ الجماعة بفاس، هذا الرجل الذي اشتغل بالتعليم منذ البداية حتى الممات فلم يتول أية خطة أخرى حتى الإمامة والخطابة والقضاء والشهادة والفتيا وما ذلك إلا لكون كراسيه العلمية كانت تكفيه للعيش.

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً آخر خارج فاس فلننظر إلى الأوقاف الغنية التي رصدت للقائمين على التدريس بجامع باب دكالة من مدينة مراكش التي شيدته مسعودة الوزكيتية أم أحمد المنصور، وأوقفت عليه قيسارية كاملة ومجموعة من الدكاكين التجارية خارجها وأجنة كثيرة وأرضاً كبرى خارج المدينة تُدرّ غلات وافرة. وتوجد نصوص بعض هذه التحبيسات في كتب أحمد بن القاضي، ولا سيما في المنتقى المقصور.

إضافة إلى ذلك كان الملوك السعديون يقدمون هباتٍ سخيةً لشيوخ التعليم وقولة أحمد المنجور في هذا المضمار مشهورة، وقد عاش أيام الوطاسيين وأيام السعديين ـ : قال ما عهدنا إعطاء المئين إلا في أيام الشرفاء السعديين، وما عهدنا إعطاء الألوف إلاّ في أيام أحمد المنصور. كانت هذه الصلات توزع على

الفقهاء عند حلول الأعياد الدينية وبمناسبة ختم بعض الكتب التي يحتفل بها في مشاهد حافلة.

لا عجب إذاً أن نجد والحالة هذه، أفواج الطلبة تلتحق بمختلف المركز العلمية الحضرية والقروية بأعداد قد تبدو مبالغاً فيها كثيراً، فسعة مداخيل الأوقاف وعناية رجال الدولة كانتا توفران لهم ظروف عيش مواتية تدفع بهم إلى التفرغ لطلب العلم.

أما عن مظاهر تجديد التعليم في المادة المدروسة والطريقة المتبعة، فنحن نعلم أن المادة التعليمية كانت فيما سبق، حسبما يؤخذ من الفهارس وكتب التراجم، تكاد تقتصر على النحو والفقه، يدرسان في مختصرات وشروح متأخرة أهمها مختصر الشيخ خليل. ونظراً لعوامل كثيرة لا يتسع المجال لبسطها، توسع نطاق المواد المدروسة بدخول المعقولات من حساب وهندسة ومنطق وكلام وبلاغة، بدأ ذلك بفاس مع العالمين الكبيرين محمد ابن غازي ومحمد اليسيتني اللذين اشتغلا بتلقين هذه المواد وتأليف كتب تعليمية فيها. وتعزز هذا الاتجاه العقلي في الدراسة بالإقبال على العلوم التجريبية في مراكش إذ كان أبو القاسم الوزير الغساني يدرس الأعشاب وتركيب الأدوية، وتكونت هناك مدرسة طبية على يده، فكان يجري امتحانات خاصة على الأطباء قبل أن يزاولوا أعمالهم..

ومن مظاهر تجديد التعليم في هذا العصر أيضاً اختيار الكتب الأصلية حتى في النحو والأدب والفقه، فلم يعد الناس يقتصرون على المختصرات الضعيفة بل بدؤوا يرجعوا إلى الأمهات، مثل كتاب سيبويه الذي طال به العهد من أيام عبد الرحمان المكودي في أوائل الدولة المرينية، وينتشر هذا الكتاب حتى في بعض المراكز القروية، مثل آيت الطالب في بعقيلة بسوس، والزاوية الدلائية بالأطلس المتوسط وفي الفقه أخذ الناس يدرسون، إلى جانب مختصر خليل ومختصر ابن الحاجب، مدونة سحنون الكتاب الأصلي للمذهب المالكي، فآل ابن إبراهيم الدكاليون بفاس كانوا لا يدرسون بالقرويين غير المدونة ومهروا فيها.

وربما كان من أهم عوامل تجديد التعليم في هذا العصر دخول عناصر جديدة إلى المغرب، لا سيما من الأندلس بعد سقوط غرناطة ثم بعد عملية الطرد النهائي في أوائل القرن الحادي عشر (17 م). وكذلك دخل إلى المغرب علماء من المغربين الأوسط والأدنى على إثر استبداد الأتراك وتحول هذه البلاد إلى إيالات عثمانية. جاء هؤلاء العلماء من تلمسان ووهران والجزائر وبجاية وقسنطينة وتونس وأصبحوا يدرسون في جامع القرويين وغيره بمختلف الأقاليم حملت هذه العناصر إلى المغرب دماً جديداً وعقلية متفتحة وأساليب تعليمية غير الأساليب المتعارفة من قبل فتمخض عن ذلك ظهور عناصر مغربية صميمة برزت في ميادين خاصة مثل الإمام محمد الهبطي السماتي صاحب وقف القرآن المشهور الذي ما زال معمولاً به حتى اليوم في أقطار المغرب كلها. وعبد الرحمن سقين شيخ المحدثين.

ولا ينبغي أن نغفل في باب مظاهر تجديد التعليم في العهد السعدي شموله للحواضر والبوادي بعد أن كان قاصراً على كبريات المدن فيما سبق. وإذا كانت قرى سوس نالت قصب السبق في انتشار التعليم، باعتبارها البلد المفضل لدى السعديين، فإن المناطق الأخرى لم تقل عنها أهمية كالمراكز الشمالية التي نزل بها الأندلسيون مثل تاز غدرة الشهيرة بعالمها الحاج الشطيبي الذي كان في نفس الوقت عالماً مشاركاً يشتغل بالتدريس والتأليف عارفاً بالفلاحة يعمل فيها بيده، وله فيها رسالة مفيدة.

هكذا نجد إشعاع القرويين خلال القرنين العاشر والحادي عشر (16 م و17 م) قدعم أرجاء البلاد سهلاً وجبلاً، واتسم التعليم بطابع التجديد والتنوع في مختلف الميادين الدينية والأدبية والفكرية.

تجديد الكتابة التاريخية عند الجبرتي والناصري(*)

يتناول هذا العرض جانباً من جوانب الترابط والتشابه الثقافي بين مصر والمغرب، وبين القاهرة وسلا بصفة خاصة، في شخص مؤرخين نابهين يعتبران في طليعة المؤلفين المجددين للخطاب التاريخي في عصر النهضة العربية، هما عبد الرحمان الجبرتي القاهري وأحمد الناصري السلوي.

تقارب عصر الرجلين ولو أن الأول عاش في بداية القرن الثالث عشر (19م) ، والثاني في آخره. وتشابهت الظروف التي عاشها كل منهما في مصر وفي المغرب، أزمة سياسة ومعاناة في الأخذ بأسباب التقدم والرقي، ومشاركة في دواليب الحكم مكنت كلاً منهما من كتابة تاريخ بلاده على غير مثال سابق .

سنتحدث حديثاً موجزاً عن المؤرخين المصري والمغربي وكتابيهما مبرزين بعض مظاهر التجديد في عملهما الذي ظل مرجعاً أساسياً إلى أيام الناس هذه.

ولد عبد الرحمان بن حسن الجبرتي في القاهرة عام 1167/ 1754، وتخرج من الأزهر فقيهاً مشاركاً رياضياً فلكياً. أديباً كاتباً. وظهرت شخصيته في خضم الحملة الفرنسية على مصر حين اختاره نابليون، في جملة من اختار من العلماء والكتاب المصريين، فعمل في الديوان وغدا بذلك مطلعاً تمام الاطلاع على ما يقوم به الفرنسيون من أعمال، وما يتخذون من قرارات، وما يصدرون من مراسيم. ثم عمل الجبرتي بعد خروج الفرنسيين من مصر في حكومة

(*) ألقي في الندوة الأولى للعلاقات المغربية المصرية المقامة بمدينة سلا.

محمد علي، وظل يباشر عمله كذلك بصفات مختلفة وبالدرجة الأولى كمفت للحنفية. فاكتسب خبرات سياسية واجتماعية جديدة، وتجمع لديه من المعلومات والوثائق ما دفع به إلى أن يضع تاريخاً لبلاده. وقد صور الجبرتي في مقدمة كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار الحالة المزرية لمادة التاريخ في مصر آنذاك والمصادر التي طالما سمع عنها في مجالس شيوخه بالأزهر، لكنه افتقدها كلها حين بحث عنها وقال إنها أصبحت «أسماء بدون مسميات».

عجيب حقاً أن تخلو مصر أيام محمد علي من كتب تاريخها وهي التي عرفت نشأة التاريخ العربي الإسلامي مع عبد الملك ابن هشام (ت 213) وابن عبد الحكم (ت 214) وعلي بن الحسين المسعودي (ت. 346) مؤلف مروج الذهب وأبي عمر الكندي (355) معاصر المتنبي ومؤلف فضائل مصر لكافور وأخبار قضاة مصر وتاريخ مصر، والقضاعي محمد بن سلامة (ت 454) صاحب الإنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء. وعيون المعارف وفنون أخبار الخلائف. ونزهة الألباب وجامع التواريخ والحافظ ابن حجر العسقلاني (ت 852) صاحب رفع الأصر عن قضاة مصر، وتاريخ مصر والشام. وتلميذه شمس الدين السخاوي (ت 902) مؤلف الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع والتبر المسبوك في ذيل السلوك: تاريخ يومي مرتب على السنين. والمقريزي تقي الدين (ت 845) صاحب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، وعقد جواهر الأسفاط في ملوك مصر والفسطاط...

ولا شك أن الظروف الدقيقة التي كتب فيها الجبرتي تاريخه لم تكن تسمح له بذكر مراحل استلاب ذخائر مصر التاريخية بدءاً من عهد سليم الأول الذي مكث في القاهرة بعد فتحها مدة غير قصيرة، وأحمال الكتب تنقل إلى تركيا، إلى عهد نابليون الذي استحوذ في المدة القصيرة التي قضاها بأرض الكنانة على ما بقي فيها من نفائس الكتب وغيرها.

اضطر الجبرتي، والحالة هذه، إلى أن يحد من طموحه ويجتزىء بكتابة تاريخ بلاده في القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر. ومعتمده في ذلك ثلاثة أصناف من المصادر. ففيما يخص بداية القرن الثاني عشر قال: «أخذت أتصل

بالشيخة فاسمع منهم وأبحث في القبور عن الكتابات التي توجد فيها، وكذلك استمع من مختلف الناس». ثم من السبعينات إلى التسعينات قال: «كتبت فيها ما عشته لكنني كنت قد نسيته فتذكرته»، يعني أنه استعاد الذاكرة فكتب ما كان يعرف، ولا شك أنه رجع إلى الرواية الشفوية أيضاً. أما ما بعد التسعينات فقال عنها: «إنها الفترة التي وعيتها وتذكرتها وسجلتها». هكذا استطاع الجبرتي أن يتحدث عن تاريخ مصر في بداية القرن الثاني عشر الهجري إلى سنة 1236 هـ ، أي إلى ما قبيل وفاته بعام واحد، فماذا نقرأ في تاريخ الجبرتي:

سلك الجبرتي طريقة الحوليات، مسجلاً في كل سنة أهم ما عرفت من أحداث سياسية وطبيعية وثقافية. وقد اهتم في الدرجة الأولى بمصر، ثم بالأقطار الشرقية التي كانت تحت الحكم العثماني وخاصة بلاد الشام والحجاز، ثم بالبلاد المغربية لا سيما تراجم العلماء الذين زاروا القاهرة كالرحالة أبي سالم العياشي، واللغوي الشهير محمد بن الطيب الشركي الفاسي، وعلي بن العربي السقاط الفاسي وأحمد بن عبد الله السكتاني.

تقل المادة التاريخية عند الجبرتي في بداية القرن الثاني عشر، وتأخذ في التكاثر كلما اقترب المؤلف من عصره حتى إذا وصل إلى فترة دخول الفرنسيين إلى مصر، تغير الأسلوب واستجدت المادة، بل تغير حتى فكر المؤلف وطريقته في عرض الأحداث وتعليلها وتحليلها.

يتكون تاريخ الجبرتي من أربعة أجزاء، يغطي الجزءان الأول والثاني القرن الثاني عشر إلى سنة 1213/ 1798. ويختص الجزء الثالث بأحداث الحملة الفرنسية ولا تزيد الفترة التي يتناولها عن ثمان سنوات 1213 ـ 1220/ 1798 ـ 1806/ أي منذ الإرهاصات الأولى لمجيء الفرنسيين وتخوفات البريطانيين الذين عرضوا مساعدتهم على حكام مصر إلى نزول القوات الفرنسية ومقاومة المماليك الفاشلة. ويتوسع في كل ما أحدثه الفرنسيون بالقاهرة من مدارس، وجرائد، ومسرح، ومجمع مصري، ومطبعة عربية، وهذا أهم أجزاء الكتاب مشحون بالوثائق من مراسلات ومعاهدات، ومنشورات وقرارات وملصقات بنصوصها الأصلية. أما الجزء الرابع فيتناول أحداث السنوات الست عشرة

التالية (1221 ـ 1236/ 1805 ـ 1821) أي الفترة الأولى من حكم محمد علي، وقد كان الجبرتي في بعضها يشتغل في دواليب الدولة، ثم صرف عن العمل فانقطع للقراءة والتدوين، ومات بعد سنة من إنهاء تأليفه عجائب الأخبار سنة 1237/1822. ولعل الجبرتي لم يكن راضياً عن حكم محمد علي، ينتقده في المجالس وفيما كتب عنه في **عجائب الأخبار**. وربما كان ذلك سبباً في ميتته المفجعة، وفي مصادرة الطبعة الأولى من تاريخيه وحذف ما فيه من طعن في أعمال محمد علي. ثم طبع الجزء الثالث على حدة بالإسكندرية عام 1295/ 1878 بعنوان: **تاريخ الفرنساويين في مصر**. وطبع الكتاب كاملاً في أربعة أجزاء ببولاق عام 1297/ 1880، وأعيد طبعه في المطبعة الشرقية عام 1323/ 1905. كما ترجم إلى اللغة الفرنسية في تسعة أجزاء وطبع سنة 1888.

أما أحمد الناصري فولد بسلا عام 1250/ 1835 أي بعد 14 سنة من وفاة الجبرتي وتخرج على يد مشيختها عالماً مشركاً، أديباً شاعراً ناثراً. عمل في حكومة المخزن كاتباً وعدلاً بسلا والدار البيضاء والجديدة، وفي بنيقة الصاير (القسم المالي بالبلاط الملكي) في مراكش وفاس، الأمر الذي مكنه من الاطلاع على حقائق الأمور، والوثائق الرسمية التي شارك ـ مثل الجبرتي ـ في تحرير بعضها. وقد أسعف الحظ الناصري بالوقوف على كتب تاريخ المغرب المتوافرة لديه، ولو أنها لم تكن ترجع إلا للقرون الستة الأخيرة، إذ ضاع ما سبقها ولم يبق منه سوى ما نقله ابن خلدون، وابن أبي زرع وابن غازي وأضرابهم في تواريخهم.

ساعدت كل هذه المواد أحمد الناصري على تأليف كتابه الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، وهو ـ بخلاف كتاب الجبرتي ـ تاريخ شامل للعصر الإسلامي كله، من عهد النبوة والخلفاء الراشدين إلى عام 1312/ 1895.

لم يسلك الناصري في كتابته طريقة الحوليات، وإنما اتبع ترتيب الدول المتعاقبة على حكم المغرب، واجتهد في تمحيص الأخبار ونقد الروايات واستقصائها، والاهتمام بالجوانب العمرانية والمعاشية والعلمية، إلى جانب

الأحداث السياسية والعسكرية. مخصصاً بعد كل دولة بل بعد كل ملك حيزاً لتراجم أشهر القضاة والخطباء والمدرسين والكتاب والشعراء.

يتكون الاستقصا من تسعة أجزاء، تغطي الأجزاء الثمانية الأولى اثني عشر قرناً ونيفاً، بينما يختص الجزء التاسع بعهد الملوك الأربعة الذين عاصرهم المؤلف: عبد الرحمن بن هشام، ومحمد بن عبد الرحمان، والحسن الأول، وابنه عبد العزيز. وهنا يتغير أسلوب الناصري - كما رأينا عند الجبرتي في الجزءين الثالث والرابع - فيتحدث عن مروياته ومشاهداته، وتكثر الرسائل والظهائر والمنشورات الرسمية والتقارير وبعضها من إنشائه أو بمشاركته. وفيه تظهر شخصية المؤلف كمؤرخ واع ونزيه، ووطني غيور، ذي مواقف ذكية مشرفة من الأحداث الخطيرة التي واجهت البلاد، مثل حذره بل استهجانه ومعارضته لمطالب الدول الأوروبية بإدخال إصلاحات كبابور البر والتلغراف، ونصيحته للسلطان في قضية مطالب الدول برفع الحظر عن بعض المنتجات المحلية والتخفيض من صك الأعشار - تقرير مهم - تأملات في أحوال الجيل الحاضر بعد موت الحسن الأول ومبايعة عبد العزيز وتكالب الدول الأجنبية على المغرب، ومقارنة ذلك بوضعية مصر والشام، اهتمامه بقضايا المسلمين الكبرى كحركة المهدي في السودان، وتفتح على الحياة العصرية في أوروبا.

طبع الاستقصا في حياة مؤلفه لأول مرة بالقاهرة عام 1312/ 1894، أي بعد طبع تاريخ الجبرتي بـ 15 سنة، وترجم مثله إلى الفرنسية - إلا قليلاً - ونشر في دورية الوثائق المغربية ثم طبع مرة أخرى بالدار البيضاء في تسعة أجزاء.

وإذا أردنا أن نضيف شيئاً عن مظاهر التجديد عند الجبرتي والناصري علاوة على ما تقدم ذكره خلال العرض، فإني أشير إلى أن مؤلّفيهما يعتبران حدثاً جديداً في كتابة تاريخ مصر والمغرب استعملا المصادر القديمة في تاريخ العصور السابقة لعصرهما استعمالاً نقدياً مقارناً، وتناولا الأحداث المعاصرة اعتماداً على وثائق متنوعة وروايات موثقة وشهادات عيان. وامتاز المؤرخان معاً بالنقد الذاتي، والتفتح على العالم الخارجي، والوعي الوطني الذي يدرك ما له وما عليه.

الدراسات الإفريقية في مصر والمغرب(*)

إذا كانت معطيات التاريخ القديم وتاريخ الإسلام تؤكد الروابط العريقة بين مصر والمغرب من جهة، وما يقع جنوبيهما من بلاد السودان من جهة ثانية، فإن الاستعمار الأوروبي الذي ناء بكلكله على هذه المناطق منذ القرن الثالث عشر(19م)، وبخاصة بعد مؤتمر برلين 1884 ـ 1885 الذي اقتسمت فيه الدول الاستعمارية القارة الإفريقية، في نفس الوقت الذي كانت توزع الأراضي العربية في إفريقيا وآسيا، كتركة للخلافة العثمانية الآفلة. عمل هذا الاستعمار على تمزيق القارة الإفريقية وتقسيمها بما ابتدعه من تقسيمات دعاها تارة شمال الصحراء وجنوبها. وتارة إفريقيا البيضاء والسوداء والسمراء، وتارة أخرى إفريقيا الناطقة بالفرنسية والناطقة بالإنجليزية. وإذا كان الغزاة الأوروبيون قد تمكنوا حيناً من الدهر من استغلال هذه التفرقة وبسط السيطرة والنفوذ على هذه المنطقة، فإن مصر والمغرب ما كادا يظفران بالاستقلال حتى هبا يعملان بقوة على استقلال إفريقيا السوداء، ويساعدان حركات التحرير فيها مادياً ومعنوياً وفي المحافل الدولية.

وإن ينس الأفارقة فإنهم لا ينسون البطلين العظيمين جمال عبد الناصر ومحمد الخامس ـ رحمهما الله ـ الذين عملا معاً لأول مرة في التاريخ السياسي الحديث على اجتماع الدول الإفريقية المستقلة في أكرا (15 ـ 22 أبريل 1958)، وعلى المؤتمر الثاني للدول الإفريقية المستقلة في أديس أبابا (15 ـ 24 يونيه 1960) ثم على عقد مؤتمر الدار البيضاء (3 ـ 7 يناير 1961) الذي تمخض عما يعرف في التاريخ بميثاق الدار البيضاء أو الميثاق الإفريقي. وقد

(*) ألقي في الندوة الثانية للعلاقات المغربية ـ المصرية بالقاهرة

وقعت الدول الأعضاء في المؤتمر البروتوكول المتعلق به في اجتماع وزراء الخارجية بالقاهرة يوم 5 مايو 1961، الذي نص البند الأول منه على أن يجري التعاون بين أعضاء الميثاق عن طريق لجان سياسية واقتصادية وثقافية، وقيادة عسكرية عليا إفريقية مشتركة.

وللتذكير بأهمية هذا الميثاق الإفريقي نشير إلى أنه نص على:

ـ التصميم على تحرير الأراضي الإفريقية التي ما زالت تحت السيطرة الأجنبية بإعطائها العون والمساعدة لإنهاء الاستعمار، والاستعمار الجديد في جميع أشكاله.

ـ الإعلان عن ضرورة توجيه الدول الإفريقية المستقلة لسياستها الاقتصادية والاجتماعية بالشكل الذي يضمن استغلال ثرواتها الوطنية من أجل صالح شعوبها، وضمان توزيع هذه الثروات توزيعاً عادلاً بين رعاياها.

ـ فتح باب العضوية لجميع الدول الإفريقية التي تقبل أحكام الميثاق والبروتوكول وبذلك أثمرت جهود مصر والمغرب بتحرير كثير من الدول الإفريقية في ظرف سنوات معدودات ومهد ميثاق الدار البيضاء السبيل لقيام منظمة الوحدة الإفريقية يوم 25 مايو 1963.

I ـ وفي ميدان الدراسات الجامعية، نجد مصر ـ كعادتها ـ سباقة رائدة. أنشأت سنة 1947 معهد الدراسات السودانية وجعلته تابعاً مباشرة لجامعة القاهرة. ثم حلَّ محله معهد الدراسات الإفريقية في 14 شتنبر 1955 وارتبط بكلية الآداب في جامعة القاهرة. واقتصر في البداية على شعبتي التاريخ والجغرافيا. وفي سنة 1970 انفصل هذا المعهد عن كلية الآداب، وصار يحمل اسم معهد البحوث والدراسات الإفريقية، كمؤسسة مستقلة داخل جامعة القاهرة، وبعد بضع سنوات عرف المعهد توسعاً مهماً بصدور لائحة داخلية تنص على أن الغرض منه هو تشجيع البحوث والدراسات الخاصة بإفريقيا، وتوثيقها، وتكوين المتخصصين علمياً في الشؤون الإفريقية. وأصبح المعهد منذئذ يتكون من ستة أقسام متخصصة:

- التاريخ
- الجغرافيا
- الانثروبولوجيا
- النظم السياسية والاقتصادية
- الموارد
- اللغات واللهجات الإفريقية.

وأخذ المعهد يهيىء الطلاب لدرجات الديبلوم، والماجيستير، والدكتوراه في الدراسات الإفريقية في أحد الأقسام الستة. وتمنح جامعة القاهرة بطلب من المعهد، هذه الدرجات العلمية. وبالإضافة إلى ذلك يصدر المعهد مجلة علمية متخصصة باسمه.

وإلى جانب الطلبة المصريين يدرس في المعهد طلبة من مختلف البلدان العربية والإفريقية، ومن بين المتخرجين منه زميل لنا يعمل حالياً أستاذاً بشعبة التاريخ من كلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالرباط. وهناك دراسات إفريقية أخرى في غير جامعة القاهرة، حسب تحريات نشرت سنة 1975، إذ كانت جامعة الاسكندرية تدرس موضوعات في تاريخ إفريقيا في السنة الثالثة وجامعة عين شمس في السنة الرابعة، كما كانت جامعة طنطا تدرس في السنة الثالثة تاريخ إفريقيا الحديث.

وفيما يهم الكتب أنتجت مصر في العقود الثلاثة الأخيرة عدداً غير قليل من الدراسات المعلقة بإفريقيا منها رسائل وأطروحات لم نتمكن بعد من الاطلاع عليها، ومنشورات كثيرة مؤلفة، وأخرى مترجمة عن الإنجليزية، استفدنا منها في تدريسنا لهذه المادة، كما سنرى في الفقرة التالية. من هذه المنشورات ما أخرجته:

- دار النهضة العربية بالقاهرة سنة 1963: **الإسلام والثقافة العربية في إفريقية**، لحسن أحمد محمود، وهو مؤلف كتاب قيام دولة المرابطين، ا لذي نشرته نفس الدار سنة 1957.

ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة التي دشن حلقتها الأولى سنة 1965 الدكتور محمود عوض محمد بكتاب **الشعوب والسلالات الإفريقية**، ونشرت في السنة الموالية كتاب كولين ليجوم **الجامعة الإفريقية** بترجمة الدكتور أحمد سليمان.

ـ الهيئة المصرية للتأليف والنشر. التي نشرت سنة 1971 كتاب **نهضة إفريقية** للدكتور محمد عبد العزيز إسحاق، وسنة 1390 هـ كتاب **امبراطورية غانا الإسلامية** لإبراهيم علي طرخان.

ـ مكتبة الأنكلو المصرية: التي نشرت في الستينات للعميد محمد عبد الفتاح وحده عشرة كتب عن إفريقيا المعاصرة، آخرها الذي اطلعنا عليه: **إفريقيا من مصب الكونغو إلى منابع النيل في هضبة البحيرات**، ونشرت للدكتور عبد الملك عودة سنة 1969 كتاب **سنوات في إفريقيا**.

ـ مؤسسة سجل العرب، القاهرة ـ نيويورك، التي نشرت سنة 1976 كتاب دونالد وايدنر، **تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء** بترجمة زميلنا الدكتور شوقي عطا الله الجمل. وأظن أن لهذا الكتاب ترجمة أخرى للدكتور راشد البراوي.

ـ دار المعارف التي نشرت سنة 1986 للدكتور محمود محمد الحويري، كتاب **ساحل شرق إفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي**. هذا فضلاً عن منشورات مكتبة الدراسات التاريخية والعلاقات الدولية، ودار الطباعة الحديثة، ومطابع الشعب ومؤسسة عبد الحميد أحمد حنفي بالقاهرة، وفضلاً عن المنشورات المصرية الكلاسيكية في الموضوعات الإفريقية، كالكتب التي ألفها أستاذنا المرحوم الدكتور حسن إبراهيم حسن. أو ترجمها للعربية من مؤلفات أستاذه السير طوماس أرنولد. وفضلاً عما لم نطلع عليه وهو طبعاً، ليس بالهين ولا باليسير.

II ـ أما عن الدراسات الإفريقية بالمغرب، فمنذ نشأة جامعة محمد الخامس سنة 1957، بدأ الاهتمام بالموضوعات الإفريقية، وبخاصة ما يتعلق بإفريقيا الغربية التي يرتبط تاريخها ارتباطاً وثيقاً بتاريخ المغرب طوال العصر

الإسلامي. وهكذا أدرجت مواد إفريقية في برامج شعب التاريخ والجغرافيا واللغات بكلية الآداب بالرباط. ثم بكلية الحقوق بالرباط. وبعد أن توسعت الجامعات المغربية وتعددت (يبلغ عددها اليوم إحدى عشرة جامعة) اتسعت بذلك الدراسات الإفريقية. وفي سنة 198 أنشىء قسم خاص بالدراسات الإفريقية ضمن شعبة التاريخ بكلية الآداب بالرباط، يهيىء فيه الطلبة المجازون ديبلوم الدراسات العليا ـ تخصص دراسات إفريقية ـ في موضوع: مملكة كانم برنو وعلاقتها بأقطار الشمال الإفريقي. ومن بين الدارسين بهذا القسم طلبة من الأقطار الشقيقة، تونس وليبيا وموريتانيا والسنيغال ومالي...

وفي سنة 1987 تم تأسيس معهد الدراسات الإفريقية بالرباط (الجريدة الرسمية رقم 3907 بتاريخ 20 محرم 1408 موافق 16 ـ 9 ـ 1987) وهذا المعهد ـ كما جاء في المرسوم ـ: «مؤسسة تابعة لجامعة محمد الخامس، تعنى بكل ما يتعلق بدراسة مختلف مظاهر الحضارات الإفريقية والتراث المشترك المغربي ـ الإفريقي، واللغات واللهجات الإفريقية. ويناط به لهذه الغاية في الميادين التي تندرج في نطاق مهامه:

ـ القيام بالبحث العلمي والنهوض به.

ـ تنظيم حلقات دراسية وندوات ومحاضرات ومعارض تساهم فيها بوجه خاص شخصيات إفريقية.

ـ إقامة علاقات تعاون مع الهيئات الأجنبية والدولية التي تسعى لتحقيق الأغراض التي يعنى بها.

ـ المساهمة في المهرجانات الثقافية والعلمية المنظمة داخل المغرب وخارجه.

ـ تتبع النشاط العالمي، وجمع كل الوثائق والمراجع والكتب والنشرات والأبحاث غير المنشورة والدوريات والمجلات المتخصصة.

ـ القيام بتوزيع نشرة المعهد وجميع الوثائق والدراسات التي لها صلة بانشغالاته».

إن المتأمل في المهام المنوطة بمعهد الدراسات الإفريقية المغربي، يرى أنها من حيث الأساس والمبدأ لا تختلف عن مهام معهد البحوث والدراسات الإفريقية المصري، إلا أن المعهد المغربي يتميز:

1 ـ بكونه لا يحتضن في رحابه طلبة، وبالتالي لا يمنح درجات علمية في أي مستوى من المستويات الجامعية.

2 ـ باعتباره في حد ذاته خلية للبحث العلمي في ميدان الدراسات الإفريقية يحقق أهدافه بواسطة المنتسبين إليه من الأساتذة الباحثين أو من يتعاون معه من الشخصيات العلمية الإفريقية.

3 ـ بكونه مكلفاً برصد النشاط العلمي العالمي المتعلق بإفريقيا وجمع كل ما يمكن من الوثائق والبحوث والمنشورات، أي اعتباره مركز التوثيق الإفريقي بالمغرب.

ونظراً لحداثة الدراسات الإفريقية بالمغرب، فإن عدد المنشورات المغربية في هذا الموضوع متواضع يكاد ينحصر فيما نشرته الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مثل كتاب **وصف إفريقيا** للحسن الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، في جزءين، وهو ترجمة من الفرنسية إلى العربية. طبع سنة 1982 بالرباط، ثم أعيد طبعه في بيروت مرة ثانية وثالثة؛ وكتاب **فتح الشكور في علماء التكرور** لمحمد أبي بكر الولاتي، حققه أستاذان مغربيان ونشر في بيروت سنة 1984؛ وكتاب إفريقيا لمارمول كربخال الإسباني، في ثلاثة أجزاء، وهو ترجمة كذلك إلى العربية، نشر بالرباط سنة 86 ـ 1988. ويعتزم الآن معهد الدراسات الإفريقية بالرباط نشر تحقيق كتاب **كفاية المحتاج** لأحمد بابا السوداني.

III ـ وهنا أخلص للنقطة الثالثة والأخيرة في هذا العرض، المتعلقة بالتعاون المصري ـ المغربي في الدراسات الإفريقية فأقول: إن التعاون والتكامل في هذا الميدان حيوي لا بالنسبة للبحث العلمي فحسب، ولكن أيضاً بالنسبة للعلاقات العربية الإفريقية التي ينتظر منها الكثير لدعم المواقف السياسية العربية على الصعيد الدولي، ولقطع الطريق أمام الخصوم المتسللين إلى القارة الإفريقية

لأغراض غير سليمة.

هنالك عدة مجالات وعدة مستويات لهذا التعاون الذي ينبغي أن يراعي الإمكانات والاستعدادات في كل بلد، ويتقدم بخطى وئيدة لتحقيق أهداف محددة. وربما كان في مقدمة الأهداف التي ينبغي الاتفاق عليها رد الشبهات التي أتى بها الأجنبي، واجتثاث رواسب التفرقة والنفور والبغضاء بين الأفارقة على اختلاف مواقعهم وألوانهم ومعتقداتهم، بالكشف عن الماضي البعيد والقريب، والتخطيط للمستقبل المشترك.

ومن المجالات التي يحسن بل يتأكد تعاون المصريين والمغاربة فيها، مجال التوثيق، والإعلام، والبيبليوغرافيا. إذ لا يعقل أن يظل كل جانب يعمل على شاكلته، يقتحم صعوبات البحث والتنقيب، ثم يختزن نتائج عمله في نطاق محدود لا يستفيد منه الآخرون. في وقت اتسع فيه مجال التواصل إلى أقصى حدود الاتساع بسبب التطور الهائل في ميدان الإعلاميات والعقول الالكترونية، لا سيما وأن عامل التكامل في ميدان بحث تاريخ إفريقيا متوفر للطرفين، بحكم التكوين الانكلوفوني عند المصريين، والفرانكفوني عند المغاربة.

وعن مستويات التعاون ينبغي الرجوع إلى المؤسسات المصرية والمغربية، الرسمية والحرة، التي تعنى أساساً بالدراسات الإفريقية، أو التي تدخل هذه الدراسات في جملة اهتماماتها، كجامعة القاهرة وجامعة محمد الخامس، ومعهد البحوث والدراسات الإفريقية بالقاهرة ومعهد الدراسات الإفريقية بالرباط، ودار الكتب المصرية والخزانة العامة بالرباط، والجمعيات الثقافية المصرية التي تعنى بشؤون التأليف والترجمة، والجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر مثلاً، ودورالنشر المصرية ومثيلاتها في المغرب.

أيها الأخوة، إن خير ما يمكن أن تتمخض عنه ندوة العلاقات المغربية ـ المصرية، إلى جانب حصيلة المداخلات المهمة، وضع أسس عمل مشترك في مجال من مجالات البحث المفيد، كالدراسات الإفريقية، يمكن أن يكون ـ متى نجح ـ فاتحة آفاق التعاون والتكامل في ميادين علمية أخرى.

التأليف والترجمة والنشر
بين مصر والمغرب(*)

الحديث عن التأليف والترجمة والنشر حديث عن مرحلة متطورة من مراحل النهضة الحديثة سبقتها حركة انتشار التعليم وتطوره، وقيام مطابع ودور كتب وما إلى ذلك. ولما كانت مصر رائدة هذه النهضة السبّاقة إليها بالنسبة لكل البلاد العربية فقد كانت الأولى بطبيعة الحال التي عرفت مؤسسة منظمة خاصة بالتأليف والترجمة والنشر.

ترجع أسس هذه المؤسسة إلى المنشآت الثقافية الكبرى التي تحققت في بلاد الكنانة خلال القرن الثالث عشر (19م): مطبعة بولاق أو المطبعة الأهلية التي أنشأها محمد علي على أنقاض مطبعة نابليون سنة 1237/1822 وألحقها بنظارة المالية تنفق عليها بسخاء، فكانت ـ كما يقول جرجي زيدان ـ : «أكبر مطبعة عربية في العالم»، وأخرجت من نفائس الموضوعات التراثية المحققة ما فتح أبواب المعرفة مشرعة؛ والمدارس الحديثة وضمنها مدرسة الألسن؛ وطلائع البعثات التعليمية إلى أوروبا. وتعززت هذه المنشآت الثقافية في عهد الخديوي إسماعيل بإنشاء دار الكتب المصرية سنة 1287/1870 ودار العلوم سنة 1288/1871 إلى جانب توسيع المدارس الحديثة وتعزيزها وتكثيف البعثات الطلابية إلى الخارج إلى أن أسست الجامعة المصرية سنة 1326/ 1908 كرمز لتمام النضج العلمي واكتمال وسائل المعرفة بالبلاد.

في خضم هذه التحولات العلمية التي عرفتها مصر ظهرت في الساحة

(*) من موضوعات الندوة الثالثة للعلاقات المغربية ـ المصرية بمدينة سلا في 7 يوليوز 1992.

الثقافية عدة جمعيات تهتم بقضايا المعرفة والتأليف والتعريب كجمعية المعارف التي أسست سنة 1285/1868 بمبادرة محمد عارف باشا، وجمعية التعريب لترجمة الكتب الحديثة في الاجتماع والاقتصاد سنة 1310/1893، وجمعية تأليف الكتب سنة 1329/1911. كانت كلها إرهاصات لقيام المؤسسة الكبرى لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة 1332/1914 بإشراف أحمد أمين أستاذ اللغة العربية بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة، ومشاركة عدد وافر من أعلام الفكر الذين سنتحدث عنهم بعد قليل. وقد اكتملت قوانين هذه المؤسسة سنة 1347/1928 وعدلت ثلاث مرات سنة 29 و31 و1936. وإذا كنا لا نهتم في هذه المداخلة بالجانب الإداري، فإننا نذكُر ببعض الإنجازات العظيمة التي حققتها لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرية في السنوات الخمس والعشرين الأولى من عمرها (1332 ـ 1914/1358 ـ 1939) انطلاقاً من بحث نشره عنها المستشرق الإيطالي أومبيرطوريزيطانو في مجلة الشرق الحديث الصادرة بروما (يناير 1940) فقد أحصى عدد منشوراتها التي بلغت آنذاك 85 كتاباً، منها ثلاثة وأربعون مؤلفاً أصلياً، وثلاثة وثلاثون مترجماً، وتسعة كتب محققة.

من المؤلفات الأصلية:

ـ **تاريخ الأدب العربي**، لأحمد حسن الزيات (صدرت الطبعة السابعة منه سنة 1939).

ـ **في الأدب الجاهلي**، لطه حسين (صدرت الطبعة الثالثة سنة 1939).

ـ **الحاج شلبي وأقاصيص أخرى**، لمحمود تيمور (صدر سنة 1930).

ـ **قصة الفلسفة اليونانية**، لأحمد أمين وزكي نجيب محمود (ظهرت الطبعة الثانية سنة 1935).

ـ **كتاب الأخلاق**، لأحمد أمين (ظهرت الطبعة الرابعة سنة 1933).

ـ **كتاب الحرية والدولة**، لمحمد عبد الباري، 1926.

ـ **أصول علم النفس**، لأمين مرسي قنديل، 1929.

ـ **تاريخ القرن التاسع عشر**، لحسين حسني باي، ومحمد قاسم.

ـ **الثورة الفرنسية**، لحسن جلال.

ـ **صلاح الدين الأيوبي وعصره**، لمحمد فريد أبو حديد، 1927.

ـ **مواقف حاسمة في الإسلام**، لمحمد عبد الله عنان، 1929.

ـ **الإسلام والحضارة العربية**، لمحمد كرد علي (الجزء الأول سنة 1924، والثاني سنة 1936).

ـ **أمراء البيان**، لمحمد كردعلي نفسه، سنة 1937.

إضافة إلى موسوعة أحمد أمين العظيمة في الحضارة فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام إلخ وغير ذلك من المؤلفات التاريخية والفلسفية واللغوية والأدبية التي كانت تشد إليها أنظارنا نحن القراء في المغرب.

ومن الكتب المترجمة التي أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر.

ـ **النجوم في مسالكها**، لجيمس جينس، ترجمة أحمد عبد السلام الكرداني 1933.

ـ **قواعد النقد الأدبي**، للآسيل، ترجمة محمد عوض.

ـ **مرگريت أو غادة الكاميليا أليكساندر ديما ترجمة أحمد زكي (ظهرت الطبعة الثانية سنة 1929).**

ـ **رافايل**، للامارتين، ترجمة أحمد الزيات (ظهرت الطبعة الثالثة سنة 1939).

ـ **عرض تاريخي للفلسفة والعلم**، لوولف، ترجمة محمد عبد الواحد خلاف، 1936.

ـ **مبادىء الفلسفة** لرابابورط، ترجمة أحمد أمين.

ـ **علم الأخلاق**، لأريسطو، ترجمة أحمد لطفي السيد.

ـ **الكون والفساد**، لأريسطو، أيضاً ترجمة أحمد لطفي السيد كذلك 1935.

ـ أسباب الحرب العالمية، لسيدني، ترجمة محمود إبراهيم الدسوقي 1932.

ـ كتاب علم التاريخ، لهيرنشاو، ترجمة عبد الحميد العبادي، 1937.

ـ الديموقراطية، لديليسل بورنس، ترجمة محمد بدران 1938.

ـ السمفونية الريفية، لاندري جيد، ترجمة حسن صادق، 1938.

ـ الأغنياء والفقراء، رديليسل، ترجمة زكي نجيب محمود 1938.

ـ من الأدب التمثيلي اليوناني، ترجمة طه حسين (الطبعة 5 سنة 1939)،

ومن كتب التراث التي حققتها لجنة التأليف والترجمة والنشر:

ـ سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، لأبي عبد الله البكري، تحقيق عبد العزيز الميمني، 1936 (6أجزاء).

ـ الانتصار في الرد على ابن الراوندي، لابن الخياط، بتحقيق نيبي بورج، 1925.

ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، بتحقيق محمد مصطفى زيادة (القسم الأول سنة 1934، والثاني سنة 1936 والثالث سنة 1939).

ـ الروض المعطار، لتقي الدين المقريزي أيضاً، بتحقيق ليڤي بروفسال، 1937.

ـ نسب عدنان وقحطان، لأبي العباس المبرد، بتحقيق عبد العزيز الميمني، 1936.

ـ نقد النثر، لأبي الفرج قدامي ابن جعفر الكاتب البغدادي بتحقيق طه حسين وعبد الحميد العبادي، سنة 1938.

ـ أخبار أبي تمام، لأبي بكر محمد الصولي، تحقيق خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام 1937.

هذه الكتب المحققة لم يكن يضاهيها في الجودة والتدقيق وحسن الإخراج إلا مطبوعات بولاق القديمة، ودار المعارف في عهد ازدهارها.

والجدير بالذكر أن منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بكل أصنافها المذكورة كانت تصل بانتظام وبسرعة فائقة إلى المغرب عموماً، وإلى مدينة سلا هذه بالخصوص. فقد كانت بهذه المدينة مكتبتان متخصصان للكتبيين الخبيرين الشريكين الصديقين، الفقيه العالم محمد بن بوبكر التطواني، والأديب الكاتب مَحمد بن عبد الله الغربي رحمهما الله. كان التطواني كثير التردد على القاهرة يقتني كل جديد ويبعث به إلى مكتبة الغربي بالسوق الكبير بسلا، وكانت على صغرها ملتقى العلماء والأدباء والطلبة من العدوتين. وأذكر أني كنت ـ على صغر سني ـ من زبناء هذه المكتبة، تحتفظ لي في رف عال معين بمجموعة من كل ما تتوصل به من منشورات القاهرة. وأذكر بالمناسبة أن من بين مقتنياتي منها كتاب النجوم في مسالكها المذكور آنفاً من بين مترجمات لجنة التأليف والترجمة والنشر وكنت يومئذ أدرس التوقيت والفلك على محافظ مدينتنا الباشا المرحوم الحاج محمد الصبيحي دراسة نظرية في كتب عتيقة لعبد الرحمان الجادري ومَحمد العلمي الفاسي، فدهشت للطريقة الجديدة في هذا الكتاب، وسبل التعرف على مجموعات الكواكب الموصوفة بدقة بل والمعدودة والمموضعة ـ كما يقولون ـ في خريطة القبة السماوية حتى لكأنك تسير بينها وتنتقل من مجموعة إلى أخرى. أما سلسلة أحمد أمين الحضارية، فكنا نترقب صدور أجزائها المتلاحقة بشوق كبير منذ قرأنا الجزء الأول من فجر الإسلام، وكان أستاذنا المرحوم زين العابدين ابن عبود أحرصنا على السبق للاطلاع على ما يجد منها، وعرض مادتها خلال دروسه الخاصة بالمدرسة، أو في دروسه العامة في تفسير القرآن الكريم بالمسجد الأعظم بسلا.

ثم دار الزمان دورته وجاءت الحرب العالمية الثانية لتقلب الأوضاع وتفتح للعالم عهداً جديداً بعد فترة توقف وترقب، فكانت الأربعينات وبداية الخمسينات بالنسبة للمغرب فترة كفاح سياسي مرير تلتها فترة الاستقلال ومشاغل بناء الاستقلال، وغابت عنا أو ضعفت على الأقل أصداء الثقافة في

مصر وضمنها نشاط لجنة التأليف والترجمة والنشر، إلا ما تحمله قصاصات الأنباء من تساقط تلك القمم وتلاحقها بالدار الآخرة. . .

فماذا يا ترى فعل الخلف في تراث السلف؟ وما دور اللجنة في إصدارات القاهرة الجديدة؟ إن ما نقرؤه من حين لآخر في الصحف والدوريات غير مريح على العموم، لا سيما ما طالعتنا به مجلة الهلال في عدد فبراير الأخير مما ينبيء بنوع من الفتور والتشتت: إدماج دار الكتب المصرية مع دار التوثيق سنة 1961 لتصبح دار الكتب والوثائق القومية»، ثم أدمجت في هذه الدار الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ولا أدري ما علاقة هذه الهيئة بلجنة التأليف والترجمة والنشر ليصبح الجميع في النهاية: «الهيئة المصرية العامة للكتاب».

أما عن التجربة المغربية في ميدان التأليف والترجمة والنشر، فهي تشبه إلى حد ما التجربة المصرية، لا سيما في خطواتها الأولى. فقد كان لنهضة القرن التاسع عشر في مصر والأعمال الإيجابية الكبرى لمحمد علي ومن أتى بعده من رجال الإصلاح، صداها الطيب في المغرب الأقصى، حيث أخذت بوادر الإصلاح تبدو في عهد السلطانين المولى سليمان والمولى عبد الرحمان وتمتنت صلات المغرب بمصر في المرحلة الثانية للنهضة أيام الخديوي إسماعيل، ابتداء من عام (1280/ 1863)، فنجد السلطان محمد بن عبد الرحمان يستعين بمصر إلى جانب أوروبا في إدخال الإصلاحات الضرورية إلى المغرب، وتحتفظ دور الوثائق بمراسلات بين هذين العاهلين، يعرف منها وجود بعثة مغربية بمصر من بين أفرادها متعلم لفن الطباعة، واتسع نطاق إيفاد الطلبة المغاربة إلى أيام الحسن الأول. وكان من بين خريجي الجامعة المصرية، الطبيب المغربي عبد السلام العلمي صاحب التآليف المشهورة المنشورة.

أعطت حركة الإصلاح في المغرب ثمارها، فتطور التعليم وأخذت دراسة الحساب والهندسة والفلك مكانتها في فاس وطنجة، وبدأت بوادر الترجمة بتعريب كتاب الفلكي الفرنسي جوزيف جيروم لالاند: الجامع المقرب، النافع المعرب سنة 1268/ 1852، تلته ترجمات عديدة لمترجمين معروفين وآخرين لم يذكر اسمهم، كما قام المتخرجون من البعثات التعليمية باختراعات فلكية

وطبية وغيرها، وأدخلت أول مطبعة عربية حجرية للمغرب عام 1281/ 1864 حُملت من الشرق وجاء معها طابع مصري عهد إليه بتسييرها. وتعددت المطابع الحجرية بالمغرب وتكاثر عدد الطبيعين ونشرت مئات الكتب التراثية والمؤلفات المبتكرة لا سيما بعد أن تطورت الطباعة المغربية بدخول المطابع السلكية منذ سنة 1327/ 1909.

ثم فرضت الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912 فكانت أكبر جناية عليه، عطلت جميع مرافق الحياة الثقافية، وقضت بكيفية جذرية على نتائج الإصلاح. حقاً إن مصر عرفت أيضاً الاحتلال الانجليزي سنة 1882، لكن هناك فرق كبير بين الاستعمارين، فالجامعة المصرية أنشئت في عهد الاحتلال، بينما لم يكن الفرنسيون يسمحون حتى بفتح الكتاتيب القرآنية بالبادية، بل يحاربونها ويغلقونها في محاولة تجهيل هذه البلاد وفرنستها وتمسيحها.

ضيعت الحماية على المغرب إذن أربعاً وأربعين سنة، فوجد نفسه في سنة 1956/1375 مضطراً لربط خيوط الاتصال بسنة 1912/1331، من إحياء معالم الدولة، والأمن والجيش إلى بناء الاقتصاد والعلوم والثقافة.

تأسست جامعة محمد الخامس بالرباط بعد الاستقلال مباشرة، وتوالى نشاء الجامعات فأصبحت اليوم تسعاً علاوة على جامعة القرويين الأصيلة وفروعها، وتكاثرت المعاهد العلمية والتقنية، وأعطى كل ذلك إنتاجاً ضخماً في ميدان التأليف والترجمة والنشر.

على غرار لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرية، تأسست بالرباط سنة 1980/1400 الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، وكان عدد أعضائها في البداية عشرة، فأصبح اليوم نيفاً وسبعين أستاذاً من مختلف الجامعات المغربية، ونص قانونها الأساسي في الفصل الثاني على أن الجمعية تعمل لتنشيط حركة التأليف والترجمة والنشر بالمغرب على مستوى علمي لائق في العلوم الإنسانية والقانونية والاجتماعية وغيرها، والتعريف بالتراث المغربي عن طريق التحقيق والنشر. كما نص الفصل الرابع على أن من شرط العضو المنتسب للجمعية أن

يكون جامعياً سبق له أن نشر كتاباً على الأقل من تأليفه أو ترجمته أو تحقيقه.
واعترف بالجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر كمؤسسة ذات نفع عام بتاريخ 10 يناير 1984. وسنضرب صفحاً عن الجانب الإداري لنشير فقط إلى المنجزات العملية. ويمكن تلخيص الأهداف الأساسية للجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر في ثلاث نقط:

- نشر كتب من المستوى الجامعي الذي لا يقبل عليه عادة الناشرون التجار، وهي من تأليف أعضاء الجمعية أساساً، أو ترجمتهم وتحقيقهم.

- إصدار مجلة بيبليوغرافية نقدية تغطي سنوياً الإنتاج المغربي في ميدان الكتب والمجلات والرسائل والأطروحات.

- إصدار معلمة المغرب، وهي موسوعة ألف بائية تهتم بكل ما يتعلق بالمغرب الأقصى من طبيعة الأرض والتضاريس، والثروات المعدنية والغابوية والنباتية والحيوانية، والسكان والعمران، والأنشطة الإنتاجية الكبرى، والتاريخ والتفاعل مع العالم، والمؤسسات والنظم الحضارية في الماضي والحاضر: السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والتيارات والمذاهب، والعلوم والمهارات الكبرى.

هذه المعلمة التي يقدر خروجها في عشرين جزءاً صدر منها لحد الآن أربعة أجزاء، وسيصدر الجزءان الخامس والسادس في نهاية السنة الجارية 1992. وأعترف بأنها استأثرت ـ وما زالت تستأثر لبضع سنوات أخرى ـ بأكبر جهود الجمعية، على حساب المجلة والمنشورات الأخرى. لكن كيفما كان الحال فإنها عمل محدود في الزمن ينتهي يوم تصدر مواد الهاء والواو والياء في الجزء العشرين.

مجلة الكتاب المغربي صدر العدد الأول منها في مارس 1983 وما زالت تصدر ولو بشيء من البطء والتقطع في السنوات الثلاث الأخيرة.

أما منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر فبلغت لحد الآن نحو أربعين عنواناً ما بين مؤلف ومحقق ومترجم. نذكر من المؤلفات:

ـ تاريخ سبتة لمحمد ابن تاويت، 1982.

ـ كتاب المغرب، للصديق ابن العربي 1984.

ـ الوظائف التداولية في اللغة العربية، لأحمد المتوكل، 1985.

ـ معجم المعاجم، لأحمد الشرقاوي إقبال 1987.

ـ ما جاء في الضب عند العرب، لأحمد الشرقاوي إقبال أيضاً 1988.

ـ بانت سعاد، لأحمد الشرقاوي إقبال كذلك 1991.

ـ نشأة المسرح والرياضة في المغرب، لعبد القادر السميحي، 1986.

ـ خيرة، قصة اجتماعية لأحمد بن جلون، 1984.

ـ جنيف والعالم العربي لقاسم الزهيري، 1986.

ـ مع القاضي أبي بكر بن العربي، لسعيد أعراب 1987.

ـ القراء والقراءات بالمغرب، لسعيد أعراب أيضاً 1990.

ومن المنشورات التي حققتها الجمعية:

ـ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، لمحمد بن الطيب القادري في أربعة أجزاء، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق 1977 ـ 1986.

ـ المحاضرات في الأدب واللغة، للحسن اليوسي، ـ في جزءين ـ تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، ظهرت الطبعة الثانية سنة 1982.

ـ فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، لأبي بكر الولاتي، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد حجي 1981.

ـ ثبت أبي جعفر البلوي الوادي آشي، تحقيق عبد الله العمراني 1983.

ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ قسم الموحدين ـ لابن عذاري المراكشي تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد بن تاويت، ومحمد زنيبر، وعبد القادر زمامة 1985.

ـ ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضرموت، ليوسف بن عابد الإدريسي تحقيق أمين توفيق الطيبي، 1988.

ومن مترجمات الجمعية:

ـ وصف إفريقيا: للحسن الوزان المعروف بليون الأفريقي، في جزءين، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، صدرت الطبعة الثالثة سنة 1988.

ـ إفريقيا، لمارمول كربخال، في ثلاثة أجزاء، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون (1984 ـ 1989).

ـ فاس قبل الحماية لروجي لوطورنو ـ في جزءين ـ ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر 1986.

ـ تاريخ الشرفاء، لدييگو ديطوريس، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر 1989.

ـ رحلة الأسير الفرنسي مويط، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر 1991.

وعندنا تحت الطبع كتاب يضم نصوصاً إفريقية ولاتينية تتعلق بتاريخ المغرب القديم، ترجمها إلى العربية مصطفى مولاي رشيد، وكتاب الشيخ عبد القادر الجيلالي لمحمد علي العيني التركي، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر.

إن اختيار جمعيتنا لعنوان التأليف والترجمة والنشر ليدل من جهة على تقديرنا لجهود رواد مصر الأفذاذ أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر الذين غذوا العقول وطوروا الأفكار لا في مصر وحدها، ولكن في العالم العربي كله، ويؤكد من جهة أخرى رغبتنا الصادقة في مواصلة السير على نفس النهج، والتعاون الصادق في إطار التكامل الثقافي والفني بين مصر والمغرب.

برامج وكتب دراسة التاريخ بالمدارس المغربية(*)

إذا كانت أكثر العروض المقدمة إلى هذه الندوة تتعلق بميدان البحث التاريخي وتعنى بمختلف جوانبه الحيوية، فإني سأنصرف إلى الناحية التطبيقية، ناحية تدريس التاريخ. غير أني لن أتحدث عن هذه المادة في الطورين الابتدائي والعالي لأركز الكلام في المرحلة الثانوية. وإذا كان الحديث عن تدريس التاريخ يقتضي الخوض في المناهج والكتب المدرسية كما يتطلب البحث في الأهداف العامة وطرق التدريس وتكوين الأساتذة ووسائل الإيضاح، فإني سأهتم فقط ـ لضيق الوقت ـ بالنقطة الأولى وإن أشرت إلى غيرها إشارات عابرة تدعو إليها الحاجة.

فالمناهج ـ وهي بالطبع لا ترادف البرامج وليست مجرد قوائم للموضوعات ـ ، عبارة عن اختيارات وإرشادات تحدد الأهداف من تدريس مادة ما، وتمهد السبل الكفيلة بالوصول إلى تلك الأهداف. ولعل من حسن الحظ أن تكون مناهج التاريخ عندنا اليوم في طور التجديد والتنقيح. فوزارة التربية الوطنية قد طرحت للمناقشة منذ بضعة أشهر مشروع منهاج جديد لتدريس التاريخ في المدارس الثانوية. وأظن أن من واجب الندوة التي تضم طائفة من المهتمين بالتاريخ أن تولي جانباً من اهتمامها إلى هذه الناحية الحيوية، لتوازن أعمالها وتعنى إلى جانب التعرف على تاريخ المغرب بالتعريف به وتبليغه إلى أبنائنا في المدارس بطرق سليمة. ستتعرف أولاً على مناهجنا الحالية لمادة التاريخ لنلاحظ المآخذ التي دفعت بالوزارة إلى العمل على استبدالها، ثم

(*) عرض ألقي في ندوة حول «البحث التاريخي بالمغرب» في كلية الآداب بالرباط، ونشر بمجلة البحث العلمي، عدد 10، أبريل 1967.

نستعرض مشروع المناهج الجديدة لندرك ما إذا كان فعلاً قد تفادى تلك المآخذ، قبل أن نلقي نظرة خاطفة على أساليب المناهج التاريخية في الشرق والغرب.

مناهج التاريخ اليوم في مدارسنا متنوعة تنوع صنوف التعليم: الأصلي، والرسمي، والحر، تختلف في المادة، فتكتسي طابعاً قديماً وشرقياً في المعاهد الأصلية، وطابعاً حديثاً وعربياً في المدارس الرسمية والحرة. كما تختلف في لغة التلقين، حيث يدرس التاريخ عموماً باللغة العربية في التعليمين الأصلي والحر، وبينما يفصل تاريخ الإسلام في المدارس الرسمية ليلقن بالعربية ويبقى التاريخ العام من جملة المواد الملقنة بالفرنسية. أول ما نلاحظ في الهيكل الخارجي للمناهج الحالية هو التعدد، تعدد في المادة وفي لغة التلقين، وبالتالي تعدد في التكوين المفضي إلى إخراج مواطنين غير متجانسين ثقافة ولغة. لكن ما دام المغرب قد قرر مبدأي التوحيد والتعريب في التعليم فإن مصير ذلك الاختلاف إلى زوال. وإذا نفذنا إلى صلب المناهج الحالية ألفينا الأصلية منها تتميز بقلة التنسيق وتفرط في العناية بالجانب الإسلامي والعربي على حساب التاريخ العام، ففي السنة الأولى تقرر إلى جانب دراسة عصري ما قبل التاريخ والحضارات الشرقية القديمة بتفصيل واستقراء، وحضارة اليونان والرومان، تاريخ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين. وفي السنة الثانية يدرس تاريخ العالم الإسلامي كله في نحو تسعة قرون، ويشمل تاريخ الأمويين والعباسيين في الشرق، ودول المغرب من الأدارسة حتى نهاية المرينيين، وتاريخ الأندلس من مبتداه إلى منتهاه، والمماليك في مصر، والحفصيين في تونس والزيانيين في تلمسان. وتخصص خمسة دروس من جملة 56 للممالك الإفرنجية والجرمانية ومدنية أوربا في القرون الوسطى مع الإشارة إلى أن هذا كل ما يدرسه التلاميذ عن أوربا هذه العصور - وتبتدىء في السنة الثالثة دراسة العصور الحديثة من مبدأ النهضة الأوربية حتى نهاية القرن الثامن عشر. وإذا كان التلاميذ يدرسون في نفس الوقت تاريخ الإسلام والمغرب لتلك الفترة فإن المنهاج لم يحكم الربط بين تلك الموضوعات لإظهار التفاعل

والتكامل بينها. وتأتي السنة الرابعة بنفس الأسلوب على بقية السلسلة التاريخية في القرنين التاسع عشر والعشرين. فلا يبقى للمرحلتين الأخيرتين سوى التكرار: تختص السنة الخامسة بإعادة تاريخ إفريقيا الشمالية عموماً من أقدم العصور وتاريخ المغرب خصوصاً من عصر الإدارسة حتى يومنا هذا، وتدرس في سنة البكالوريا الحضارة الإسلامية من نظم إدارية ومالية وعلوم وآداب وفنون.

أظن أننا في غنى عن بيان ضعف هذا المنهاج الذي لم يقدم لتلاميذ التعليم الأصلي عن التأريخ الأجنبي سوى معلومات هزيلة جداً لا سيما فيما يتعلق بما قبل العصور الحديثة، وعن التاريخ القومي غير نظرات عجلى تستعرض حقباً شاسعة في بعض السنوات، لتكرر بنفس الأبعاد في سنوات أخرى دون أن يعنى بالتركيز على عصر من العصور، أو يعطي نظرة شاملة متكاملة عن مختلف مظاهر الحضارة الإسلامية والمغربية.

أما مناهج التأريخ الحالية في التعليم الرسمي فإن أخطر عيوبها ما سبق أن أشرنا إليه من فصل تاريخ الإسلام عن التاريخ العام مما لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يعرض أستاذ التاريخ عن كل ما له مساس بالإسلام فتختل دروسه ويفقد عنصراً هاماً لا غنى له عنه، وإما أن يتطرق إلى المواضيع الإسلامية ـ من قريب أو من بعيد ـ فيكون في ذلك تكرار لا طائل تحته، وإضاعة للوقت والمجهود والمال. وبخصوص مناهج التاريخ العام في المدارس الرسمية لا نجد وصفاً لها أوجز وأصدق مما جاء في مذكرة إدارة النشاط المدرسي بوزارة التربية الوطنية (رقم 176 بتاريخ 12 ـ 10 ـ 1965) من أنها «مجرد ترجمة مغربية لمناهج أوربية». ففي السنة الأولى المخصصة لدراسة التاريخ القديم، تولى أكبر الأهمية إلى الحضارتين اليونانية والرومانية، في حين يبقى حظ الحضارات الشرقية القديمة ضئيلاً. ويحشر في نفس السنة تاريخ العصور الإسلامية الزاهية أيام الأمويين والعباسيين في الشرق، والمرابطين والموحدين في الغرب. وفي السنة الثانية تكرر بعض الموضوعات الإسلامية ـ المغربية الداخلة في نطاق العصر المدروس: ـ القرن 14 بداية القرن 19 ـ . إلى جانب

تفاصيل تأريخ الغرب، وفرنسا بصفة خاصة. وذلك ما يقع أيضاً في السنة الثالثة التي تدرس الفترة المبتدئة بسنة 1815 حتى يومنا هذا. وتشتمل شعبتها الأدبية على 9 دروس لتأريخ البلاد الإسلامية و 39 درساً للتأريخ الأوربي. ثم تكرر دراسة العصور الحديثة في الطور الثاني، فتختص السنة الرابعة بالقرنين 17 و18 وتكاد تتمحض لتاريخ أروبا والثورة الفرنسية وسوابقها وذيولها، باستثناء سبعة دروس ـ من مجموع 36 ـ تلقي نظرة على تدهور الحالة في المغرب أواخر السعديين، وقيام الدولة العلوية. وتدرس في السنة الخامسة الفترة الواقعة بين 1815 ـ 1914 وتسهب كسابقتها في التأريخ الغربي غير تاركة لإفريقيا وآسيا سوى 9 دروس ـ من مجموع 38 ـ ويتناول قسم البكالوريا التاريخ المعاصر (1914 ـ 1960) وهو وإن اشتمل على كثير من المسائل العامة والتطورات التي أعقبت الحربين العالميتين فإن أكثر من نصف المنهاج يبقى خاصاً بالغرب.

هذا بإجمال مضمون المناهج الحالية للتأريخ في المدارس الثانوية المغربية. وهي مناهج ـ كما عرفنا ـ تأكد لوزارة التربية الوطنية عدم ملاءمتها للواقع المغربي، فعزمت على استبدالها بأخرى تكون أكثر صلاحية واستجابة للمتطلبات الوطنية. وبين أيدينا مشروع مناهج جديدة أعدته لجنة شكلت لهذا الغرض ـ سبق أن وزع في جلسة أخيرة على أعضاء جمعية تاريخ المغرب ـ سنحاول بكل موضوعية وتجرد أن ننقده لندرك مدى نجاحه في تلافي العيوب القديمة.

أول المآخذ على النهج القديم ـ أعني الجاري به العمل والذي يراد استبداله ـ هو فصله تأريخ الإسلام عن التأريخ العام. وهذا ما لم يتجنبه ـ للأسف ـ المشروع الجديد.

ويبدو أن المشكل قد طرح على بساط البحث داخل اللجنة وكان موضوع أخذ ورد. فنحن نقرأ في المشروع أن بعض الأساتذة من المغاربة والفرنسيين اقترحوا حذف تاريخ الإسلام نهائياً من منهج التاريخ العام ما دام يدرس في إطار التاريخ الديني لكن الرأي قر أخيراً على إبقاء ما كان حتى لا تحرف صورة التاريخ العام. وهنا نبدي الملاحظات التالية:

أولاً: يقر المشروع الجديد فصل التأريخ الإسلامي عن التأريخ العام، بعد أن اتضح ما ينطوي عليه من تعارض مع طبيعة التاريخ، وما يحتوي عليه من تكرار غير مجد، يثقل كاهل التلاميذ والميزانية بدلاً من التخفيف عنهما.

ثانياً: يتسبب هذا الازدواج في تدريس تأريخ الإسلام إلى تشويش أفكار التلاميذ حينما يدرسون نفس الموضوع على أستاذين يختلفان لغة وعقيدة وذهنية: مسلم يتخلق بالمبادىء الدينية ويومن بها، ومسيحي أو لا ديني يجهل روح الإسلام وتعاليمه. ويبدو أن هذا أيضاً كان موضوع نقاش في حظيرة اللجنة لكنها اكتفت بنصح الأساتذة الشبان الذين يجهلون بعض مظاهر الإسلام أن يتداركوا هذا النقص الذي لا يليق بهم، بل رأت في إسناد تدريس تأريخ الإسلام إليهم عاملاً يساعدهم على تلافي ذلك النقص!.

ثالثاً: يتحدث المشروع عن تاريخ الإسلام بأنه يدرس في إطار التأريخ الديني. والواقع أن ما فصل ليدرس تحت عنوان (تاريخ الإسلام) ليس له في الغالب أية علاقة بالدين. فإذا استثنينا منهج السنة الأولى الذي يتحدث عن حياة الرسول والخلفاء الراشدين إلى جانب تاريخ العرب في الجاهلية والعصر الأموي، نجد السنوات الأخرى تدرس بالتوالي الخلافة العباسية، والنفوذ التركي والبويهي والسلجوقي والمغولي، وتاريخ المغرب أيام الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين، وعلى عهد الدول الإدريسية والمرابطية والموحدية وما بعدها حتى اليوم. ثم المراكز الحضارية ونظام المجتمع والحكم والعمران والأسفار وطرق المواصلات، والحياة الاقتصادية من فلاحة وتجارة وصناعة، والحياة العلمية بما فيها العلوم الدخيلة من طب وفلك ومنطق الخ.. فأين الدين من أغلبية هذه الموضوعات؟ وكيف يمكن فصلها وإفرادها، وميدانها قلب العالم، وتفاعلها ظاهر مع كل الحضارات التي عاصرتها؟!

أما ثاني المآخذ على المنهج التاريخي الحالي الذي يراد استبداله فهو اصطباغه بالصبغة الأجنبية حتى لكأنه ترجمة مغربية لبرنامج أوربي كما ورد في مذكرة الوزارة. لننظر ما فعل مشروع المنهج الجديد في هذا الباب. فيما يخص

التاريخ القديم الذي يدرس في السنة الأولى نجد الاهتمام ما يزال مركزاً على الحضارتين اليونانية والرومانية التين نالتا 18 درساً من مجموع 30. والباقي عولج فيه عصر ما قبل التاريخ والحضارات الشرقية المصرية والعبرية والفينيقية والقرطاجنية والإيرانية وبلاد الرافدين. أو ليست الصبغة الأوربية ما تزال ظاهرة بل ناصعة أكثر في مشروع المنهاج؟ أو لم يكن من المعقول أن يعكس الأمر فيعطي الحظ الأوفر للحضارات الشرقية لا باعتبارها أصل الحضارات القديمة وأهمها فحسب، ولكن أيضاً لأن المنهج معدّ لأبناء المغاربة الذين تربطهم بالشرق روابط الجنس واللغة والدين والماضي المشترك والآمال الموحدة مهما ظهرت عليها أعراض التفرقة الزائلة. والعجيب أن يقترح المشروع ذلك في الوقت الذي أخذ الأوربيون أنفسهم يراجعون موقفهم من التاريخ القديم، ولا يستنكف بعض المنصفين منهم من الاعتراف بخطأ تعصبهم القديم لليونان والرومان. فهذا ول ديورانت الإنجليزي يقول في مقدمة كتابه **قصة الحضارة**: إن قصتنا قصة تبدأ بالشرق، لا لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدنية معروفة لنا فحسب، بل كذلك لأن تلك المدنيات كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التي ظن «سير هنري مين» خطأ أنها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث. فسيدهشنا أن نعلم كم مخترعاً من ألزم مخترعاتنا لحياتنا، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي، ومما لدينا من علوم وآداب، وما لنا من فلسفة ودين، يرتد إلى مصر والشرق... نرى أن التعصب الإقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان، وتلخص آسيا كلها في سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقاً ذريعاً في تصوير الواقع، ونقصاً فاضحاً في ذكائنا». (**قصة الحضارة** ج: 1: ط. القاهرة 1949).

هذا ولا تقتصر الصبغة الغربية على ذلك بل تعم سائر المراحل التاريخية. فمشروع المنهاج وإن أحسن في تخصيص السنة الأولى للتاريخ القديم، وحذف الذيل الذي كان قد حشر فيه تاريخ الإسلام والمغرب في ستة قرون. ليدرس في السنة الثانية إلى جانب تاريخ العالم الغربي الإقطاعي (القرن 6 ـ 11 للميلاد)

فإننا مع استئثار تاريخنا بأكثر من نصف الدروس نلاحظ في حقه إجحافاً كثيراً، إذ أن هذه الفترة إن كانت لا تمثل بالنسبة لأوربا سوى الفراغ إن لم نقل الظلام والظلم والجهل والفقر. فإنها بالنسبة للإسلام عصر النور والعلم والغنى والمجد. فمن حق الأوربيين إذن أن يختصروا هذه الفترة في تاريخهم. ومن واجبنا نحن العرب المسلمين أن نبرزها ونمططها لا لنعيش على ذكراها ونتملى بأخبارها. ولكن لنتخذها عدة ندرأ بها عن أنفسنا طغيان موجة الحضارة الغربية التي ما فتئت تهدد كياننا وتشككنا في أنفسنا وقيمنا، ولنتخذ منها حافزاً لبناء حاضر سعيد ومستقبل مشرق. ويتجلى مدى تمكن الصبغة الأوربية في منهج السنة الثالثة عندما اضطر واضعو المشروع إلى التخفيف على طلبة الشهادة الثانوية وجعل الدروس 28 بدلاً من 38. فإنهم نقلوا كل ما يتعلق بتاريخ أوربا في القرن 17 إلى برنامج السنة الرابعة، ولم يحاولوا اختصاره أو ضغطه في الشطر الذي احتفظ به لأوربا في السنة الثالثة. وبذلك أصبحت السنة الرابعة تتكون من 16 درساً للبلاد الإسلامية و 8 للحضارات الإفريقية والآسيوية والأمريكية و 20 لتاريخ أوربا، وقل مثل ذلك في السنة الخامسة المخصصة لتاريخ العالم في القرن 19، والسنة السادسة للقرن العشرين.

وإذا أردنا أن نجمل القول في مشروع المنهاج الجديد، نؤكد أنه هذب الموضوعات وأحكم تنسيقها وترتيبها، وأفسح المجال أكثر من ذي قبل للتاريخ القومي. لكنه لم يستطع أن يزيح عنه الصبغة الأوربية التي تطغى عليه ولا أن يصحح الوضع بتوحيد الدراسة التاريخية ووضع تاريخ الإسلام في إطاره الطبيعي ضمن التاريخ العام. وربما تبادر إلى الذهن هنا سؤالان: ما الغرض من دراسة التاريخ؟ وماذا يجب أن يكون حظ التاريخ القومي في المنهج العام؟ لا شك أن الهدف من دراسة التاريخ يختلف باختلاف المراحل الدراسية. فهو إذا كان في التعليم العالي ثقافياً محضاً يعمل على إعطاء الطلاب وقد صاروا شباناً في طور التخصص نظرات شاملة وإكسابهم قدرات تؤهلهم للبحث والتعمق. فإن الحال بخلاف ذلك في الطور الثانوي الذي ما يزال التلاميذ فيه أطفالاً أو مراهقين في أواسط العقد الثاني من أعمارهم. فلا يخرج هدف التاريخ حينئذ

عن الإطار العام للغرض التربوي في المدرسة الثانوية الذي هو إعداد جيل صالح من المواطنين. أي أن منهج التاريخ الثانوي يرمي إلى غرض مزدوج تثقيفي وتربوي يزود التلاميذ بفكرة واضحة عن مدى تطور البشرية وتقدمها عبر التاريخ، ويعرفهم في نفس الوقت بقومهم وبيئتهم ويضع أيديهم على مواطن أمجادهم ليتعرفوا على شخصيتهم في وسط الخضم البشري ويثقوا بها لا يصرفهم عن قوميتهم صارف مهما كانت بوادره براقة خلابة. إن هذا لا يعني مطلقاً تزوير التاريخ ولا ضيق الأفق في فهمه أو تلقينه، لا بالنسبة لتاريخنا ولا بالنسبة للتاريخ الأجنبي. يكفي أن يعرف أبناؤنا ضمن التاريخ الإنساني ماضي قومهم، وهو أعز ماض وأشرفه عبر العصور القديمة والوسيطة. ويدركوا حاضرهم إدراكاً سليماً من وجهة النظر القومي الخالص ليتفهموا الأسباب التي صنعت لهم هذا الحاضر ويفتحوا أعينهم على المستقبل وعلى اختيارات المستقبل. كل هذا لن يتم طبعاً إلا إذا نال التاريخ القومي حظه الكامل في منهج المدرسة الثانوية. ولسنا ـ متى فعلنا ذلك ـ ببدع من أمم الشرق أو الغرب. فالدول العربية كانت قد اتفقت في مؤتمرها الثقافي الأول المنعقد في لبنان 1947 على قدر مشترك من التاريخ في مناهجها وطبق ذلك خلال عشر سنوات، ثم وضعت دراسة مقارنة لهذه المناهج في المؤتمر الثقافي الثالث المنعقد في بغداد 1956 للبحث في تدريس مادتي التاريخ والجغرافيا. فتأكد ضرورة تغليب جانب التاريخ القومي في مناهج الدول العربية مع الاعتدال في دراسة التاريخ الأجنبي، والتحرر من الصبغة الأوربية التي كانت تهيمن عليها طوال عهود الاحتلال أو الانتداب أو الحماية. ولعل من المفيد أن نذكر بأن المغرب قد شارك في هذا المؤتمر الثالث وأسهم في اللجن وإعداد التوصيات التي صادق عليها مجلس الجامعة العربية بمرسوم مؤرخ في 27 أبريل 1958.

ومن جملة توصيات المؤتمر:

1) أن يدرس التاريخ القديم والوسيط للأمة العربة إلى جانب دراسة النهضة الحديثة في أنحاء العالم العربي. . . بحيث يبرز الكيان الحضاري للأمة العربية وتتضح عوامل الوحدة والاستقرار فيه خلال العصور.

2) أن تؤدي الدراسة إلى إظهار ما للأمة العربية من أمجاد وقيم روحية وثقافية وحضارية ذات أثر كبير في تقدم الإنسانية وتطور مدنية العالم وإبراز أثر الشخصية العربية الفذة في شتى ميادين الحضارة الإنسانية.

3) أن يدرس التاريخ العالمي الذي له ارتباط بتاريخ الأمة العربية، وكذلك المشكلات المعاصرة التي تهم البلاد العربية...

والدول الغربية نفسها تسلك نفس السبيل، وتعطي مناهجها الثانوية حظ الأسد للتاريخ القومي. فهذه فرنسا تخصص أكبر قسط في دراسة التاريخ القديم بالقسمين الأولين في الثانوي للحضارتين الإغريقية والرومانية، ثم تبتدىء في دراسة التاريخ الوسيط بذكر أخبار الفرنسيين في بلاد الغال وتستقصي كل ما عرف عنهم وما كان لهم من اتصال مع جيرانهم. ولم تخصص للحضارة العربية التي كانت إذ ذاك ملء سمع الزمن وبصره سوى درس واحد. وفي السنتين الرابعة والثالثة حيث دراسة العصور الحديثة يخص المنهج أكثر المواضيع للتاريخ الداخلي، والباقي للتاريخ الخارجي الذي له علاقة ما بفرنسا. ففي دراسة القرن السابع عشر مثلاً بنص المنهج على ما يأتي:

- إقامة السلطة الملكية بفرنسا، لويس 13 - ريشوليه - مازاران.

- تثبيت التفوق الفرنسي. حرب الثلاثين سنة، معاهدتا ويستفالي وبيرني.

انجلترا والأقاليم المتحدة في القرن 17.

- فرنسا تحت حكم لويس 14 والملكية المطلقة، الحكومة، طبقات المجتمع، الحياة اليومية، السياسة الاقتصادية، كولبير (المصانع، الشركات التجارية الكبرى، المستعمرات). المسائل الدينية، فرنسا عند موت لويس 14.

- الحركة الفكرية في أوربا في القرن 17: الآداب، الفنون، العلوم.

هكذا نرى أن المواضيع لا تخرج عن كونها فرنسية محضة في الغالب، أو لها علاقة وثيقة بفرنسا كما هو الحال في دراسة انجلترا والأقاليم المتحدة والحركة الفكرية الأوربية التي تعد فرنسا عضواً عاملاً فيها. كذلك الحال في

منهج السنة الثالثة حيث يختص نصفه بتاريخ فرنسا الداخلي، في أخبار الثورة والامبراطورية، ويشمل النصف الثاني أخبار فرنسا مع أخبار أخرى لها علاقة بها. وفي السنة الأولى تجزأ المواضيع كذلك جزءين، يختص الأول بتاريخ أوربا فيما بين 1848 ـ 1914 ولفرنسا فيه مكان مرموق، والثاني بتاريخ العالم في نفس الفترة ولفرنسا فيه بالطبع نصيب غير منقوص. وذلك ما نجده أيضاً في منهج قسم البكالوريا الذي يتحدث عن العالم المعاصر.

واسبانيا هي الأخرى تكاد تختص السنوات الأولى في مدراسها الثانوية بالتاريخ القومي بالإضافة إلى بعض المعلومات العامة. وحسب الطريقة الإسبانية التي تعيد تدريس التاريخ من بدايته إلى نهايته نجد منهج السنة الرابعة فما بعدها يبتدىء بدراسة عصور ما قبل التاريخ، فالعصور القديمة ويعطي حينئذ حظاً وافراً للحضارتين الإغريقية والرومانية، ثم لا يكاد يخرج في العصور الوسطى والحديثة عن إسبانيا إلا لما له أوثق الصلات بها. وحتى تاريخ العرب الذين ملكوا إسبانيا ثمانية قرون لم يحظ إلا بإشارات خفيفة. أما السنة التي تسبق المرحلة الجامعية فقد خصص منهجها بأكمله للتاريخ الحديث والمعاصر لإسبانيا وحدها.

وفي انجلترا حيث يتميز النظام الأنكلوسكسوني بإعطاء الأساتذة حرية تحديد الموضوعات، يقرر لهم المنهاج مع ذلك مبادىء يعملون في نطاقها. وينص على أن تتم الدراسة على مراحل في التعليم الثانوي يقسم البرنامج على سنواتها ولا بد من تدريس الموضوعات التالية:

التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والتطور العلمي والأدبي وتطور الفنون وتاريخ النمو الفكري في:

1 ـ تاريخ انجلترا لفترة 871 ـ 1399
لفترة 1399 ـ 1603
لفترة 1603 ـ 1763.

2 ـ تاريخ أوربا من عام 1517 ـ 1763.

وفي مرحلة أخرى تسير الدراسة بنفس الموضوعات مع اختلاف السنوات التاريخية على النحو الآتي:

1 ـ تاريخ انجلترا من عام 1763 ـ 1865
1865 ـ 1955

2 ـ تاريخ أوروبا من عام 1763 ـ 1871
1871 ـ 1954.

وفي المراحل المتأخرة من التعليم الثانوي يترك للطالب حرية الاختيار فيقسم برنامج التاريخ إلى ثلاث مجموعات رئيسية، في داخل كل مجموعة نوعان من الدراسة، وعلى الطالب أن يختار فترة واحدة من خلال كل مجموعة، أي يدرس ثلاث فترات لكن يختار واحدة من كل مجموعة، والمجموعات هي:

المجموعة الأولى: تشمل:

أ ـ تاريخ انجلترا في إحدى الفترات التالية:

من عام 450 ـ 1270
1270 ـ 1529
1529 ـ 1642
1642 ـ 1714
1714 ـ 1832
1815 ـ 1922
1865 ـ 1955

ب ـ تاريخ انجلترا أيضاً في فترة: 1529 ـ 1955.

المجموعة الثانية: تشمل في التاريخ الأوربي ما يأتي:

من عام 395 ـ 1216
1216 ـ 1516
1516 ـ 1661
1610 ـ 1725

1715 ـ 1830

1815 ـ 1923

1871 ـ 1954

ب ـ تاريخ أوربا أيضاً في فترة: 1516 ـ 1954.

وفي السنة النهائية يدرس في مادة التاريخ ما يسمى «بالموضوع الخاص». ويحتوي على ما يأتي:

ـ بريطانيا في عهد الرومان.

ـ عصر الكشوف الجغرافية 1400 ـ 1550.

ـ عصر النهضة في بريطانيا في القرن السادس عشر.

ـ فرنسا في عهد ريشوليو ومازاران.

ـ التطور العلمي والتقني في بريطانيا من 1660 ـ 1760.

علماء بريطانيا وخدماتهم ـ الفنون مع إبراز مجهوداتهم في ميدان الصناعة والزراعة والتعدين والغزل والنسيج وطرق المواصلات ونتائج ذلك من النواحي الاجتماعية والاقتصادية، مع الإشارة إلى بعض جهود الأوربيين في نفس الفترة.

ـ الأحوال الاجتماعية في بريطانيا في النصف الثاني من القرن 18.

ـ أسباب ونتائج الثورة الفرنسية.

ـ تاريخ الولايات المتحدة من 1783 ـ 1865.

ـ تاريخ الامبراطورية البريطانية في عهد الملكة فكتوريا.

ـ تكوين دول الوفاق الثلاثي والتحالف الثلاثي في أوربا.

ـ الأحوال الاجتماعية لبريطانيا في النصف الثاني للقرن 19.

ويدرس بالنسبة للتاريخ الإسلامي في السنوات الأخيرة من مرحلة التعليم الثانوي:

- تاريخ الإسلام في الشرقين الأدنى والأوسط من ظهور الإسلام حتى عام 1258.

- تاريخ الإسلام في إفريقيا، كيف دخل وكيف انتشر.

- تاريخ الإسلام في جنوب شرق آسيا.

أرى أن نكتفي بعرض هذه الملاحظات والنماذج المتنوعة من الشرق والغرب إسهاماً منا في العمل على تجديد مناهج دراسة التاريخ في مدارسنا وتحريرها من الصبغة الأجنبية، وإقامتها على أسس إنسانية وقومية سليمة.

تطور النشر بالمغرب بعد الاستقلال

بدأ النشر في المغرب متواضعاً جداً بعد الاستقلال، إذ كانت الكتب المطبوعة خلال الستينات تعد بالعشرات، ثم تكاثر عدد المطبوعات في السبعينات تبعاً لتكاثر الجامعات والمعاهد العليا، ودخول تجهيزات مطبعية مهمة إلى المغرب في نطاق التجهيز العام الذي عرفته البلاد.

وستنطلق مداخلتي هذه من تجربة خاصة تتصل بإنشاء الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر في مطلع الثمانينات، فقد كان قيام هذه الجمعية أساساً من أجل تنشيط حركة النشر بالمغرب، والعمل على تذليل العقبات أمام الكتب الثقافية التي لم يكن الناشرون يقبلون عليها بسهولة بعد تجربتهم المحدودة السابقة التي لم تكن مشجعة. وكان لعدد من أعضاء الجمعية المؤسسين كتب تنتظر الطبع، بعضها رسائل وأطروحات جامعية، وبعضها مؤلفات حرة أو مترجمات أو نصوص محققة.

وإلى جانب هذا الاهتمام، شغل بال أعضاء الجمعية بإلحاح جانب التعريف بالمنشورات المغربية في الداخل والخارج. فكنا نلاحظ أن الكتاب يصدر في الرباط أو الدار البيضاء مثلاً فلا يطلع عليها أهل مراكش أو أكادير أو وجدة، لأن الإعلان عن صدوره في الصحف مكلِّف، ولم يكن الإعلام الثقافي أخذ طريقه بعد. كما كنا نلاحظ بمرارة أكثر، عندما نحضر ندوات أو مؤتمرات في الخارج، جهلاً تاماً بالحركة الثقافية بالمغرب وما يجد فيه من منشورات يهم المثقفين الاطلاع عليها، فكان ذلك مدعاة لإصدار حولية الكتاب المغربي التي غطى أول عدد منها ما نشر بالمغرب من كتب ومجلات خلال سنة 1982.

اشتمل العدد الأول من مجلة الكتاب المغربي على قرابة مائتي كتاب ومائة

مجلة. وقد صنفت الكتب حسب الطريقة العشرية الدولية، وأُثبت لكل كتاب معلومات تقنية تشتمل على مكان الصدور، والناشر، والسنة، والمقاس وعدد الصفحات. وتتابع مجلة الكتاب المغربي صدورها كل سنة بنفس الطريقة تقريباً إلى سنة 1987 حيث أصبحت المجلة تصدر ثلاثة أعداد في السنة، واحد خاص بالكتب، وثان بالمجلات، وثالث بالأطروحات والرسائل الجامعية.

فما هي حصيلة النشر ومدى تطوره خلال الثمانينات؟ وهل يمكن ،ء بار ما تأتي به مجلة الكتاب المغربي إحصاء سنوياً حقيقياً للمنشورات ا مغربيه؟ وهل هناك جهة رسمية تقوم بعملية الإحصاء؟.

للإجابة عن السؤال الأول نشير إلى أن عدد المنشورات يتصاعد من سنة إلى أخرى خلال الثمانينات ـ حسب حولية الكتاب المغربي ـ ولو أن الزيادة تلاحظ في القطاع الأدبي أكثر منها في القطاع العلمي. كما أن عدداً من المجلات تتوقف من حين لآخر لأسباب مختلفة، فيستأنف بعضها الصدور بتقطع، وتختفي أخرى بصورة نهائية. لكن مع ذلك يبقى عدد المجلات الصادرة كل سنة أكثر من سابقتها بسبب المجلات الجديدة. وكدليل على ذلك نشير إلى أن عدد المجلات الصادرة خلال سنتي 1986 و 1987 بلغ مائة وعشر مجلات.

وعن السؤال الثاني نؤكد أن ما تنشره مجلة الكتاب المغربي إنما هو عمل تقريبي ولا يمكن أن يعتبر إحصاء مدققاً نهائياً. فالجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر لا تتوفر لها الوسائل المادية ولا البشرية للقيام بمسح حقيقي لا يبقى ولا يذر. وإنما يجتهد الأعضاء، وكلهم متطوعون، في رصد ما يمكنهم الاطلاع عليه في سوق المكتبات أو في الخزائن الخاصة والعامة. وقد أثرنا انتباه المؤلفين والناشرين غير ما مرة إلى ضرورة بعث نسخة من المنشورات الجديدة إلى المجلة لتعلن عنها بالمجان لكن القليلين هم الذين يلبون هذا النداء. ومع ذلك يمكن الاطمئنان إلى أن معظم ما ينشر في المغرب يذكر في مجلة الكتاب المغربي، ولا يفوتها إلا النزر اليسير.

أما عن السؤال الثالث فإن الجهة المسؤولة عن إحصاء المنشورات المغربية هي وزارة الشؤون الثقافية، عن طريق الخزانة العامة بالرباط، ووسيلتها المشروعة هي الإيداع القانوني الذي يفرض وضع نسخ بالخزانة العامة من كل ما يطبع في البلاد. لكن يبدو أن نص الإيداع القانوني قديم لم يعد كفيلاً بإلزام الناشرين بالتقيد به. فتبقى البيبليوغرافيا الوطنية التي تصدرها الخزانة العامة من حين لآخر تقريبية هي كذلك.

وهناك الإحصاء الدولي العام الذي تصدره اليونيسكو، وتصنف فيه الدول المتقدمة والنامية في مجموعات كبرى. كالإحصاء الأخير عن فترة 1965 ـ 1986 الذي نص على أن الدول المتقدمة التي كانت تصدر سنة 1965 معدل 375 كتاب جديد لكل مليون شخص، أصبحت سنة 1986 تصدر 504 كتاب جديد لكل مليون شخص. بينما الدول النامية التي كانت تصدر سنة 1965 معدل 40 كتاباً لكل مليون شخص، صارت تصدر سنة 1986 ما معدله 58 كتاباً جديداً لكل مليون شخص. وفي نطاق الدول النامية أشارت الإحصائية الأممية إلى أن منطقة الدول العربية عرفت تأخراً في هذه الفترة، إذ كانت سنة 1965 تنتج 38 كتاباً جديداً لكل مليون شخص، فصارت سنة 1986 لا تصدر سوى 36 كتاباً جديداً لكل مليون شخص.

هذه الحصيلة المؤسفة تستدعي مع ذلك ملاحظتين:

أولاً: أن السبب الرئيسي لهذا النقص، فيما يبدو، هو حرب لبنان، أكبر مصدر للكتاب العربي. فقد اضطر عدد غير قليل من الناشرين اللبنانيين إلى تحويل مقر عملهم إلى لندن أو باريس أو قبرص أو غيرها، فيسجل الإحصاء نقص الإنتاج في المنطقة العربية. وإلا فإن نسبة تقدم الكتاب العربي خلال العشرين سنة لا تقل عن النسبة العامة للدول النامية.

ثانياً: أن نسبة إصدار الكتب في المغرب لم تتأخر قطعاً، بل تقدمت بدليل أن المنشورات المغربية التي لم تكن سنة 1982 تصل إلى 200 أصبحت سنة 1986 تنيف على 300 كتاب. ومع ذلك تبقى الهوة شاسعة بين نسبة ما

يصدر في بلادنا وما يصدر في البلاد المتقدمة.

وإذا بحثنا عن أسباب قلة ما يصدر من كتب ومجلات عندنا فإننا نجد في المقدمة:

ـ انتشار الأمية التي ما زالت نسبتها مرتفعة، خاصة في البادية بالرغم عن الجهود التي بذلت لمحوها منذ غداة الاستقلال.

ـ عدم الاهتمام بالقراءة عند أغلبية المتعلمين بسبب ضعف المناهج التعليمية التي اعتمدت دائماً كتباً دراسية مقررة وفق مادة مختارة للتلقين في مختلف أطوار التعليم من المرحلة الأولى حتى البكالوريا، دون أن تـ خل ـي الحساب قراءات حرة للتلاميذ حسب سنهم ودرجة تقدمهم تعتبر جز اً لا يتجزأ من المنهج التعليمي المتبع في المدارس الرسمية والحرة، مع إفساح المجال لكفاءات الكتاب والناشرين للتباري في الإبداع والتنويع والتشويق.

إن من شأن ذلك ـ لو تم ـ أن يحمل الصغار على القراءة والاعتماد على النفس في الإدرك والاختيار، وبالتالي ينشئهم على حب الاستفادة والاستطلاع في الكتب، وبذلك يصبحون قراء وهم كبار، لأن من شب على شيء شاب عليه.

وتنعكس سلبية المناهج التعليمية أول ما تنعكس على المرحلة الجامعية حيث يقتصر الطلبة ـ الغالبية منهم ـ في تهييء الإجازة على محاضرات الأساتذة، فتراهم يعتمدون اعتماداً مطلقاً على الملخصات التي يسجلونها بأنفسهم أو التي تقدم إليهم جاهزة في بعض الكليات، ويتهافتون على استنساخ ما فاتهم منها بواسطة آلات الاستنساخ خاصة عندما يحين وقت الامتحانات، ليحفظوها عن ظهر قلب ويكرروها في أوراق الامتحان. وقليل هم الذين يهتمون بالمراجع التي تقدم إليهم فيقرؤونها ليوسعوا مداركهم ويكونوا شخصيتهم العلمية.

ـ ضعف القدرة الشرائية عند أغلب المهيئين للقراءة من معلمين وموظفين وإضرابهم، خصوصاً وأن تكاليف الحياة اليومية في ارتفاع مستمر لا يواكبه، بل ولا يقاربه، ارتفاع في الأجور. بالإضافة إلى ارتفاع ثمن الكتاب المغربي، وضعف مساعدة الدولة للمنشورات الثقافية...

(4)
شخصيات مغربية

- ابن أبي الربيع السبتي إمام النحاة في زمانه.
- سيدي الإمام السلوي (ابن المجراد)
- الحسن اليوسي اللغوي
- محمد الخامس ونضاله للحفاظ على لغة القرآن
- محمد بن علي الدكالي السلوي مؤرخ العدوتين
- عبد الله كنون والحس التاريخي
- محمد داود التطواني
- محمد إبراهيم الكتاني ومزاياه في التعريف بالمخطوطات
- عبد السلام ابن سودة
- محمد التاودي ابن سودة
- محمد الأخضر
- محمد ابن تاويت التطواني
- محمد زنيبر
- عبد الرحمن القادري.

ابن أبي الربيع السبتي
إمام أهل النحو في زمانه(*)

ولد أبو الحسين عبيد الله بن أحمد ابن أبي الربيع القرشي[2] بإشبيلية في نهاية القرن الهجري السادس، وبها درس النحو على طبقة عالية من نحاة الأندلس، أمثال الأستاذ أبي عمر محمد بن أحمد التميمي، والأستاذ أبي الحسين علي بن جابر المعروف بالدباج، والإمام أبي علي عمر بن محمد المعروف بالشلوبين، وهو عمدته في النحو عموماً وكتاب سيبويه خصوصاً. وتصدر ابن أبي الربيع لتدريس النحو وهو ما يزال غلاماً يافعاً بأمر من شيخه الإمام الشلوبين الذي كان يبعث إليه بصغار الطلبة، حتى استد ساعده واستقامت طريقته. ولما مات الإمام الشلوبين خلفه أنجب تلاميذه أبو الحسين بن أبي

(*) نشر بمجلة المناهل، العدد 22.

(2) ترجم لأبي الحسين بن أبي الربيع:
- ابن قنفذ (أحمد)، شرف الطالب، ألف سنة من الوفيات: ص. 80.
ابن الجزري (محمد)، غاية النهاية، 1.484 ـ 485.
- الأنصاري السبتي (محمد بن القاسم) اختصار الأخبار، عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، نشره الأستاذ محمد بن تاويت بمجلة تطوان، العدد 3 ـ 4، ص 77.
السيوطي (جلال الدين)، بغية الوعاة، 125:2، رقم الترجمة 1606(وقد اختلط الأمر على الشيخ خير الدين الزركلي في الأعلام فجعل رقم ترجمة ابن أبي الربيع في بغية الوعاة هو 319، وهذه ترجمة إشبيلي آخر من أسرة ابن أبي الربيع انتقل إلى الشرق. وتبع الأستاذ الأهواني في البرنامج الشيخ الزركلي في هذا الخلط).
- ابن القاضي (أحمد) درة الحجال، 70:3 ـ 72 رقم الترجمة 990.
- بروكمان (كارل)، الذيل، 547:1.
- الزركلي(خير الدين) الأعلام، 344:4.
- الأهواني (عبد العزيز) كتب برامج العلماء في الأندلس، ص 22 وما بعدها.

الربيع في كراسيه النحوية بالجامع الأعظم بإشبيلية، فأشرأبت إليه الأعناق، واكتظت حلقات دروسه النحوية العالية بالشادين من نحاة الطلبة، إلى أن حم القضاء وسقطت إشبيلية في يد المسيحيين (5 شعبان 646 هـ / 23 نونبر 1248)، فنزح عنها ابن أبي الربيع - في جملة من نزح من العلماء - إلى مدينة سبتة.

وصلة أبي الحسين بن أبي الربيع بمدينة سبتة صلة قديمة وثيقة ترجع إلى عهد الطلب، فقد أخذ عن إمامها الشهير أبي العباس العزفي[1]. ومن حسن حظ علماء إشبيلية أن كانت أيام نكبتهم دولة الأمراء العزفيين العلماء الكرماء قائمة مزدهرة بسبتة وطنجة. فآوى الكثير منهم، وفي جملتهم أبو الحسين بن أبي الربيع، إلى ربوة ذات قرار ومعين، في حمى الأمير العالم أبي القاسم العزفي، ونال ابن أبي الربيع حظوة خاصة عند هذا الأمير وبنيه، وعاش في كنفهم مكفي المؤونة متفرغاً للتدريس والتأليف.

«وكان الذي أعانني على إكماله وتتميمه - يقول ابن أبي الربيع في مقدمة كتابه البسيط - الذي اتفق الأنام على فضله وتقديمه، فخر الزمان، المذكور بكل مكان، المشكور على كل لسان، الذي عمت فضائله، وانتشرت في الورى فواضله، الأفضل الأمجد، والسيد الأوحد، أهل الفضل والوفا، الفقيه الأكمل أبو الوفا، ابن السيد الأمجد، الملك الأنجد، الفقيه الأوحد، الأسني الأفضل أبو القاسم محمد، ابن الإمام العلامة المحدث الراوية أبو العباس أحمد، ابن الفقيه الخطيب، الأكمل الحسيب، أبو عبد الله محمد اللخمي ثم العزفي أدام الله مجدهم، وأبقى سعدهم، وخلد ملكهم...».

«ولم أكن لأتخلص لهذا المرام - يقول ابن أبي الربيع أيضاً في مقدمة كتابه

---

(1) حلاه ابن أبي الربيع في برنامجه (ص. 41 - 42) بقوله: «العالم العامل العلم الأوحد، الورع الفاضل الضابط الناقد المسند، بقية المحدثين أبو العباس أحمد بن محمد... العزفي السبتي» وبعد أن ذكر من روى عنهم الشيخ العزفي وأجازوه - وهم كثير من علماء المغرب والمشرق - قال إن مولده في السابع عشر من رمضان عام 557، ووفاته في رمضان عام 633.

الكافي في الإفصاح ـ ولا أحدث نفسي بالتفرغ لهذا المقام، لما غشيني من صروف الأيام، ودهمني من مقاساة الأنام، لولا جلة الفقهاء، السادة العظماء، الصفوة الكرماء، ذوو الرأي الحازم، والعز القائم، والإحسان الدائم، السيد الأسني أبو حاتم، وشقيقه شقيق الكرم والوفاء، وحليف الفضل والنعماء، السيد الأوفى، أبو الوفا، وصنوه حائز شرف المناقب، السامي في المجد سمو النجم الثاقب، السيد الأسني أبو طالب، بنو الإمام الأوحد، العالم الأمجد، السيد الأرشد، فخر الزمان، المقدم بكل مكان، المشكور على كل لسان، المتورع في أفعاله، المبرز في فعاله، الفقيه العالم المحدث الأكمل أبو القاسم محمد بن الإمام العلامة المحدث الراوية المنفوذ إليه من كل مكان في حياته، الباقي ذكره ما بقي الزمان بعد وفاته، الفقيه العالم السيد أبو العباس أحمد، ابن الفقيه الخطيب، الأكمل الحسيب، أبو عبد الله محمد اللخمي ثم العزفي، أدام الله مجدهم، وأبقى بمنه وكرمه سعدهم. . .».

ثقافة ابن أبي الربيع:

اشتهر أبو الحسين بن أبي الربيع بالتبريز والإمامة في النحو، ومع ذلك كانت ثقافته متنوعة متينة على نموذج ثقافة عصره التي تغلب عليها «المشاركة» في مختلف العلوم النقلية والعقلية، بحيث لم يقل تحصيله لعلوم القرآن والحديث والفقه والأصول والفرائض عن تحصيله في النحو واللغة والأدب، بل نجده يحلى في بعض الكتب بإمام الفرضيين، وترجمه ابن الجزري في طبقات القـراء.

وذكر ابن أبي الربيع في برنامجه[1] أنه درس أربعين كتاباً سماها من أمهات هذه العلوم فضلاً عن أبعاض كتب أخرى لم يذكر أسماءها، قرأها على اثني عشر شيخاً من شيوخ إشبيلية وسبتة وفاس، أجازوه إجازات عامة بأسانيد متصلة بمؤلفي تلك الكتب. ولم تقتصر دراسة ابن أبي الربيع للكتب المذكورة على

(1) برنامج ابن أبي الربيع أو فهرسه، كتبه تلميذه أبو القاسم ابن الشاط السبتي، وقد قدم لهذا البرنامج وحققه ونشره الأستاذ عبد العزيز الأهواني بمجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الأول والثاني، سنة 1955.

مجرد الفهم، بل كان يحفظ بعضها عن ظهر قلب ويعرضه على شيوخه كما يعرض عليهم سور القرآن. ومن جملة محفوظاته: **فصيح ثعلب، وإصلاح المنطق لابن السكيب، والحماسة الأعلمية**[1]، **وأشعار الستة بترتيب الأعلم الشنتمري أيضاً، وأدب الكتاب لابن قتيبة.**

وقرأ أبو الحسين ابن أبي الربيع وحمل، في جملة ما قرأ وحمل، من الأمهات: **كتاب سيبويه**، أخذه عن الإمامين أبي الحسن اللخمي المعروف بالدباج، وأبي علي الأزدي المعروف بالشلوبين، وحمله عنهما بسند متصل بأبي العباس المبرد، عن أبي عثمان المازني، عن أبي الحسن الأخفش، عن المؤلف سيبويه.

وقرأ كتاب **الإيضاح** لأبي علي الفارسي على الإمامين أبي القاسم ابن بقي بن مخلد، وأبي علي الشلوبين، ورواه عنهما بسند متصل بالقاضي أبي بكر بن العربي، عن أبي الفوارس شجاع الذهلي، عن أبي الحسين هلال بن الحسن، عن المؤلف أبي علي الفارسي.

وقرأ كتاب **الجمل** لأبي القاسم الزجاجي، عن الإمامين محمد بن خلفون الأونبي، وأبي علي الشلوبين، وحمله عنهما بسند متصل بأبي الحسن الأنطاكي، عن المؤلف أبي القاسم الزجاجي.

* * *

---

(1) علق الأستاذ عبد العزيز الأهواني على الحماسة الأعلمية (كتب برامج العلماء، ص 30، هامش 3) بما يشعر أن هذه الحماسة إنما هي حماسة أبي تمام، وأن نسبتها إلى لأعلم الشنتمري تجوز وتسامح، قال: «رتب الأعلم الشنتمري ديوان الحماسة حسب القوافي وشرحه شرحاً وافياً حتى نسب إليه فقيل الحماسة الأعلمية» مع أنه نقل بعد ذلك من مقدمة **إيضاح المنهج** ما يفيد بصريح العبارة أن حماسة أبي تمام أصبحت في ذلك العصر مطروحة الاستعمال، حين أخنت هذه الحماسة الأعلمية عليها، باستمالة النفوس إليها... والكل يعلم أن حماسة أبي تمام ليست سوى مجموعة من الأشعار العربية القديمة، وما أكثرها! وأن الشاعر أبا العباس الجراوي المراكشي وضع هو أيضاً حماسة مغربية على نموذج الحماستين المشرقية والأندلسية، سماها صفوة الأدب وديوان العرب.

تآليف ابن أبي الربيع وأسلوبه فيها:

عرفنا أبا الحسين بن أبي الربيع عالماً مشاركاً في مختلف العلوم الشرعية واللسانية والأدبية، إلا أن ما ألفه من كتب يؤكد ما اشتهر به من التخصص في النحو، وليست تآليفه إلا تسجيلاً حياً أميناً للدروس التي ظل يلقيها على طلبة إشبيلية وسبتة طوال زهاء سبعين سنة، كما سنرى عندما نتحدث عن أسلوب هذا الشيخ الكبير. ولقد ذكر بروكلمان أسماء أربعة كتب على أنها كل ما وصل إلينا من تآليف أبي الحسين بن أبي الربيع - حسبما بلغ إليه علمه - وهي **البرنامج** الذي كتبه تلميذه أبو القاسم بن الشاط، **والمختصر في النحو** المخطوط بالأسكوريال، [1] **والقوانين النحوية** المخطوط بالقرويين، **وشرح الإيضاح** المخطوط بالقرويين أيضاً. وفات بروكلمان من تآليف ابن أبي الربيع التي أبقى عليها الدهر كتابه **البسيط**، وهو شرح الجمل للزجاجي المخطوط بالخزانة العامة بالرباط، **وتفسير القرآن الكريم** المخطوط أيضاً بالخزانة العامة، ولم يصل إلينا - للأسف - أهم كتاب ألفه ابن أبي الربيع وهو **شرحه لكتاب سيبويه**، إذ بذكره سارت الركبان في حياة المؤلف وبعد وفاته، ونال إعجاب نحاة المشرق والمغرب على السواء.

هناك ملاحظات عامة عن مؤلفات أبي الحسين بن أبي الربيع وأسلوبه نذكرها قبل أن نأتي بفقرات من كل واحد من مؤلفاته التي اطلعنا عليها، عمدنا لإثباتها هنا لكونها ما تزال كلها مخطوطة وبحالة يتعذر على عامة القراء الانتفاع بها.

أولاً: أن مؤلفات ابن أبي الربيع في مجملها ضخمة، يبلغ بعضها عشرة أجزاء مثل **البسيط** في شرح جمل الزجاجي، ويقدر بعضها بما ينيف عن ثلاثين

---

(1) وقف الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني على السفر الثاني من الملخص في الأسكوريال، رقم 110 وكتب عنه في كناشته أنه يبتدىء من باب الجر، وفي آخره: انتهى السفر الثاني وبكماله كمل جميع الكتاب، كتبه في حياة المؤلف محمد بن عباد بن حيان القرشي المخزومي في الخامس من رمضان عام 683، وبه 119 ورقة، وعليه تملك إبراهيم بن عبد الجبار الفكيكي، وعبد الرحمان اليعقوبي.

جزءاً مثل تفسير القرآن الكريم، في حين لا يوجد منها أو بالأحرى لم نطلع منها إلا على أجزاء قليلة مبعثرة هنا وهناك، ولا شك أن المكتبات العامة والخاصة في الشرق والغرب تحتوي على سائر الأجزاء تامة أو ناقصة أو مكررة، منسوبة إليه أو غير منسوبة. ومن السهل على من يوفقه الله للبحث عن بقايا آثار ابن أبي الربيع وجمع شتاتها أن يكتشفها ويميزها عن غيرها متى عرف أسلوب هذا الرجل وتمرس بطريقته في العرض والشرح والتمثيل.

ثانياً: أن مؤلفات أبي الحسين بن أبي الربيع تصطبغ بصبغة مؤلفات عصر الانحطاط، إذ هي في معظمها شروح لكتب قديمة، لكن من قرأها وأمعن النظر فيها وجدها أقرب إلى مؤلفات عصر الأصالة في القرون الأولى منها إلى كتب المتأخرين، ذلك أن ابن أبي الربيع لا يتقيد في شروحه بألفاظ المتن يؤولها ويوضحها ويمثل لها كما يفعل جمهرة الشراح، وإنما يتخذ المتن كأساس وتصميم لما يكتب، فتراه يبدأ الباب بمقدمة تعطي فكرة عامة عن الموضوع، وترسم خطوطه العريضة ـ كما يقال ـ ثم يشرع في أخذ عبارات المتن واحدة واحدة، سائراً في عرضه حسب التصميم المرسوم، مفصلاً القول في الجزئيات تفصيلاً متناسقاً، لا تشعر معه بلفظ المتن إلا عندما يأتي المؤلف بعبارة «قوله. . .» دونما تقطع في التعبير أو تعثر في السياق. على أن لابن أبي الربيع كتباً مستقلة قائمة بذاتها، مثل القوانين النحوية، وتفسير القرآن الكريم.

ثالثاً: أن أهم ما يمتاز به أسلوب ابن أبي الربيع لهو الوضوح والسلاسة والعفوية، فلا تعقيد ولا غموض ولا سجع ولا تورية ـ في غير المقدمة ـ ولا ما يحتاج إلى شرح أو تعليق أو رجوع إلى مصادر أخرى، بل إن أسلوبه وهو يكتب أسلوب من يتكلم ويخاطب الطلبة ويحاورهم ليرفع عن أذهانهم كل لبس. إن الخبرة المتواضعة التي لنا بطرق التدريس دلتنا على أن أبا الحسين بن أبي الربيع كان حقاً مدرساً موهوباً، يعرف بحكم إحساسه المرهف وتجربته الواسعة، طرق التدريس الناجعة، ويراعي ـ عملياً ـ المبادىء التربوية التي اهتدى إليها بعده ابن خلدون في المقدمة، ويطبق ـ عفوياً ـ النظريات التعليمية الأساسية لتحصيل المعرفة وتكوين الملكة على نحو ما توصل إليه المربون الغربيون

المحدثون. ولا أدل على ذلك من أنه بإمكانك اليوم. وقد مضى على وفاة ابن أبي الربيع أكثر من سبعة قرون، أن تأخذ فصلاً أي فصل من أي كتاب من كتب ابن أبي الربيع وتلقيه على طلبتك في التعليم العالي دون أن تزيد فيه أو تنقص أو تضيف مثالاً أو تغير عبارة، ويكون درسك ناجحا مشوقاً مفهوماً تمام الفهم.

وكأني بأبي الحسين بن أبي الربيع ـ رحمه الله ـ لم يقنعه ذلك العمر الطويل الذي قضاه في التعليم، منقبضاً عن الناس مباعداً أهل الدنيا، فأبى إلا أن يسجل على طروس كتبه دروساً جاهزة نافعة لكل من يقرؤها من الأساتذة والطلبة في كل عصر ومصر، عملاً بالحديث الشريف: **إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له.**

ولنلق الآن نظرة سريعة على ما وقفنا عليه من كتب أبي الحسين ابن أبي الربيع:

البسيط في شرح الجمل الكبيرة للزجاجي[1].

تعني كلمة البسيط هنا: المبسوط، أي المطول، ذلك أن ابن أبي الربيع وضع شروحاً مختلفة في الطول والقصر على جمل الزجاجي أثناء تدريسه لهذا الكتاب الذي يعتقد النحاة بركته وانتفاع الطلبة به[2]، ثم رأى أن يجمعها كلها في شرح واحد مبسوط «يضم ما فيها، ويجمع معانيها ويستوفيها. ولم أمر بلفظ مطلق إلا قيدته، ولا ناقص إلا كملته، ولا مغلق إلا شرحته، ولا اعتراض إلا أزلته، ولا شاهد إلا أوضحته، ولا بيت إلا نسبته، على حسب علمي، ومنتهى

---

(1) ذكر السيوطي في بغية الوعاة أن هذا الشرح يقع في عشرة أجزاء، لم نقف إلا على الجزء الأول منه مخطوطاً في الخزانة «العامة بالرباط، رقم 206 ق منتسخاً عام 735 هـ. وذكر المرحوم محمد العابد الفاسي أن في خزانة القرويين بفاس نسخة ثانية مخطوطة من هذا الجزء منتسخة عام 724، مسجلة تحت رقم 100، لكننا لم نعثر عليها هناك لا تحت هذا الرقم ولا غيره.

(2) ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون (1:603 من طبعة اسطمبوك 1941) أن الجمل من الكتب المباركة، لم يشتغل به أحد إلا انتفع به، ويقال إنه ـ الزجاجي ـ ألفه بمكة المكرمة كان إذا فرغ من باب طاف أسبوعاً ودعا الله سبحانه تعالى أن يغفر له وينفع به قارئه.

فهمي، وسميته البسيط، وتجافيت فيه عن الإفراط والتفريط...»[1].

اشتمل الجزء الأول من البسيط على ستة وعشرين باباً، أولها أقسام الكلام، وآخرها الصفة المشبهة باسم الفاعل. وجاء في التقديم الذي كتبه ابن أبي الربيع لهذا الباب الأخير:

«اعلم أن الصفة على أربعة أقسام:

أحدها اسم الفاعل واسم المفعول، وقد مضى الكلام فيهما، ويجري مجراهما جموعهما وتثنيتهما، وأمثلة المبالغة، وقد مضى الكلام في هذا كله بما حضر لي.

الثاني الصفة المشبهة باسم الفاعل، وهي كل صفة تثنى وتجمع وتذكر وتؤنث، وذلك نحو حسن وكريم وما أشبههما.

وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

أحدها ما يجمع جمع سلامة وجمع تكسير.

الثاني ما يجمع جمع تكسير ولا يجمع جمع سلامة.

الثالث ما يجمع جمع سلامة ولا يجمع جمع تكسير.

فالأول نحو حسن وكريم، تقول مررت برجال حسان وحسنين.

والثاني ما كان نحو أحمر وأشقر وما أشبههما، تقول برجال حمر ولا تقول أحمرين؛ وكذلك تقول مررت برجال شقر ولا تقول برجال أشقرين.

ومن هذا سكران وما أشبهه، وهو كل ما كان على فعلان ومؤنثه فعلى، فإنه لا يجمع بالواو والنون، فلا تقول مررت برجال سكرانين، وإنما يجمع سكران على سكارى ويجمع أيضاً فعلان على فعال، وهو الأكثر فيه، قالوا عطشان وعطاش، ولا تجد فيه جمعاً بالواو والنون، فإن كان المؤنث بالتاء نحو رجل سيفان وامرأة سيفانة جمع المذكر بالواو والنون، والمؤنث بالألف والتاء، فقالوا مررت برجال سيفانين ونساء سيفانات. والسيفان

---

(1) من مقدمة مخطوط البسيط.

الطويل الممشوق، وهذا وما أشبهه هو القسم الثالث.

فما جمع من هذه الصفات بالواو والنون أقوى في العمل مما جمع جمع تكسير لا غير، لأن جمع التكسير لا يكون في الأفعال. وإذا جمع بالواو والنون فقد أشبه الفعل من جهة اللفظ، ألا ترى أنك إذا قلت حسنون فهو بمنزلة يضربون في اللفظ، وإن كان الواو في الفعل مخالفة للواو في الاسم على ما يتبين في باب التثنية والجمع. فإذا قلت مررت برجل حسن أبوه، فهو أقوى من قولك مررت برجل أحمر وجهه، وإن كانا جائزين، وكل واحد منهما عمل بالحمل على اسم الفاعل على ما يتبين.

الثالث أفعل إذا كان بمن، نحو مررت برجل أحسن من عمرو، ومررت برجل أحسن من الزيدين وما أشبه ذلك...».

- الكافي في الإفصاح، عن مسائل الإيضاح، إيضاح أبي علي الفارسي[1].

ألف أبو علي الفارسي - كما هو معلوم - كتاب الإيضاح لأحد تلاميذه من أمراء بني بويه ليقرب إليه مسائل كتاب سيبويه، ومن ثم أقبل عليه الطلبة وعولوا عليه «لاختصاره وبراعة تصنيفه ونظمه، وقربه للمحفظ وتيسير بسطه وفهمه، وكثرة فوائده وتثقيف مسائله مع صغر حجمه، لأن مؤلفه مال فيه إلى الرمز

---

(1) لم نر من حدد عدد أسفار الكافي في الإفصاح ممن ترجموا لابن أبي الربيع، إلا ما ورد في وثيقة التحبيس المكتوبة على وجه الورقة الأولى من الجزء الثاني لهذا الكتاب المحفوظ في خزانة القرويين بفاس أنه يقع في أربعة أسفار. وربما اختلفت تجزئة الكافي باختلاف النسخ، وأمكن تلفيق نسخة كاملة من المخطوطات التالية:
- الجزءان الأول والثاني بخزانة القرويين بفاس، رقم 513، بخط مغربي أندلسي دقيق مشكول جميل أصابهما بعض التلاشي بالأرضة.
- الجزء الثاني بالخزانة الملكية بالرباط رقم 5298 بخط أندلسي جميل، وفيه تلاش أيضاً بالأرضة.
وفي الزاوية الحمزاوية بجبل آيت عياش أجزاء أربعة من مخطوطات هذا الكتاب، وميكروفيلماتها محفوظة بالخزانة العامة بالرباط: الجزء الأول (ورقاته 177) والجزء الثاني (ورقاته 179) رقمهما 17، ورقم الميكروفيلم 18، والجزء الثالث (ورقاته 83) والجزء الرابع (ورقاته 156) ورقمها 41، ورقم الميكروفيلم 43.

والتنكيت، وتجافى عن الإطالة والتشتيت، فعلا بذلك قدره، وانتشر عند أئمة الصنعة ذكره، فمالت الخواطر إليه، واتخذ سلماً للتوصل لفهم نكت سيبويه. . . »[1].

ومما جاء في باب الأشياء التي تذكر وتؤنث بوسط السفر الثاني:

«**الهدى يذكر ويؤنث، قال الله تعالى: ﴿قل ان هدى الله هو الهدى﴾ فهذا يدل على التذكير، وهو المشهور في الهدى، وهو مصدر هديته في الدين، قال الله سبحانه ﴿أوَاجِدُ على النار هدى﴾.**

ثم قال والمتن يذكر ويؤنث. يعقوب[2]: والمتن مذكر وقد يؤنث، فيدل هذا على أن التذكير هو الأكثر. ثم أنشد لأمرىء القيس دليلاً على التذكير:

اليد سابحة والرجل ضارحة   والعين قادحة والمتن ملحوب[3]

قوله ملحوب يدل على التذكير، إذ لو كانت مؤنثة لقال ملحوبة.

ولقائل أن يقول ليس في هذا البيت دليل على التذكير، لأنه يمكن أن يقول إنما قال ملحوب لأن الشاعر اضطر، ويكون بمنزلة: ولا أرض أبقل إبقالها، وهو سهل، والأول أظهر.

وقوله سابحة يريد بذلك سرعتها كما قال:

إذاما السابحات على الونى.

يريد بذلك السريعات من الخيل. وقوله: ضارحة يقال ضرحت الدابة برجلها، ومعنى قادحة بصيرة. وقوله: ضارحة وقادحة وسابحة يدل على تأنيث اليد والرجل والعين.

ومما يدل على تأنيث اليد والرجل قول عنتره:

ويمنعهـــن أن يـــأكلـــن منـــه   حيـــاة يـــد ورجـــل تـــركضـــان

---

(1) من مقدمة الجزء الأول بخزانة القرويين بفاس.

(2) يريد ابن السكيت صاحب إصلاح المنطق.

(3) في لسان العرب:

فالعين قادحة والرجل ضارحة   والقصب مضطمر والمتن ملحوب

وقال تركضان بالتاء. ولو كانا مذكرين أو أحدهما مذكراً لقال يركضان بالياء، لأن المذكر يغلب في الضمائر إذا اجتمعا.

ثم قال ومن التأنيث قوله:

ومتنـــان خظـــاتـــان كـزحلـوف مـن الهضـب

الهضب جمع هضبة. ومعنى خظاتان: كثيرتا اللحم. والتاء تدل على التأنيث والزحلوف والأحلوف: من لعب الصبيان.

ثم قال: القفا. قال الأصمعي: هي مؤنثة وأنكر التذكير. وقال أبو زيد: تذكر وتؤنث، والقفا مذكر وقد تؤنث... فظاهر هذا أن الغالب عليه التذكير، والأصمعي قال لا تكون مذكرة. فعلى هذا الصواب ما قال أبو زيد تذكر وتؤنث ليس أحدهما أكثر من الآخر. وأنشد الفراء على التأنيث:

وما المولى وإن عرضت قفاه بأحمل للمحامد من حماري

ثم قال: والعنق تذكر وتؤنث عن أبي زيد. قال الأصمعي: لا أعرف فيه التأنيث، يعقوب والعنق مؤنثة وقد تذكر...

ثم قال والسلم تذكر وتؤنث.

وأنشد، في التأنيث:

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

والأشهر في السلم على هذا التأنيث لأنها لغة القرآن. قال الله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾، وهي الأكثر في كلام العرب.

ثم قال درع الحديد تذكر وتؤنث، ثعلب: ودرع الحديد مؤنثة، ودرع المرأة مذكر. يعقوب: وهي درع الحديد، والجمع القليل أدرع وأدراع، فإذا كثرت فهي الدروع، ودرع[1] المرأة لقميصها، والجمع أدراع. قال النابغة:

فهم درعي التي استلأمت فيها إلـى يـوم النشـار وهـم مجـن

فالغالب عليها التأنيث، وتصغر بغير تاء، وهي مما شذ من الثلاثي

---

(1) في إصلاح المنطق ص 359: «وهو درع المرأة لقميصها».

المؤنث في التصغير، ثم أنشد قول أوس دليلاً على التذكير:

وأملس صوليا كنهي قوارة   أحس بقاع نفح ريح فأجعلا

أراد درعاً أملس، فلو كان مؤنثاً لقال ملساء. وهذا ليس بدليل قاطع على التذكير لأنه يمكن أن يريد: وملبوساً أملس صولياً، يريد بذلك الدرع، كما تقول رأيت اليوم شخصاً حسناً وأنت تريد جارية، ثم تحذف الموصوف وتقيم الصفة مقامه، فتقول رأيت حسناً أي شخصاً حسناً، والله أعلم. إلا أن المشتهر ما ذكره. والنهي: الغدير، والعرب تشبه الدروع بالغدران. وقوله: أحس بقاع نفح ريح تتميم للتشبيه. وهذا التتميم هو الذي أراد الآخر في قوله:

تنسجه الصبا، والله أعلم. ثم أنشد دليلاً على التأنيث لزهير:

ومفاضة كالنهي تنسجه الصبا   بيضاء كفت فضلها بمهند

الكلام في هذا كالكلام في الأول.

وقول النابغة فهي درعي التي، أدل على التأنيث من هذا، والله أعلم.

وقوله تنسجه الصبا في موضع الحال من النهي، والعامل في الحال التشبيه كأنه قال تشبه النهي في حال أن الصبا تنسجه من أجل الطرق التي تحدث في الماء بالرياح.

وقوله: كفت فضلها بمهند، يريد به قبض، يقال كفت الشيء وكفته إذا قبضه، والكفت: صرف الشيء عن وجهه.

ثم قال: السوق تذكر وتؤنث، والتأنيث أكثر. يعقوب: والسوق مؤنثة وقد تذكر. قال الشاعر:

بسوق كثير ريحه وأعاصره

ثم قال: والصاع يذكر ويؤنث: يعقوب: والصاع مذكر، وقد يؤنث.

والأكثر على هذا التذكير، الزنبري: الصاع والصواع والصوع: مكيال يأخذ أربعة أمداد».

* * *

القوانين النحوية[1]

لم يكتب ابن أبي الربيع مقدمة لهذا الكتاب، وإنما بدأه تواً ـ بعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم ـ بذكر الأحكام النحوية، على نحو ما فعل سيبويه في الكتاب. وتتحد موضوعات القوانين النحوية وكتاب سيبويه أو تتقارب منذ البداية، لكن قارىء القوانين يجد في عبارات ابن أبي الربيع من الشرح وحسن السبك والعرض والاستشهاد والتمثيل ما لا يجده في كتاب سيبويه، الأمر الذي يشجعه على المضي في القراءة ولو لم تكن له تلك الملكة النحوية التي لا يستطيع بدونها قراءة الكتاب والاستفادة منه. وهكذا نقرأ في أول القوانين:

«الكلم جمع كلمة، وهي اللفظة الدالة على معنى، وهي تنقسم ثلاثة أقسام: اسم وفعل وحرف.

فالاسم ما جاز من جهة تصور معناه أن يسند ويسند إليه. وقد يوجد اسماً ما رفضت العرب الإسناد إليه فلا يخرجه ذلك على أن يكون اسماً، لأنك إذا نظرت إلى حقيقته وجدتها لا تضاد الإسناد إليها. ألا ترى أن سبحان من قوله سبحان الله لم تسند إليه العرب ولم تستعمله إلا مصدراً منصوباً بفعل لا يظهر، وإذا نظرت إليه وجدت معناه معنى براءة، فكما يصح الإسناد إلى براءة يصح الإسناد إلى سبحان. وللاسم خواص يعرف بها، منها الألف واللام، والتنوين، والتثنية، والجمع، ودخول حرف الجر، والتصغير، وغير ذلك مما يذكر في أبوابه.

وأما الفعل فما يقتضي من جهة وضعه أن يسند إلى غيره ولا يسند غيره إليه.

---

(1) وقفنا على نسختين من القوانين النحوية:
ـ الأولى مخطوطة خزانة القرويين رقم 512، وتقع في جزء ضخم من الحجم الكبير، بخط مغربي مجوهر ملون، بها نقص في الأخير، إذ تنتهي أثناء باب الادغام.
ـ والثانية مخطوطة الزاوية الحمزاوية بجبل آيت عياش، رقم 15، المصورة على الميكروفيلم بالخزانة العامة بالرباط، رقم 16، وبها بتر كذلك في الأخير، وتنتهي أيضا أثناء الادغام. وقد عنونت هذه المخطوطة ـ خطأ ـ بكتاب الملخص، وظن واضع العنوان ـ خطأ كذلك ـ الملخص شرحاً لكتاب الإيضاح.

وإن جاء فعل قد أسند إليه في اللفظ فهو بالحقيقة مسند إلى الاسم. ألا ترى أن قول العرب تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، كذلك: فخير في اللفظ مسند إلى تسمع، وهو في الحقيقة إلى السماع، وكان قياسه: أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه، كما قال تعال: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾. ثم إن العرب خذفت أن لأنه مثل، والعرب تضع الأمثال... على التغيير كثيراً. ومتى حذفت أن ارتفع الفعل، هذا هو القياس، إلا في مواضع يأتي بيانها في بابها إن شاء الله.

وأما الحرف فكل ما جاء لمعنى في غيره ولا يمكن من جهة وضعه أن يسند ولا يسند إليه. ويأتي الحرف لمعنى في الاسم، ومعنى في الفعل، ورابطاً بين اسمين، ورابطاً بين فعلين، وبين اسم وفعل، ورابطاً بين جملتين...».

تفسير القرون الكريم[1]:

ليس في الجزء الأول من هذا الكتاب مقدمة كذلك، وإنما يبتدىء بإعراب بسم الله الرحمن الرحيم ففاتحة الكتاب. ويؤكد هذا التفسير تخصص أبي الحسين بن أبي الربيع في قواعد اللغة، إذ كله نحو وأعراب، باستثناء قليل من الشرح اللغوي. وهكذا نجد في أوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

ذهب البصريون إلى أن التقدير: ابتدائي باسم الله، فهو عندهم خبر مبتدأ محذوف وذهب الكوفيون إلى أنه في تقدير أبدأ باسم الله. والفعل الذي لا يصل إلا بحرف يضعف حذفه وقد جاء لكنه قليل، وأما جعل المجرور خبر مبتدأ محذوف فكثير.

وجاء بعض المتأخرين وذهب إلى أنه يجوز أن يكون المجرور متعلقاً بفعل تدل عليه الحال، تقديره: أقرأ بهذا، وأكتب بهذا مستعيناً به، ويحذف

---

(1) لم نطلع من هذا التفسير إلاعلى الجزء الأول مخطوطاً بالخزانة العامة بالرباط، رقم 315 ق، حجمه متوسط، وبه نقص في الأخير يمنع من التعرف على اسم الناسخ وتاريخ النسخ.
أنظر محمد العابد الفاسي، قائمة نوادر المخطوطات، ص 12.

الفعل لدلالة الحال عليه. وهذا لا يصح، لأن الحال لا تدل على الفعل حتى يصل بنفسه، لا تقول: بزيد، تريد: مر بزيد، وإن كان معك من الحال ما يدل على ذلك، وتقول لمن أشال سوطاً أو شهر سيفاً: زيداً، على معنى اضرب زيداً، فالحال لا تدل على الفعل حتى يكون الفعل يصل بنفسه، لأن حذف الفعل الواصل بحرف الجر قليل، لأنه ليس بقوة ما يصل بنفسه، ولا يتصرفون في الضعيف تصرفهم في القوي من الإضمار والإظهار. . .».

وينتهي الجزء الأول من التفسير بالآية 128 من سورة البقرة: **﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾**. وربما كان النقص الحاصل في آخر هذا الجزء هو تتمة الحزب الثاني، وبذلك قدرنا أن يكون عدد أجزاء تفسير ابن أبي الربيع ثلاثين، حزبان في كل جزء.

تلاميذ ابن أبي الربيع:

تكاثر عدد الآخذين عن أبي الحسين بن أبي الربيع من الأندلسيين والمغاربة، خاصة في مادة النحو والأمهات التي شرحها، وناهيك برجل قضى عمره الطويل في التدريس «معانا على علمه بما جبل عليه من الانقباض عن الناس، ومباعدة أهل الدنيا، وقلة العيال وشغل البال. منعكفاً على التدريس والتعليم حتى أتاه اليقين»[1].

ولنجتزىء بذكر ثلاثة من تلاميذ أبي الحسين بن أبي الربيع السبتيين، بلغوا درجة علمية عالية، وطارت شهرتهم كل مطار بما خلفوا من تآليف قيمة، وهم:

- أبو القاسم ابن الشاط الأنصاري السبتي (المتوفي عام 723م) مؤلف كتاب **الإشراف على الشرف**، وشارح أنوار البروق للقرافي، ومحرر برنامج شيخه أبي الحسين ابن أبي الربيع قائلاً فيه: «شيخنا الشيخ الجليل الفقيه المقرىء الإمام العالم العلم الأوحد، الفاضل الأورع الأتقى الأزكى الأكمل، قدوة النحاة،

(1) ابن الزبير، صلة الصلة (مخطوط القاهرة) بنقل الأستاذ عبد العزيز الأهواني، كتب برامج العلماء، ص 24.

وأسوة الفراض، أبو الحسين عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن أبي الربيع القرشي الأموي العثماني - أبقى الله بركته - أعلم من لقيناه، وأعظم من روينا عنه العلم ولقناه، وأجل من نظم بين يديه اجتماعنا، وعظم بما لديه انتفاعنا»[1].

- وعبد المهيمن الحضرمي السبتي (المتوفي عام 749) العالم الكبير، والأديب الشاعر، رئيس كتاب بلاط العزفيين أمراء سبتة، وبني الأحمر ملوك غرناطة، والمرينيين ملوك فاس وشمال إفريقيا. وما زال النحو هجيراه كشيخه ابن أبي الربيع حتى قال فيه ابن الأحمر في نثير الجمان: «وأما كتاب سيبويه فكان بمسائله عارفاً، وعلى إقرائه بطول عمره مداوماً وعاكفاً، ولم يكن له في المعرفة به قرين، ولقد تصدر لإقرائه وهو ابن عشرين».

- وأبو عبد الله بن رشيد الفهري السبتي (المتوفي عام 721) المؤلف المكثر، صاحب ملء العيبة التي جمع فيها أخبار رحلتيه إلى الشرق وما أخذه عن المشايخ، وهو شيء كثير، وفيها يقول عن شيخه ابن أبي الربيع مردداً ما وجد له من صدى واسع في المشرق:

«لما وصلت إلى مصر ذهبت إلى مسجدها الأعظم فجلست إلى حلقة من حلق العلم، فوجدت الشيخ يتكلم في علم العربية، فأخذت معهم طرفاً مما كانوا يتكلمون فيه، فالتفت إلي الشيخ فقال: من أين قدومك؟ قلت من الغرب. قال أمن الاسكندرية؟ قلت من أبعد. قال أمن تونس؟ قلت من أبعد. قال: إذن من جو المغرب. يعني من داخله. قلت نعم. قال: من أي بلاده؟ فقلت من سبتة. فكان أول ما فاتحني به أن قال: أيعيش سيدنا أبو الحسين بن الربيع؟ قلت نعم. فقال: ذاك شيخنا إفادة بوصول كتابه إلينا أو بوفادته علينا أو معنى هذا، يريد شرحه لكتاب إيضاح الفارسي المسمى بالكافي في الإفصاح، ثم قال لي: أقرأت عليه؟ قلت نعم. قال وما قرأت عليه؟ فقلت: ما يقرأ طلاب العلم والعربية. فاستفسرني فقلت: قرأت الجمل، والإيضاح، والكتاب فلما ذكرت

---

(1) مقدمة البرنامج، ص 36.

الكتاب قال: اعبر إلى جانبي، فامتنعت، فعزم علي وأقعدني إلى جانبه، فجلست منضماً حياء منه، فقال: اجلس متسعاً، فجلست وتمادى على الإقراء، فاختلست الكلام أثناء إقباله على من بين يديه من التلاميذ للإلقاء عليهم مع الذي كان عن يميني اختلاساً، وقلت: من الشيخ؟ فقال بهاء الدين ابن النحاس، فالتفت الشيخ وقد وثبت بين يديه. فقال: لم؟ ارجع إلى موضعك. فقلت له يا مولانا لم يعرف المملوك بين يدي من هو، ولو علم ما جلس هذا المجلس ولا تكلم، فعزم علي في العودة إلى مجلسي فقعدت، وأشار بالاطمئنان فأطمأننت. . .[1].

لقد دقق ابن رشيد في تحديد تاريخ هذا الحادث الذي جرى يوم الأحد سابع رجب عام 684. وحق لابن النحاس أن يسأل عما إذا كان ابن أبي الربيع ما يزال حياً يرزق، لأنه كان يومئذ في منتصف العقد التاسع من عمره، وسيموت بعد ذلك بأربع سنوات.

أما ابن النحاس فهو إمام نحاة المشرق في عصره، شارح **المقرب** لابن عصفور، وتلميذ ابن يعيش شارح **المفصل** للزمخشري. وقد صدق ابن رشيد في صفات هذا الإمام وإنصافه وسعة خلقه وعنايته بالطلبة، إذ نجد مثل ذلك عند الصفدي في الترجمة الحافلة التي عقدها لابن النحاس في كتابه **الوافي بالوفيات**.

وتوفي أبو الحسين بن أبي الربيع بمدينة سبتة صبيحة يوم الجمعة 16 صفر عام 688/ 11 مارس 1289 ودفن عصر هذا اليوم بالمقبرة الكبرى التي بسفح جبل الميناء شرقي المدينة.

وعسى أن تكون هذه الإشارة الخاطفة حافزاً لبعض الشبان الباحثين على دراسة هذه الشخصية العلمية الفذة وإحياء تراثها المجيد المفيد.

---

(1) من كناشة الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني أخذاً من أحد أجزاء رحلة ابن رشيد المخطوطة بالأسكوريال.

سيدي الإمام السلاوي
- - 778 هـ / 1376 م -

شخصية علمية بارزة لا على المستوى المحلي أو الوطني، ولكن على مستوى الغرب الإسلامي وحتى المشرق العربي. إنه الشيخ الإمام محمد بن محمد بن محمد بن عمران الفنزاري السلاوي، المتوفى بمدينة سلا عام 778 هـ / 1376 م. يسميه بلديوه السلاويون بلسانهم الدارج «سيدي يْمامْ السلاوي» ويعرف في خارج مسقط رأسه بالإمام ابن المجراد السلاوي. وابن المجراد كنية لزمته دون أن يعرف أصلها إلا ما يمكن مقاربته بالتجرد الصوفي والزهد في الدنيا، وهذا شيء محقق في الإمام السلاوي الصالح الناسك.

درس محمد ابن المجراد في سلا وفاس وسبتة، وكانت له صلات متينة مع علماء هذه المدينة الأخيرة، ذكره بعض مؤرخيهم في كتبهم وأثنوا عليه الثناء الجميل. قضى حياته في التدريس والتربية والتأليف ويبدو أنه كان ذا طريقة مفيدة في التعليم، وقدرة عالية في تلقين الطلبة وإفادتهم، سواء منهم المبتدئون أو الشاذون المتمكنون. وذلك ما يؤخذ مما وصفه به مترجموه لا سيما معاصريه والقريبين من عصره.

إذا كان سيدي الإمام السلاوي عالماً مشاركاً في مختلف فروع المعرفة، فإنه إلى ذلك متخصص في النحو والقراءات والفقه، ملم بالطب والتاريخ والسير. ألف في مواد تخصصه نثراً ونظماً، ورزقت مؤلفاته قبولاً حسناً لدى عامة الشيوخ والمتعلمين منذ عصره حتى اليوم، وطبع بعضها لأول ظهور الطباعة الحجرية بفاس في القرن الماضي، إذ كانت من بين المواد التي تدرس في القرويين وغيرها إلى ما قبيل الاستقلال. ولعل مما زكى هذا القبول والإقبال على كتب الإمام السلوي، زيادة على تمكنه وحسن نيته، ما يطبعها من سلاسة

الأسلوب وحسن الانتقاء والخلو من أي تعقيد أو حشو. أشهر مؤلفاته أصغرها حجماً وأكثرها ذيوعاً وانتشاراً، في أحكام الجمل النحوية. وموضوع الجمل طريف اهتم به النحاة من قديم، وألف فيه الإمام أبو القاسم عبد الرحمان بن إسحاق الزجاجي البغدادي المتوفى عام 339 هـ / 950 م كتابه الشهير الجمل الكبرى الذي يعد من أمهات كتب النحو إلى جانب كتاب سيبويه، ومفصل الزمخشري وأضرابهما، إلا أن الهمم ضعفت مع توالي القرون وتعاقب المحن عن تحصيل هذه الكتب المطولة المعقدة، فتصدى لتبسيطها وجعلها في متناول الدارسين جماعة من كبار المؤلفين نثراً ونظماً. وبرز من هؤلاء في القرن السابع محمد بن مالك الأندلسي الدمشقي صاحب الألفية، ولامية الأفعال، وفي القرن الثامن محمد بن المجراد السلاوي صاحب لامية الجمل، وهي عبارة عن قصيدة تعليمية تشتمل على اثنين وسبعين بيتاً تبتدىء هكذا:

حمدتُ إلهي ثم صلَّيتُ أولا ... على سيد الرسل الكرام ذوي العلا

محمد المبعوث للخلق رحمة ... وأصحابه طراً أولي الفضل والعلا

وبعد فهاك نبذة من قواعد ... تفيدك إعراباً فحصله تفضلا

وذلك حكم الظرف والجملتين مع ... بيان الذي قد جُرّ حيث تنزلا

وأسأل ربي الله عوناً على الذي ... قصدت فما زال الإلَهَ مؤمَّلا

تختزن الذاكرة الشعبية في مدينة سلا لسيدي الإمام السلوي ريادته في ميدان التربية والتعليم، يأخذون أبناءهم في مراحل تعليمهم الأولى لزيارة ضريحه خارج باب معلقة لكتابة شيء مّا في الجدار ليكون خط الزائر الصغير حسناً وتعليمه موفّقاً. وما زلت أذكر ذلك الصباح الذي أخذني والدي ـ رحمه الله ـ وأنا لم أجاوز الخامسة من عمري إلى مشهد الإمام السلاوي على شاطىء البحر وبحثنا طويلاً قبل أن نعثر على مكان تصل إليه يدي في الجدار يمكن أن أكتب فيه بقلم الرصاص آية قرآنية، لأن الجدران الأربعة كلها كانت مغطاة بالكتابات المختلفة الأحجام والخطوط.

وقد بدأ السلاويون في العقود الأخيرة يتناسون هذا التقليد الحميد الذي كان يربطهم بأمجادهم ويذكّرهم بأحد عظمائهم، لا سيما بعد الهجرة القروية التي طغت على المدينة وغيرت كثيراً من معالمها. وكان من أثر ذلك أن أهمل ضريح سيدي الإمام السلوي وانتزع من قبته الباب والنافذة فأغلق الباب بالبناء كشاهد على انقطاع الصلات. وعسى أن تتحرك الهمم لإصلاح ضريح سيدي الإمام السلوي الذي لا يعد مفخرة لمدينة سلا وحدها، ولكنه مفخرة للمغرب كلـه.

* * *

الحسن اليوسي اللغوي(*)

غلب التصوف والصلاح على شخصية الحسن اليوسي، وطغت مشاركته وتآليفه المتنوعة في المواضيع الدينيّة والعقليّة والأدبيّة على تخصصه كعالم لغوي بالدرجة الأولى. وقديماً اشتهرت قولة اليوسي: «لو شئتُ ألا أتكلم إلاّ شعراً لفعلت!» فأنكرها المكابرون الجاهلون وعدوها ضرباً من الفخر النَّزِق والحذلقة الجامحة، وعَرَف صدقَها وأحقيتها المنصفون الموقنون بمدى ضلاعة الرجل في اللغة العربية وآدابها. والعرب بالباب ـ كما يقول المثل ـ فهذا ديوان اليوسي الضخم يدل ـ على نقصه ـ دلالة قاطعة على مكانة الشاعر وامتلاكه ناصية اللغة يتصرف فيها على نحو ما تتصرف العرب العرباء، بل هذه داليته في تهنئة ومدح الشيخ مَحمَّد بن ناصر الدرعيّ نافست المعلقات المذهبات بل فاقتها طولاً حيث تُعَدُّ أبياتها بالمئات، وجارَتْهافي متانة التركيب وجزالة اللفظ والصدق في تمثيل الطبيعة وتصوير العاطفة. وهذه رائيته البديعة في رثاء الزاوية الدلائية تأخذك منذ المطلع، وأنت ترى عين الشاعر تفيض من الدم الأحمر كالعقيق، وتشدُّك شدّاً لقراءة أبياتها البالغة نحو المائتين، فيخيَّل إليك حيناً أنك مع امرىء القيس، وحيناً مع زهير بن أبي سلمى، وأحياناً أخرى مع غيرهم من فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين.

ليست تلك القدرة البالغة في قرض الشعر إلاّ مظهراً ثانوياً لعربية اليوسي وتخصصه، وإنما تتجلى مكانته اللغوية وأصالته أكثر فيما كتب من نثر، سواء منه النثر الفنيُّ المنمق الذي يستهويك ولا تكاد تفهمه إلا إذا أحطت نفسك

(*) نشر بمجلة المناهل، العدد 15.

بمعاجم اللغة وكتب البلغاء، أو النثر المرسل الذي يستخفك ويفيدك دون كبير عناء. وذلك ما تجده في مؤلفات اليوسي المختلفة ورسائله المطولة والمختصرة. وإنك لَواجدٌ في كتاب زَهْر الأكَم في الأمثال والحِكَم بصفة خاصة ضروباً من النثر والشعر تدلُّك ـ متى قرأت وأمعنت النظر ـ على مصادر تلك الثروة اللغوية الطائلة، ألا وهي فهم القرآن والحديث، ثم حذق آثار اللغويين والبلاغيين القدامى أمثال الأصمعي وسيبويه وثعلب والزمخشري وأضرابهم، والإحاطة بأشعار الجاهليين والإسلاميين، ومن أتى بعدهم من المشارقة والمغاربة والأندلسيين.

يرجع عهد اشتغال المسلمين بالأمثال إلى العصر العباسيّ الأول في نطاق تلك الحركة الرائدة لجمع اللغة وتدوينها، فرويت الأمثال ضمن أيام العرب وأشعارها، وأخبار فرسانها وأجوادها وأقيالها وصعاليكها. ثم أخذ اللغويون يفردون الأمثال بالتأليف في القرون التالية، واشتهر من بين ذلك كتاب **مجمع الأمثال** لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني المتوفى عام 518/ 1124. وقد أشار الميداني في مقدمة كتابه إلى صعوبة التأليف في هذا الموضوع، ورجوعه إلى نحو خمسين كتاباً مما كتبه مَنْ تَقَدَّمه من اللغويين.

ثم يجيء اليوسي في القرن الهجري الحادي عشر الذي خمدت فيه جذوة الدراسات اللغوية وطال العهد بها لا سيما في أقصى الغرب الأسلامي، فيضع تصميماً لكتاب في الأمثال يفوق ـ لم تمَّ ـ كتاب الميداني وغيره من المتقدمين. ويشتمل تصميم زهر الاكم على ستة وستين باباً مقسمة قسمين أو سمطين، في السمط الأول الأمثال وما يلتحق بها، في مقدمة وخاتمة وأربعة وثلاثين باباً، تسعة وعشرون باباً في الأمثال المرتبة على حروف المعجم، والأبواب الخمسة التالية في الأمثال التركيبية، والأعيان، والأمثال القرآنية، والحديثية، والتشبيهات الشعرية. ويحتوي السمط الثاني على الحكم وما يلتحق بها في اثنين وثلاثين باباً، تسعة وعشرون في الحكم المرتبة على حروف المعجم، وفي

الأبواب الثلاثة الأخيرة طائفة من الحكم المجموعة، والنوادر، والأوليات.

ويشاء لقدر ألا يمهل عالمنا ليحقق غرضه كاملاً من الكتاب، فيموت وهو لم يكتب منه غير المقدمة والخاتمة وأربعة عشر باباً من السمط الأول، غير أن المقدمة وحدها كافية للدلالة على المكانة اللغوية للحسن اليوسي وقوة عارضته وسعة تفكيره. وربما يعجب القارىء عندما يعرف أن اليوسي ألّف زهر الأكم دون أن يطلع على أي كتاب من كتب المتقدمين في الأمثال، وإنما رجع إلى قريحته وحصيلته اللغوية الخاصة. ويؤكد هذه الدعوى، فضلاً عن مروءة اليوسي وعدالته، مقارنة ما كتبه في زهر الأكم بما كتبه الميداني في مجمع الأمثال، فشتان بين مُشرِّقٍ ومُغَرِّبٍ! ولا يظهر التباين بينهما في اختيار الأمثال وترتيبها فحسب، وإنما يظهر أيضاً في طريقة معالجة الأمثال التي تواردا عليها، إذ لكل منهما طريقته في الشرح والتعليق.

وهناك الطابع المغربي في زهر الأكم يتمثل فيما اختاره اليوسي من أشعار المغاربة والأندلسيين، كقول مالك بن المرحل:

لا تُخالِفْ مالكاً في رأيِهِ فبه يأخذُ أهلُ المغربِ

وفي الأمثال المغربية المتداولة في عصره والتي أورد عدداً غير قليل منها عند المناسبات في ثنايا الأبواب، لكنه «فَصَّحها» ولم يذكرها بلسان العامة، واضطُرّ بسبب ذلك إلى تغيير بعض ألفاظ هذه الأمثال ليستقيم تركيبها الفصيح، ولم يحتفظ باللفظ العاميّ إلا نادراً كالسُّبّاط مثلاً في قولهم: «امْشِ بالنَّعلين حتى تجدَ السّبّاط»، أورده في باب الباء مع المثل العربي: «يُبْلَغُ الْخَضْمُ بِالْقَضْمِ».

وربما كان من المستحسن هنا أن نورد نموذجاً من نثر اليوسي في مقدمة زهر الأكم، ومثلاً منه لمقارنة شرح اليوسي الميداني. يقول الحسن اليوسي في فضل اللغة العربية وشرف أمثال العرب وشكوى الزمن:

«... وإن الخِصِّيصَى التي بها شرفُ الإنسان، إنما هي العلمُ واللسان،

فإنَّ المرءَ لو بلغ في كمال الجسم والجمال أطْوَرَيْه، لا يكون إنساناً إلاَّ بأصْغَرَيْه... وما امتار اللسِنُ الذكيُّ عن العَيِيّ الغبيّ إلاَّ برجاحة الجنان، وفصاحة اللسان، فإن الْخَلِيقَ للأفكار، عند افتراعِها المعانيَ الأبكار، والجديرَ للألسنة عند اقتطافها أزاهيرَ البيان، واهتصارِها أفانينَ التِّبيان، أن يَتَميَّزَ فيها الفائقُ من المائق، والسابقُ من السائق؛ وعند مزاولة الغرض المُعضِل، أن يُعرَف المقرطِسُ من المُخْضِل، وعند انتِياشِ مضاربِ الأفهام، أن يمتاز الصارمُ عن الْكَهَام، وعند اقتباس حكمةٍ تُسْتَشْعَر، أن يشرُفَ المُورِي عنِ الأدْعَرِ، وعند اقتسام مزايا الفضل الفسيح، أن يفوز المعلَّى دون السَّفِيح، وعند استفتاح المَغَالِق، وتَغَشِّي المضائق، أن يُعلَمَ المُجْحِمُ من المُحْجِم، والهَصُور من الحَصور. فلا جَرَمَ كان من أجلِّ العلوم وأفخَرِها، وأحقِّها بالاعتناء به وأجدرها، علمُ الأدب، والتضلُّعُ من كلام العرب، إذْ به تنحلُّ عُقْلةُ اللسان، وتُزاحُ روْعةُ الجَنان. وهو لسان نبينا نُخبةِ العالَم، وصَفْوَةِ وَلَدِ آدم، وكتابُه الذي أخرس به مَصاقعَ البيان، من بُلغاء عدنانَ وقحطان، حتى عدَلوا عن المجادلة إلى الطِّعان، وعن المعارضة إلى الإذعان. صلى الله وسلم عليه وعلى آله ما لَمَعَ بارق، وطَلَع شارِق. فهو لعمري أجلُّ الكلام، وأشرفُ ما اعتَوَرَتْه الألسنةُ والأفهام، وأبهى بدرٍ يُسْتَجْلَى وعروس، وأسنى أثرٍ يُسْتَبْقَى في ميادين الطُّروس. لا سيَّما علمُ أمثالِها التي هي زِمامُ كلّ معنى، ومَناطُ كلِّ مَبْنى، ومنارُ كلِّ مَرْمَى، ومصباحُ كلِّ ظَلْمَا، وبها يرتاضُ كلُّ جَموح، ويُصبح المنبهِمُ ذا وضوح، وبها يعود الغائب مشهودا، بل المعدومُ موجودا.

وكان الأقدمون بهذا الفن معتنين، ولنوارده مُلَقِّنين ومُدَوِّنين، يَرِدُونَ مَوارِدَها، ويقتنصون شوارِدَها، ويقتطفون أزهارَها النَّضِرَة، ويتنسّمون نسماتِها العَطِرَة، ويرتشفون ثغُورَها، ويقتبسون نُورَها، ويَشيمُون لَمَحَاتِ تلك الْبَوَارِق، ويَشِمُون بِدُرَرِها صفحاتِ الْمهَارِق. فلما طال العهدُ بأزمان العرب، وقُضِي مِن تناسي أيامِها كلُّ أرب، تغلبتِ العجمةُ على الألسنة والطباع، فخَلَتْ مِن قَطِينِها

هاتيك الرِّباع، وأصبحت حديثاً مهجوراً، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً، وكانت أيامها محضَ أوهام، فكأنها وكأنهم أحلام، وتقلَّص ضافي بُرْدِها، وتكدَّر صافي وِرْدِها، وذهبت المعارفُ والعوارف، وتقلّص ظلُّها الوارف، وأمست رِباعُ الأدبِ قَفْرا، وارحتِ الخواطرُ منه صِفرا.

وكانت لي نفسٌ تَشُوقُني إلى هذا الفنِّ ومآثره، وتُنازِعُني إلى تتبُّع داثِرِه، فكنتُ أشتاقُ أن أرَى في هذا موضوعاً، وأصادِفَ كتاباً مجموعاً، ممَّا عُنِيَ به الإقدمون، واقتفى أثرَهُم فيه المتأخِّرُون، فلم يسمَحْ بذلك الدهرُ العقيم، ولم يُظْفِرْ بشيءٍ منه الْجَدُّ السَّقيم، ولما لم أَذُقْ من ذلك لَماقا، ولم يَزْدَدِ القلبُ إلاَّ اشتياقاً، طفِقتُ أجولُ في عَرَصاتِ كتب الأدب، وكلُّ ما لَهُ ماسَّةٌ بكلام العرب. ولم أزل أتتبَّعُ ظِلالَها، وأشتَفُّ بِلالَها، وأرعاها قُنَناً وَوِهَاداً، وأنتَجِعُها فَتُوحاً وَعِهاداً، وأحتلِبُها شَصَائِصَ وَشَكارَى، وأعتنِقُها عُوناً وَأَبْكارا، حتى التقطتُ مِن ثمينِ جَوْهَرِها، واقتطفتُ مِن يَنِيعِ زَهْرِها، ما يَشْفِي العَليل، ويَنْقَعُ الغَليل، ويَمِيسُ مَيْسَ الغُصنِ الْمَرُوح، ويسرِي في الجسومِ مَسْرَى الرُّوح. فلما امتلأ بحمد الله من ذلك الوِطاب، وعاد الْبَلَحُ إلى الإرطاب، هَمَمْتُ أن أجمعَ ما عَلِقَ في هذا الوقتِ بخاطري، مما تَرَقَّى إليه نَظَرِي وناظِري، في كِنٍّ يؤوِيه، ومجموعٍ يَحْوِيه، حِذاراً من النِّسيان، عند تطاوُلِ الزَّمان؛ فألَّفتُ هذا المجموعَ في الأمثال، وأودعتُه كلَّ دُمْيَةٍ وتِمْثال. ثم رأيت أن أضُمَّ إليها من الحِكَم جملةً ممَّا انتهيتُ إليه، ووقفتُ عند تَطْوَافي عليه، تتميماً للفائدة، وتكميلاً للعائدة، مع قُرْبِ ما بين النَّوعين جِدّاً، كما ستقفُ عليه عند التعرُّضِ لهما فَصْلاً وَحَدّاً. فجاء بحمد الله كتاباً مُمْتِعاً، لِلآذَانِ الصُّمِّ مُسْمِعاً:

جمعتُ به والجفنُ مُغْضٍ على القَذَى	وبـالخَلَـدَ الْبَلْبَـالُ أصْبَـح ذا خُلْـدِ
محـاسـنَ تُـزْرِي بـالنَّسيـم إذا سَرَى	فحيَّى مُحَيَّا السَّوْسَنِ الْغَضِّ والْوَرْدِ
وتُـزْرِي بَهـاءَ بِـالْمَطِيـرِ مِـن الـرُّبَـى	وبالعَذْبِ للصَّادِي وبِالْكاعِبِ الرَّأْدِ

لآلِئُ مـا غـوَّاصُها بمُصادِفٍ لها صَدَفاً في مُلْتَقَى أَبْحُرِ الْهِندِ
ولا حُلِّيَتْ يـومـاً بهـا جِيدُ غـادةٍ ولا فُصِّلَتْ بِالْمَسْجَدِ الصَّرْدِ في عِقْدِ
فـرائـدُ مـا منهـنَّ إلاَّ خَـريـدَةٌ أعَزُّ على الْمُرْتَادِ في الأَبْلَقِ الفَرْدِ

ومع هذا فإنِّي أعتذر لذوي النفوس الوقَّادة، والصَّيارِفةِ النَّقَّادة، مِن تقصيرٍ فيه، وخَلَلٍ لم يَتَّفِقْ تَلافيه. وكيف لا يُعْذَرُ ذو بالٍ مُتَقَسِّم، وَبالٍ مُتَكَسِّم، وشخصٍ لا يَبِينُ لِمُتَوَسِّم، مكلومٌ بِفاغِرٍ مِنَ الخُطوب مُتَبَسِّم، يَرْمُقُ ا ه ش بَرضا، ويَقطَعُ بَسِيطَ الحَيْرَةِ طُولاً وعَرْضاً، لا يَتَرَجَّى مَدَدا، إلاَّ كان تَمَ ىا، ولا يَغْتَبِقُ إلاَّ عَبْرَة، ولا يَعْتَنِقُ إلاَّ زَفْرَة، ولا يَعُدُّ إلاَّ ذُنوبَ الدهر، .لا يُعِدُّ إلاَّ ذَنُوبَ نَهْر، في فِتَنٍ تحولُ بين المرءِ وقلبه، وتُذْهِلُ غَيْلاَنَ عن حِبِّه، ودهرٍ حَالَ دُونَ الْقَرِيض، بِالشَّجَى والْجَرِيض، وَرَدَّ الأوْجِ إلى الْحَضِيض، ولم يجعل بُدّاً مِن مُصادقةِ الْبَغِيض؛ وأعادَ الصُّدورَ أعْقَابا، والنَّوَاصِيَ أَذْنابا، وكَدَّرَ كُلَّ صَفْو، وأوْرَثَ كُلَّ شَجْو، وخَلَّف مِن بَنِيه كجِلْدِ الأَجْرَب، وزُبَانَى العقرب، لا يتجرَّعون إلاَّ عَلاَقِم، ولا يَلْتمِسُون إلاَّ أراقِم، أمَّا أذنابُها فَرَعَاع، وشَرٌّ شَعَاع، وفتنةٌ وِرْدُها فُعَاع، وظُلْمةٌ ليس بها شُعَاع؛ وأمَّا ذُرَاها فلا تَغْدُو رضِيعاً تَبْكِي الْمَخَاضُ الجُرْبُ لِمُصَابِه، وتشكو الصُّفْرُ والْبِيضُ يَدَ الضَّياعِ لِصِفْرِ وِطَابِه، وخليعاً يذهَبُ دهرُه ما بين الرُّخِّ والرُّخة، والْفَخِّ والفَخَّة، وَكِلا النَّوْعينِ قد أنزلَهُما أسْوَدُ العينِ طَرَفَه، وتضمَّنَهُما الْقَمَرانِ الْمُشْتَبِهان في بَيْتِ طَرَفَه.

وكان الأدب وسائر العلوم قديماً إنَّما يُحيي غِرَاسَها، ويُسْنِي مِرَاسَهَا، ويُطَيِّبُ أنْفَاسَها، ويُحبِّبُ نِفَاسَهَا، الفَضْلُ الْهَام، والعَدْلُ الجَام. فأمَّا اليومَ فلا نَدىً يَسْتَثْمِرُ الإبداع، ولا انتصافَ يَتَلاَفَى الانْصِدَاع؛ فأيُّ علمٍ يُرْتَجَى، مَمَّنْ زوالُ الرَّوْعِ عنده مُنتهَى الرَّجَا؟ قَنُوعٍ مِنَ الغنيمة بِالإيَابِ، ومن الإيرَاب، بنُفَاضَةِ الْجِرِاب، ومِنَ الشَّراب، بِلَمْحَة السَّرَاب! وكيف يمكنُ لمثلي أن يَجْمَعَ بين كلمتين، فضلاً عن فَصْلَين؟ لكن لما لم يكن التَّجَزُّعُ من الأقدار، مِن شِيَم الأحرار، قَبَضْتُ على أحرَّ مِنْ جَمْر، وتجلَّدْتُ على ما بي مِنْ ضُمْر، وثَنَيْتُ الضُّلوعَ على

أذَاهَا، وأغضيتُ الجفونَ على قَذَاهَا، فجمعتُ هذه الأحرفَ على حينَ لم يَبْقَ من العلم إلاّ رَسْمُه، ومِن التَّحقيق إلاَّ اسمُه، مِن غير كبير عُدَّةٍ أعتمِدُ عليها، وأرجعُ عند المعْوصَاتِ إليها، ولا وُجُودِ مُصَنَّفٍ في هذا الفنِّ أهتدِي بِمَنارِه، وأستضيءُ بضَوْءِ نَهارِه، وإنما اقتدحْتُ الفِكْرَ السَّادِر، فاقْتَرَحْتُ نَوادِر، جَمَعْتُها من كلِّ أوْب، وحَدَرْتُها مِن كلِّ صَوْب، ولا أكادُ مع ذلك أجدُ مَثَلاً منها مُتكلَّماً عليه، ومُنَبَّهاً فيه على ما يُحتاج إليه. وإنما يُذكَرُ جُلُّها مُجرَّداً، فألْتَقِطُهُ مُفرَدا، ثم أتحمَّلُ أعباءَ شرحِ ألفاظِه ومعانيه، وأتكلَّفُ مِنْ دواوين العرب ومَنْ بَعْدَهُم إحضارَ شواهدِهِ ومَبانِيه. فكنتُ في ذلك شِبْهَ الواضِع وإن سُبِقْت، والمُختَرِعِ وإنْ نَقَلْت. وأضفتُ إلى ذلك مِن نفائس النَّوادِر درَرا، ومِن نُكَتِ الفوائدِ غُرَرا. وجمعتُ فيه من شعر الأقدمين والمُحْدَثِين عيونا، وقضيتُ مِن غريبه دُيونا. وما ذكرتُ شعراً إلاَّ اخترتُه، ولا ألْمَمْتُ بِمَنْزَعٍ إلاَّ حَرَّرْتُه، ولا دفعتُ إلى مُبْهَم إلاَّ أوضحتُه، ولا افتتحتُ باباً إلاَّ أتْمَمْتُه، مع جملةٍ وافرة من عِلْم اللغة، تكونُ للمقتصر عليه كفايةً وبُلْغَة، لولا أنِّي رُمْتُ بَذْلاً على تقتير، وإنْبَاضاً بِلاَ تَوْتير. فإنْ جاء وفْقَ الغَرَض، وقَضَى الحقَّ المُفْتَرَض، فلِلَّه تعالى المِنَّة، ومنه الحَوْلُ والمُنَّة...».

* * *

وهذا مَثَلٌ من الأمثال الواردة في كتابي الميداني واليوسي، نقدِّم أوّلاً نصّ ما كتبه الميداني ـ وهو قليل ـ قبل أن نأتي بكلام اليوسي لنرى الفرق بين الشرحين والتعليقين للمثل:

أنَا جُذَيْلُهَا الْمُحَكَّكُ وَعُذَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ

يقول الميداني[1]:

(1) مجمع الأمثال تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار الفكر الثالثة، 1393 هـ / 1972 م، الجزء الأول، ص. 31 ـ 32.

«الجُذَيل: تصغير الجِذْل، وهو أصل الشجرة. والمُحَكَّك: الذي تتحكَّكُ به الإبلُ الجَرْبَى، وهو عُودٌ يُنصَب في مبارك الإبل تتمرَّسُ به الإبلُ الجَرْبَى. والعُذَيْق: تصغير العَذْق ـ بفتح العين ـ وهو النخلة. والمُرَجَّبُ: الذي جعل له رُجْبَة وهي دعامة تُبْنَى حولها من الحجارة، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوَّفوا عليها أن تنقعِر من الرياح العواصف. وهذا تصغير يراد به التكبير، نحو قول لبيد:

وكلُّ أناسٍ سوف تدخلُ بينهم دُوَيْهِيَّـةٌ تَصْفَـرُّ منهـا الأنـامـلُ

يعني الموت. قال أبو عبيد: هذا قول الحُباب بن المنذر بن الجَموح الأنصاري، قاله يوم السقيفة عند بيعة أبي بكر، يريد أنه رجلٌ يُستشفَى برأيه وعقلِه.

* * *

ويقول الحسن اليوسي في شرح المثل السابق:

«لما قُبِضَ النبيُّ ﷺ اجتمعت الأنصار إلى سعد بنِ عُبادة في سَقِيفة بني ساعدة، فأتاهم أبو بكر وعمر وغيرُهما من المهاجرين ـ رضي الله تعالى عن الجميع ـ فتكلم أبو بكر، والقصةُ مشهورة، وتكلم رجلٌ من الأنصار، وفي رواية: وهو الحُباب بن المُنذِر، فقال: أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيْقُها المُرَجَّب، مِنَّا أميرٌ ومنكم أميرا

● والجُذَيْل: تصغير جِذْل ـ بكسر الجيم، وتُفْتَح، وبالذّال المعجمة الساكنة ـ. والجِذْلُ: ما عَظُمَ مِن أصول الشجر، أو أصلُ الشجر وغيرها بعد ذهاب الفرع. والجمع أجْذَال وجُذُول وجِذَال وجُذُولَة. قال امرؤ القيس:

كأنَّ على لَبَّاتِها جَمْرَ مُصْطَلى أصابَ غَضَاً جَزْلاً وَكُفَّ بِأجْذَالِ

● والجِذْلُ أيضاً: عودٌ يُنْصَبُ لِلْجَرْبَى لتَحْتَكَّ به، وهو المقصود هنا. ويقال: هو عودٌ يُنْصَبُ في مَبْرَكِ الإبل تَحْتَكُّ به لتُزِيلَ ما عليها من قُرَادٍ وكلّ ما

لزِق بها فتَسْتَشْفِي بذلك، ويكون كالتَّمرُّغ للدَّابَّة. قال الراجز:

لاقَتْ على الماءِ جُذَيْلاً وَاتِدَا

ويُضرَبُ مَثَلاً للرجل فيقال: هو جِذْلُ مُحَاكَّةٍ وجِذْلُ حِكَاك. قال الأصمعي: قلت لأعرابيّ: ألَكَ بَنُون؟ قال: نعم، وخالِقِهِمْ لم تَقُمْ على مِثْلِهِم مُنْجِبَة. قلت: صِفْهُم لي. قال: جَهْمٌ وما جَهْم! يُنْضِي الوَهْم، ويَصُدُّ الدَّهْم، ويَفْرِي الصُّفوف، ويُعِلُّ السُّيوف! قلت ثمّ مَنْ؟ قال: غَشَمْشَمٌ وما غَشَمْشَم! ما له مُقْسَم، وقِرْنُه مُجَرْجَم، جِذْلُ حِكَاك، ومِدْرَهُ لِكَاك! قلت ثُمَّ مَن؟ قال: عَشْرَبٌ وما عَشْرَب! لَيْثٌ مُحَرَّب، وَسِمَامٌ مُقَشَّب، ذِكرُه باهِر، وخَصْمُه عَاثِر، وفِنَاؤهُ رِحَاب، وَدَاعِيهِ مُجاب! قلت: فَصِفْ لي نَفْسَك! قال: ليثٌ أبو رَبَابِل، رَكَّابُ مَعَاضِل، عَسَّافُ مَجَاهِل، حَمَّالُ أعباء، نَهَّاضٌ بِبَزْلَاء!

قوله يُنْضِي الْوَهْمَ أي يُهْزِلُ الوَهْم، وهو الجمل الضَّخم من قوته.

ويَصُدُّ الدَّهْم أي يكُفُّ الدَّهم، وهو العددُ الكثير من العدُوّ.

ويَفْرِي الصُّفوف: أي يَشُقُّها في القتال مُقْدِماً.

ويُعِلُّ السيوف: أي يُورِدها دماءَ الأقران مرةً ثانية، مِنَ الْعَلَلِ في الشُّرب.

وقوله قِرْنُه مُجَرْجَم: أي مُبارِزُه مُجَرْجَم أي مَصْرُوع.

وجِذْلُ حِكَاك: أي يُستشفَى به في الأمور، كالجِذْلِ المنصوب الذي تستشفي به الإبلُ الجَرْبَى.

والمِدْرَه: لسانُ القوم. واللِّكَاك: الزِّحام.

واللّيث المُحرَّب: المُغْضَب، وهو أشدُّ ما يكون.

والْمُقَشَّب: المخلوط. والباهر: الغالب.

والرَّبَابِل: جمع رِيبَال - يُهْمَز ولا يُهمَز - وهو الأسد.

والمَعَاضِل: الدَّواهِي. والْعَسَّاف: الرَّكَّابُ الطريق على غير هداية.

والْمجَاهِل: الْفَلَوات. والأعباء: الأثقال. والْبَزْلاَء: الرَّأيُ الجيِّد، وهو مثلٌ سيأتي.

● وأما العُذَيْق فهو تصغير عَذْق. وهو بالفتح: النخلة بِحِمْلِها، وبالكسر: القِنْوُ منها. والمقصود هنا الأول.

● والمُرَجَّب: المعظَّم. يقال رجَّبْتُه ترجيباً: عظَّمتُه. ومنه رَجَبٌ لتعظيمهم إياه. ويقال إن فلاناً لَمُرَجَّبٌ أي عظيم. وحدَّث الأصمعي قال: مررت في بلاد بني عامر بحِلَّةٍ في غائطٍ يَطَؤهُم الطريق، فسمعت رجلاً يُنشِد في ظلِّ خيمةٍ له ويقول:

أحقّاً عبادَ اللهِ أنْ لستُ ناظراً ... إلى قَرْقَرَى يوماً وأعلامِها الغُبْرِ

كأنَّ فؤادي كُلَّما مَرَّ راكبٌ ... جناحُ غرابٍ رامَ نَهْضاً إلى وَكْرِ

إذا رحَلَتْ نحوَ اليمامةِ رِفقَةٌ ... دَعَاكَ الهوى واهْتاجَ قلبُك للذِّكْرِ

فيا راكبَ الوَجْنَاءِ أُبْتَ مُسَلَّماً ... ولا زِلْتَ مِنْ رَيْبِ الْحَوَادِثِ في سِتْرِ

إذا ما أتَيْتَ العَرْضَ فاهتِفْ بِجَوِّهِ ... سُقِيتَ على شَحْطِ النَّوَى سَبَلَ الْقَطْرِ

فإنَّكَ مِنْ وادٍ إلَيَّ مُرَجَّبٍ ... وإنْ كُنْتَ لا تَزْدَادُ إلاَّ على عُفْرِ

قال: فلما رآني مُصغِياً إليه أشار إليَّ فاسْتَأْنَسَنِي وأنزلني وصنَع طعاماً، فقلت: أنا إلى غير هذا أحْوَجُ! قال: ماذا؟ قلت: تُنشِدُني! قال: أفْعَلُ. فلما أصبتُ من الطعام قلت: الْوَعْدَ! فأنشدني:

لقد طَرَقَتْ أمُّ الْخَشِيفِ وإنَّها ... إذا صَرَعَ القَوْمَ الكَرَى لَطَرُوقُ

فيا كِبداً يَحْمَى عليها وأنَّها ... مخافةَ هَيْضَاتِ النَّوَى لَخَفُوقُ

أقام فريقٌ مِن أناسٍ يَوَدُّهُم ... بِذاتِ الْغَضَى قلبِي وَبَانَ فريقُ

لحاجةِ محزونٍ يظَلُّ وقلبُه ... رهينٌ ببَيْضاتِ الْحِجالِ صديقُ

تَحَمَّلْنَ إنْ هبَّتْ لهنَّ عشيَّةً ... جَنوبٌ وإنْ لاحتْ لهُنَّ بُروقُ

كأنَّ فُضولَ الرَّقْمِ حينَ جَعَلْنَها ... غدِيّاً على أُدْمِ الجِمالِ عُذُوقُ

وفيهنَّ مِن بُخْتِ النِّساءِ رِبَحْلَةٌ بِهَا غُرُّ السَّحابِ تَرُوقُ
هِجانٌ فأمَّا الدِّعْصُ مِن أَخْرَيَاتِها فَوَعْثٌ وأمَّا خَصْرُها فَدَقِيقُ

فقوله: «فإنك من وادٍ إليَّ مُرَجَّب»: أي مُعظَّم.

وقوله في القطعة الثانية:

كأنَّ فُضُولَ الرقم حين جعلْنَها غدياً على أدم الجمال عُذُوقُ

أي نَخْلات، جمع عَذْق، وهو النخلة كما ذكرنا قبل، أو قِنْوَانُها. وهو تشبيه مشهور عند القدماء، يُشبهون الحُمول والبُرود المرقومة فيها بالنخيل إذا أينع ثمرُها فاحمرّ واصفرّ: قال امرؤ القيس:

أو الْمُكْرَعَاتِ مِن نخيلِ ابْنِ يَامِنٍ دُوَيْنَ الصَّفَا اللَّائي يَلِينَ الْمُشَقَّرَا
سَوَامِقَ جَبَّارٍ أثِيثٍ فُروعُهُ وعَالَيْنَ قِنْواناً مِن البُسْرِ أحْمَرا

وقال أيضاً:

عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةٍ فوقَ عِقْمَةٍ كَجِرْمَةِ نَخْلٍ أو كَجَنَّةِ يَثْرِبِ

وقد عُلِم اشتمالُ الكلام على مَثَلَيْن، وليس مثلاً واحداً، إلا أنهم يَقرِنُ بينهما كثير. وفي مقامات البديع قوله: «حتى إذا مال الكلامُ بنا مَيْلَه، وجرَّ الجِدالُ بيننا ذَيْله، قال أصبتم عُذَيْقة، ووافَيْتُم جُذَيلة إلخ».

وقيل معنى أنا جُذَيْلها المُحكَّك: أنا صاحبُ رِهان. والمحكَّك: المعاودُ لها، كما قال الراجز:

جِذْلُ رِهانٍ في ذِراعيه حَدَب

أي السّير. ويقال أيضاً رجل محكَّك أي مجرَّبٌ للأمور بَصِيرٌ بخيرها وشرِّها، وهو مدحٌ في الرجال ذمٌّ في النساء. قال الحماسيّ:

لا تَنْكِحَنَّ الدَّهْرَ ما عِشْتَ أَيِّماً مُجَرَّبَةً قد مُلَّ منها ومَلَّتِ

ويقال أيضاً: أنا جُحَيْرُهَا الْمُوَرَّب، وعُذَيْقُها الْمُجَرَّب. والْجُحَيْر تصغير جُحْر وهو الغار. والمؤرَّب الْمُوَفَّرُ الْمُلَمْلَم. ومعناه واضح من الذين قبله.

* * *

هكذا يكون اليوسي كتب في شرح هذا المثل عشرة أضعاف ما كتبه الميداني فيه. والمؤلفان وإن اتفقا في بعض الجزئيات من شرح المفردات وغير ذلك فإن اليوسي قد امتاز عن صاحبه بأشياء نجمل الإشارة إليها ـ دون أن ندخل في تفاصيل المقارنة ـ فيما يلي:

● والتَّرْجِيبُ في النخل: أن يُجعَل للنخلة دُكَّانٌ تعتمد عليه أو تُدعَّم بشيء إذا كثر حملها لِئلاَّ تنكسر. ويسمَّى ذلك الدكان الرُّجْبَة ـ بضم الراء ـ. وقيل: أن يغرز الشوك حولها حتى لا يوصل إليها. وقيل أن تُضَمَّ قِنْوَانُها إلى سَعَفَاتِها وتُشَدَّ بِالخُوص حتى لا ينفُضَها الريح، فيقال: نخلة مُرَجَّبَة، وعِذْقٌ مُرَجَّب. ويقال أيضاً نَخْلَة رُجَبِيَّة ـ بتخفيف الجيم وتشديدها ـ وينشد بهما قول الشاعر:

لَيْسَتْ بِسَنْهَاءٍ وَلاَ رُجَّبِيَّةٍ ... ولكنْ عَرَايَا في السِّنينَ الْجَوَائِحِ

ولا يُرَجَّبُ من النَّخل إلا الكريمة.

● واعلم أن التصغير في كلّ من الجُذَيْل والْعُذَيْق للتعظيم على ما أثبت الكوفيون من ورود التصغير للتعظيم، كقول لبيد:

فُوَيْقَ جُبَيْلٍ شامخٍ لن تنالَهُ ... بِهِمَّتِهِ حتَّى تكِلَّ وتَعْقَلا

وقيل للتقريب كما في بُنَيّ وأُخَيّ.

● وقد تحصل في معنى الكلام بجملته أنه يقول: أنا الذي يُرْجَع إليه في النائبات، ويُتمسَّكُ بذيله في المُلمَّات، ويُستنَدُ إلى عقله في الحوادث الْمُدْلَهِمَّات، ويُستشفَى بفضل رأيه في المُعضِلات المُعوِصات، كالجُذَيْل الذي

تَستشفي بالاحتكاك به الإبل. وأنا لي أيضاً أهلٌ يحفظوني ويأووني، وعُصبةٌ ينصروني ويمنعوني، كالنخلة الممتنعة برجبتها، الكريمة على أهلها، إذ لا يرجَّبُ من النخل إلا الكرام كما مرّ.

ـ نسب المؤلفان معاً المثل إلى الحُباب بن المنذر خطيب الأنصار يوم السقيفة، إلاَّ أنّ اليوسي بيَّنَ الإطار التاريخي للمثل بتلخيص حادث السقيفة واختلاف المهاجرين والأنصار. ثم لم يقتصر على لفظ المثل ـ كما فعل الميداني ـ بل أتى بكلام الحُباب كاملاً: «أنا جُذَيلها المحَّكك، وعُذَيقها المرجَّب، منا أمير ومنكم أمير!» ليظهر وجه الافتخار والدعوى.

ـ أورد اليوسي معاني متعددة للجِذْل ـ بدل المعنى الوحيد عند الميداني ـ وذكر جموعه مستشهداً ببيت امرىء القيس، وقول الراجز، وقصة الأصمعي مع الأعرابي أبي الرابل، وشارحاً ما غمض فيها.

ـ أتى اليوسي بمادة (رجب) مبيناً معانيها الأصلية والفرعية، مستشهداً بالقطعتين اللتين رواهما الأصمعي عن العامري، وقد ورد في أولاهما: «واد مرجَّب» وفي الثانية: «كأن فضول الرقم. . . عذوق» مبيناً كذلك اختلاف معاني العذق باختلاف فتح أوله أو كسره، في حين اقتصر الميداني على معنى إجمالي للكلمتين معاً.

ولم يفت اليوسي هنا أن يُنبّه إلى ما اشتهر عند القدامى من تشبيه البرود الملونة بالنخيل المنوع، مستشهداً بأبيات امرىء القيس، قبل أن ينتقل للكلام عن ترجيب النخل وطرقه المختلفة عند العرب.

ـ افترض اليوسي لتصغير كلمتي المثل أحد احتمالين: التعظيم على مذهب الكوفيين، أو التقريب على مذهب غيرهم، في حين جزم الميداني أن التصغير للتكبير.

ـ بين الميداني مضرب المثل في الأخير بجملة واحدة: «يريد أنه رجلٌ

يُستشفى برأيه وعقله» وهو بيان مبتور لا ينطبق إلاّ على الشطر الأول من المثل. في حين أتى اليوسي بفقرة كاملة ـ كتبت هنا بالأسود ـ تتساوق فيها العبارات المسجعات المتكاملات، لتستوعب الشروح الضافية السابقة وتلخصها.

* * *

إننا لم نقصد إلى التنقيص من قدر أبي الفضل الميداني أو غيره، وإنما قصدنا إلى بيان أصالة الحسن اليوسي في فن سبقه الميداني إلى التأليف فيه بستة قرون، وسبقه غير الميداني فيه بسبعة أو ثمانية أو تسعة قرون، ومع ذلك كتب اليوسي ما كتب في الأمثال، أواخر القرن الهجري الحادي عشر، ابتكاراً على غير مثال سابق، بل ودون أن يطلع على أي كتاب في الأمثال، وكأنَّ زَهْر الأكَم أُلِف في عصر ازدهار العلوم العربيّة أيام العباسيين، إذ المصادرُ مصادرُ ذلك العصر، والأسلوب متينٌ سليم، والتفكير حر مبدع لا يعرف قيود التقليد والترديد.

ملاحظة:

تم تحقيق ثلاثة أجزاء من كتاب زهر الأكم في الأمثال والحكم من طرف الأستاذين محمد حجي ومحمد الأخضر، وهي الآن قيد الطبع بمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب بالرباط(*).

(*) تم بالفعل طبع أجزاء زهر الأكم الثلاثة عام 1981.

محمد الخامس
ونضاله للحفاظ على لغة القرآن(*)

تعددت جوانب عبقرية محمد الخامس ـ رحمه الله ـ كملك، وكمصلح وكمناضل، وكمحرر، وتنوعت أساليب عمله في فترة دامت زهاء ثلث قرن من عمر الحماية مثلت أوج طغيان المستعمر وغطرسته، كما شهدت درك وهنه وتقهقهره وصرعه. ولعل أبرز ما استأثر باهتمام من كتبوا عن محمد الخامس، ويالما أكثرهم! هو جانب نضاله السياسي الذي واجه المحتل ومقاصده العلنية والسرية مواجهة اتسمت بكثير من الحكمة والحنكة، لابساً لكل حالة لبوسها من ملاطفة ومساكنة، وموادعة وعناد، وتلويح وتصريح، مع الثبات على الحق في كل الأحوال.

قد يتساءل المرء عن أسباب صمود محمد الخامس أمام العواصف الهوج، وتوفيقه في مختلف المواقف التي وقفها والتصريحات التي فاه بها والقرارات التي اتخذها، فيقول قائل إنها المواهب الفطرية التي فطره الله عليها، ويقول آخر إنها التربية الصالحة التي درج عليها، ويرى ثالث أنها بطانة الخير التي أحاطت به وأخلصت له النصح. قد يكون كل ذلك صحيحاً، ولكن هناك ـ في نظري ـ بنية جذرية متينة قامت عليها كل تلك الخلال والخصال ألا وهي إيمان محمد الخامس بالله وتشبثه بالقرآن الكريم.

تجلى تعلق محمد الخامس بكتاب الله منذ السنوات الأولى لتوليه العرش، حين أصابه مرض مضن ألزمه الفراش مدة من الزمن، فكان ـ رحمه الله ـ لا يجد

(*) ألقي في ندوة محمد الخامس التي أقامتها جمعية رباط الفتح بالرباط في 16 ـ 20 نوفمبر 1987.

قلبه إلا في الإنصات إلى كتاب الله، ويستحضر لذلك صباح مساء كبار قراء العدوتين طوال مقامه بالمستشفى الذي قال فيه قولته المشهورة: «اللهم إن كنت تعلم أن في حياتي خيراً لهذه البلاد ولهذه الأمة فاشفني وعافني، وإن كنت تعلم غير ذلك فاقبضني إليك غير مفتون».

وتأكد هذا التعلق حين دعا ـ رحمه الله ـ إلى القصر الملكي جماعة من المقرئين والوطنيين أعضاء جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ليشهدوا دخول سمو ولي العهد الأمير مولاي الحسن الكتّاب القرآني، ويتلوا سوراً من كتب الله، فظهر على الملك المومن من الخشوع والتأثر والتواضع ما سجله الأستاذ المجاهد الحاج أحمد معنينو ـ وكان من الشاهدين ـ في صفحات روحانية مشرقة تعيد إلى الذاكرة سيرة الصحابة وكبار صالحي المؤمنين.

ولكي ندرك سر القرآن في نضال محمد الخامس يجب أن نتذكر أن الاستعمار الفرنسي ـ الإسباني بالمغرب لم يكتف بالاحتلال العسكري والحكم المباشر، وإنما عمد بعد مدة يسيرة من توقيع معاهدة الحماية إلى فرض هيمنة معنوية تستهدف القضاء على المقومات الأساسية لهذه الأمة المسلمة، واجتثاث الإسلام واللغة العربية من هذه البلاد.

سلك المستعمر لخضد شوكة الإسلام بالمغرب ما عرف بالسياسة البربرية التي ابتدأت بتأسيس ليوطي سنة 1914 الحكم العرفي البربري في القبائل بدل الشريعة الإسلامية، وإنشاء لجنة خاصة بالأبحاث البربرية سنة 1915، وانتهت بصدور الظهير البربري سنة 1930، وما تلاه من ثورة وطنية عارمة سفهت تلك السياسة الصليبية وأوقفتها عند حد محدود. وسنترك هذا الموضوع جانباً.

أما محاربة اللغة العربية، فطال أمدها طوال عهد الحماية، وكان لمحمد الخامس ـ رحمه الله ـ في هذا الشأن مواقف مبدئية ثابتة استطاعت أن تحبط كيد الكائدين ومكر الماكرين.

لقد وجد المستعمرون بالمغرب سنة 1912 تعليماً عربياً قائماً، بالرغم على عتاقته وبساطته فإنه كان منتشراً في المدن والقرى، بواسطة الكتاتيب

القرآنية والمساجد التعليمية التي لا يكاد يخلو منها تجمع سكني، من أقصى الريف إلى أقصى الصحراء، فضلاً عن القرويين التي تستقطب الطلبة النابهين من مختلف جهات البلاد وتؤويهم في غرف مدارسها، وتحولهم من وفر أوقافها، بشهادة المسؤول الفرنسي عن التعليم الذي قال: «عند إمضاء عقد الحماية وجدنا أنفسنا أمام حالة واقعة، إذ وجدنا أمامنا بفاس جامعة القرويين التي زودت دول الإسلام الإفريقية طوال عشرة قرون بقادة الفكر، كما وجدنا أيضاً في الحواضر والبوادي عدداً كثيراً من الكتاتيب القرآنية يمدها السلطان أو الأوقاف أو مطلق الناس بما تحتاج إليه. نعم وجدنا أنفسنا أمام مجموعة زاهرة بديعة من المدارس كبرى وصغرى تعمل تحت ظل الأحياء الحضرية أو تحت خيام المداشر...».

انزعج المستعمرون من هذه الوضعية التعليمية لأنها تعارض وتنافي تماماً مخططاتهم، إذ هي قائمة على الإسلام وهم يريدون أن تحل المسيحية والإلحاد محله، وقائمة على العربية وهم يريدون أن تستبدل بها الفرنسية. لذلك عمل ليوطي على تحطيم هذه الوضعية وهو يضع الخطوط العريضة للسياسة التعليمية الجديدة فقال: «إن العربية أداة لنشر الإسلام، لأنها لغة يقع تعليمها بالقرآن. فمصلحتنا تقضي علينا بأن نطور البرابرة خارج إطار الإسلام. ومن الوجهة اللغوية يجب علينا أن نتجه إلى الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية. ويجب إنشاء مدارس فرنسية بربرية تعلم فيها الفرنسية للفتيان البرابرة...».

هكذا أنشأ المستعمر مدارس لتعليم اللغة الفرنسية وجعلها نوعين: مدارس حضرية لأبناء الأعيان، حصص العربية فيها ضئيلة جداً، ومدارس قروية بالمناطق البربرية، العربية فيها ممنوعة منعاً باتاً. وفي كلا النوعين من المدارس لا يقبل إلا عدد محدود جداً من التلاميذ حتى لا ينتشر التعليم ولو مفرنساً، ويكتفى بتخريج أطر صغيرة تستخدمها إدارة الحماية في تعاملها مع الأهالي.

وفي نفس الوقت استحوذت سلطات الحماية على الأوقاف الأسلامية بواسطة مندوب عمل بشتى الوسائل على قطع المدد عن القرويين والمساجد والكتاتيب، فأهملت، وتوقفت فيها أعمال الصيانة والتجهيز، بله الإنشاء

والتشيد، وحذفت رواتب المدرسين أو جمدت في مبالغ تافهة لا تسمن ولا تغني من جوع. فكانت النتيجة الحتمية انصراف المعلمين والمتعلمين عنها للبحث عن المعاش في ميادين أخرى. في حين أطلقت يد البعثات التبشيرية في طول البلاد وعرضها وخصصت لها ولبناء الكنائس والأديرة من الميزانية المغربية مئات الآف من الفرنكات في كل سنة. وقد حرر الأستاذ الشيخ المكي الناصري سنة 1935 صفحات مهمة في هذا الموضوع الخطير في كتابه الأوقاف الإسلامية بالمملكة المغربية، الذي ألفه باسم كتلة العمل الوطني.

انطلق عمل محمد الخامس ـ رحمه الله ـ في مقاومة سياسة الفرنسية والتمسيح من معاهدة الحماية نفسها التي تنص الفقرة الثانية من الفصل الأول منها على تعهد الدولة الحامية بالمحافظة على الحالة الدينية، وعلى احترام السلطان ونفوذه التقليدي، وممارسة الديانة الإسلامية والمؤسسات الدينية وبالأخص الأحباس، فكان سلاحه في مواجهة المستعمر الدين والقرآن مجسداً في عنصرين أساسيين: المساجد وضمنها جامع القرويين باعتبار أنها مواطن إقامة الشعائر الدينية، والكتاتيب القرآنية التي يلقن فيها أبناء المسلمين كلام الله ومبادىء دينهم.

وكانت محاولة أولى لإصلاح نظام التعليم بالقرويين عام 1332/ 1914 على أثر تعيين أول نائب للصدر الأعظم في المعارف شارك فيها علماء القرويين ووضعوا قانوناً من 102 مادة تناولت مختلف جوانب الدراسة، لكن المحاولة فشلت بسبب تدخل الفرنسيين الذين أبوا ألا يكون بجانب نائب الصدر أحد أعضاء الكتابة العامة لحكومة الحماية.

ونجحت المحاولة الثانية لإصلاح القرويين على يد محمد الخامس وذلك في مرحلتين: الأولى بإصدار ظهير 10 ذي القعدة 1349/29 مارس 1931 لتعيين مجلس علمي يشرف على القرويين، و «سن ضابط كفيل بتحسين حالتها فيما يرجع لانتخاب العلماء المدرسين، وتعيين الفنون التي تدرس فيها، والتآليف التي تقرأ بها، والأوقات التي تلقى فيها الدروس، وما يتعلق بذلك، صوناً لكيانها، وحفظاً لبهجتها ونضارتها، وحرصاً على دوام عمارتها، وتعظيماً

لشؤنها». وقد وضع المجلس الأعلى فعلاً الضابط أو القانون، المطلوب، تكون على أثره مجلس تحسيني للسهر على تطبيقه، فأصبح نظام التعليم في القرويين بفاس ثم ابن يوسف بمراكش مشتملاً على ثلاثة أطوار، طور أول من ثلاث سنوات، وطور ثان من ست سنوات، وطور عال من ثلاث سنوات في قسمين شرعي، وأدبي. تتوج امتحاناته بشهادة العالمية.

وفي المرحلة الثانية عين محمد الخامس ـ رحمه الله ـ للقرويين سنة 1942 مديراً ذا ثقافة عصرية هو الأستاذ محمد الفاسي، فخطت جامعة القرويين خطوات عملاقة في ميدان التنظيم والتجديد وتكاثر عدد طلبتها الوافدين من مختلف الآفاق. وفي محراب القرويين خطب محمد الخامس يوم 25 جمادي الآخر 1362 29 يونيه 1943 منادياً بضرورة تعليم الفتاة قائلاً: «لا رقي لشعب نصفه أشل» ففتح على أثر ذلك معهد الفتيات التابع لجامعة القرويين. كما فتحت قبل ذلك وبعده معاهد أخرى تابعة للقرويين بكل من مكناس وتطوان وطنجة وتارودانت.

أما الكتاتيب القرآنية فكانت كالقرويين محط عناية خاصة من محمد الخامس سن لها القوانين وأسند الإشراف عليها إلى مندوبية المعارف الإسلامية بالقصر الملكي، وظل يرعاها إلى أن أصبحت مدارس قرآنية علمية لها برنامج محدد يؤهل للشهادة الابتدائية. فكانت الروافد الأولى للقرويين والمعاهد التابعة لها، ثم تطورت إلى ما عرف في تاريخ الحركة الوطنية بالتعليم الحر. وهو تعليم عربي عصري نافس التعليم الفرنسي الرسمي وبذه كماً وكيفاً في سنوات معدودات.

ما زلت أذكر حين فتحت سنة 1945 «مدرسة الفتاة السلوية» أول مدرسة حرة للبنات بسلا أني مع الزملاء المدرسين كثفنا الجهود فأنهينا برنامج مندوبية المعارف في سنتين، وقدمنا في موسم الامتحانات تلميذاتنا للشهادة الابتدائية، كما قدمت مدرسة البنات الرسمية بسلا ـ وعمرها آنذاك يُنيف على ثلاثين سنة ـ تلميذاتها، فكانت نسبة نجاح مدرستنا الحرة سبعة أضعاف ما نجح في المدرسة الرسمية فكانت ضجة في المدينة وفضيحة للسياسة التعليمية الاستعمارية.

خاض محمد الخامس معركة القرويين والتعليم الحر بنفس طويل، ونظر بعيد، وصبر وأناة. فلم يكن يقنع أو يرضى بالنتائج المحصل عليها ـ على أهميتها ـ أو يلقي بسلاح العزم أمام تحديات المستعمر ومناوراته التي لا تنقطع، وكانت خطب العرش كل سنة مناسبة للتذكير بهذا الموضوع الذي يشغل حيزاً مهماً في تفكيره وبرامج عمله، فكان مما قاله في آخر خطبة له يوم 18 نونبر 1952: «. . . وقد علمنا ما كان للمعاهد الدينية من أثر في حفظ الشريعة ودفع الشبهات عنها، وبث الأخلاق الفاضلة، ونشر العربية، فوجهنا عنايتنا لجامعة القرويين التي كان لها الحظ الأوفر في المحافظة على كيان الحضارة الإسلامية، وإمداد البلاد بعلماء أعلام، كانوا مفخرة في تاريخ الإسلام. فما تركنا وسيلة ترد لها مجدها، وتعيد إليها سمعتها إلا اتخذناها، فوضعنا لذلك نظاماً توخينا فيه أن يساير المعاهد الدينية الناهضة في البلاد الإسلامية، وطبقناه في جامع ابن يوسف وفي معهدي مكناس وطنجة. وكان أملنا أن يزدهر هذا النظام ويعم تطبيقه سائر المعاهد في أمد يسير، لولا ما يعترض هذا العمل من عراقيل نحن جادون في تذليلها».

إذا كان محمد الخامس وهو على أبواب المنفى ما زال يهم بتذليل العراقيل، فقد كتبها الله له حسنة كاملة، وحفظ الله لهذا البلد الأمين كرامته الوطنية، وحضارته الإسلامية، ولغته العربية. **﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً﴾**.

محمد بن علي الدكالي السلوي
مؤرخ العدوتين

محمد بن محمد بن علي الدكالي السلوي من حفدة الأسر الدكالية النبيلة التي هاجرت إلى مدن الشمال، كسلا وفاس، حين داهم الاستعمار البرتغالي السواحل الغربية في القرن العاشر الهجري (16 م). ولد بسلا عام 1285 هـ / 1868 م، وتكون فيها على يد جلة شيوخ ذلك العصر، وفي مقدمتهم أحمد بن خالد الناصري مؤلف الاستقصا، وعنه ورث حب البحث التاريخي. كما قضى ست سنوات بفاس تتلمذ فيها على أعلام القرويين في مختلف العلوم الإسلامية. قبل أن يرجع إلى مسقط رأسه ليشتغل بالتدريس والشهادة والكتابة للباشا ولأمين صائر المحلة العزيزية، ثم الكتابة بالبنك المخزني، وبدار المخزن بفاس ثم بالرباط، والعضوية بالمحكمة العليا، وفي الصدارة العظمى ومندوبية العلوم والمعارف. وألف خلال ذلك كتباً كثيرة، ذكر الذين ترجموا له خمسة عشر منها. ومن المؤكد أن له رسائل وكتباً أخرى وقفنا على بعضها ومقالات تاريخية كان ينشرها بجريدة المغرب اليومية التي كانت تصدر بمدينة سلا وملحقها الأسبوعي عن الثقافة المغربية.

كان الفقيه ابن علي إضافة إلى تضلعه في مختلف فروع المعرفة واطلاعه الواسع على التراث العربي والمغربي الأندلسي بالخصوص، ذا حاسة تاريخية نقدية غريبة، فكان يقوم بأبحاث ميدانية فيما يخص تاريخ العدوتين. وكنا نحن السلويين كثيراً ما نراه يتجول في المقابر القديمة داخل أسوار سلا بجوار ضريح الشيخ أحمد ابن عاشر، أو خارج باب معلقة، فاحصاً عن الرموس المندثرة، قارئاً ما على الشواهد من كتابات وتواريخ. كما كان يتردد على المنشآت العتيقة

من مساجد ومدارس وزوايا وأضرحة، متخذاً من كل ذلك مادة تاريخية حية لمختلف مؤلفاته.

إن مما يثلج صدر المهتمين بالتاريخ أن معظم ما كتبه الفقيه ابن علي يتعلق بتاريخ العدوتين، ويتناول جوانب متنوعة جغرافية وطبونيمية وحضارية، انطلاقاً من بحث ميداني واستكشاف شخصي ـ كما رأينا ـ. إذا كان هذا يثلج الصدر، فإن من المؤسف المؤلم أن تُعد اليوم معظم مؤلفاته في حكم المفقود، ولم تمض على وفاته إلا عقود يسيرة من السنين.

لعل أهم مؤلفات الفقيه ابن علي كتاب **أدواح البستان، في أخبار العدوتين ومن درج فيهما من الأعيان**، في أربعة أجزاء ضخام، لا يُعرف مكانُهُ الآن، ولم يبق من أوصافه إلا ما كتبه أخونا الأستاذ عبد السلام ابن سودة في كتابه **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، وما تحدث به أخونا الأستاذ محمد ابن أبي بكر التطواني السلوي ـ مد الله في عمره ـ الذي وقف عليه وعرفه عن قرب لما كان له من صلة وثيقة بمؤلفه. ورد في الدليل نقلاً عما كتبه له مؤلف أدواح البستان: إنه «كتاب كبير جمع فأوعى، وشمل الغث والسمين، والأجاج والمعين، به أسماء رجال العدوتين ومن له تعلق بها من الأفاقيين الذين زاروها واستوطنوها في وقت من الأوقات ما ينوف على ألفي ترجمة لعلمائها وصلحائها وأدبائها وملوكها، ورجال الأسطول البحري الأندلسي السلاوي والعلوي السلاوي، ودعت الضرورة إلى البحث عن أول ما يعرف من تاريخ عمارتها القديمة من عهد الفينيقيين والقرطاجنيين والرومانيين في الدولة الأولى الغربية، والثانية البيزنطية الشرقية، إلى أن دخل الإسلام أفريقية والمغرب الأقصى. وتطرق البحث في آثارها إلى الكلام على الحياة بها قبل عصر التاريخ للعثور على ما يدل على ذلك من آثارها الفطرية الساذجة، فجاء جرمه في أربعة أجزاء ضخمة، والعمل فيه مستمر إلى الآن سنة 1359 هـ / 1940». وأردف الأستاذ ابن سودة قائلاً: أخبرني الأخ محمد بن أبي بكر التطواني ـ حفظه الله ـ

أن المؤلف أنهاه في ثمانين كراساً من القالب الكبير[1].

وقبل أن نتحدث عن الكتابين المعروفين الآن من كتب الفقيه ابن علي **إتحاف أشراف الملا، والإتحاف الوجيز** المحفوظين في قسم المخطوطات من الخزانة العامة بالرباط، نستعرض بإيجاز أسماء مؤلفات هذا العالم الجليل المتعلقة بتاريخ العدوتين، في قسمين:

الأول: ما ذُكر في ترجمته زيادة على **أدواح البستان**.

والثاني: ما وقفنا عليه مما لم يذكر مكتفين بالإشارة إلى رؤوس أقلام محتوياته اعتماداً على ما سجله المرحوم الأستاذ عبد السلام ابن سودة في معلمته القيمة أو حدَّث به بعض السلويين المعاصرين للمؤلف، أو قرأناه منها ببعض المكتبات الخاصة.

القسم الأول:

1) **أخبار بناء جامع حسان**، وصفه وصفاً كافياً مساحة، وعدد أبواب وسوارٍ، وذكر حالته الأولى وما طرأ عليه من خراب وأسباب ذلك.

2) **أنساب أهل العدوتين سلا والرباط**، رتبه على ستة أقسام: الأنساب المنقرضة التي لم تبق معروفة إلا في الرسوم والتآليف، والأنساب المشرفة على الانقراض، والنسبة إلى المدن والقبائل والحرف والصنائع، والنسبة إلى المصغر الذي دخله النحت والحذف في آخره، والأنساب الأندلسية التي بقيت على أصلها من الانتساب إلى المدن والقبائل والجهات والأقطار، والأنساب الأندلسية المحرفة بعجمة الإسبان.

3) **تاريخ المغرب في القديم والحديث من عصر الفينيقيين إلى عصر الإسلام**، وضمنه تاريخ سلا القديمة والحديثة.

---

(1) نقل الأستاذان المرحومان محمد وجعفر ابنا الشيخ أحمد بن خالد الناصري ترجمة والدهما في فاتحة طبعة الدار البيضاء للاستقصا، نقلاً حرفياً من هذا الكتاب وسمياه: **أزهار البستان في أخبار العدوتين ومحاسن الأعيان**، الأمر الذي يدل على تعدد أسماء هذا الكتاب، وهي متقاربة، وعلى إمكان وجود نسخة منه في الخزانة الناصرية بسلا.

4) **تخليد المآثر وتقييد المفاخر، لترجمة الشيخ شهاب الدين أحمد بن ناصر**، ترجم فيه لشيخه أحمد بن خالد الناصري مؤلف الاستقصا، وأطال بحيث يقع في مجلد وسط. والملاحظ أن ابني مؤلف **الاستقصا** لم يشيرا إلى هذا الكتاب في تقديم طبعة الدار البيضاء، **الاستقصا**.

5) **الدرة اليتيمة، في أخبار شالة الحديثة والقديمة**. ألفه بطلب من بعض المستشرقين، ولما اطلع عليه اليوطي أمر بأن يترجم إلى اللغة الفرنسية.

6) **السكك الإسلامية بالمغرب**، استوعب فيه الكلام عن السكك التي كان التعامل بها في المغرب، من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ولا شك أنه فصل القول في دار السكة السلوية التي أشار إليها إجمالاً في **إتحاف أشراف الملا**. ولعل مخطوط كتاب السكك محفوظ ببنك المغرب، لأنه ألفه بطلب من إدارة المالية يوم كان كاتباً بالبنك المخزني المغربي مع المندوب المخزني الأمين محمد بن عبد الهادي زنيبر.

7) **ضوء النبراس لدولة بني وطاس**. استوعب فيه الكلام عن تلك الدولة التي لم يتحدث عنها المؤرخون إلا باقتضاب لندرة أخبارها في المصادر. ومن المعلوم أن ما كان يعرف في التاريخ بأعمال سلا أي المنطقة الممتدة من نهر اللكوس شمالاً إلى وادي أم الربيع جنوباً كانت هي منطقة نفوذ الوطاسيين.

القسم الثاني:

الكتب أو المقالات التي لم تذكر في ترجمته ووقفنا على بعضها، أكثرها في الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، بخط المؤلف، جمعت في ملف باسم **نبذ من تاريخ سلا، للعلامة محمد بن علي الدكالي**، منها:

- **أهم مصادر تاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية دولة السعديين**، وفيها عدد غير قليل من كتب المشارقة الذين تعرضوا لذكر المغرب عموماً وسلا خصوصاً، جغرافيين ومؤرخين وأدباء.

- **تاريخ المدرسة المرينية بطالعة سلا**، كراسة تامة كتبها جواباً عن سؤال إليه في شأن تاريخها.

ـ جنا الجنتين من تاريخ سلاذات العدوتين، لا توجد منه سوى الورقتين الأوليين بخطه، افتتحه بأربعة أبيات أنشده إياها صاحبه القاضي الأديب أبو بكر بوشنتوف السلوي لبعض الأدباء الفاسيين يمدح سلا. . . بدلاً من البيت الذي كان يريد أن يفتتحه به، وهو:

لو كل كلب عوى ألقمته حجرا   لأصبح الصخر مثقالاً بدينار

وهذا الكتب رد عنيف على بعض معاصريه ممن يكابر ويحرف النصوص لأغراض سافلة.

ـ رد آخر على بعض المؤرخين المعاصرين له، أنكر أحدهم أن يكون يحيى بن مسعود الغرناطي هو السيد يحيى دفين شالة، والثاني هو المؤرخ الأثري الفرنسي الذي ملأ كتابه عن شالة بما سرق من كتابات الفقيه ابن علي حتى قال فيه: «فلو تكلفت التشطيب على ما سرقه من كلامي في التاريخ الكبير وتأليفي الدرة اليتيمة في أخبار شالة الحديثة والقديمة من أول فقرة إلى آخر الكلام على خراب شالة لم يبق له في تأليفه إلا قشور كلامه التي كلها تمشدق بكلام الغير، وتبجح بما لا يَدَ لَهُ فيه إلا التطفل على كلام الناس».

ـ لمحة من تاريخ سلا، وهي كراسة تامة أجاب بها عن أسئلة وجهت إليه عن حقيقة سلا وأولها، وباني سلا الحديثة، ومن سكن بها أولاً وبنى فيها مع ترتيب الحومات، ومن يسكنها الآن، والقبائل المجاورة لها، والكشف عن حقيقة صنائع أهل سلا، وحال العلوم بها.

ـ مقالة حول الشموع المزخرفة التي جرت العادة بسلا أن يطاف بها ليلة المولد النبوي، أجاب بها عن سؤال وجه إليه في ذلك. وهي غير المقالة المنشورة في جريدة المغرب السلوية التي ما زال بعضهم يسلخها ويمسخها بمناسبة عيد المولد كل سنة.

ـ مقالة حول القصبة الإسماعيلية خارج باب سبتة المجاورة لضريح سيدي موسى الدكالي.

ـ مقالة عن الصبيحيين السلويين وتسلسل العلم فيهم طوال زهاء قرنين.

وللفقيه ابن علي كتاب آخر باسم السفينة المنجية في أخبار أهل الزاوية

الحجية، أشار إليه في إتحاف أشراف الملا في آخر الترجمة المطولة التي عقدها للشيخ أحمد حجي فقال:

ولي بذا الشيخ الجليل منتسب	فـإنـه الجـد لأمـي واقتـرب
جمعـت تـأليفـاً بـرسـم خبـره	ومـا تبـدي بعـده مـن أثـره
لأن حـالـه عظيـم جـدا	وفضلـه لعصـرنـا تبـدى

عندي صفحات من أوائل هذا الكتاب بخط مؤلفه. يعتمد فيه أساساً على الكتابات المنقوشة في ضريح الشيخ، وكناشة علمية لأحد العلماء البوزيديين السلويين.

وفي الخزانة العلمية الصبيحية بسلا مصدر آخر لآثار الفقيه ابن علي التاريخية والأدبية في الكنانيش العلمية للأديب المرحوم أحمد بن محمد الصبيحي. بل تعد هذه الكنانيش بحق مصدراً مفيداً جداً في تاريخ العدوتين بما اشتملت عليه من تقاييد مضبوطة لمعاصرين، ونقول موثقة عن آخرين قدامى. وقد أطلق عليها كلها صاحبها اسماً عاماً هو كشكول الصبيحي، وخصّ كل كناش باسم، فالأول: سماه الفالوذج، والثاني: الدرر، والثالث: الروض، والرابع: مسك دارين، والخامس: نسيم السحر. وهي مليئة علماً وأدباً. وللأديب أحمد الصبيحي ـ في الخزانة الصبيحية كذلك ـ كتاب بخطه سماه: **نموذج في تاريخ سلا**، استهله بمقدمة اعتمد فيها على المؤرخ ابن علي، ثم ذكر أسماء عدد كثير من صلحاء سلا وعلمائها، اثنين في كل صفحة تاركاً بياضات لعله كان يريد الرجوع إليها متى وجد المادة الضرورية.

وسبق أن وقفت في الخزانة العامة بالرباط على كناشة علمية للمؤرخ ابن علي ذكرتها ضمن مصادر كتابي عن **الزاوية الدلائية**، ونشرت صفحة منها بخطه في هذا الكتاب تتعلق بزعم تنصر أمير دلائي.

بقي أن نقول كلمة مختصرة عن الكتابين الموجودين:

ـ الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين المهدي لمولانا عبد العزيز.

يتضمن هذا الكتاب المختصر أهم ما في الكتاب المطول حدائق البستان،

وهو مرتب مثله على مقصدين وخاتمة:

المقصد الأول في تاريخ العدوتين: سلا وشالة منذ الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والودنال والبزنطيين إلى مجيء الإسلام. وترجيح بناء هاتين المدينتين من قبل الرومان بأدلة ساقها وناقشها باختصار، محيلاً على بسطها في الحدائق . . . ثم تعرض للديانات القديمة في المنطقة قبل الإسلام، وحالها مع تعاقب الدول الإسلامية منذ الأدارسة حتى العلويين، وبعد تأسيس الرباط من طرف الموحدين صار يطلق اسم العدوتين على سلا والرباط، ويسميهما معاً أحياناً سلا بعدوتيها، وبعد أن سمى سبب التسمية سلا وشالة والرباط وأتى بأدبيات كثيرة، ذكر حال أهل العدوتين في العلوم والصنائع والتجارة قديماً وحديثاً، والأوصاف العامة لأهل العدوتين، وما اختص به أهل سلا، والأبنية الضخمة فيهما.

والمقصد الثاني خصصه لتراجم الأعيان الذين سكنوا العدوتين مبتدئاً ببني العشرة السلويين ومنتهياً ببعض المعاصرين في سلا والرباط. وآخر ترجمة لقاضي سلا الأديب محمد الجريري شارح الشمقمقية، ولا توجد في الكتاب خاتمة.

- وإتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا، أرجوزة في نحو ثلاثة آلاف بيت بناها على عشرة مقاصد ورمى بها إلى الرد على لسان الدين بن الخطيب الذي نال من سلا في مقامة المفاضلة بين مالقة وسلا الشهيرة. ابتدأها بفذلكة تاريخية مختصرة لمنطقة العدوتين من بداية التاريخ إلى اليوم، وجغرافيتهما وحضارتهما المتمثلة في العلوم والصنائع والعمران، وخصص المقصد السادس لما يفتخر به. وهنا ذكر أمجاد العدوتين على عهد الروم والأدارسة وبني يفرن والمرابطين والموحدين ثم العلويين باسطاً القول في الأسطول الجهادي والتجاري، وتطوره مع مجيء الأندلسيين في القرن الحادي عشر وتعمير الرباط. . . .

وبعد فإني أظن من المفيد، في غياب أهم كتب الفقيه ابن علي، أن يوضع كتاب تجمع فيه وترتب النصوص التاريخية التي عثر عليها مفردة أو مستخرجة في كنانيش أو غيرها، حتى لا تتبدد مع مرور السنين، وعسى الله أن يوفقني ويعينني على القيام بذلك.

عبد الله كَنّون
والحس التاريخي(*)

الأستاذ عبد الله گنون ـ رحمه الله ـ من الشخصيات العلمية الفذة التي لا يجود الزمان بمثلها إلاّ نادراً وفي فترات متقطعة من التاريخ. فهو وإن كان من البيوتات العلمية الماجدة بفاس، إلا أنه خرج منها وهو ابن خمس سنوات مع والده الشيخ عبد الصمد، الذي هاجر مسقط رأسه على إثر فرض الحماية، ونزل في طنجة كمرحلة في طريقه إلى الحجاز، لكن شاءت الأقدار أن يستقر بهذه المدينة. وبذلك نشأ عبد الله گنون في طنجة، بلد السياسة والديبلوماسية وملتقى الأجناس، فكان تعلمه مزدوجاً: تكوين تقليدي على يد والده الذي أحيا الله به ذماء العلم في مدينة البوغاز التي انقطع فيها التدريس والتأليف قرابة عشرين سنة؛ وتكوين حديث يعتمد فيه على نفسه، ويختار من أمهات الكتب ما يكمل به النقص الذي اتسمت به الدراسة العتيقة على متانتها وجودتها. وفي هذا الاختيار ظهر الحس التاريخي عند عبد الله گنون ووضعت اللبنات الأولى لهذا الصرح المعرفي الذي سيشيده استقبالاً وينال به قصب السبق دون منازع.

وإذا كنّا لا نعرف قائمة الكتب التي كانت تسترعي اهتمام عبد الله گنون في هذه المرحلة التكوينية، أو على الأقل لم أطلع عليها شخصياً، فإنه يمكن أن نستشف من خلال كتاباته المبكرة في الدوريات المغربية، وهي كتابة متنوعة تتصل بالآداب والتاريخ، وتفتح آفاقاً جديدة لذهن هذا الطالب النهم الذي يأبى إلاّ أن يتعرف على كل شيء. ليس غرضي في هذه الكلمة الوجيزة أن أتتبع مقروءات الأستاذ عبد الله گنون في مرحلة تكوينه أو أحللها، ولكني أجتزىء

(*) ألقي في حفل تأبين العلامة المرحوم عبد الله گنون في طنجة.

بالجانب التاريخي فيها لأخلص إلى الحديث عم عملين ذوي صبغة تاريخية من أعماله العلمية الكثيرة، هما كتاب **النبوغ المغربي** و**مادة الإسلام في معلمة المغرب**.

من أقدم آثار عبد الله كنون التي أمكنني الإطلاع عليها ما كتبه في مجلة السلام التطوانية التي كان يصدرها أوائل الثلاثينات بتطوان صديقه المرحوم الأستاذ محمد داود. وكان كنون غالباً ما يحرر أكثر من مقال في العدد الواحد، وكلها ذات صلة قريبة أو بعيدة بتاريخ الإسلام عموماً وتاريخ المغرب بصفة خاصة.

كتب في العدد الأول من **السلام** عن يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد، وفي العدد الثاني عن الأديب أبي جعفر ابن عطية كاتب المرابطين وصهرهم. وفي الباب الذي كانت السلام تعقده تحت عنوان التهذيب والإرشاد حرر عبد الله كنون عدة مقالات بل كاد يكون وحده المحرر لهذه السلسلة من المقالات، التي ظاهرها وعظ وإرشاد، وباطنها تربية وطنية سياسية ما كانت السلطات الاستعمارية تسمح بنشرها لولا ذلك الغطاء الديني المحكم.

إن الكتابة عن ابن تاشفين وابن عباد وابن عطية كانت تقتضي قراءات معمقة في كتب التاريخ والأدب، أمثال **المعجب** لعبد الواحد المراكشي، و**القرطاس** لابن أبي زرع، و**نفح الطيب** لأحمد المقري وأضرابها. وهو وإن لم يصرح بها فهي بادية الملامح في كتابته. وبالعكس من ذلك نجده يتخذ طريقة أخرى في مقالات التهذيب والإرشاد، فيبني كل واحدة منها على حادثة تاريخية يذكر مصدرها. ففي مقالة **يوم المصاف أم ليلة الزفاف** تحدث عن جهاد السلف الصالح وإقباله على الدفاع عن حمى الإسلام بشوق وتفان، اعتماداً على رواية حاتم مع الصوفي المجاهد شقيق البلخي آخذاً من كتاب **فوات الوفيات**، كما اعتمد على سير ابن هشام وغيرها في مقالة **القضاء في الإسلام** التي شرح فيها سبق الفقه الإسلامي في مراعاة ظروف التخفيف في العقاب، انطلاقاً من اجتهاد عمر بن الخطاب حين سرق رقيق لحاطب ناقة رجل من مزينة فانتحروها فأمر بقطع يد السارقين ثم رجع عن ذلك إلى الغرم بعد أن اتهم سيد الرقيق

بتجويعهم. واجتهد عمر أيضاً فمنع ولاته عام الرمادة من حد السارق، واعتمد عبد الله كنون فيما كتب في هذه السلسلة عن الشمم وحفظ الكرامة على ما ورد في كفاية المحتاج لأحمد باب السوداني أثناء ترجمة خطيب القرويين أحمد بن سعيد الحباك المكناسي، وقاضي فاس محمد القوري، وكانا قد عزلا معاً في يوم واحد، ثم طلب من الحباك أن يتولى خطابة جامع الأندلس فأبى وقال إن كان عزلي لجرحة فلا يحل لكم تقديمي وإن كان عن غير جرحة فقبولي من قلة الهمة.

يتجلى من هذه الأمثلة القليلة أن عبد الله كنون كان عصامياً في توسيع آفاقه المعرفية وتكوين نفسه تكويناً موسوعياً يحتل فيه الحس التاريخي مكاناً بارزاً منذ مرحلة التجربة والمرّان إلى مرحلة النضج والتفتح والتبريز.

كانت كتابات عبد الله كنون التاريخية في مجلة السلام وفي جريدة المغرب، وملحقاته الثقافية وغيرها إرهاصاً لعمل عظيم سيتمخض عن ذهنه الثاقب، آلا وهو كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي هذا الكتاب الذي هو بحق حادث خطير في تاريخ المغرب. . . .

فما هو كتاب النبوغ المغربي؟ وما حظ التاريخ فيه؟

يجيبنا المؤلف عن السؤال الأول في مقدمة الطبعة الأولى بقوله: «هذا كتاب جمعنا فيه بين العلم والأدب والتاريخ والسياسة، ورمينا بذلك إلى تصوير الحياة الفكرية لوطننا المغرب وتطورها في العصور المختلفة من الفتح الإسلامي إلى قريب من أيامنا هذه».

إنه في الواقع مزيج من كل ما ذكر: علم وسياسة وأدب وتاريخ صهرها المؤلف في بوتقة التعريف بالمغرب لغرضين اثنين: أحدهما داخلي القصد به إثبات الهوية والكيان أمام المستعمر الذي أخذ يجتهد في طمس معالم هذه البلاد، وتحطيم صرح وحدتها بابتداع سياسة التفرقة بين عناصر السكان وإحياء الأعراف الجاهلية: سعياً في النهاية إلى القضاء على سر تماسك هذه البلاد وقوتها المتمثل في الإسلام ولغة القرآن. والغرض الثاني خارجي استهدف إطلاع إخواننا المشارقة على مدى إسهام علماء المغرب وأدبائه في التراث

العربي الإسلامي عبر الحقب والعصور، بل إبراز سبق المغاربة وتفوقهم على المشارقة في غير ما ميدان من ميادين المعرفة. وهذا افتراض آخر لتسمية الكتاب بالنبوغ إلى جانب الافتراض الوجيه الذي أتى به الأستاذ محمد العثماني أمس.

وقد حقق كتاب النبوغ الهدفين المتوخيين: ضايق المستعمرين وأفسد عليهم خططهم وأتاهم من الحجج التاريخية الدامغة بما لا قبل لهم به فلم يجدوا بداً من استصدار قرار عسكري يمنع رواج الكتاب ويعاقب على اقتنائه أو قراءته فيما كان يسمى بمنطقة النفوذ الفرنسي. ومن جهة أخرى أمد النبوغ علماء المشرق بالمادة التي كانت تعوزهم عن الحركة الفكرية بالمغرب نصوصاً نثرية وشعرية، وأسماء مؤلفات ودواوين، وقوائم طويلة بالمصادر المنشورة وغير المنشورة. وأصدق دليل على اغتباط المشارقة بالنبوغ وإعجابهم به ما كتبه عنه أمير البيان الأمير شكيب أرسلان وعميد الأدب العربي طه حسين.

تكاد مادة كتاب النبوغ المغربي تكون كلها تاريخية، ولو أنها حررت بأسلوب أدبي صرف، فالقسم الأول عبارة عن خلاصة للأحداث السياسية والدول المتعاقبة على الحكم في المغرب مع الإشارة إلى أبرز الشخصيات وإنتاجها العلمي والأدبي. وحتى القسم الثاني المتعلق بالنصوص يغلب عليه طابع التصنيف والتطور حسب العصور فهو أقرب إلى تاريخ الأدب منه إلى الأدب.

أما عمل المرحوم عبد الله كنون في معلمة المغرب فقد بقي ـ للأسف ـ محدوداً، إذ قَبِل ـ رحمه الله ـ أن يحرر للمعلمة عدداً من المواد التي تدخل في نطاق اهتماماته في مختلف الحروف، ولم ينجز منها إلاّ مادة واحدة في حرف الهمزة عن الإسلام في المغرب. وهي من أمتع وأفيد ما كتب في المعلمة، وربما كانت آخر ما كتب أو نشر له بعد وفاته رحمه الله، وفيها بلغ الحس التاريخي عند الكاتب ـ في نظري ـ أعلى درجات النضج والاكتمال.

عالج ـ رحمه الله ـ في هذا الفصل تاريخ الإسلام في المغرب الأقصى منذ الفتح إلى أيامنا هذه بكثير من الإيجاز، ومع ذلك ناقش عدداً من المسائل

الشائكة أو المستعصية في هذا المضمار. تطرق إلى الرواية الشائعة عن تاريخ دخول الإسلام رسمياً إلى المغرب مع عقبة بن نافع سنة 62 واستشكل تأخر هذا التاريخ بالنسبة لوصول الفاتحين إلى إفريقية في عهد ولاية عمرو بن العاص على مصر. مستغلاً نصاً جديداً من كتاب **الجمان في أخبار الزمان** للشطيبي عن إسلام بعض البربر وفدوا على عمر بن الخطاب بالمدينة. كما ناقش مسألة تمنع البربر عن الإسلام في البداية، وارتدادهم ـ حسب قولة ابن أبي زيد القيرواني ـ اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة. فربط ذلك بالحركات السياسية الواردة من المشرق كالشيعة والخرواج الذين كان أتباعهم يتسربون إلى المغرب عند انهزامهم محاولين إيجاد أنصار وإقامة عصبة مغربية يستندون إليها في توثباتهم على الخلفاء، حتى كان من نتيجة ذلك إقامة دولة خارجية صفرية بسجلماسة دولة بني مدرار التي استمرت إلى أوائل القرن الرابع. كما ربطها بحركة بورغواطة المناهضة للإسلام التي لم يقض عليها ـ في نظره ـ إلا المرابطون. والمعروف أنها استمرت إلى عهد الموحدين، وهم الذين أجهزوا عليها ومحوها.

وفي هذا الفصل من المعلمة أيضاً نقاش طريف حول دخول المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية للمغرب. وتطور الصراع الفكري والمنافسات المذهبية بالغرب الإسلامي كله خلال القرون الأولى، وحول دور المعاهد الدينية وعلى رأسها جامع القرويين في نشر العلم ورفع رايته وإشعاعها في إفريقيا الغربية، وأثر الطرق الصوفية التي نشأت في المغرب وكان لها أتباع كثيرون في تلك الأقطار.

وينتهي هذا الفصل من المعلمة بإبراز الدور الريادي الديني والعلمي المغرب في إفريقيا، وما جره عليه من مصاعب ومتاعب، خصوصاً في الفترة المتأخرة، من تقسيم إلى مناطق نفوذ لم يقع مثله في أي قطر آخر، ومؤامرة السياسة البربرية، وحملات التنصير، وباستئناف هذه الرّيادة بعد أن تغلب المغرب على تلك المصاعب باسترجاع الاستقلال والوحدة.

رحم الله الأستاذ عبد الله كنون العالم المشارك، والمسلم الملتزم، ما كان أحرصه على الخير والإفادة، وأثابه على عمله الصالح النافع جزاءً لا ينقطع.

محمد داود التطواني

لعل الجانب الصحفي في شخصية المرحوم الأستاذ محمد داود التطواني لا يقل أهمية عن الجانب التاريخي ولو أنه شهر بمعلمته الكبرى عن تاريخ تطوان. وقد عثرت أخيراً على ثلاث رسائل وجهها خلال عام 1354 هـ / 1935 ـ 1936 م إلى السياسي الشهير الصحفي القدير المرحوم الأستاذ محمد حسن الوزاني تدور كلها حول الصحافة الوطنية في ذلك العهد. وقبل أن نقدم صور هذه الرسائل كوثائق تؤكد، من جهة، وحدة التفكير لدى الوطنيين المغاربة أثناء عهد الحماية في كل من منطقتي النفوذ الإسباني والفرنسي، وقيام تعاون وثيق، من جهة أخرى، بين الوطنيين في المنطقتين. أقول قبل ذلك نبين ظروف الصحافة الوطنية عند تبادل هذه الرسائل.

ففي سنة 1933 وأوائل سنة 1934 لم تكن هناك سوى جريدة وطنية واحدة تصدر في فاس باللغة الفرنسية لمحمد حسن الوزاني هي عمل الشعب لسان الحركة الوطنية الموحدة آنذاك، ومجلة وطنية واحدة تصدر في تطوان باللغة العربية لمحمد داود، هي السلام التي كانت تفسح المجال للوطنيين في منطقة الحماية الفرنسية لينتقدوا على صفحاتها بعنف السياسة الاستعمارية الجائرة. وقد انضمت إليها بعد ذلك (ابتداء من مارس 1934) جريدة الحياة في تطوان لعبد الخالق الطريس.

كان التجاوب عميقاً بين صحيفة فاس ومجلة تطوان، تردد هذه الأخيرة ـ رغم طابعها الأدبي ـ صدى الانتقادات السياسية المرة التي توجهها عمل الشعب لتصرفات الحماية الجائرة بصفة عامة وللمعمرين الفرنسيين بصفة خاصة. بعد أن استولى هؤلاء على أحسن أراضي المغرب الفلاحية التي كانت

في ملك الأحباس أو الأفراد أو الجماعات عملاً بقانون «نزع الملكية» الاستعماري، راحوا بعد ذلك يطالبون رجال السلطة بامتيازات خيالية مدللة كإعفائهم من الضرائب، ومضاعفة الإعانات المختلفة المقدمة إليها من ميزانية الدولة المغربية. . . إلخ وتطورت هذه الحركة الاستعمارية إلى ما عرف بمظاهرات «المعمرين المجزوزين» بشوارع الرباط. وتحرشاتهم الإجرامية بالوطنيين ومحاولة اغتيالهم بفاس. كل ذلك كان يجد صداه في «السلام» معززاً بالصور والتعاليق اللاذعة.

وكان نهاية ذلك الكفاح الوطني المشترك صدور قرار السلطات العسكرية الفرنسية بالمغرب بتاريخ 16 ماي 1934 بمنع صدور عمل الشعب، وبمنع دخول مجلة السلام وجريدة الحياة التطوانيتين إلى المنطقة السلطانية (منطقة النفوذ الفرنسي).

في هذا الإطار المشحون بتعسف المستعمرين وطغيانهم جرت المراسلات بين صاحبي السلام و عمل الشعب التي ننشرها اليوم، وليست ـ بالتأكيد ـ هي كل ما تبادله الصحفيان الوطنيان، فهذه الرسائل الثلاث تحمل الأرقام 41و85و94 وتواريخ تمتد عبر النصف الأخير من العام الهجري 1354. فإذا صح تقديرنا اختصاص هذه الأرقام المتسلسلة بالرسائل الموجهة من محمد داود إلى محمد حسن الوزاني فسيكون عدد المراسلات السنوية بينهما حوالي مائة من هذا الجانب ومائة من ذاك الجانب، ومعناه وجود ثروة هائلة من الوثائق ستثرى ـ إن نشرت كاملة ـ البحث التاريخي المتعلق بالحركة الوطنية المعاصرة.

تتحدث الرسالة الأولى (رقم 41 بتاريخ 24 رجب 22/1354 أكتوبر 1935)عن المحاولات التي يقوم بها محمد داود مع السلطات الإسبانية في تطوان للسماح له بإصدار جريدة تحمل اسم الأيام، وتعثر هذا المسعى بسبب طلب مماثل تقدم به عبد الخالق الطريس بأثره، فأثار شكوك المستعمرين الإسبان وتخوفاتهم وجمدوا الطلبين معاً بدعوى انتظار جواب مدريد في الموضوع.

وتؤكد الرسالة الثانية (رقم 85 بتاريخ 17 ذي القعدة 10/1354 فبراير 1936) استمرار موقف التجميد الإسباني لإصدار جريدة الأيـام وعدم يأس صاحب المشروع منه رغم مرور شهور، وعزمه على تعويض مؤقت «للأيام» بإصـدار السـلام نصف شهرية، بحيث يبقى العدد الشهري العادي على حاله، ويصدر عدد آخر كملحق به.

بينما تحمل الرسالة الثالثة (رقم 94 بتاريخ 6 ذي الحجة 29/1354 فبراير 1936) بشرى الحصول رسمياً على الإذن بإصدار جريـدة الأخبـار ـ بدل الأيـام ـ التـي ستصدر أسبوعية ـ مؤقتاً ـ في 8 صفحات، وتحديد يوم 15 مارس 36 لصدور أول عدد منها. ويطلب محمد داود من زميله محمد حسن الوزاني أن يفي بعهده السابق بتحرير مقال في السياسة الخارجية، وأنه سيترك «على الأقل» عمودين لهذا المقال.

وفيما يلي صورتان لرسالتين من هذه الرسائل:

رقم 65

محمد داود
MOHAMMAD DAUD
صندوق البريد 8 APARTADO
تطوان (المغرب)
TETUÁN (Marruecos)

حرر بتطوان في 17 شعبان 1356 موافق

سيدي الأخ الأستاذ   السلام عليكم ورحمة الله

(الآن وقد عزمنا على إصدار (السلام) قصة شهرية، وبقيت عدة شهور على
وعدد آخر ملحق له»، وذلك ريثما تسمح الحكومة لنا بإصدار
(السلام) الأسبوعية، فالمرجو من حضرتك أن تبعث إلينا ما
تحصل لديكم [illegible] المستشرق مشفوعا بإرشاداتكم النافعة.
موعد صدور المجلة أواخر شعبان أو أوائل [illegible]
وفقت أيها العزيز [illegible] نشيطا   محمد داود

رقم 66

محمد داود
MOHAMMAD DAUD
صندوق البريد 8 APARTADO
تطوان (المغرب)
TETUÁN (Marruecos)

حرر بتطوان في 6 ذي الحجة 1356 موافق

سيدي الأخ الأستاذ   السلام عليكم ورحمة الله

يسرني أن أخبركم بأنني قد حصلت رسميا على الإذن بإصدار جريدة (الأخبار).
ومنتظر الصدور [illegible] بحجم الحياة [illegible] الأمر
[illegible] لمدارس [illegible]
وأذكر لكم أن الأخ المحترم [illegible] السلطان [illegible]
[illegible] السياسة الخارجية. [illegible]
بأخبار [illegible] المتفرنج [illegible] العزيز
[illegible]   محمد داود

محمد إبراهيم الكتاني
ومزاياه في التعريف بالمخطوطات المغربية

قصدت إلى كلمة مزايا في عنوان العرض قصداً، واستبدلتها بعدد من المفردات المعبرة عن الفعالية والتأثير. لأن مزايا تذكرنا بأمرين: المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا، وهي مخطوطة للأستاذ المحتفى به أكثر من علاقة بها. فقد كانت «أم الزوايا» أي الزاوية الناصرية بتامكروت أول مجال للرحلات الاستكشافية التي قام بها الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني للتعريف بالمخطوطات المغربية كما سنرى. كما كان مؤلف «المزايا» الشيخ السني السلفي محمد بن عبد السلام الناصري أشبه الناس بالأستاذ المحتفى به في الدعوة إلى الرجوع إلى ينابيع الإسلام الأولى وعقيدة السلف الصالح. ذلك كان سلفيّ القرن الثامن عشر، وهذا في طليعة سلفيي القرن العشرين.

وتذكِّر كلمة «المزايا» كذلك بأحد كبار علماء المغرب الذي كانت له في ميدان المخطوطات صولات وجولات، المرحوم بكرم الله محمد المختار السوسي الذي كان وثيق الصلة بالأستاذ محمد إبراهيم الكتاني منذ عهد الشباب والطلب، فكان يدعوه كسائر إخوانه في الخلايا الوطنية الأولى أبا المزايا، وتمتنت الصلات العلمية أكثر في مرحلة البحث والتأليف، فكانت هدايا عالم فاس لأخيه عالم سوس تجري بما يكتشفه من نفائس المخطوطات، وكان محمد المختار السوسي يطرب لها ويعدها من أعظم المنن والمزايا، ويدعو صاحبها أبا المكارم والمزايا.

هذه إذن تحية أقدمها بين يدي نجواي لأبي المزايا. ثم أخلص للحديث عن عمله في المخطوطات. لكن من أين أبدأ؟ وما هي مرحلة المخطوطات في المسار العلمي الطويل لهذا الباحث المنقب المتجول الذي لا يعرف التوقف

والسكون، أو الراحة والاستجمام. لقد كانت المخطوطات على مرأىً منه ومسمع وهو ما يزال في المهد صبياً، فكانت من أول ما تعرف عليه ووعاه، مع والديه وعشيرته الأقربين، أليس هو ابن الشيخ أحمد ابن جعفر الذي خلف من مؤلفاته أزيد من مائة مخطوط، أليس هو ابن أخي الشيخ محمد بن جعفر صاحب سلوة الأنفاس، وما لا يكاد يحصى من المؤلفات في مختلف ميادين المعرفة. أليس هو حفيد الشيخ جعفر بن إدريس عالم فاس ومحدثها الكبير الذي تضرب بمؤلفاته الأمثال. ثم أليس هو من تلك الشعبة الكتانية الشريفة التي تسلسل العلم والتأليف فيها قروناً لا يدري مداها إلاّ من قرأ مخطوطات نظم الدر واللآل في شرفاء عقبة بن صوال؛ والإشراف على بعض من بفاس من مشاهير الأشراف لمحمد الطالب بن حمدون بن الحاج؛ والنبذة اليسيرة النافعة، التي هي لأستار جملة من أحوال الشعبة الكتانية رافعة، لمحمد بن جعفر الكتاني، لا سيما الجزء الثاني من هذا الكتاب الأخير الذي يترجم لعلماء هذه الأسرة الشريفة ويلتزم بذكر مؤلفاتهم.

ومع ذلك فإني أقصر الحديث عن عمل الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني في ميدان المخطوطات على فترة ما بعد الاستقلال. ولو أن في ذلك شيئاً غير قليل من التعسف والتجاوز. وأقسم كلامي عن هذه الفترة ـ بكل إيجاز ـ إلى قسمين.

أشير أولاً إلى أعماله في اكتشاف المخطوطات المغربية والتعريف بها في الداخل والخارج مع سرد بعض الأمثلةاللازمة لتشخيص هذه الأعمال، وأتحدث ثانياً عن تجربتي الشخصية مع سيدي إبراهيم في ميدان المخطوطات.

عُين الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني محافظاً لقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط سنة 1957 خلفاً لمستعرب فرنسي، فكانت أمامه ثلاث مهمات:

إعادة تنظيم هذا القسم الذي فقد في سنوات الحماية الأخيرة الكثير من أمهات مخطوطاته ونوادرها.

ـ إغناؤه عن طريق اقتناء مخطوطات جديدة. وفي هذا المضمار تذكر فتشكر جهود العالم المرحوم السيد محمد بن أبي بكر التطواني السلوي،

واجتهاد الأستاذ المحتفى به، وهو الخبير بما تحتوي عليه الخزائن الخاصة من نفائس المخطوطات في تصوير ما أمكن تصويره منها على الشريط أو الورق.

ـ فهرسة هذه المدخرات في جذاذات تعرف بها، بعد أن توقفت هذه العملية أواخر عهد الحماية.

وإلى جانب هذه المهام المكتبية كان لا بد من القيام برحلات استكشافية إلى الخزائن العلمية الكبرى، ومعظمها في البادية، للتعرف عليها أو على ما بقي فيها، ومحاولة تنظيمها والتعريف ببعض نفائسها. وكان للأستاذ محمد إبراهيم الكتاني في هذه الجولات، إلى جانب بعض العلماء المتخصصين، الحظ الوافر والقدح المعلى.

تأتي في الطليعة الرحلة إلى الزاوية الناصرية بتامكروت، أم الزوايا وفيها اكتشف الأستاذ المحتفى به تاريخ خليفة ابن خياط، من شيوخ الإمام البخاري، وعنده روايات عن الفتوحات الإسلامية تخالف ما عند ابن جرير الطبري. وآخر من نقل عنه أبو عمر ابن عبد البر قبل أن يسدل عليه الستار. هذه المخطوطة المكتشفة كتبت بقرطبة، وهي جيدة فريدة لا ثاني لها في خزائن العالم. وقد اشتغل بتحقيقها بعض الباحثين العرب وطبعت بالشام ثم بالعراق.

ثم زار الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني خزانة الزاوية الحمزاوية بجبل العياشي جنوبي ميدلت. وهي من تأسيس الرحالة الشهير أبي سالم العياشي مؤلف ماء الموائد. وفيها اكتشف المحتفى به نسختين من ديوان شاعر مغربي صوفي من جبل العلم انتقل إلى بيت المقدس ـ في تاريخ غير محدد ـ واستقر به، حيث ما يزال أحفاده هناك وفي القاهرة. هذا الديوان الذي تأتي أشعاره على نفس أشعار ابن الفارض، ظل مغموراً لا يعرف عنه شيء ولا عن صاحبه، ولا ثالث لنسختي الزاوية الحمزاوية فيما يقرأ من فهارس خزائن العالم. وما أحراه بالتناول والتحقيق، لا سيما وأنه يعد حلقة في سلسلة تاريخ الشعر الصوفي الإسلامي عامة والمغربي خاصة، وشاهداً على العلاقات الثقافيّة بين المغرب والمشرق.

وفي خزانة بزو، وقف الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني ـ من بين مخطوطاتها ـ على كتاب البرصان والعرجان للجاحظ. وهو كتاب لم يكن يعرف إلا اسمه، بحيث إن مخطوطة بزو تعد فريدة في العالم. فتهافت عليها علماء التراث ونشرت مرتين.

ولا يتسع المجال لذكر رحلات أبي المزايا إلى خزائن زاوية تانغملت بضواحي بني ملال، والجامع الكبير بمكناس، والجامع الكبير بتازا، وضريح مولاي عبد الله الشريف بوزان، وما اكتشف في هذه الخزائن من نوادر المخطوطات، وإنما نشير إشارة خاطفة إلى بعض رحلاته خارج المغرب.

زار الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني جامعة الجزائر لحضور تأبين الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ ومن ثم نزل إلى إحدى زوايا الصحراء بالقرب من بسكرة، فاطلع من بين مخطوطاتها على كتاب منهاج الرسوخ في الناسخ والمنسوخ لأبي العباس العزفي أمير سبتة، وهو من النوادر التي لم تعرف قبل، بل لم ينسبه إلى العزفي حتى الذين ترجموا له من المغاربة وغيرهم. وقد تمكن من إحضار هذا المخطوط إلى المغرب وتصويره للخزانة العامة بالرباط.

وزار الأستاذ الكتاني ليبيا فتوجه إلى جغبوب مقر الزاوية السنوسية وخزانتها الكبرى. وفيها وقف على مخطوطات مغربية عديدة، ومؤلفات الشيخ المجاهد محمد بن علي السنوسي تلميذ الشيخ أحمد التجاني، وسجل الأستاذ المحتفى بيده ـ ما دام لم يمكنه التصوير ـ فوائد مهمة عن الشيخ التجاني والجهاد الليبي، والحياة العلمية بالمغرب كما عرفها وعرّف بها الشيخ السنوسي.

وقد تعددت زيارات الأستاذ المحتفى به ـ في إطار اهتمامه بالمخطوطات ـ إلى الزاوية القادرية، والمتحف العراقي ببغداد ومكتبات المملكة العربية السعودية، والكويت، وجامعات برنسطون وهارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية، واستنسخ فيها بالتصوير للخزانة العامة بالرباط أو نقل بخطه ما استطاع مما يهم المغرب من مخطوطاتها ووثائقها.

وفي إسبانيا مكث الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني أربعين يوماً بالأسكوريال

مستقصياً المخطوطات المغربية فيها، وهي تمثل أغلب مدخراتها العربية، كما قضى وقتاً في كل من المكتبة الوطنية، والمكتبة الملكية التاريخية بمدريد. ومن بين المخطوطات النادرة التي اكتشفها في هذه الأخيرة **رائد الفلاح بعوائد الأسانيد الصحاح**. وهو فهرس المؤرخ المغربي الشهير أحمد ابن القاضي كتبه بخطه عام 1010 هـ / 1601 م، مجيزاً به الأمير زيدان بن السلطان أحمد المنصور الذهبي. وهذه المخطوطة فريدة لا ثاني لها ولم يكن يعرف عن هذا الفهرس إلا ما ذكره ابن القاضي عنه في كتبه الأخرى.

وقد نسخ أبو المزايا بخطه فوائده منه في كناش كان هو المصدر الذي اعتمدت عليه فيما كتبته ـ في أطروحتي الحركة الفكرية ـ عن الأمير زيدان، لا سيما الجانب الأدبي الذي لم يتعرض له غير ابن القاضي من معاصريه، وظلت الجهود التي بذلتها للحصول على صورة هذا المخطوط بدون جدوى، إلى أن تمكن أحد طلبتي في السنتين الأخيرتين من الحصول عليه بعد جهود مضنية، وحققه كرسالة ديبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط.

وأنتقل الآن إلى الشطر الثاني من العرض المتعلق بتجربتي الشخصية مع سيدي إبراهيم فأبادر إلى القول بأن ذلك يرجع إلى صيف 1959 حين حصلت على الإجازة وأخذت أبحث عن موضوع لرسالة دبلوم الدراسات العليا. فلما فاتحته في الأمر أشار عليّ بديهة بكتاب **البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية** لسليمان الحوات. أعجبني الموضوع وقبلته على الفور وأخبرت به أستاذي الدكتور حسن إبراهيم حسن ـ رحمه الله ـ وتم تسجيل موضوع الزاوية الدلائية بكلية الآداب بالرباط. وكانت النية متجهة في البداية إلى تحقيق **البدور الضاوية** ـ باقتراح من الأستاذ الكتاني ـ إلا أني عدلت عن ذلك لأسباب.

كنت إذ ذاك حديث عهد بالمخطوطات، فاستفدت أيما استفادة من خبرة الأستاذ إبراهيم الكتاني الواسعة، وكذلك خبرة الأخ العالم سيدي محمد المنوني، أمتع الله بطول حياتهما وجزاهما خير الجزاء.

ومن أوائل السبعينات وأنا أهيىء آنذاك مادة أطروحتي عن الحياة الفكرية في عهد السعديين، أسعدني الحظ بالقيام برحلة علمية إلى سوس مع أستاذي سيدي إبراهيم، والفقيه الحاج محمد البودراري، استهدفت هذه الرحلة البحث عن المخطوطات في مظانها، والتعرف على ديار أهلها العلماء الصالحين. زرنا مشهد الشيخ عبد الله بن سعيد الحاحي، وابنه الأمير أبي زكرياء يحيى، في زاوية زداغة بالحدور الجنوبية للأطلس الكبير؛ كما زرنا مشهد الشيخ محمد بن ويسعدن في سكتانة الجنوبية داخل الأطلس الكبير. وكلتا الزاويتين كانتا مركزعلم وتعليم طوال أجيال متعاقبة، ومقر خزائن غنية بالمخطوطات خاصة مؤلفات علماء المنطقة.

وفي الأطلس الصغير وقفنا عند مشهد الشيخ سيدي أحمد أو موسى السملالي في تازروالت. ومعلوم ما كان لهذا المركز العلمي من نشاط طوال العهد السعدي وبعده، وما تعاقب عليه وعلى إليغ ربيبته من فطاحل العلماء والأدباء والشعراء الذين ما زالت أصداء مؤلفاتهم ودواوينهم ترنّ في الآذان. كما وقفنا على معاهد أكرسيف وأمَّلْن وراء تافراوت، ومقبرة علمائهم التي تضم جناحاً خاصاً بالنساء اللائي يحفظن المدونة. وإذا كنا قد تعرفنا على بقايا خزانات العلماء الكرسيفيين والتمليين، فإن معظم مخطوطاتهم التي اطلع عليها المرحوم محمد المختار السوسي ووصفها في رحلته خلال جزولة قد ضاعت على قرب العهد بها، أو نُقلت إلى مكان مجهول في خضم الهجرات التي عرفتها المنطقة. ومن بينها ديوان نقائض يحيى الحاحي وأحمد بن أبي محلي، على غرار نقائض الفرزدق وجرير الشهيرة في الأدب العربي. وهذا الديوان إن ضاع ـ لا قدر الله ـ خسارة لا تعوض، لأنه يمثل لوناً أدبياً مغربياً طريفاً متفرداً، لم يسمع بمثله في تاريخ الأدب العربي بالمغرب طوال العهد الإسلامي.

وفي مطلع سنة 1983 كانت لي رحلة أخرى صحبة الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني والأستاذ محمد المنوني بحثاًعن المخطوطات في الصحراء المغربية المسترجعة، وذلك في نطاق عمل لجنة التأليف والترجمة والنشر المتفرعة عن اللجنة الوطنية للثقافة. أقمنا أسبوعاً في الداخلة وأياماً أخرى في العيون وزرنا

عدداً من بيوت الشرف والعلم والصلاح، فأوقفنا أهلها الكرماء على ما لديهم من مخطوطات يحافظون عليها أشد المحافظة، وبذلك أمكننا الاطلاع على مؤلفات الصحراويين وأشعارهم ومراسلاتهم ومنتسخاتهم، فسجلنا ماوسعنا الوقت وانتسخنا بالتصوير ما أمكننا تصويره. ومن نماذج المخطوطات التي وقفنا عليها كاملة أو ناقصة كتاب **الريان في تفسير القرآن** في سبعة أجزاء ضخام، **ولوامع الدرر في شرح المختصر** في سبعة أجزاء ضخام أيضاً كلاهما لمحمد بن محمد سالم المجلسي الذي كانت له مدرسة متنقلة على عادة الصحراويين. ولهذا العالم أبناء وبنات وحفدة علماء ما زال بعضهم أحياء. ومن بين مخطوطات النساء العالمات كتاب **الدر الأسني في أسماء الله الحسنى، ونظم فروع الشيخ خليل** في نحو 400 بيت كلاهما للسيدة العالمة هندو بنت عبد الله حمد الله ابن الشيخ محمد بن محمد سالم المذكور.

وأغرب ما وقفنا عليه من مخطوطات هناك كتاب **ثمان الدرر في هتك أستار المختصر** في ستة أجزاء لعبد القادر بن محمد بن السالم المجلسي اشتمل على فصول محررة في غاية الأهمية بالنسبة للتاريخ السياسي والديني في المنطقة تدل على سلامة تفكير مؤلفه وقوة يقينه وصدق وطنيته.

قامت ضجة كبرى في الصحراء على إثر تكالب الأوروبيين على المغرب أواخر القرن الثالث عشر (19 م) واختلفت آراء الفقهاء إلى انهزاميين استسلاميين يدعون إلى الرضى بالواقع، وآخرين مقاومين صامدين يأمرون بمقاطعة الكفار وعدم الركون إليهم. ومن الفريق الأول المدعو ابن بالية الذي أفتى بقبول حكم النصارى المسيطرين والانفصال عن العرش المغربي المغلوب على أمره آنذاك. وقد تصدى للرد عليه جماعة من الفقهاء الأحرار، ومنهم الشيخ عبد القادر المجلسي الذي ضمَّن فتواه النقدية أحد فصول كتابه **ثمان الدرر**، ومما جاء فيها «. . . وتعيين الإمام واجب كتاباً وسنة وإجماعاً، وطاعته كطاعة رسول الله، ومعصيته كمعصية رسول الله، ومعصية الرسول هي معصية الله تعالى، ومعصية الله هي رأس الكفر. . . وهي ـ الإمامة ـ واجبة كتاباً لقوله تعالى: ﴿يا إيها الذين آمنوا﴾ (الآية 59 من سورة النساء)، وسنةً لقوله: اسمع

وأطع وإن كان عبداً حبشياً، وانعقد الإجماع على وجوبها فلم يرد ناسخ فيها من حديث ولا آية، ولذلك بوب العلماء عليها مع التوحيد، لمشابهتها لعقائد الإيمان. . . . وبالاختصار لما بعد ذلك من الأزمنة أحببت تبيين حقوق سلطاننا أمير المؤمنين الحسن ابن أمير المؤمنين محمد (ابن عبد الرحمن) علينا، وأن ما جرعتنا النصارى من الضغط وقطع الطريق لا يسيغ جواز العمل بغير أمره ونهيه. ومن رأى مع النصارى غير هذا فهو ـ والعياذ بالله تعالى ـ يرفل في غياهب جهله وخسران عمله، وكيف لا وقد ضلّ سواء السبيل. ومن خرج عن بيعته ومازج النصارى بعقيرته فهو ممن نص العلماء على أن جهاده أحب إليهم من جهاد الروم، لأن أمير المؤمنين الحسن بن أمير المؤمنين محمد ـ أمد الله في حياته، وأولاه الأوفر من نصره وعنايته، وجعل أعاديَهُ أحاديث ومزقهم كل ممزق ـ قد تسلسلت البيعة الشرعية في أسلافه الكرام، وعرفت إمامتهم من منبعين عريقين أصيلين هما الشرف والدين، فلا يجوز اليوم لمن يؤمن بالله ورسوله الخروج عن طاعته ولا التبرم عن إمرته، لا سيما في هذا الزمن الذي بلغت فيه شوكة النصارى الربا، وبلغ سيلهم الزبى، فيا خسارة من لم يجاهد لإعلاء كلمة الله تعالى تحت إمام عادل جاهد بنفسه! . . . ».

هذه الكتابة الحرة العجيبة المحررة منذ أزيد من قرن من الزمان، وأضرابها مما اشتملت عليه فصول مؤلفات علماء الصحراء النزهاء، حرية بأن تستخرج وتدرس وتنشر بين الناس دحضاً لمزاعم الدخلاء، وإظهاراً للحق والحقيقة.

أكتفي بهذه الإشارات العابرة إلى مجهود الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني الرائد في الكشف عن المخطوطات العربية عامة والمغربية خاصة، وما هي إلا إحدى حسنات أبي المزايا.

عبد السلام ابن سودة
مؤلف أكبر موسوعة تراجم في العصر العلوي(*)

تعرفت على الأستاذ عبد السلام ابن سودة بفاس في أوائل الستينات، وقضيت أوقاتاً طويلة في مكتبته الأحمدية بالروض المقابل لبيته، اطلعت فيها على بعض ذخائر المخطوطات التي سبق أن عرفت عناوينها في كتابه دليل مؤرخ المغرب الأقصى ووقفت على عدد من مؤلفاته الأخرى، لا سيما كتب التراجم الثلاثة التي تكون مجتمعة أكبر موسوعة مغربية في تراجم أعلام العصر العلوي، وهي:

- زبدة الأثر
- واختصاره إتحاف المطالع
- وذيله التابع الذي كان ما يزال مشتغلاً بتحريره.

* * *

لقد اطلع المرحوم عبد السلام بن سودة على معظم ما كتبه المغاربة والأندلسيون من تراجم عبر القرون، سواء في كتب الطبقات أو الفهارس أو الإجازات أو المناقب أو غيرها، وتأثر بصفة خاصة بِعَلَمَيْن من أعلام المترجمين المغاربة، هما أحمد ابن القاضي المكناسي الفاسي ومحمد بن الطيب القادري الفاسي. ذلك أن أحمد ابن القاضي أكمل الكتابين الشهيرين في التراجم: وفيات الأعيان لأحمد ابن خلكان، وشرف الطالب في أسنى المطالب لأحمد ابن القنفذ. ذيل ابن القاضي وفيات الأعيان بكتابه درة الحجال في أسماء الرجال مبتدئاً

(*) ألقي في حفل تأبين المرحوم عبد السلام ابن سودة بمدينة سلا يوم 11 ذي القعدة عام 1400/21 تشنبر 1980.

بترجمة ابن خلكان نفسه المتوفى عام 681، ومنتهياً بعام 999. كما ذيل كتاب **شرف الطالب** بكتابه **لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد**، مبتدئاً بعام 700، ومنتهياً كذلك بعام 999. وهنا نشير إلى أن أحمد ابن القاضي اعتبر نهاية القرن أو المائة سنة بعام 999. وبداية القرن أو المائة التالية بالعام الموفي مائة.

وجاء محمد بن الطيب القادري فذيل كتاب ابن القاضي **درة الحجال ولقط الفرائد** بكتابه المطول **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، ومختصره **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر، من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر**، بدأهما معاً بعام 1001، وانتهى إلى عام 1170. وهنا يستلم الزمام فقيدنا العزيز عبد السلام ابن سودة.

نعم ألف المغاربة بعد محمد بن الطيب القادري عشرات الكتب في التراجم، لكنها لم تصطبغ بصبغة الشمولية والإحاطة، فلم ترق إلى درجة كتب ابن القاضي وابن الطيب القادري. ومن أشهرها **الدرر المرصعة، في أخبار أعيان درعة** لمحمد المكي الناصري الدرعي، و**طبقات الحضيكي** السوسي، و**سلوة الأنفاس** لمحمد بن جعفر الكتاني الفاسي، و**إتحاف أعلام الناس** لعبد الرحمان ابن زيدان العلوي المكناسي، و**الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام** لمحمدبن إبراهيم المراكشي، و**المعسول** لمحمد المختار السوسي. هذه الكتب وغيرها ـ على أهميتها وطول نفسها ـ بقيت جزئية محلية محدودة، وادخر الله للمرحوم عبد السلام ابن سودة فضل ربط سلسلة تراجم أعيان هذه البلاد السعيدة من عصر النبوة إلى أيام الناس هذه، فتهيأ بذلك ليكون ثالث أعلام التراجم البارزين بالمغرب دون منازع: أحمد ابن القاضي في القرن العاشر، ومحمد بن الطيب القادري في القرن الثاني عشر وعبد السلام ابن سودة في القرن الرابع عشر.

1) ـ **زبدة الأثر، مما مضى من الخبر، في القرن الثالث والرابع عشر**، وهو الكتاب الأساس الذي ذيل به عبد السلام ابن سودة **نشر المتاني**. يبتدىء من حيث وقف القادري، أي عام 1171، وينتهي بعام تمام تأليفه وهو 1370. يتفق كتاب ابن سودة هذا مع كتب ابن القاضي وابن الطيب القادري في المزاوجة

بين تراجم الأشخاص، والإشارة إلى أهم الأحداث التاريخية المعاصرة لهم، سياسية كانت أو طبيعية أو اجتماعية، ويتفق أكثر مع كتب القادري في ترتيب التراجم على السنين. ويختلف كتاب **زبدة الأثر** عن مؤلفات ابن القاضي والقادري في اقتصاره على تراجم رجال المغرب الأقصى، في حين يترجم الآخران لعدد من أعلام المسلمين غير المغاربة.

2) ـ **إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع**. وهو اختصار **لزبدة الأثر**، بين المؤلف سبب اختصاره في مقدمة **الإتحاف** بقوله: «فجاء ـ يعني زبدة الأثر ـ كتاباً كبير الحجم، عظيم العلم، يسع نحو أربعة أسفار ضخام، يصعب على المستعجل البحث فيه والاستفادة منه، وهو على منوال نشر المثاني وأسلوبه. . . ولما جمعته وخرجته من مسودته، ظهر لي أن أختصره في هذه العجالة، وأجعله ذيلاً على كتاب التقاط الدرر، على منواله وأسلوبه، ورتبته على السنين ـ كأصله ـ ، من أول عام 1171، إلى عامنا هذا عام سبعين وثلاثمائة وألف».

لقد أحسن المرحوم عبد السلام ابن سودة صنعاً بهذا الاختصار، وأصبح بذلك إتحاف المطالع مجرداً من كل حشو يشوش على القارىء، سهل الاستعمال، قريب المأخذ للمتعجل والمتأني على السواء.

و**إتحاف المطالع**، فضلاً عن كونه وحيداً في بابه، لا يحل غيره محله، ولا يسد مسده، يمتاز بمحاسن كثيرة، نشير إلى بعضها:

أ ـ تثبت المؤلف في تحلية المترجمين، ـ إلا عندما يجمح به القلم في التحامل على بعض المنحرفين في نظره ـ وتحريه غالباً فيما يستحقون من ألقاب علمية أو دنيوية، بحيث يتمكن القارىء من أن يعرف دون عناء هوية المترجم، ويدرك ما إذا كان فقيهاً أو أديباً أو مشاركاً أو شيخاً متصوفاً أو حاكماً صالحاً أو فاسداً، أو قائداً حربياً. ويحيل من يريد مزيداً من التوسع في بعض التراجم على الأصل زبدة الأثر.

ب ـ حرصه على ذكر تآليف المترجم، ووصف ما وقف عليه منها،

والتنبيه على ما عرف من عناوينها ومحتواها أثناء مطالعاته وقراءاته في الكتب المخطوطة بصفة خاصة.

ج ـ أمانته في النقل، إذ يعزو كل شيء اقتبسه إلى صاحبه، ويتوقف عندما لا يقف على تاريخ وفاة، أو تحديد مكان، أو تعليل حادثة. وكم رأيته ـ رحمه الله ـ في السنوات التي قضاها بالخزانة العامة بالرباط، مبتهجاً في بعض الأيام أشد الابتهاج، وبين يديه مخطوطة أو إضبارة يأبى إلا أن يطلعني على ما عثر فيها من كنز أو كنوز، قد لا تتعدى تاريخ وفاة شخصية ظل يبحث عنه السنين الطوال، أو ذكر اسم كتاب، أو نص رسالة أو قصيدة أو وثيقة تاريخية أو ما إلى ذلك.

3) ـ الذيل التابع لإتحاف المطالع

يزداد التشابه ويشتد التقارب بين معاجم التراجم لكل من ابن القاضي والقادري وابن سودة، ذلك أنهم جميعاً أنهوا كتبهم في تواريخ محددة، وأمد الله في أعمارهم فأضافوا تراجم أخرى ألحقت بكتبهم. فابن القاضي الذي توقف في **درة الحجال ولقط الفرائد** عام 999، كتب تراجم من توفوا في العشرة الأولى من القرن الحادي عشر، وأدمجها هو أو أدمجت بعده في الكتابين. ومحمد بن الطيب القادري الذي أتم نشر **المثاني والتقاط الدرر** عام 1170، كتب بعد ذلك تراجم أخرى أثبتها في المقصد الثاني من خاتمة **التقاط الدرر**، استمرت إلى عام 1180.

أما عبد السلام ابن سودة فقد عاش بعد إنهائه **إتحاف المطالع** ثلاثين سنة كتب فيها ثلاثة ذيول:

أ ـ يتناول الذيل الأول ـ وهو الذي سماه **الذيل التابع لإتحاف المطالع** ـ فترة ست سنوات: 1371 ـ 1376 هـ / 1951 ـ 1956 م. أطلق فيه لقلمه العنان في تسجيل الدواهي والفواجع التي عرفها المغرب مع نهاية عهد الحماية والأحداث المجيدة التي عاشتها البلاد في فجر الاستقلال، وأثبت عدداً من النصوص والوثائق، خوفاً على ضياعها ـ كما قال ـ. وبذلك طغت الحوادث

على الوفيات، وأربى الذيل على الأصل، إذ خرج في مجلدين تنيف صفحاتهما على 700. ثم اختصره في كتيب مفيد سماه **وفيات الذيل التابع**.

ب ـ ويسجل الذيل الثاني وفيات ووقائع إحدى وعشرين سنة: 1377 ـ 1397 هـ.

ج ـ بينما يختص القسم الثالث من الذيل بالسنوات الثلاث الأخيرة: 1398 ـ 1400 لأن المرحوم ظل يكتب إلى ما قبل وفاته ببضعة أيام. وقد شاء القدر ألاّ تطوى صفحة الفقيد إلا بعد أن طوى تراجم القرن الرابع عشر وما قبله كاملة مستوفاة. لكن من ذا يا ترى سيخلف عبد السلام ابن سودة في البحث والتنقيب وتسجيل تراجم أعلام القرن الهجري الخامس عشر؟ ومن سيوطن نفسه للقيام بهذا الواجب العلمي الوطني، إيماناً بأصالة هذه البلاد وعملاً على صلة الخلف بالسلف؟

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنــه بنيــان قــوم تهــدمــا

إن الحفاظ على تراث الفقيد والعمل على نشره حق لأهله وعليهم. وأراني أتحمل معهم بخصوص **إتحاف المطالع وذيله التابع**، تبعة السهر على تخريجه ونشره، فقد طلب مني ذلك الفقيد بإلحاح، وكلفني به شفوياً وكتابياً. وقال لي رحمه الله ـ بصدده مازحاً جاداً ـ على عادته ـ: لقد خلعت شاشية التاريخ وألبستك إياها، كما خلع سيدي عبد الرحمن المجذوب شاشية الولاية وألبسها الشيخ أبا المحاسن الفاسي. بل اتفقت وإياه على خطة نشر سلسلة كاملة للتراجم المغربية، من فجر الإسلام إلى أيامنا هذه. وبدأ العمل فعلاً بنشر ألف سنة من الوفيات في ثلاثة كتب: **شرف الطالب** لابن القنفذ، **ووفيات أحمد الونشريسي**، **ولقط الفرائد** لأحمد ابن القاضي. وهي تمتد من وفاة الرسول عليه السلام عام 11 إلى عام 1000 للهجرة. وتلا ذلك إخراج **نشر المثاني الكبير** لمحمد بن الطيب القادري، فطبعنا الجزء الأول منه، ويمتد من 1001 إلى عام 1050. والأجزاء الثلاثة منه هي الآن قيد الإخراج والطبع. وتمتد ـ كما رأينا ـ إلى عام 1170(*).

(*) تم بالفعل طبع كتاب نشر المثاني كاملاً في أربعة أجزاء سنة 1986.

وقد ذكرت في مقدمة الجزء المطبوع من نشر المثاني أن الخطوة التالية
ي نشر إتحاف المطالع للأستاذ عبد السلام ابن سودة ثم الذيل التابع الذي
ـصل فيه آنذاك إلى عام 1397، وبلغ اليوم العام الذي نعيش فيه 1400، متم
ـقرن الهجري الرابع عشر، وستكون ترجمة عبد السلام ابن سودة الموسعة
بحول الله ـ في كتابه يوم ينشر خاتمة المطاف ومسك الختام.

* * *

محمد التاودي ابن سودة
وكتابه عن قبيلة زعير(*)

المرحوم محمد التاودي ابن سودة فقيه قبل كل شيء، سواء بحكم تكوينه في جامعة القرويين وتخرجه من القسم الشرعي بها، أو بحكم مناصب القضاء التي تقلب فيها متدرجاً إلى أن صار قاضياً مستشاراً رئيس قسم بالمجلس الأعلى. وقد عرفت في الأخ الفقيد فقيهاً مطلعاً بمشاركته الفعالة في تخريج كتاب المعيار للونشريسي، كما عرفت فيه هاوياً للتاريخ بحاثاً فيه مؤلفاً لكتاب قبيلة زعير قديماً وحديثاً.

يذكّر عمل الفقيد في هذا الكتاب بأعمال قام بها قبله جماعة من الولاة الفرنسيين في أوائل عهد الحماية، إذ كان كل من عيّن بمنطقة ألزم بالكتابة عن تاريخها، مع اختلاف في القصد والغاية طبعاً، إذ كان قصد الفرنسيين التعرف على ماضي المغرب وحاضره بأكثر ما يمكن من الدقة ليستغلوا ذلك في توجيه سياستهم وتركيز نفوذهم الاستعماري. وقد نشر عدد من ملخصات تلك الأبحاث التاريخية الجهوية في مجلات الوثائق البربرية، والوثائق المغربية، وهسبريس، وغيرها من المجلات الصادرة بالمغرب آنذاك. وربما كانت أصول تلك الأبحاث التاريخية الموسعة، إو بعضها على الأقل، ما تزال في مراكز السلطات التابعة لوزارة الداخلية، وحبذا لو جمعت ووضعت رهن إشارة الباحثين المغاربة، لتستغل استغلالاً علمياً عكسياً.

ويذكر عمل الفقيد محمد التاودي ابن سودة ـ رحمه الله ـ كذلك بعمل

(*) ألقي في حفل التأبين المقام بالمجلس الأعلى للقضاء بالرباط في 26 ربيع الأول عام 1401/ 1 ـ 2 ـ 1981.

علماء مغاربة آخرين شغلوا وظائف في بعض المدن أو القبائل فكتبوا عن تلك المدن أو القبائل كأحمد الصبيحي السلوي الذي كان ناظراً بمدينة آسفي فكتب باكورة الزبدة في تاريخ آسفي وعبدة، وكإسماعيل بن عبد الله السوسي الذي عين قاضياً بمركز تيليوين فكتب تاريخ قبيلة سكتانة.

لقد ولي محمد التاودي ابن سودة منصب القضاء في زعير خلال السنوات السبع التي سبقت إعلان الاستقلال، وهي أصعب فترة في تاريخ المواجهة المغربية الفرنسية، تفجرت فيها طاقات الوطنية والمقاومة وثار فيها بركان الاستعمار فأصابت حممه مختلف الجهات ومن بينها بلاد زعير.

وكأني بالمرحوم محمد التاودي ابن سودة، وهو يعيش في خضم تلك الأحداث الخطيرة، يقارن بين مايري ويسمع من أحداث في منطقته، وما يراه بالبصيرة وهو يجول بفكره في تاريخ تلك البقعة الطيبة التي تدنسها آنذاك طغمة من الأوغاد الأشقياء، يوم كانت بلاد زعير مسرح أنصار الله وأحبائه المرابطين الذين طلعوا من الصحراء للجهاد، يجرّون الشوك والقتاد، ليقضوا على النحلة البرغواطية الضالة ويطهروا منطقة تامسنا الخصبة من نهر أم الربيع إلى وادي أبي رقراق ومن المحيط إلى سفوح الأطلس.

لقد كانت عظمة شهيد المرابطين عبد الله بن ياسين منطلق الكتابة عن قبيلة زعير، وطالت فترة البحث والكتابة سنين وسنين أسفرت عن هذا الكتاب الذي أحدثكم عنه باقتضاب.

اعتمد المؤلف على مصادر متنوعة، بعضها مكتوب وبعضها مسموع من أفواه «الطاعنين في السن وأكابر القبيلة وأعيانها الذين لهم خبرة ومعرفة وإطلاع بشؤون قبيلهم» واهتدى ـ بحكم تكوينه الفقهي التوثيقي ـ إلى نقد هذه المصادر وتمييز الصحيح المقبول من الباطل المرفوض. «وكنت أحرص كل الحرص ـ يقول المؤلف في المقدمة ـ على ألا أقيد في تلك الدفاتر إلا ما صح عندي من الأخبار والآثار، وأبتعد عن نقل وحفظ ما لا ترجى من ورائه كبير فائدة، وعلى هذا المنهج سرت في عملي».

وقسم الكتاب إلى قسمين أو جزئين، أولهما ـ وقد طبع منذ بضع سنوات ـ في تاريخ القبيلة وذكر أصولها وفروعها ومواطنها القديمة والحديثة، ولغاتها المستعربة والمستعجمة، وعاداتها، وأسواقها وفلاحتها وعلاقتها بمن يجاورها من القبائل والعشائر، مع مقدمة جغرافية أبرزت حدود المنطقة وتضاريسها وطقسها وطبيعة التربية والنبات وأنماط العيش.

ومن أمتع فصول هذا القسم الأول الفصل المتعلق بمقاومة قبيلة زعير للاستعمار الفرنسي، ففيه كثير من المعلومات الطريفة التي لا توجد مجموعة في غيره، وتفاصيل عن زاوية البواشرية وتأسيسها وأخبار كبار شيوخها وأدوارهم البطولية في الحركة الرائدة للوقوف في وجه الاحتلال الأجنبي للمنطقة، وما كان من نفيهم واغترابهم ثم ما آل إليه أمرهم بعد ذلك.

ولا تقل الفصول التالية أهمية من الناحية التاريخية عن الفصل المتقدم ولو أنها تسجل مآسي ومخازي عن مشاركة بعض الزعريين في الحرب الريفية بإكراه من الفرنسيين، ودور قواد زعير العملاء في حركة القواد المشهورة في آخر عهد الحماية. وقد أتى المؤلف بفذلكة تاريخية موسعة عن تلك الحركة المشؤوبة وما سبقها وتلاها من أحداث، وفصل القول في الاجتماع الضخم الذي عقده القواد الضالون في صيف سنة 1953 بالرماني قاعدة بلاد زعير وما تلاه من أحداث قاسية أدت إلى المس بالعرش فالمقاومة المسلحة فالاستقلال.

أما القسم الثاني من الكتاب ـ والذي لا يزال مخطوطاً ـ فقد خصصه المؤلف لتراجم أعلام زعير في العلم والجهاد والسياسة والرياسة، وابتدأه بترجمة عبد الله ابن ياسين شيخ المرابطين وإمامهم. وأطال النفس في هذه الترجمة نحو ثلاثين صفحة وربما كانت من أجمع التراجم التي كتبت لهذا البطل وأوفاها. وقد دعا المرحوم محمد التاودي ابن سودة في آخر ترجمة عبد الله ابن ياسين إلى الاحتفاء به من كل من المؤرخين وأدباء جميع الأقطار الإسلامية في شمال إفريقيا والصحراء والسودان اعتباراً لما كان له من فضل في نشر

العقيدة الإسلامية وصقلها وتركيزها بمختلف أنحاء إفريقيا، وظل رحمه الله مهتماً بذلك داعياً إليه إلى أن كاد هذا الأمل يتحقق لولا ظروف وقتية عارضة.

وثاني ترجمة في الكتاب للشيخ الصوفي الكبير أبي يعزى يلنور أو آل النور ابن ميمون الهزميري الشهير في المغرب كله بمولاي بوعزة. هذا الصالح المعروف بخوارق العادات، وتحكمه في السباع وكل مفترس من الحيوانات. وقد سبق أن ترجمه ترجمة وافية معاصره وبلديه يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات في كتابه **التشوف إلى رجال التصوف**، وفي القرن العاشر الهجري ألف عالم تادلي آخر، هو أحمد بن قاسم الصومعي، كتاباً ضخماً خاصاً بترجمة مولاي بوعزة سماه **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**.

وفي القرن الثالث عشر الهجري ألف حفيده الشيخ العالم الفاسي أحمد بن العباس البوعزاوي كتاباً أضخم في ثلاثة مجلدات، في ترجمة جده أبي يعزى ومناقبه إلا أن المرحوم محمد التاودي ابن سودة لخص كل ذلك في ترجمة ميسرة للقارىء في نحو عشرين صفحة، وأضاف إلى ما قرأ بعض ما شاهد في الزيارتين اللتين قام بهما لضريح هذا الشيخ.

وإذ نشير إلى أن ثالث ترجمة في الكتاب هي للشيخ أحمد بن عاشر صاحب الضريح الشهير بمدينة سلا، نثبت ملاحظة شكلية تتعلق بالجزء الثاني كله، وهي عدم تقيد المؤلف بذكر رجالات قبيلة زعير وحدهم، وإنما يترجم لكل من له علاقة قريبة أو بعيدة بهذا الإقليم. فالذي دعاه إلى كتابة هاته الترجمة هو ما لاحظ للشيخ أحمد بن عاشر السلوي من مكانة في قبيلة زعير وشدة تعلقهم به وتيمنهم باسمه حتى لا يكاد يخلو بيت من بيوت الزعريين من اسم ابن عاشر. وقد كان بوسعه ـ رحمه الله ـ أن يكتفي بالتنبيه على هذه الظاهرة في الفصل الرابع من الباب الثاني الذي خصصه، في الجزء الأول، للكلام على عوائد زعير وأخلاقها وأعرافها وطرق معاشها.

على أن هذه الملاحظة قد تمس أيضاً ترجمة أبي يعزى المتقدم، والتراجم

الآتية لبعض الصالحين والعلماء في تستاوت وغيرها من المناطق المجاورة لبلاد زعير، لكن عذر المرحوم ابن سودة في هذا أن حدود زعر غير واضحة في القديم ولا متفق عليها، وهناك من المؤرخين المحدثين من يرى أنها كانت موغلة في الجنوب والشرق بالنسبة لزعير المعروفة اليوم.

ومن أكبر العلماء الأدباء الذين وردت ترجمتهم في هذا الجزء العالم الشاعر الناثر الصوفي الصالح أحمد بن عبد القادر التستاوي دفين مكناس صاحب الديوان الضخم والمؤلفات العديدة في مختلف المناحي العلمية، لا سيما الصوفية منها. وقد أطال كذلك في ترجمة هذا العالم الصالح نحو عشرين صفحة، وأتى بمختارات من رسائله وأشعاره ومقتطفات من كلام المؤلفين المتقدمين فيه. ثم حاول استقصاء تراجم آل المباركي التستاوتيين من أبناء الشيخ أحمد بن عبد القادر وغيرهم، سواء من عاش منهم في زعير أو سلا أو غيرهما.

وقد ترجم المؤلف لجماعة من الفقهاء الذين أسند إليهم منصب القضاء في بلاد زعير، وترجم لنفسه من بين قضاة زعير. وهذه سنة حميدة سلكها بعض المؤلفين المغاربة والمشارقة من قدماء ومحدثين. كما ترجم لعشرين من قواد ذلك الإقليم، ومن بينهم القائد الحسين الزعري السلاوي أحد أفراد البعثة العلمية التي وجهها الحسن الأول عام 1306/1888 إلى إيطاليا لتحصيل العلوم العصرية. وكانت هذه البعثة مكونة من 24 شاباً من مختلف المدن المغربية. قضوا سنوات في المدرسة الملكية الإيطالية حيث اتصلوا بطلبة آخرين وافدين من أمريكا الجنوبية، وروسيا، وألمانيا، وفرنسا، ومصر، والحبشة. وبعد انتهاء فترة الدراسة التي دامت ثماني سنوات، ورجوع الطلبة المغاربة إلى بلادهم، مكث الحسين الزعري في إيطاليا سنتين أخريين، والتحق بمدينة طورنيو لدراسة اللغات الأجنبية بمدرستها العليا.

تلك بعض ملامح كتاب قبيلة زعير قديماً وحديثاً أبيت ألا أن أثيرها في هذه الذكرى التأبينية، لإبراز جانب من جوانب النشاط الفكري للفقيه المرحوم محمد التاودي ابن سودة، غفر الله له وأثابه.

محمد الأخضر (*)

مات الأستاذ محمد الأخضر على ما عاش عليه: عاش متواضعاً، عاملاً في صمت، بعيداً عن الرياء والأضواء، عزوفاً عن الشهرة والظهور، مع أن أعماله الحاضرة في الميدان الثافي كانت تدعو الناس إلى البحث عنه والتعرف عليه فلا يكادون يظفرون منه بلقاء. ومات كذلك صابراً محتسباً مختفياً عن الأنظار، غريباً في بلد طالما زاره وأقام فيه دارساً باحثاً ومحاوراً محاضراً. زارني ـ رحمه الله ـ قبل بضعة أسابيع في مقر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر لبضع دقائق فمازحته وباسطته على ما تعودنا عليه وأبى أن يطيل المقام لأعذار وجيهة، وما كنت أدري ـ يقيناً ـ أنه أتى مودعاً، وما إخاله كان يدري هو أيضا ذلك.

عرفت الأستاذ محمد الأخضر منذ نحو أربعين سنة، وعملنا معاً في الحقل التربوي بوزارة التربية الوطنية، كان عضواً نشيطاً في مختلف اللجان التي شارك فيها لتهييء برامج التعليم، ومراجعة المناهج وإصلاحها وتطويرها، وتأليف الكتب الدراسية، والسهر على حسن التطبيق والتسير، كمفتش للتعليم الثانوي، ثم كمفتش أول ومفتش عام.

وصحبت أيضاً الأستاذ محمد الأخضر في الحقل الجامعي منذ أن سجلنا معاً موضوع أطروحتينا بالسربون أوائل الستينات مع نفس الأستاذ المشرف شارل بيُلا عن الحركة الفكرية والأدبية في العصرين السعدي والعلوي فكانت «مسألة الحدود» بينا من نقط المباسطة والمفاكهة التي تغمر مجالسنا نكتاً وحبوراً كلما التقينا، وما أكثر ما كنا نلتقي! وهذا الجانب الإنساني المرح البريء في شخصية الفقيد العزيز مما لا يكاد يعرفه إلا القلة من ذويه وأخلائه.

لقد كان صدور كتاب الحياة الأدبية في عهد الدولة العلوية، بالفرنسية ثم

(*) من كلمة تأبيية ألقيت عند دفنه بمقبرة الشهداء بالرباط زوال يوم 2 ـ 5 ـ 1992.

بالعربية، باكورة الإنتاج الجامعي الذي قرأه الجمهور للمرحوم الأستاذ محمد الأخضر، تلته منشورات أخرى محققة أو مترجمة قُدر لي أن أشاركه فيها كلها لما كان بيننا من انسجام في التفكير وطريقة العمل. من ذلك كتاب **زهر الأكم في الأمثال والحكم** للحسن اليوسي، وهو كتاب لغة وأدب من أمتن وأدق ما ألفه المغاربة في هذا المضمار، حققناه معاً بطلب من مركز الدراسات والأبحاث للتعريب الذي يشرف عليه أخونا الأستاذ أحمد الأخضر غزال، وصدر سنة 1981 في ثلاثة أجزاء؛ وكتاب **وصف إفريقيا** للحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي الذي ترجمانه إلى العربية وصدرت طبعته الأولى بالرباط في جزءين، سنة 1981، وطبعته الثانية في بيروت سنة 1983، وطبعته الثالثة في بيروت سنة 1988. كما ترجمنا أيضاً كتاب **فاس قبل الحماية** لروجي لوطورنو، وصدر عن دار الغرب الإسلامي في بيروت في جزءين، سنة 1986. وترجمنا مع زملاء آخرين كتاب **إفريقيا** لمارمول كاربخال، وصدر بالرباط في ثلاثة أجزاء سنة 1988، وقبل سنة صدرت رحلة الأسير الفرنسي مويط ترجمناها بطلب من وزارة الثقافة. ويوجد تحت الطبع ترجمة كتاب **عبد القادر الجيلاني** شيخ كبير من صلحاء الإسلام، وهو بقلم العالم التركي محمد علي عيني.

وهناك كتاب آخر ترجمناه معاً منذ زمان ولم ير النور بعد. هو مغرب اليوم للرحالة الفرنسي أوبان، وأعرف للمرحوم الأستاذ محمد الأخضر أعمالاً مترجمة أخرى خاصة به، منها ترجمة نص أندلسي أدبي رفيع كان قدمه كرسالة في شهادة التبريز، وترجمة مطولة لتفسير القرآن الكريم.

تعبتَ كثيراً أيها الفقيد العزيز في حياتك الدنيا ذلك التعب السعيد المفيد، علّمت وربيت ونصحت وأرشدت، وبحثت وألفت وحققت وترجمت ليستفيد الآخرون، وساندت المشاريع الثقافية الحرة ما استطعت، فكنت عضواً مؤسساً للجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، وعضو الهيئة الاستشارية لمجلة الكتاب المغربي، وأسهمت في تحرير معلمة المغرب. فمن حقك اليوم أن تستريح في جوار ربك راضياً مرضياً، وللآخرة ـ إن شاء الله ـ خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى.

محمد ابن تاويت التطواني(*)
(1917 ـ 1993)

تعرفت بعد الاستقلال مباشرة في الرباط على المرحومين الأستاذ محمد ابن تاويت التطواني ومحمد ابن تاويت الطنجي. عرفت الأستاذ محمد ابن تاويت التطواني أستاذاً للغة الفارسية بكلية الآداب بالرباط، وهو يومئذ في ريعان الشباب لا يفارق السبورة، يكتب عليها ما صعب من مفردات النصوص التي يشرحها ومعظمها من شعر حافظ وغيره.

تجدد لقائي بالأستاذ محمد ابن تاويت التطواني في كلية الآداب بالرباط بعد التحاقي بها كمساعد في التاريخ، وهو يومئذ أستاذ شعبة اللغة العربية لكنه مع ذلك له اهتمام بالتاريخ بفضل إدارته وتحريره لمجلة تطوان، وترجماته لنصوص انجليزية تهم تاريخ المغرب في الفترة التي كنت أدرسها. وتمتّنت الصلاة أكثر بعد أن كُلفت بعمادة الكلية وكنت أكن له ولسائر الأساتذة الذين تتملذت لهم عظيم التقدير والود. وكان من نتائج هذا الاتصال أن صدر ضمن المنشورات الأولى لكلية بالرباط كتاب عزيز على الأستاذ المرحوم. هو جهار مقاله (أربع مقالات) لنظامي عروضي سمرقندي من أدباء الفرس في القرن السادس، ترجمه وهو ما زال بمصر، وبعد رجوعه إلى المغرب وتعيينه أستاذاً بمعهد فرانكو للدراسات الإسبانية العربية سنة 1949 قدّمه للمعهد ليطبع ثم سحبه إلى أن طبعته كلية الآداب بالرباط سنة 1982 ككتاب مقرر لطلبة شعبة اللغة العربية.

هذا الكتاب كمعظم الكتب الأدبية يشتمل على نثر ونظم التزم الأستاذ المرحوم بترجمة النثر نثراً والشعر شعراً على خلاف المتعارف في نقل المعاني دون اعتبار للأوزان والقوافي.

(*) ألقيت في حفل تأبينه بتطوان بعد مرور أربعين يوماً على وفاته.

وفي بداية الثمانينات تأسست الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر فكان الأستاذ المرحوم من الأعضاء المؤسسين، والعاملين المتحمسين. كانت الاجتماعات في السنوات الأولى متقاربة منتظمة، فلم يكد يتخلف عن اجتماع رغم سكناه في تطوان وعمله في فاس. كان كعادته شجاعاً لا يتردد في الاعتراض ضد كل ما لا يراه صواباً، ولا يتهيب المناقشة مهما طالت وتشعبت، لكنه كان ديموقراطي الطبع سليم النية والقصد، ليست له مواقف مسبقة، يقبل الرأي السائد ويساير ما أقرته الأغلبية.

اتخذت الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر لنفسها ـ بعد دراسات ومناقشات طويلة ـ خطة ثلاثية تتلخص فيما يلي:

ـ تنشيط النشر على المستوى الجامعي تأليفاً وترجمة وتحقيقاً.

ـ التعريف بالإنتاج المغربي في الداخل والخارج بواسطة مجلة بيبليوغرافية نقدية هي الكتاب المغربي.

ـ التعريف بالمغرب تعريفاً شاملاً عن طريق إصدار موسوعة يشارك فيها جميع الكفاءات المغربية من الجامعيين والباحثين والتقنيين وغيرهم.

كان الأستاذ ابن تاويت متحمساً للنقطتين الأوليين، متحفظاً جداً فيما يخص المعلمة، لا لأنه يرى عدم جداوها بل كان أعرف الناس بفائدتها وضرورتها، لكنه كان مشفقاً على الجمعية من التعثر والتدني وهو الذي ينشد الكمال في مثل هذه الأعمال الكبرى. وقد أسهم في تحرير مواد المعلمة منذ حرف الهمزة انسجاماً مع رأي الجماعة، وكم كان سروره عظيماً ـ رحمه الله ـ يوم رأى رأي العين الجزءين الأولين، وقد عرضا في حلة قشيبة بباب مدرج الشريف الإدريسي بكلية الآداب بالرباط ساعة الاحتفال بتقديمهما للجمهور.

ومن تآليفه التي نشرتها الجمعية:

ـ كتاب تاريخ سبة

ـ كتاب شعر ابن عبد ربه

ـ البيان المغرب لابن عذاري، قسم الموحدين، حققه مع جماعة من

أعضاء الجمعية وكتب مقدمته ولم يقوعها باسمه. وهي طبعة مزيدة منقحة. وكان قد نشره قبل ذلك بالاشتراك مع المستشرق الإسباني هوييسي.

لديّ الآن ست مقالات لم تنشر بعد للمرحوم الأستاذ ابن تاويت:

ـ الأولى طويلة قوّم بها العددين الصادرين من مجلة أبعاد فكرية. وكان المفروض أن تصدر في العدد الثالث من هذه المجلة لكنها توقفت حتى الآن.

ـ الثانية عبارة عن بحث أكاديمي يخرج في رسالة أو كتيب من باب نقد الشعر، علّق فيه على ديوان عبد الرحمن حجي تعليقاً ضافياً ممتعاً. وكان المنتظر أن يصدر تباعاً في مجلة الثقافة المتوقفة الآن، وكنت عازماً على أن أقدّم هذا البحث في هذا الحفل التأبيني لكنني تخليت عنه بعد أن عرفت كثرة العروض المتعلقة بجانب النقد لدى المرحوم الأستاذ ابن تاويت.

ـ المقالات الأربع الأخرى معدة لتنشر في معلمة المغرب، ثلاث منها تتعلق بمادة «ابن تاويت» أسرة، و«ابن تاويت» محمد بن عمر (الأب) وابن تاويت محمد بن محمد الطنجي.

ارتأيت ـ إن سمحتم ـ أن أعرض بعض النقط فيها لتعلقها المباشر بشخصية الأستاذ المحتفى بتأبينه:

أسرة ابن تاويت لمتونية مرابطية أندلسية ـ كما جاء في معجم السفر ـ لأبي طاهر أحمد السلفي الأندلسي نزيل الإسكندرية ومعاصر القاضي عياض. هذا الكتاب الذي لخصه إحسان عباس ونشره في بيروت بعنوان أخبار وتراجم أندلسية. تحدث السلفي عن أخوين نابهين هما عبد الله ابن تويت ابن الوزان اللمتوني وقال في حقه: رجل صالح من أمراء المرابطين قدم المشرق للحج وطلب العلم وكان يحضر عندي ويقرأ. ومن جملة ما قرأه الملخص لابن القابسي». ونقل السلفي عنه أخباراً أندلسية رواها عن أخيه الفقيه يتتان ابن تويت الذي توفي في زبيد من مدن اليمن، وقال في حقه: «قرأ يتتان على ابن عتاب وأبي بحر وابن رشد وآخرين بقرطبة وعلي ابن أبي جعفر بمرسية».

وورد في هذا المقال أيضاً عن أسرة ابن تاويت أنها حين هاجرت من

الأندلس استقرت بقبيلة وادراس بين تطوان وطنجة قبل أن تنتقل إلى مدينة تطوان. وما زالت في وادراس قبيلة «تويتش» وهو جمع لتاويت بزيادة السين على الطريقة الإسبانية لكنهم ينطقون بالسين شيناً ـ كالبرتغال ـ (مثل علالش وحليمش وعبودش) وهذا من تأثير مهاجرة الأندلس.

وفي التعريف بمحمد ابن تاويت الطنجي، وهو ابن عمّ لحاً للأستاذ محمد ابن تاويت التطواني يلاحظ ارتباط تكوين الرجلين، فقد توجها معاً ـ في القطار ـ إلى فاس للدراسة بالقرويين. فأخذا النحو والبلاغة والعقائد وغيرها في دروس عامة وأخرى خاصة بجامع الرصيف عن جواد الصقلي. ثم انحاش الطنجي إلى محمد العلمي لدراسة الفلك والتوقيت والتعديل واللغاريتم وانقطع له انقطاعاً كلياً ينسخ مؤلفاته التي طبعت على الحجر بخطه. ثم عادا معاً إلى تطوان أثناء الحرب الأهلية الإسبانية وتوظفا كلاهما فيها. وبعد سنتين توجها معاً إلى مصر والتحقا بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول، التطواني بقسم اللغة العربية، والطنجي بقسم التاريخ. وهنا حصل الخلط لإدارة الكلية: كلاهما محمد بن محمد ابن تاويت لذلك أضيف إليهما للتمييز التطواني والطنجي، وأحرزا على الإجازة بتفوق. فاختار الطنجي لرسالة الماجيستر تحقيق مقدمة ابن خلدون «فكان منطلقه في التاريخ والمذهب الخلدوني عامة». بينما سجل لتطواني في التاريخ (المغرب الفاطمي) والأدب الفارسي (فن جلال الدين لرومي).

أذكر هنا أن الأستاذ المرحوم ابن تاويت التطواني كان يحمل هماً دفيناً، ن كون كثير من آثار قلمه المنشورة في المجلات العربية وغيرها نسبت في لبيبليوغرافيا الوطنية بالخزانة العامة بالرباط ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ إلى ابن عمه الطنجي. وأخبرني غير ما مرة وبمرارة أنه طالما حاول تصحيح ذلك ـ دون ى ـ مع عدد من المحافظين المتعاقبين على الخزانة العامة، وكلهم تأسف بالإصلاح، فلم يتم شيء من ذلك إلى أن مات من مات منهم، وعزل من

وقد وعدته أخيراً أني سأعمل على استخراج الجذاذات وإصلاحها ـ ولو ن ذلك خارج عن نطاق اتصالي بالخزانة ـ وشعرت منه ـ رحمه الله ـ بشيء من

الاطمئنان لهذا الوعد لما كان بيننا من صدق وصفاء.

لذلك أقترح في النهاية أن يُطلب من أحد طلبة الدراسات العليا في شعبة اللغة العربية، هنا في تطوان أو في الرباط أو فاس، أن تكون آثار الأستاذ محمد ابن تاويت التطواني موضوع رسالته الجامعية. وسيجد في مرحلة الجمع والتصفية من الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر كل عون ومساعدة.

رحم الله فقيدنا العزيز الأستاذ محمد ابن تاويت التطواني، وأثابه على جهاده العلمي أحسن الجزاء، وجعل من بنيه وبناته البررة خير خلف لخير سلف.

* * *

محمد زنيبر
(1923 ـ 1993)

فقدت الجامعة المغربية في الأسابيع الأخيرة علماً بارزاً من أعلامها، وأستاذاً مقتدراً من خيرة رجالاتها، يعد من الرعيل الأول للأساتذة المغاربة الذين اضطلعوا بالتعليم الجامعي بعد الاستقلال، وتحملوا عبء إرساء قواعده ومغربته وتكوين أطره.

قضى المرحوم محمد زنيبر زهاء ثلث قرن أستاذاً بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، وأهّله تكوينه المتين المزدوج إو بالأحرى المتعدد الجوانب ليقوم بالتدريس في مختلف أقسام الكلية، فدرّس في قسم الترجمة الموروث عن معهد الدراسات المغربية العليا لتحضير ديبلوم اللغة العربية الفصحى، كما درّس الترجمة في سنوات الإجازة بعدة شعب، علاوة على عمله الأساسي في شعبة التاريخ كأستاذ متخصص في الحضارة الإسلامية والتاريخ الوسيط عموماً. وانتُخب من طرف زملائه رئيساً لهذه الشعبة أكثر من مرة، ورئيساً لقسم التاريخ عند إحداث نظام شهادة الدراسات العليا لتكوين أساتذة التاريخ. وأطّر أفواجاً من طلبة الدراسات العليا، وشارك في لجان مناقشة عدد عديد من الرسائل والأطروحات داخل الكلية وفي مختلف كليات الآداب المغربية، وحتى في بعض كليات الحقوق والمعاهد العليا.

إلى جانب التدريس كان الأستاذ محمد زنيبر يشارك مشاركة فعالة في الندوات العلمية التي تقيمها الكلية من حين لآخر ويقوم بتنشيط بعضها، كما شارك في عدد كثير من الندوات واللقاءات الفكرية التي كانت تقام في مختلف المؤسسات الجامعية داخل المغرب وخارجه ومات ـ رحمه الله ـ وهو على منصة الخطابة في لقاء علمي ـ فني بإسبانيا.

تكوّن المرحوم محمد زنيبر تكويناً عربياً متيناً في صغره، فدرس اللغة العربية وقواعدها وآدابها على والده العلامة أبي بكر زنيبر، والأستاذ عبد الرحمن حجي، ومع أقرانه أمثال الأديبين المرحومين أخيه الطاهر زنيبر وعبد الرحمن بنعبد النبي. وكان إلى ذلك يتمتع بحس فني مرهف، يتذوق الشعر والغناء، ويعرف أصول الموسيقى ومبادىء الصولفيج. يحذق طبوع الآلة وميازينها ويحفظ كثيراً من موشحاتها وأزجالها وبراولها الأندلسية والمغربية، وينشدها ـ في الحفلات الخاصة ـ بانشراح وانسجام تام مع «الكورال». كما كان يعزف على العود والبيانو، ويعشق بصفة خاصة أنغام القانون.

كان محمد زنيبر مشاركاً في شتى ضروب المعرفة، ومشاركته في أي مجال معرفي من المجالات الكثيرة التي يهتم بها لم تكن سطحية محدودة. فمحمد زنيبر المجاز في الآداب والفلسفة المبرز في اللغة العربية حسب الشهادات الجامعية استطاع أن يعطي نفسه تخصصاً جديداً في التاريخ، واختار التاريخ الوسيط على صعوبته وتعمق في دراسة وتدريس تاريخ الإسلام في المشرقية والمغرب حتى أصبح العمدة في هذا الشأن. ثم لم يلبث أن وسع دائرة معرفته التاريخية إلى العصور الحديثة والمعاصرة كما سنرى. وتطورت هوايته الموسيقية إلى دراسة موسيقى الآلة يبحث في تاريخها وعلاقاتها بالموسيقى المشرقي والأندلسية والأوربية، ويتتبع كلماتها ليجتمع له مائة وخمس وثلاثون قطعة منسوبة لأصحابها ما بين أشعار وموشحات وأزجال، وزعها على العصور الإسلامية وميّز بين ما هو للمشارقة أو الأندلسيين أو للمغاربة.

كانت مادة الآلة أول ما كتب الأستاذ زنيبر في معلمة المغرب. وكانت أطول مادة إذ تجاوزت العشر صفحات المقررة كحد أقصى بعد أن حذف أكثر من نصفها. وهو يستعمل الكتابة الموسيقية بأشكالها ورموزها بدقة متناهية كموسيقي متخصص، ويختم بحثه ببيبليوغرافيا غنية عربية وأجنبية.

شارك الأستاذ محمد زنيبر قبل هذا في موسوعة مذكرات التراث المغربي التي صدرت في أول الثمانينات. ولما كانت طبيعة هذه الموسوعة انتقاء

موضوعات معدودات تغطي كل فترات تاريخ المغرب فقد حرر الأستاذ محمد زنيبر نحو عشر مقالات تناولت مختلف العصور من المرابطين والموحدين والمرينيين إلى السعديين والعلويين إلى حرب الريف والسلفية ومحمد الخامس.

لقد وجد المرحوم محمد زنيبر ضالته المنشودة في **معلمة المغرب** التي تصدرها الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، وهو من الأعضاء المؤسسين للجمعية وللمعلمة معاً. نشر في الأجزاء الستة الصادرة من المعلمة لحد الآن أربعة وخمسين بحثاً تمتاز على العموم بالطول والخصب والطرافة، في مواضيع متباينة لا يجمع بينها إلا فكر موسوعي كفكر المرحوم محمد زنيبر.

تناولت بحوث الأستاذ زنيبر في **معلمة المغرب** التاريخ السياسي والحضاري للدول الإدريسية والمرابطية والموحدية، وتراجم موسعة لملوك هذه الدول وقوادها وولاتها في الامبراطورية المغربية التي كانت تضم أقطار المغرب الكبير والأندلس والصحراء وطرفاً من بلاد السودان. كما تناولت موضوعات حضارية صرفة كالبدع، والبارود، والبراءة، والبردة لباس، وبيت المال، وأخرى تتعلق بالعمران والآثار كقصبة بوجلود المرابطية، وباب بوجلود بفاس ومدينة البجاجين المندثرة بين سبتة وفاس، أو بشخصيات بارزة في العلم والتصوف والسياسة، أمثال براز بن محمد المسوفي، وبطي بن إسماعيل اللمتوني، وابن برجان، وأحمد بلافريج. أو بالفن والفنانين كموسيقى الآلة المشار إليها آنفاً، والموسيقيين القدامى والمحدثين أمثال أحمد أحضري، والبوعناني ومحمد البارودي، ومحمد امبيركو، والمكي امبيركو، ومحمد بلخضير...

نذكر هنا كنموذج لعمل الأستاذ زنيبر في **معلمة المغرب** عناصر مادة دولة الأدارسة التي درسها في أطوارها الثلاثة:

1 ـ طور التأسيس مع إدريس الأول (172 ـ 177) أي قيام الدولة بالتفاف فريق مهم من سكان المغرب حول إدريس وضمنهم قبائل كبرى ومبايعتهم إياه.

2 ـ الطور الثاني الذي سماه طور الهيكلة والتنظيم مع إدريس الثاني (177 ـ 213) حيث تم تأسيس الدولة وتقعيدها بإحداث بنيات ومؤسسات

وتشييد فاس واتخاذها عاصمة للدولة بعد تجريدها من الطابع القبلي حيث سكنها مهاجرون من القيروان والأندلس، وإحداث نظم إسلامية كالوزارة والكتابة والقضاء والإمامة، وبداية إشعاع العربية من فاس كلغة دين وثقافة.

3 ـ طور التقسيم مع أبناء إدريس (213 ـ 375) بعد أن تولى أكبرهم محمد الخلافة وقسم المغرب إلى تسع ولايات، مستنتجاً من عملية التقسيم امتداد الدولة الإدريسية شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. وقد رجع في هذه الدراسات ـ كعادته ـ إلى مصادر ومراجع قديمة وحديثة. واستفاد بالخصوص من دراسة دانييل أو ستاش عن النقود الإدريسية والمراكز التي كانت تضرب فيها، وتوصل إلى حل لغز ظل قائماً منذ القديم حول هذه الفترة الأخيرة من تاريخ الأدارسة، وهو سبب الخلاف بين الأخوة وثورة عيسى صاحب سلا وشالة وأزمور وتامسنا على محمد صاحب فأس وما ترتب عن ذلك من امتناع القاسم حاكم طنجة من مهاجمة عيسى إلخ الأحداث المعروفة. كان يظن أن السبب مجرد منافسة وطيش شباب. فتبين من دراسة النقود أن الأمر راجع إلى سبب اقتصادي وهو رغبة عيسى في الاستفادة من معدن الفضة الواقع في ولايته وقيامه بسك النقود عنده ولذلك قرر قطع إرسال الفضة إلى دار السكة بفاس.

واعتماداً على معطيات أخرى استنتج الأستاذ زنيبر أن الأسرة الإدريسية اندمجت في المجتمع المغربي، وتطبعت بأخلاق أهل البلاد بحيث صار السكان يعدونهم منهم ويحترمونهم لشرف نسبهم. واعتبر ـ بحق ـ أن احترام الشرفاء كسلوك شعبي بدأ منذ ذلك العهد، ثم بعد قرون تحول إلى مبدأ سياسي.

ونظراً لتشعب دولة الأدارسة في هذا الطور بكثرة الولايات، وتوالي الثورات والنزاعات، ركز البحث على فاس حاضرة الدولة، وتتبع أهم الأطوار التي عرفتها، وأبرز الشخصيات التي تولت الحكم فيها إلى يحيى ابن إدريس بن عمر (الرابع) العالم البطل الحازم الذي أجمعت المصادر التاريخية على الثناء عليه، وقال عنه صاحب **القرطاس**: «إنه كان أعلى بني إدريس قدراً وصيتاً وأطيبهم ذكراً وأقواهم سلطاناً». وفصل القول في الأحداث الخطيرة التي جرت في عهد هذا الأمير وهي ترتبط بأطماع الفاطميين أصحاب إفريقية الذين هاجم

عاملهم على المغرب الأوسط مصالة بن حبوس مدينة فاس وتغلب في النهاية على يحيى، وما تلا ذلك من صراع مرير بين الأدارسة وموسى بن أبي العافية نائب مصالة من جهة، وبين الفاطميين وأمويي الأندلس لبسط نفوذهم على المغرب من جهة أخرى. ووقوع الأدارسة بسبب ذلك بين شقي الرحا تارة مع الفاطميين، وتارة مع الأمويين، حسب الضرورة. واستمرت هذه الاضطرابات والاضطهادات ضد الأدارسة معظم القرن الرابع (10 م) قبل أن تسقط دولتهم نهائياً بمقبل الحسن ابن گنون آخر ملوكهم عام 375 ـ 975.

ختم الأستاذ زنيبر بحثه عن الدولة الإدريسية بخلاصتين هامتين بل أقول جديدتين:

الأولى: أن الأدارسة رغم كل الصعوبات والمضايقات التي عرفوها في القرن الرابع برهنوا على أن وجوههم أصبح متجذراً في عدة أنحاء من المغرب وظلوا يكونون قوة سياسية ممثلة في زعامات محلية كبني عمر الذين كان نفوذهم في مدينة ببلاد صنهاجة جنوبي الريف، ومنهم الحموديون الذين تولوا الخلافة بقرطبة وأصبحوا من جملة ملوك الطوائف بالأندلس، وبني داود الذين امتد نفوذهم في جهة واد سبو، وبني القاسم المسيطرين على الهبط، وبني عيسى في جهة الأطلس المتوسط حيث معدن الفضة بجبل عوام، وبني عبيد الله بجنوب المغرب الذي ينسب إليه تأسيس مدينتي تامدولت في السفح الجنوبي للأطلس الصغير، وإگلي التي تتوسط بسيط تازگ القريب من تارودانت التي جعل منها عاصمته بعد استيلائه على سوس.

الثانية: أن الأدارسة بالرغم على كل الصعوبات التي عرفتها دولتهم قاموا بدور أساسي في تاريخ المغرب، إذ على أيديهم تم تحويل المغرب إلى الإسلام ونشروه في مختلف الأنحاء، وبمبادرتهم جرت أول محاولة لتجاوز القبلية بتأسيس دولة على النمط الإسلامي ذات حاضرة هي فاس، فكان عملهم انطلاقة فعلية للدولة المغربية في التاريخ، إضافة إلى مجهودهم في ميدان العمران حيث أسسوا مدناً جديدة وأحيوا أخرى قديمة ونشطوا الحركة التجارية.

لقد كتب الأستاذ محمد زنيبر أيضاً في معلمة المغرب ترجمتين ضافيتين لإدريس الأول وإدريس الأزهر أثار فيهما إشكالات أخرى حول الدولة الإسلامية المغربية الأولى. وكان المنتظر أن يزيد الموضوع توسيعاً وتحليلاً ويقدم بعض الحلول لتلك الإشكالات المطروحة بالكتابة عن تأسيس مدينتي فاس وتامدولت، والتشيع في المغرب، وحركة موسى بن أبي العافية، وعلاقة الفاطميين وأمويي الأندلس بالمغرب، لولا أن الله اختاره لجواره.

إلى جانب هذه الإسهامات الموسوعية حرر محمد زنيبر العديد من المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية والنقدية نشرتها الجرائد والدوريات المغربية والأجنبية، وبخاصة مجلة كلية الآداب بالرباط، وهيسبريس تمودا، وحوليات كليات الآداب بالدار البيضاء وتطوان وأكادير...، ودعوة الحق. والمناهل، والثقافة، وأبعاد فكرية والمشروع وغيرها. وألف أو ترجم عدداً من الكتب المتنوعة الأغراض مفرداً أو بمشاركة بعض الأساتذة، وكان له دور بارز في عملية تعريب التعليم الثانوي عن طريق تأليف كتب مدرسية في التاريخ والأدب، لمختلف الأقسام وبخاصة قسم البكالوريا. مؤلفاته هي:

- فرانز فانون أو معركة الشعوب المتخلفة (ترجمة بالاشتراك).

- الهواء الجديد (جائزة المغرب) 1971.

- وثائق ونصوص(1) الإسلام منذ الانطلاقة الأولى إلى نهاية الدولة الأموية (1973).

- وثائق ونصوص (2)الدولة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية: عصر الخلفاء الكبار (1974).

- الشابل، مسرحية هزلية في أربعة فصول.

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري - قسم الموحدين - (تحقيق بالاشتراك) 1985.

- خطوات في التيه، مجموعة قصصية 1986.

ـ إفريقيا لمارمول كربخال 3 أجزاء (ترجمة بالاشتراك) 84 ـ 1989.

ـ صفحات من الوطنية المغربية من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية 1990.

ـ عروس أغمات مسرحية تاريخية (جائزة المغرب) 1991.

ـ تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء، لأحمد باب التنبكتي (ترجمة) 1992.

أما حياته العلمية والمهنية فيمكن إجمالها كالتالي:

أ ـ الحياة العلمية

ـ ولد بسلا في 3 غشت 1923.

ـ تلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة أبناء الأعيان بسلا، والثانوي بلسي گورو بالرباط.

ـ كان من بين أعضاء بعثة محمد الخامس للدراسة بفرنسا فحصل على الإجازة في الفلسفة والأدب بباريز سنة 1950.

ـ حصل على ديبلوم الدراسات العليا في التاريخ بباريز سنة 1967.

ـ وعلى شهادة التبريز في اللغة العربية بباريز سنة 1969.

ب ـ الحياة المهنية

ـ انخرط في سلك الوظيفة العمومية سنة 1950 كأستاذ اللغة العربية بثانوية مولاي يوسف.

ـ التحق بعد الاستقلال بالديوان الملكي حيث قضى ثلاث سنوات، ثم بوزارة الخارجية فعمل رئيساً لقسم آسيا فأميركا.

ـ رجع إلى التعليم سنة 1963 والتحق رسمياً بكلية الآداب بالرباط في فاتح أكتوبر 1964 كأستاذ للتاريخ.

عبد الرحمن القادري
(1933 ـ 1993)

كانت مفاجأتي بنعي الأخ عبدالرحمن القادري قوية، ووقع رزئه في نفسي أشد وأعنف، لأني كنت يوم موته ـ مع أهلي ـ بعيداً عن الوطن بآلاف الكيلوميترات منقطعاً عن الأخبار الخارجية، ولم أعد إلا في الأسبوع التالي لأقرأ في جملة جذاذات المكالمات الهاتفية المسجلة بمقر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر مكالمة لابن عمي عبد الغفور يُنبىء بهذا الخطب الجلل.

تمثل لي حينئذ الأستاذ القادري حاضراً في القاعة ـ ولو أني أرى مقعده فارغاً ـ يناقش ويقترح ويسجل موعد الاجتماع المقبل للمكتب، ـ كعادته ـ ونظرت بحسرة إلى المقاعد الشاغرة الأخرى، للإخوة الأستاذ المجاهد محمد إبراهيم الكتاني والأستاذ المربي محمد الأخضر الذين ودعناهما منذ سنتين، والأستاذ الناقد محمد بن تاويت التطواني الذي غاب عنا في مطلع هذه السنة 1993، والفيلسوف الكبير محمد عزيز الحبابي، والمؤرخ القدير محمد زنيبر الذين ما زالت أصداء فقدهما ترن في الآذان.

كانت سيرة الفقيد العزيز عبد الرحمن القادري تذكرني دائماً بالحديث الذي استهل به المبرد كتابه **الكامل** في اللغة والأدب وأعتبره جماع مكارم الأخلاق، وهو قوله عليه السلام مخاطباً الأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلُّون عند الطمع»، كان مضمون الحديث خلقاً سوياً وسلوكاً طبعياً عند الراحل الكريم عبدالرحمن القادري، يُستدعَى ـ في نطاق الأعمال الوطنية والثقافية والاجتماعية ـ للمشاركة في اجتماعات مطولة، والاضطلاع بأعباء ثقيلة، وتحرير تقارير وبحوث تقتضي طبيعتها التنقيب في المصادر والمراجع الدفينة أو المبعثرة، فيستجيب وينجز ما طلب منه بكل عناية ودقة متناهية في

الوقت، أما الأجر والمكافأة فهذا ما لم يكن يخطر له ببال، بل لم أره قط يناقش مسألة مادية خاصة به.

اكتسب الأخ الفقيد ـ رحمه الله ـ بسبب تخلقه بهذه الأخلاق الفاضلة صراحة فائقة، وشجاعة نادرة، عرف بهما لا سيما في القضايا الوطنية.

كان يتابع دراسته العليا حين اشتدت الأزمة السياسية المغربية في بداية الخمسينات وألقي القبض على قادة الحركة الوطنية ومن ضمنهم عمه المجاهد الأستاذ أبو بكر القادري فأصبحت بذلك مدرسة النهضة الحرة بسلا في مهب الرياح. طلب منه عمه السجين أن ينوب عنه في إدارة المدرسة والحفاظ عليها، فلم يتردد في قبول هذه المهمة، منقطعاً عن متابعة دراسته العليا بالرغم على النصائح المضادة بل الأوامر التي ما كان له أن يعصيها لولا إيمانه الراسخ بضرورة «الحضور عند الفزع». وكانت له خلال فترة النيابة هذه مواقف مشرفة جريئة في مواجهة السلطات الاستعمارية لا يتسع المقام للحديث عنه.

تجلت هذه الشجاعة مرة أخرى عندما انتخب المرحوم عبد الرحمن القادري رئيساً لاتحاد طلبة المغرب، وأصبح يسير هذه المنظمة المكافحة بعزم وثبات، في ظروف داخلية دقيقة. ومواقفه البطولية في الذود عنها والدفاع عن حقوق الطلبة شهيرة معروفة.

بعد أن حصل الفقيد العزيز عبد الرحمن القادري بميزة على دكتوراه الدولة من كلية الحقوق والعلوم الاقتصادية بجامعة باريز، قضى شطراً مهماً من حياته كأستاذ جامعي في كلية الحقوق بالرباط، محافظاً دائماً على القيام بواجباته التعليمية في المواعد المحددة لها. أخبرني ـ وهو الصادق ـ أنه كان يدخل القاعة أو المدرج دائماً قبيل الوقت ليشرع في إلقاء الدرس عند حلول الساعة بالضبط ويحضر إلى العمل بنفس الانتظام ولو أصابته وعكة صحية، فإذا اشتدت واضطر إلى التغيب عوض الحصة أو الحصص التي فاتته بأمانة، دون أن يقدم ولو مرة واحدة، أية شهادة طبية تعفيه قانونياً من العمل لمدة معينة. وأكاد أجزم أنه لا يوجد أستاذ آخر في مختلف الجامعات ـ قضى في التدريس ما قضاه الأستاذ عبد الرحمن القادري من سنوات ـ يخلو ملفه الإداري من رخص طبية.

ورغم تقدمه في رتب الأستاذية وكفايته وسنه لم يكن يقبل الاقتصار على تأطير طلبة السلك الثالث والدكتوراه، ويأبى إلا أن يستمر في التدريس لطلبة سنوات الإجازة على كثرتهم متجشماً مشاق التدريس والتصحيح. وإلى ذلك كله لم يسع ـ أو لم يقبل ـ أي منصب إداري يريحه ويوسع شيئاً ما من رزقه المحدود. قانعاً بإرضاء ضميره ورضى طلبته وغبطتهم بأستاذهم المثالي.

علق المرحوم الأستاذ عبد الرحمن القادري على مؤلفات تعليقات ضافية نقدية قانونية عديدة في مجلة الكتاب المغربي، وحرر مواد مهمة في الأجزاء الستة الصادرة من معلمة المغرب، فكتب عن الاتحاد الاشتراكي، والاتحاد الوطني للقوات الشعبية، والانتخابات، والمهدي ابن بركة، والبرلمان، وعبد الرحيم بوعبيد، وإذا كانت كل هذه الكتابات تصطبغ بصبغة الموضوعية والعمق والمقدرة، فإن مجال الكلام في الانتخابات والبرلمان كان أفسح لتخصصه ـ رحمه الله ـ في القانون الدستوري بحثاً وتدريساً وممارسة سياسية. لذلك اضطررنا آسفين حتى لا نجاوز السقف إلى حذف فقرات غنية بالمعلومات القانونية العامة والملاحظات التطبيقية الخاصة. ومع ذلك بقيت مادتا الانتخابات والبرلمان من أفيد وأمتع ما كتب في المعلمة تحريراً وبيبليوغرافياً.

من مؤلفاته المنشورة:

- الوجيز في المؤسسات السياسية والقانون الدستوري (النظم السياسية).
- دراسة حول اللامركزية والإصلاح الإقليمي أو الجهوي.
- القضاء الدستوري في فرنسا منذ بداية سنة 1959 إلى أوائل 1981.
- القضاء الدستوري في الجمهورية الألمانية الاتحادية وفي المغرب من خلال اجتهادهما القضائي.
- القانون الإداري المقارن والقانون الإداري المغربي: دراسة حول النظام الياباني.
- دراسة مفصلة ومعمقة حول النظام الفرنسي.
- الحياة السياسية في الأقطار النامية: التجربة المصرية، والتجربة الغانية المجموعة الفرنسية.
- القانون الدستوري والمؤسسات السياسية (الجزء الأول).

دار الغرب الإسلامي

بيروت . لبنان

لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود

تلفون السابة: 340131/ تلفون مباشر : 350331 ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P :113-5787 Beyrouth, LIBAN

رقم 277 / 500. / 3 / 1995

التنصيد : كومبيوتايب - بيروت

الطباعة : دار صادر ، ص. ب. 10 - بيروت

Introduction

De par la nature de ses fonctions universitaires, l'enseignant-chercheur est convié à participer à des rencontres culturelles. Aussi est-il sollicité pour présenter des communications et élaborer des articles en d'autres occasions. Certains de ses travaux sont publiés, d'autres demeurent à l'état de manuscrits.

Or, depuis que j'écris, je me suis rarement soucié de garder des copies de mes articles et encore moins de les classer, à l'exception de ce qui en restait comme doubles dactylographiés ou de brouillons ayant échappé à la destruction.

Quand j'en pris cependant conscience après un long "assoupissement de jeunesse", je constatai que les années se sont écoulées sans que je ne m'en rende compte, que les repères du passé s'estompaient, s'effaçaient, alors que mes travaux - en dépit de leur modestie - s'accumulaient et s'interpénétraient au point où le rappel de leurs circonstances et de leurs références, est devenu difficilement réalisable.

Sur l'insistance de Mr. Habib Lamsi, Directeur de la Maison d'Edition Dar al-Gharb al-Islâmî à Beyrouth, j'entrepris des recherches dans d'anciennes revues et des dossiers dans le but de retrouver mes anciens écrits.

Un premier bilan m'a permis de constituer une œuvre intitulée "Jawalât târîkhiya" ou *Périples à travers l'Histoire*. Il s'agit là d'une série d'articles qui traitent de questions politiques, sociales, culturelles, concernant l'Histoire du Maroc à travers les siècles et celle des pays avec lesquels il fut plus ou moins lié, comme l'Andalousie, le Maghreb et autres contrées. Les articles ainsi rassemblés n'ont pas d'unité chronologique, et leur élaboration couvre la période allant du début des années soixante à nos jours. J'ai relu ces textes et j'en ai amendé le contenu chaque fois que cela m'a paru nécessaire ; je les ai réunis et classés en huit chapitres présentant quelque homogénéité entre eux, en signalant en marge, éventuellement, les références de leur publication.

Si la publication de cette œuvre est à même de satisfaire un vœu naturel en préservant les acquis, quel que soit le degré de leur importance, mon souhait n'en demeure pas moins assez fort que les étudiants et tous les lecteurs désirant avoir quelques aperçus sur l'Histoire du Maroc, y trouveront une matière utile et enrichissante.

Salé, le 1er Mars 1994

Mohamed Hajji

COPYRIGHT © 1995

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
B. P. 113-5787 BEYROUTH

Tous droits réservés. Il est absolument interdit de reproduire ce livre ou le conserver dans le but de prendre les informations, ou le transformer d'une manière ou d'une autre soit à l'aide d'une photocopieuse, suivant des cassettes magnétiques, des moyens mécaniques ou électriques sans l'autorisation écrite de l'éditeur.

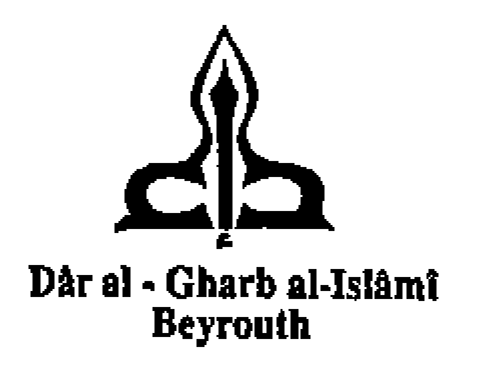
Cette représentation ou reproduction, par quelque procédé que ce soit, constituerait une contre-façon sanctionnée du code pénal.

Association des Auteurs Marocains pour la Publication

Périples à travers l'Histoire

1

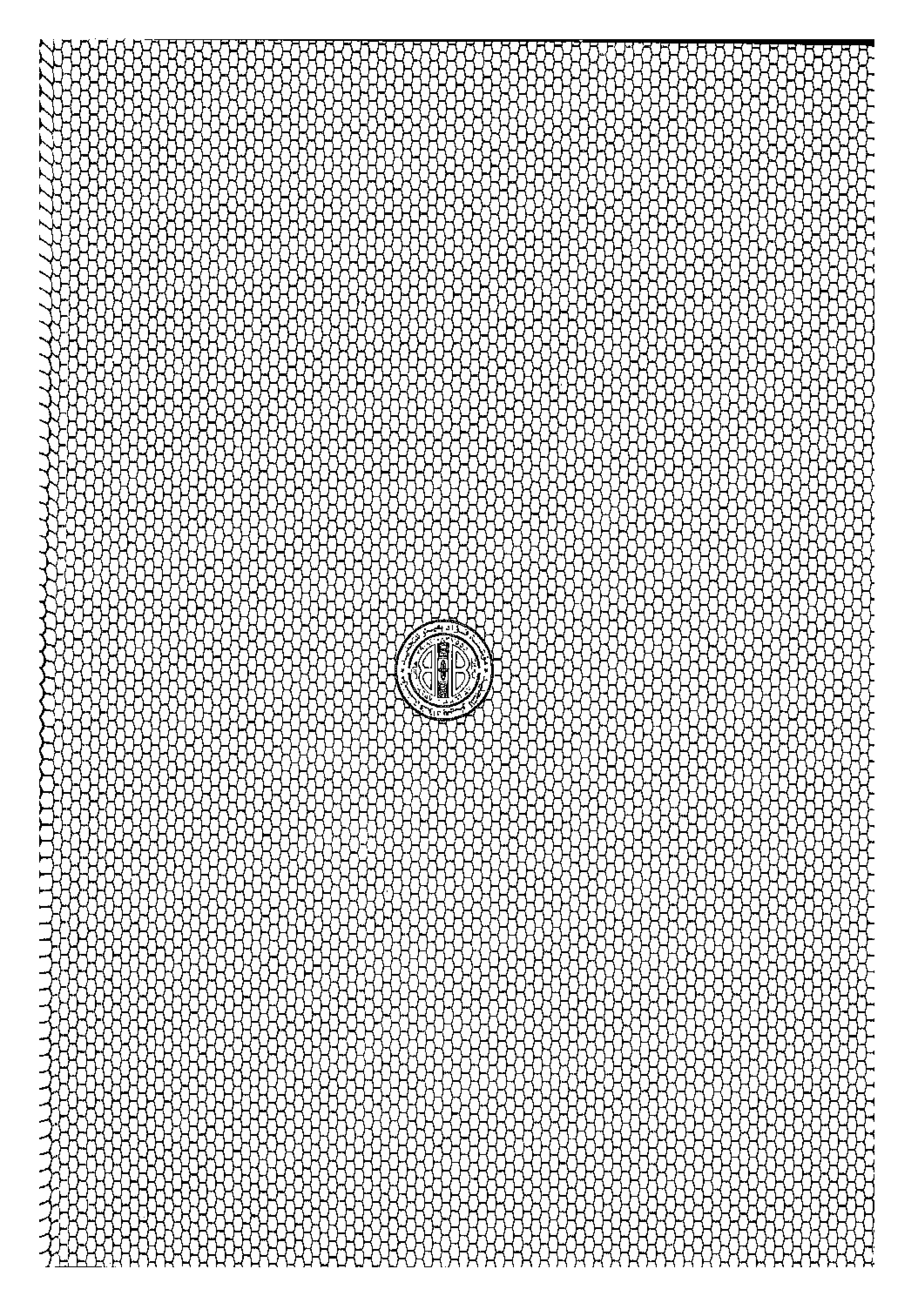
Hajji Mohamed
Doyen honoraire de la Faculté des Lettres
Université Mohammed V - Rabat

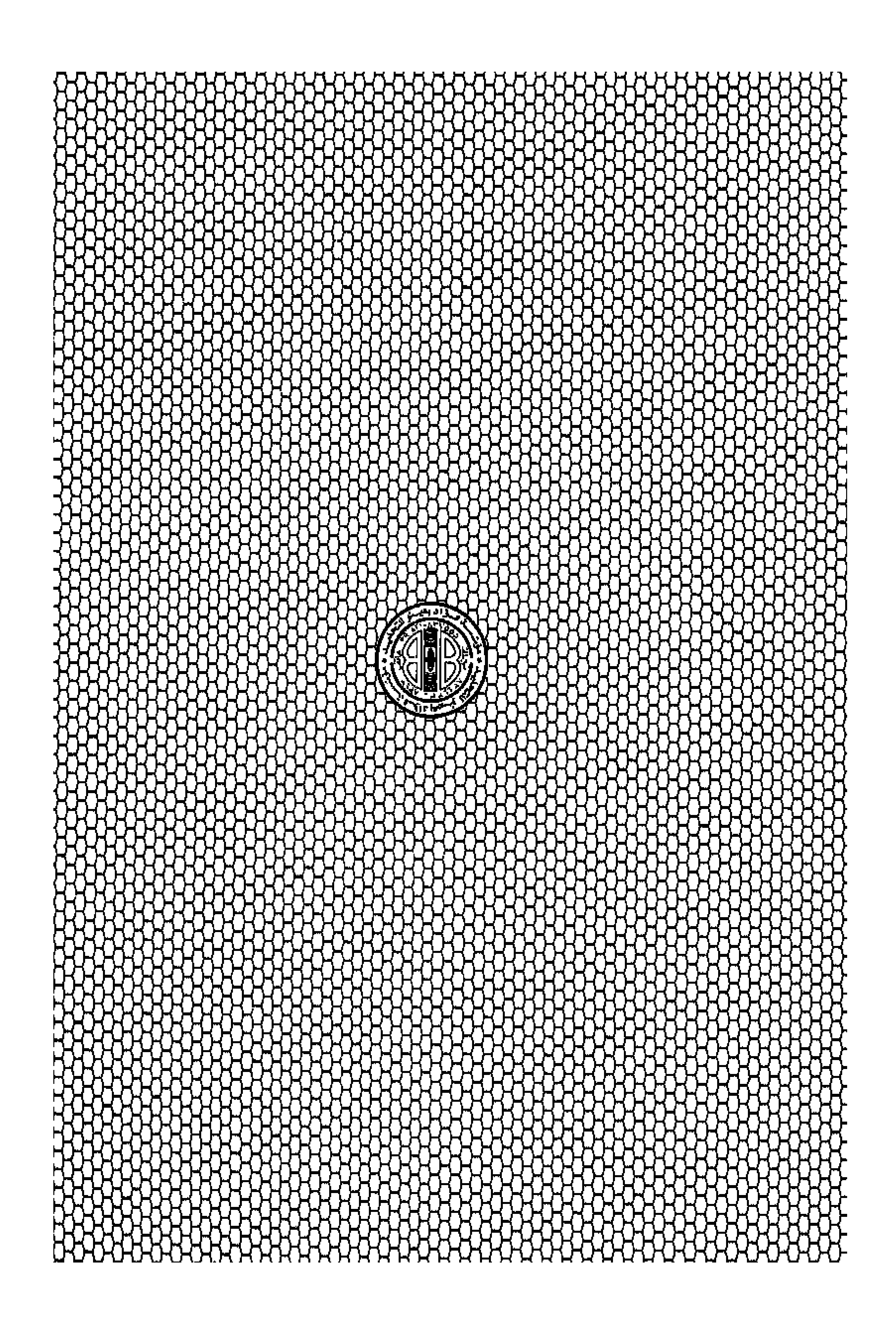


Dâr al - Gharb al-Islâmî
Beyrouth

Périples à travers l'Histoire

1



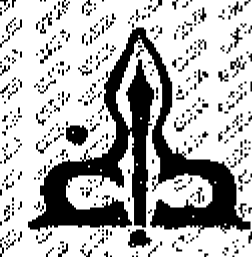


Association des Auteurs Marocains pour la Publication

Périples à travers l'Histoire

1

Hajji Mohamed
Doyen honoraire de la Faculté des Lettres
Université Mohammed V - Rabat



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI